المشروع القومى للترجمة

سيرة الفاروق

تأليف
شمس العلماء
شبلى النعمانى

ترجمة
جلال السعيد الحفناوى

راجع المادة التاريخية
عبد الله عبد الرازق إبراهيم



٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب:

الفاروق

یعنی حضرت عمر رضی اللہ عنہ کی مفصل سوانح عمری

مؤلفہ

جناب شمس العلما مولنا شبلی نعمانی

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعد شبلى النعمانى (١٨٥٧ - ١٩١٤ م) من الشخصيات الأدبية البارزة فى شبه القارة الهندية ، فقد كان كاتبًا للسيرة ومؤرخًا وناثرًا وشاعرًا وناقدًا ومصلحًا بالإضافة إلى دوره الرائد فى الحركة الثقافية والفكرية والإجتماعية فى الهند وقد شهدت هذه الحقبة تصارع فى الأفكار والأيديولوجيات بين أنصار التعليم الدينى القديم وأنصار العلوم الحديثة التى نادى بها الانجليز وقد ترتب على ذلك ظهور « ندوة العلماء » كإتجاه توفيقى بين هذين الإتجاهين وكان شبلى على رأس المؤسسين لهذه المدرسة ومديرها الأول .

وترك لنا شبلى النعمانى ثروة فكرية وأدبية ضخمة تنوعت موضوعاتها واللغات التى كتبت بها مثل السيرة والفلسفة والكلام والأدب والرحلات والتاريخ والتعليم والشعر والنقد إلى جانب مقالاته فى المجلات والصحف وتضم موضوعات سياسية وإجتماعية وأدبية شتى ، وكتب شبلى هذه المؤلفات بثلاث لغات هى : الأردية والفارسية والعربية ، وكتب شبلى عدة مقالات بالعربية نشرت فى مجلة الهلال المصرية ، كما نشر له رشيد رضا صاحب المنار سلسله من المقالات فى مجلة المنار وجمعت بعد ذلك فى كتاب « الانتقاد على التمدن الإسلامى لجورجى زيدان » وصدر عن دار المنار بالقاهرة .

وقضى شبلى حياته مدافعًا عن أفكاره وشغلته قضية التعليم والمدارس العربية وإصلاح المناهج وتطوير التعليم وتعدى اهتمام شبلى بهذه القضية حدود الهند إلى الدول الإسلامية التى زارها - تركيا ومصر والشام - حيث اهتم بزيارة المدارس والكليات والمكتبات فى هذه البلاد وحرص على إجراء مناقشات طويلة مع رموز الفكر والتعليم فى مصر بصفة خاصة واهتم كذلك بقضية تطوير التعليم فى الأزهر .

وكان اعتمادى فى ترجمة سيرة « الفاروق » على طبعة معارف أعظم كره عام

١٨٩٨م وهى طبعة قديمة غير محققة [1] . ولقد حرصت على أن أترجم الحواشى كما هى وكما ذكرها شبلى فى متن النص الأردى وأشرت إلى ذلك بكلمة المؤلف بين قوسين أما التحقيق والتوثيق والتعليقات فقد وضعت أمامها كلمة المترجم . وقمت بترتيب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الملاحق حسب ورودها فى النص الأردى ، حيث لم يكن شبلى يذكر الآية كاملة فآثرت أن أكملها - بعد الإشارة إلى ذلك - حتى لايحدث لبس أو غموض فى معانى السياق وقد عانيت كثيرًا فى تخريج الأحاديث النبوية خاصة وأن شبلى ترجم هذه الأحاديث باختصار شديد إلى اللغة الأردية ولم يذكر حديثًا واحدًا منها باللغة العربية وربما كان عذره فى هذا أنه يكتب لمسلمين لا يعرف غالبيتهم اللغة العربية .

وقد واجهتنى مشكلة خاصة بترجمة النصوص التاريخية والأقوال المأثورة فهى فى الأصل عربية ترجمها شبلى إلى الأردية فآثرت الرجوع إلى هذه الأصول لإثبات مواضع الإقتباس والنقل من النصوص الأصلية .

وتحدث شبلى فى مقدمة « الفاروق » عن منهجه الذى اتبعه فى تأليف هذه السيرة وذكر المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة سيرة الفاروق وبصفة خاصة سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد ومعارف ابن قتيبة وتاريخ البيهقى وصحيح البخارى ومسلم وكان دقيقًا فى توثيق المراجع التى رجع إليها .

وقد حاول شبلى فى سيرة الفاروق أن يقارن بين طريقة التأريخ قديمًا وحديثًا وقد استفاد فى هذه المقارنة بمناهج النقد الغربية الحديثة ، وتتبع تطور فن السيرة والتراجم عند المسلمين من سيرة ابن هشام حتى السير الحديثة التى كتبت فى عصره . ويعتبر شبلى السيرة نوعًا من الصنعة الراقية التى تعتمد فى المقام الأول على الحقيقة والصدق .

ويتسم أسلوب شبلى بالبساطة وعدم التعقيد وقوة البيان والاختصار والإيجاز كما أن الإحساس بالكمال فى لغة خطاب شبلى ظاهرة ملموسة فى كل مؤلفاته ، ويختار الأسلوب الفلسفى والميل إلى السخرية ونجد فى كتاباته صور متنوعة للأسلوب الوصفى

---

(١) للمترجم دراسة حول سيرة الفاروق . انظر : فن السيرة فى الأدب الأردى - دار النشر للجامعات - القاهرة ١٩٩٨

والاستدلالى والبيانى . وترجمت سيرة « الفاروق » إلى الإنجليزية والفارسية والتركية والهندية .

وفى النهاية أقدم شكرى الجزيل لمولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى مدير ندوة العلماء بلكنهو بالهند والعالم الجليل الذى قام بمراجعة « الفاروق » كما كانت لملاحظات الدكتور عبد الله عباس الندوى مدير التعليم بالندوه عظيم الأثر فى خروج هذه الترجمة بالصورة التى عليها الآن .

وشكرى الخالص للذين مدوا لى يد العون عند ترجمه « الفاروق » وعلى رأسهم مولانا محمد الرابع الندوى ومولانا شمس الحق الندوى ومولانا خالد غازيبورى الندوى .

وأقدم شكرى وامتنانى للأستاذ الدكتور عبد الله عبد الرازق إبراهيم أستاذ التاريخ ووكيل معهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة لتجشمه عناء المراجعة التاريخية لسيرة « الفاروق » .

جلال السعيد الحفناوى

آداب القاهرة

الترجمة العربية
لسيرة الفاروق
الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب « الفاروق » الذى عمت شهرته سائر أنحاء الهند قبل أن يظهر إلى حيز الوجود ، ويتردد اسمه على الألسنة ، فى البداية ورد اسمه ضمنيًا فى مقدمة الطبعة الأولى « للمأمون » ، وبعد ذلك ، مع أن المؤلف آثر جانب الصمت تجاهه تمامًا إلا أنه كان فى الاسم نوع من التشويق والجذب بحيث ذاع صيته تلقائيًا . ولم أنته من إعداد الأجزاء الأولى منه بعد حتى ترددت كلمة « الفاروق » على لسان كل طفل فى أرجاء الهند .

ومن ناحية أخرى فقد وقعت عدة أحداث أعاقت تأليف « الفاروق » وظهرت أعمال أخرى بدلاً منه ، وفى تلك الأثناء ظهر للمؤلف عدة مؤلفات ونشرت ، لكن العيون التى كانت تنتظر موكب « الفاروق » الجليل أنّى لها أن تقنع بتجلى نور موكب آخر ، ومن سوء الصدف أن عنت لى بعض الأسباب فمال قلبى عن « الفاروق » . وبسبب هذه الأسباب كدت أرفع يدى عن هذا الكتاب لكن الأصوات كانت ترتفع بقوة فى أنحاء الهند بحيث كنت أضطر أن أمسك بالقلم بعد أن قد وضعته . وأخيرًا قررت قرارًا حاسمًا وبدأت فى هذا العمل بطريقة منظمة ومستقلة فى ١٨ أغسطس ١٨٩٤م . وقد ظلت مهام الوظيفة والموانع الطارئة تعترض طريقى من آن لآخر ، وقد توقفت عدة مرات لبضعة شهور ، ومع هذا فإن سلسلة العمل لم تقف مطلقًا واستمر العمل شيئًا فشيئًا حتى اجتزت هذه المرحلة اليوم بعد أربع سنوات كاملة واستراح هذا المسافر (*) حامل القلم لأيام قليلة .

(*) يقصد المؤلف شبلى النعمانى (المترجم) .

حمدًا لله أن وصل هذا الساعى   ورسازورق الفكر أخيرًا على الساحل

وينقسم هذا الكتاب إلى جزأين ، فى الجزء الأول - علاوة على التمهيد - سرد للأحداث التى حدثت وفتوحات الدولة منذ ميلاد عمر وحتى وفاته - وفى الجزء الثانى تفصيل لأعماله الدينية والإدارية والسياسية وصفاته العلمية وأخلاقه وعاداته الشخصية وهذا الجزء كان ساحة لسعى المؤلف وجهده .

وقد قمت بتصحيح الملازم وترتيبها بنفسى ولم أترك أى جهد إلا وبذلته فى سبيل ذلك ، ولكن بعد التجارب المتعاقبة يجب أن أعترف بهذا الأمر وهو أننى لست فارسًا فى هذا الميدان ، فعند قراءة الملازم تعجز عيونى عن التقاط الأغلاط ولا أستطيع أن أتلافى هذا الأمر ، ولكن لو سمح لى صاحب المطبعة أن أتجرأ بالقول بأن هذا الخطأ ليس خطئى وحدى بل يشاركنى فيه أناس آخرون ، فإنى على كل حال قد ألحقت بنهاية الكتاب قائمة [(١)] بالأخطاء التى يمكن أن تعتبر كفارة للخطأ .

وسيبدو فى هذا الكتاب طريقة جديدة لكتابة بعض الكلمات ، فمثلاً فى حالة الإضافة / جاءت « مكة » و« مدينة » بدلاً من « مكى » و « مدينى » وفى حالة الجمع جاءت « موقع » و« مجمع » بدلاً من - المفرد - « موقع » و« مجمع » إلا أن هذه لم تكن طريقتى فى الكتابة بل طريقة الناسخ ، فإنه لم يوافق بأى حال من الأحوال على أن يكون العمل خلافًا لطريقته فى الكتابة .

وظل واضحًا أن هذا الكتاب يدخل ضمن فهرس كتب السلسلة الآصفية ، لكن يجب أولاً معرفة حقيقة هذه السلسلة الآصفية وماهيتها .

إن صديقى العزيز شمسى العلماء مولانا سيد على بلجرامى المحترم تعرفه الهند كلها بجميع ألقابه ، فكما أنه موظف كبير ومترجم عظيم ولغوى فذ فإنه بجانب هذا محب للعلم شغوف به وراع للعلوم والفنون وناشر لها وهذا الوصف الثانى قد حمله على أن يلتمس خدمة السير نواب [(٢)] محمد فضل الدين خان إسكندر جنگ ، إقبال الدولة ،

---

(١) لم أجد هذه القائمة فى نهاية الكتاب كما ذكر شبلى ويبدو أنها خطأ آخر يضاف إلى أخطاء الطابع (المترجم) .

(٢) « نواب » لقب يطلق على أمراء المسلمين فى الهند يقابله لقب « راجا » للأمراء الهندوس (المترجم)

إقتدار الملك ، وقاز الأمراء ، وفارس المملكة الهندية وزير الدولة الآصفية خلدها الله تعالى .

وكان ذلك فى حضور نور رستم وأفلاطون العصر وفلك البلاط وقائد الجند وفاتح البلاد ونصر المعركة نواب مير محبوب على خان بهادر نظام الملك آصف جاه سلطان الدكن أدام الله ملكه فقد قدم طلبًا لتقام تحت رعايته سلسلة للمؤلفات والتراجم العلمية تسمى باسم السلسلة الآصفية وتدخل فى نطاق هذه السلسلة كتب المرتبطين بالدولة الآصفية والتى تحوز رضاها .

٢ وقد كان سيادة النواب الممدوح منذ البداية يهتم بنشر العلوم والفنون وترويجها / وله مآثر ملموسة فى هذا الوقت أيضًا ، وعلى هذا الأساس وافق النواب على هذا الطلب بكل سرور ، وهذه السلسلة المباركة قائمة منذ عدة سنوات ، وكتاب شمس علمائنا « حضارة العرب » هذا الذى ذاع صيته فى العالم يعد من الجواهر الثمينة لهذه السلسلة .

وفى سنة ١٨٩٦م أعطى حضرة الممدوح لهذا المؤلف المتواضع وثيقة بمنحة شهرية وكتب فى تلك الوثيقة بأن تدخل جميع مؤلفاته ضمن هذه السلسلة ، وبناء على هذا فقد دخل هذا الكتاب المتواضع فى هذه السلسلة أيضًا .

وتشتمل نهاية الجزء الأول [١] على خريطة للعالم الإسلامى وقد لونت الفتوحات فى كل عهد بلون خاص منذ عهد الرسول ﷺ حتى عهد بنى أمية وبرؤيتها يبدو من أول وهلة لنا أى جزء من العالم دخل حظيرة الإسلام فى عهد أى خليفة ، وقد أعد هذه الخريطة فى الأصل أساتذة ألمانيا العظام ، ولكنها لم تكن متطابقة تطابقًا كاملاً وما ذكرناه فى كتابنا هذا لذا فإننى أشرت إلى هذه الاختلافات فى حاشية الكتاب الأصلى كل فى موضعه / . ٣

شبلى النعمانى
أعظم كَرط هـ
ديسمبر ١٨٩٨م

(١) ربما كان هذا خطأ مطبعى لأن الخريطة فى نهاية المجلد الثانى وليس الأول (المترجم) .



- الجزء الأول -

بسم الله الرحمن الرحيم

يا مَن تكمن جميع أسرارك وراء الحُجُب
ولا تدرك النهاية كُنه بدايتك

الحمدُ لله رب العالمين والصلاة على رسوله محمد وآله وأصحابه أجمعين .

تمهيد : -

*** عنصر التاريخ :**

إن كثيرًا من العلوم والفنون التى تظهر فى عهد المدنية توجد مادتها الأولى منذ البداية ، وتتخذ قالبًا موزونًا فى عصر الحضارة ، ثم تعرف بعد ذلك باسم أو لقب خاص بها ، فمثلاً كانت طرق الاستدلال وإقامة البنية موجودة دائمًا ويستعملها الخاصة والعامة على السواء ، لكن عندما رتب أرسطو هذه الجزئيات ترتيبًا خاصًا صار اسمها « المنطق » وأصبح فنًا قائمًا بذاته . وكذلك التاريخ والتذاكر من هذا النوع من الفن ، فحيثما وجدت جماعة الإنسان فى العالم كان التاريخ والتذاكر يتلازمان معها كذلك ، لأن الناس يذكرون بالطبع أعمال أسلافهم فى مواقع الفخر والمباهاة ، وهكذا كانت تذاكر المعارك والحروب الماضية بالضرورة فى المجالس لبث الحماس فيها وكانوا يقيمون أشياء فى ذكرى الرسوم القديمة لتقليد آبائهم وأجدادهم . وهذه الأشياء هى مادة التاريخ والتذاكر ، وبناء على هذا فإن العرب والعجم والترك والتتار والأفغان والمصريين واليونانيين وجميع أقوام العالم يستطيعون أن يدّعوا المنافسة فى المهارة فى فن التاريخ .

ميزة العرب : -

لكن على العموم هناك مزية خاصة بالعرب ، وهى أن العرب كان لديهم بعض الأمور الخاصة بهم التى كانت تتعلق بسلسلة التاريخ ولا توجد لدى الأقوام الأخرى ، فعلى سبيل المثال راج علم الأنساب بينهم حتى كان كل طفل يحفظ عشرة أو أحد عشر

جيلاً من أسماء آبائه وأجداده وعلاقاتهم فيما بينهم ، بل تجاوز الأمر حد أنساب البشر فكانت تحفظ أنساب الخيل والإبل . وهناك « أيام العرب » وكان يقام لها احتفال سنوى فى سوق عكاظ وبهذه الطريقة كانت المآثر القومية تتصل باستمرار إلى آلاف البشر .

أما الشعر فإن البدو كانوا رعاة إبل لا علاقة لهم بالقراءة والكتابة ورغم هذا كله كانوا لا يعتبرون العالم شيئًا مذكورًا أمام فصاحتهم وبلاغتهم ، والحقيقة أنهم كانوا يستطيعون أن يصوروا العواطف والأحداث بصدق وبساطة وربما لم ينل أى قوم فى العالم ما نالوه .

*** بداية التاريخ عند العرب :**

وبناء على هذا فإنه عندما بدأت الحضارة عند العرب كان أول ما ظهر إلى حيز الوجود هى الكتب التاريخية ، فقد دوّن ملوك الحيرة الأحداث التاريخية قبل الإسلام بزمن بعيد وقد صرح ابن هشام فى كتاب التيجان [١] « بأننى قد استفدت من تلك المؤلفات » وقد تكونت ذخيرة كبيرة من الروايات الشفاهية منذ بداية الإسلام لكن سلسلة التأليف ظهرت عمومًا بعد فترة ولذلك لم يكتب أى كتاب خاص فى هذا الفن ، وعندما بدأت سلسلة التأليفات كان أول كتاب ألف فى فن التاريخ .

ظهر فى عهد الخليفة معاوية المتوفى سنة ٦٠هـ رجل هو عبيد بن شريه ، وقد شهد الجاهلية وكان يتذكر أكثر معارك العرب والعجم فاستدعاه معاوية من صنعاء وعين له الكُتّاب وأمر أن يدوّنوا كل ما يقوله ، وقد ذكر العلاّمة ابن النديم عددًا من مؤلفاته من بينها كتاب عنوانه « كتاب الملوك وأخبار الماضيين » وهو - غالبًا - نفس الكتاب الذى تم إعداد مسودته بأمر من معاوية . وبعد عبيد يأتى ذكر عوانة بن الحكم المتوفى سنة ١٤٧هـ وكان خبيرًا بالأخبار والأنساب إذ وضع كتابًا فى « سيرة معاوية وبنى أمية » ، بشكل خاص علاوة على كتاب فى التاريخ العام . وفى سنة ١١٧هـ ترجم تاريخ مفصل للعجم من البهلوية إلى العربية بأمر من هشام بن عبد الملك ، وكان هذا أول كتاب يترجم إلى العربية عن لغة أجنبية .

(١) نسب شبلى كتاب « التيجان » لابن هشام الكلبى وهو من تأليف وهب بن منبه (المترجم) .

وفى سنة ١٤٣هـ عندما بدأ تدوين الفقه والحديث والتفسير وغيرها ، ألفت كتب مستقلة فى التاريخ والرجال إلى جانب العلوم الأخرى ، وكتب محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ كتابًا فى السيرة النبوية بصفة خاصة للمنصور العباسى وهو لا يزال موجودًا حتى الآن ويزعم مؤرخونا أن / هذا أول كتاب فى فن التاريخ ولكن الصحيح أن موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ قد سجل مغازى الرسول قبله وكان موسى رجل ثقة وتدقيق وحيطة وعاش فى عصر الصحابة ولهذا ينظر إلى كتابه هذا فى دائرة المحدثين بعين الاعتبار [١] .

٤

ثم تطور فن التاريخ بعد ذلك تطورًا عظيمًا وظهر مؤرخون مشهورون ، كان أشهرهم أبا مخنف الكلبى والواقدى فكتب هؤلاء الناس كتبًا فى موضوعات جديدة وجيدة ، فكتب الكلبى مثلاً رسائل مستقلة فى تلك الموضوعات : جيوش الإسلام ، وحرف قريش ، ومناظرات قبائل العرب ، وتوارد الأحكام فى الجاهلية والإسلام . وقد اتسعت دائرة التأليف تدريجيًا حتى أعد سجل ضخم فى القرن الرابع وأهم ما فى هذا الأمر أنه كان لكل كاتب موضوع وعنوان مختلفان .

(١) لمزيد من المعلومات عن موسى بن عقبة ، انظر تهذيب التهذيب ومقدمة فتح البارى شرح صحيح البخارى . (المؤلف) .

اسم المؤلف	الكتاب	الحالة
نجيح المدنى [1]	غزوات الرسول	
نصر بن مزاحم الكوفي	كتاب الجمل - ذكر وقائع حرب على وعائشة	
سيف بن عمر الأسدي	كتاب الفتوح الكبير	وهو مؤرخ مشهور [2]
معمر بن راشد الكوفى [3]	كتاب المغازي	كان أستاذ أساتذة البخارى
أبو البخترى وهب بن وهب	كتاب صفة النبى - كتاب فضائل الأنصار	توفى سنة ٢٠٠هـ
عبد الله بن سعد الزهرى ت سنة ٣٨هـ	فتوحات خالد بن الوليد	
أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله المدائنى ت سنة ٣٢٤ هـ		كتب كتبًا عديدة فى سيرة الرسول والخلفاء
أحمد بن حارث خزاز	كتاب المغازى ، أسماء الخلفاء وكتائبهم	تلميذ المدائنى
عبدالرحمن بن عبده	مناقب قريش	مؤرخ أمين وثقة
عمر بن شبه المتوفى سنة ٢٦٢هـ	كتاب أمراء الكوفة - كتاب أمراء البصرة	مؤرخ مشهور

(١) نجيح بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٧٠هـ تقريبًا (المترجم)

(٢) سيف بن عمر الأسدى الكوفى توفى فى عهد هارون الرشيد (تهذيب التهذيب : ٢٩٦/٤) (المترجم) .

(٣) معمر بن راشد الكوفى المتوفى ١٣٤هـ (تهذيب التهذيب : ٢٣٤/٥) (المترجم)

*** مؤلفات القدماء الموجودة الآن : –**

مع أن هذه المؤلفات مفقودة الآن إلا أن الكتب الأخرى التى ألفت فى تلك الفترة أو فى فترة قريبة بعدها تحتوى على كثير من أصول هذه المؤلفات ولهذا نذكر عناوين مؤلفاتهم وأسمائهم : –

* عبد الله بن مسلم بن قتيبة المولود سنة ٢١٣ هـ والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ وهو مؤلف مشهور وثقة / يثق المحدثون كذلك فى أمانته ونزاهته ، وله فى التاريخ كتابه المشهور « المعارف » وقد طبع ونشر فى مصر وغيرها ، ومع أن هذا الكتاب مختصر جدًا لكن فيه معلومات مفيدة لا نجدها فى غيره من الكتب . ٥

* أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ وهو مؤرخ معروف أيضا وكتابه فى التاريخ اسمه « الأخبار الطوال » يذكر فيه الأحداث حتى عهد الخليفة المعتصم بالله ، ويذكر بالتفصيل فتح بلاد العجم من بين فتوحات الخلفاء الراشدين وطبع هذا الكتاب فى ليدن بأوربا سنة ١٨٨٨ م .

* محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو مؤرخ ثقة أمين ومع أن أستاذه الواقدى ضعيف الرواية إلا أنه ثقة فى ذاته ولا يشك أحد فى كلامه وقد كتب كتابًا مفصلاً فى سيرة الرسول ﷺ والصحابة وتبع التابعين ويقع فى اثنى عشر مجلدًا يذكر فيه جميع الأحداث على طريقة المحدثين بسند صحيح وهذا الكتاب مشهور باسم « طبقات ابن سعد » وقد رأيت نسخة خطية منه ويطبع الآن فى ألمانيا باهتمام كبير .

* أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب العباسى وهو مؤرخ القرن الثالث ولم أجد سيرته فى كتب الرجال إلا أن كتابه نفسه يشهد أنه مؤلف كبير يستطيع أن يقدم ثروة جيدة للتاريخ لأنه كان مرتبطًا ببلاط الدولة العباسية وكتابه مشهور باسم « تاريخ اليعقوبى » / وطبع هذا الكتاب فى ليدن بأوربا سنة ١٨٨٣ م . ٦

* أحمد بن يحيى البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩هـ وهو تلميذ ابن سعد وكان من حاشية الملك العباسى المتوكل بالله وسلامة روايته وسعة أفقه مسلم بهما بين جماعة المحدثين وله كتابان مشهوران فى التاريخ وأسماء الرجال هما : فتوح البلدان وأنساب الأشراف ، وكان منهجه فى الكتاب الأول أنه أفرد عنوانًا منفصلاً باسم كل إقليم من أقاليم البلاد الإسلامية وكتب ما يتعلق به من أحوال من بداية الفتح حتى عصره ، والكتاب الثانى

على شاكلة كتب التذاكر ويتضمن سيرة عمر أيضًا ، وقد طبع فتوح البلدان بأوربا باهتمام شديد وقد اطلعت على نسخة خطية من أنساب الأشراف فى القسطنطينية .

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ ويُعد إمامًا فى الحديث والفقه ويعتبره الناس فى زمرة المجتهدين مع الأئمة الأربعة وقد ألف كتابًا ضخمًا ومفصلاً فى التاريخ ويقع فى ثلاثة عشر مجلدًا ، وقد طبع فى ليدن بأوربا مع اهتمام وتدقيق وصحة الطبع .

* أبو الحسن على بن حسين المسعودى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ وهو إمام من أئمة التاريخ ولم يظهر بين المسلمين حتى الآن أى مؤرخ له سعة أفقه ، وكان حاذقًا فى تاريخ الأمم والعالم ، ولو وجدنا جميع كتبه التاريخية فإننا لا نحتاج إلى أى مؤلف آخر ، لكن للأسف أن أكثر مؤلفاته فقدت لعدم تذوق الناس لها / وقد أعدت أوربا كتابين بعد تحقيق دقيق ، الأول كتاب مروج الذهب ، والثانى كتاب الإشراف والتنبيه وطبع مروج الذهب فى مصر أيضًا .

٧

*** حقبة المتأخرين : -**

الفترة التى ألفت فيها هذه الكتب يطلق عليها اسم « حقبة القدماء » ثم يبدأ عهد المتأخرين مع بداية القرن الخامس ، حيث تبدأ أولى خطوات التدهور فى فن التاريخ .

ومع أنه قد ظهر مؤرخون من المتأخرين لكن الذين نالوا الشهرة هم : ابن الأثير والسمعانى والذهبى وأبو الفدا والنويرى والسيوطى وغيرهم ، لكن للأسف فإن هؤلاء المؤرخين لم يضيفوا أى شىء إلى التاريخ من الناحية الفنية بل أضاعوا المميزات التى كانت للقدماء ولم يضيفوا شيئًا جديدًا .

*** خصائص القدماء : -**

من خصائص القدماء أن جميع مؤلفاتهم كانت تحتوى على معلومات جديدة ، أما المتأخرون فقد كان منهجهم أن يضعوا أى مؤلف قديم نصب أعينهم وألا يضيفوا إليه شيئًا على الإطلاق بل كانوا يبدلون قالبه بالتغيير تارة وبالاختصار تارة أخرى . يقول العلامة ابن خلكان عن تاريخ ابن الأثير إنه من خيار التواريخ والحقيقة أن شهرته العامة قد قضت على المؤلفات القديمة لكن من حيث المشاركة الزمنية لا نجد فيه ما يزيد عن

الطبرى ، وهكذا فإن المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن الأثير جعلوا منه وحسب محورًا لمؤلفاتهم وهلم جرا ، بل أكثر من هذا فإن المتأخرين الذين اختصروا كتب القدماء كان الحدث الذى تركوه على سبيل الاختصار هو روح الواقعة وسوف ترد أمثلة كثيرة على هذا فى الجزء الثانى من كتابنا .

٨ لقد كان من خصائص القدماء أن ينقلوا جميع الوقائع بسند متصل كالحديث/ وقد ترك المتأخرون هذا التقليد تمامًا . وخاصية أخرى من خصائص القدماء هى على الرغم من أنهم لم يفردوا عنوانًا مفصلاً للحضارة والحياة الاجتماعية فى عصر ما إلا أن هذه الجزئيات كانوا يكتبونها ضمنيًا فيتضح منها ما يتعلق بالحضارة والحياة الاجتماعية إلى حد ما ، ولم يبق المتأخرون بدورهم على هذه الخاصية .

أما اسم ابن خلدون فهو خارج عن دائرة التقيد العام فقد ابتكر فن فلسفة التاريخ ، ولا يغبطه على هذا المتأخرون فحسب ، بل المسلمون عامة ، كما أن تلميذه المقريزى أيضًا يستحق المدح والثناء بدلاً من النقد .

على كل حال فإن المادة التى يمكن أن تستخدم لتأليف « الفاروق » كانت هى نفسها مؤلفات القدماء لكن فى الحقيقة إن هذه الخزانة الثمينة لا تفيد كثيرًا فى هذه الناحية لأن فن التاريخ والتذاكر قد تطور اليوم كثيرًا . ولفهم تفصيل هذا الإجمال يجب أن نعلم أولاً ما حقيقة فن التاريخ وماهيته .

*** تعريف التاريخ : -**

عرف أحد الكتّاب العظام التاريخ بأنه « الأحداث الطبيعية التى تحدث تغيرات فى أحوال الإنسان والتأثير الذى يحدثه الإنسان فى عالم الطبيعة ، ومجموع كليهما يسمى التاريخ . ووصف أحد الفلاسفة التاريخ بأنه إدراك حقائق الأحداث والوقائع التى بإدراكها تظهر كيفية انبثاق العصر الحاضر عن العصر الماضى لأن من المسلم به أن ما هو موجود فى الدنيا من تحضر وحياة اجتماعية وأفكار ومذاهب هى جميعًا نتائج لأحداث ماضية تولدت منها بشكل تلقائى / لذا فإن معرفة تلك الأحداث السالفة وترتيبها على هذا النحو الذى يبدو منه كيفية ظهور الحدث الحالى من الأحداث الماضية يسمى تاريخًا . ٩

*** ما العناصر اللازمة للتاريخ ؟ : -**

وبناء على هذه التعريفات فإن هناك أمرين هامين للتاريخ ، الأول هو أن الحقبة

الزمنية التى ندونها يجب أن تسجل جميع أحداث هذا العصر ، أى تهيئ مادة المعلومات المتعلقة بكل شىء مثل : الحضارة ، والحياة الاجتماعية ، والأخلاق ، والعادات ، والدين . والأمر الثانى أن يتم البحث فى جميع تلك الأحداث عن السبب والمسبب .

*** عيوب كتب التاريخ القديمة وأسبابها : -**

وتفتقد كتب التاريخ القديمة إلى كلا الأمرين فلا تذكر أخلاق الرعايا وعاداتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية بينما تذكر أخبار حكام العصر وتقتصر على الفتوحات والحروب الداخلية فقط ، وينسحب هذا العيب على التواريخ الإسلامية فحسب ، بل هذا هو أسلوب كتب التاريخ فى آسيا بأسرها وهذا ما يقتضيه العدل ، فالممالك الشخصية والإمارات ظلت منتشرة فى آسيا بصفة دائمة وكانت جميع الأشياء تتضاءل أمام عظمة حاكم العصر وسلطته . ونتيجة لهذا لم تذكر على صفحات التاريخ سوى العظمة والجلال الملكى ولا شىء غير ذلك . ولأن القوانين والرسوم التى كانت فى ذلك الزمان كلها هى لسان الملك لهذا لم يكن هناك جدوى من قوانين المملكة . لقد كان السبب الأكبر لعدم الاهتمام ببحث الأسباب والعلل فى الأحداث هو أن فن التاريخ / ظل دائمًا يتناوله أناس لا علم لهم بالفلسفة والعقليات ، ولهذا لم تقع أنظارهم على أصول فلسفة التاريخ ونتائجه ولهذا السبب ظلت كفة الرواية فى الأحاديث والسير ترجح دائمًا بالدراية ، بل من العدل أن نقول إن الدراية لم تستخدم حق استخدامها . وفى النهاية أسس ابن خلدون فلسفة التاريخ وقنن أصوله وقواعده لكن لم تسنح له الفرصة لكى يستخدم تلك الأصول فى تاريخه ، ثم استمرت سلسلة التدهور العلمى قائمة عند المسلمين من بعده ، بحيث لم يفكر أحد فى هذا الأمر مطلقًا . ومن أكبر الأسباب التى بسببها لم يكتمل فن التاريخ ليس فقط عند المسلمين بل عند جميع الأمم ، هو أن الأحداث التى تذكر فى التاريخ كانت ترتبط بمختلف الفنون ، فمثلاً وقائع المعركة تتعلق بفن الحرب ، وتتعلق الشئون الإدارية بالقانون ، وترتبط التذاكر الأخلاقية بعلم الأخلاق ، فإذا كان المؤرخ خبيرًا بتلك الأمور فإنه يستطيع أن ينظر إلى الأحداث نظرة علمية وإلا كانت نظرته سطحية مختصرة مثله كمثل عامة الناس . ومثال على هذا أنه لو أن شخصًا يصف أى عمارة شاهقة وهو لا يعلم فن الهندسة فإنه سيصف هذه العمارة بأسلوب جذاب فيمثل من هذا الوصف أمام عين « القارئ » صورة لجمالها الظاهرى واتساعها وسموها ، لكن لا توجد هناك أية إشارة فى وصفه

١٠

للأصول العلمية الهندسية والدقائق المعمارية الخاصة بها . ولهذا السبب فإنه لا يمكن الحصول على أى أصل من أصول فن الحرب يعتمد عليه بعد قراءة آلاف الصفحات / ١١ فى كتب التاريخ عن وصف المعارك .

وهكذا ، لا يمكن معرفة الحيثيات القانونية عند ذكر الشئون الإدارية لأن المؤرخين أنفسهم ليسوا من علماء القانون ، ولو وقع فن التاريخ هذا الحسن الحظ فى أيدى أولئك الناس الذين يعرفون مبادئ القانون وأصول السياسة وعلم الأخلاق إلى جانب التاريخ لبلغ شأوًا عظيمًا .

*** معيار صحة الأحداث :**

يتعلق هذا البحث بناحية واحدة وهى أن الأحداث المهمة كلها لا تذكر فى كتب التواريخ القديمة ، وإن ذكر منها حدث فإنه لا توجد فيه سلسلة من الأسباب والعلل وهناك إلى جانب هذا بحث هام آخر هو إلى أى مدى يمكن الاعتماد على صحة الأحداث التى ذكرت فى هذه الكتب .

هناك طريقتان لتفحص الأحداث هما : « الرواية » و« الدراية » . والمقصود من الرواية هو بيان الحدث عن طريق ذلك الشخص الذى كان هو نفسه حاضرًا ومعاصرًا للحدث ، وتذكر الرواية بسند متصل حتى الراوى الأخير ، إلى جانب التحقق من أن جميع الرواة أكانوا صحيحى الرواية وضابطين لها أم دون ذلك ؟ والمقصود من « الدراية » هو أن تنقد الواقعة من ناحية القواعد العقلية .

ولا شك أن المسلمين يحق لهم أن يفخروا باهتمامهم بفن الرواية إلى الحد الذى لم يهتم به أى شعب غيرهم ، فكانوا يبحثون فى جميع الروايات عن السند المتصل ، وتعمقوا فى البحث والتفحص عن سيرة الرواة وأحوالهم جميعًا بحيث جعلوا منه فنًا مستقلاً بذاته يعرف باسم فن الرجال مع أن هذا الاهتمام كان قد بدأ فى الأصل مع العناية بالحديث النبوى / ١٢ إلا أن فن التاريخ لم يحرم أيضًا من هذا الفيض ، فالأحداث كلها قد ذكرت بسند متصل فى تاريخ الطبرى وفتوح البلدان وطبقات ابن سعد وغيرها ، أما الأوربيون الذين بلغوا بفن التاريخ اليوم أعلى درجات الكمال فإنهم فى هذا الأمر خاصة متأخرون عن المؤرخين المسلمين بمراحل ، فهم لا يهتمون بكون كاتب الواقعة ثقة أو غير ثقة وليس لديهم أدنى فكرة عن فن الجرح والتعديل .

إن قواعد الدراية كانت موجودة وقد استخدمها كل من ابن حزم وابن القيم والخطابى وابن عبد البر فى نقد العديد من الروايات ، لكن من العدل أن نقول إن هذا الفن لم يتطور كما يجب ، ولم يستخدم فى التاريخ حق استخدامه . ولا غرو أن العلامة ابن خلدون الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى قد رتب قواعد الدراية وأصولها بنقد صارم وبعد نظر عندما أسس فلسفة التاريخ كما ذكر فى مقدمة كتابه : -

« إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور » [1] / . . ١٣

وقد صرح العلامة المذكور بأنه لا يجب البحث فى جرح الرواة وتعديلهم للتحقق من الحدث فحسب ، بل يجب رؤية إمكان حدوث الخبر فى حد ذاته أم لا لأنه لو لم يكن هناك إمكانية وقوع الحدث لفقد عدل الراوى قيمته . وقد أوضح العلامة المذكور أيضًا أن المقصود من الإمكان فى هذه الوقائع ليس الإمكان العقلى بل المراد منه إمكانية حدوث هذه الوقائع حسب أصول العادة والتمدن .

والآن يجب مراعاة هذا الأمر وهو إلى أى مدى يمكن اليوم تحاشى العيوب التى تتعلق بكتب التاريخ القديمة والتى ذكرت من قبل فى كتابنا « الفاروق » .

إن هذا الأمر صحيح تمامًا وهو أن الكتب التى ألفت مستقلة عن سيرة عمر - رضى الله عنه - لا نجد فيها جميع أنواع الأحداث الهامة إلا أنه يمكن تلافى هذا إلى حد ما بالاستعانة بالمؤلفات الأخرى ، فمثلاً نستطيع أن نعرف كثيرًا من الأمور المتعلقة بأسلوب حكم عمر وقوانين إدارته من كتاب الخراج ومقدمة ابن خلدون والأحكام السلطانية لابن الماوردى . ويبدو من أخبار القضاة لمحمد بن وكيع أسلوبه فى إدارة القضاء خاصة . أما تفصيل أولياته فهو فى كتب الأوائل لأبى هلال العسكرى ومجالس الوسائل إلى أخبار الأوائل ، كما أن خطبه منقولة فى العقد الفريد (لابن عبد ربه) وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ويعرف ذوقه الشعرى من كتاب العمدة لابن رشيق ونقل الميدانى فى كتاب الأمثال مقولاته الفلسفية / . وذكر ابن الجوزى أخلاقه وعاداته ١٤

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ٢٩١/١ (والجملة ناقصة لم تكتمل) . (المترجم) .

بالتفصيل فى كتابه « سيرة العمرين » ، وقد اجتهد شاه ولى الله فى « إزالة الخفاء » فى بيان اجتهاده فى الفقه بحيث لا يمكن أن يضاف أى شىء إلى اجتهاده [(١)] وكانت هذه المؤلفات كلها أمامى وقد استفدت منها . وتوجد سيرة عمر بالتفصيل فى كتاب « الرياض النضرة » للمحب الطبرى وقد رجع شاه ولى الله إلى هذا الكتاب إلا أننى تجنبته عن قصد لأنه ذكر فيه كثيرًا من الروايات الضعيفة والموضوعة .

إن فى أصول الدراية عونًا كبيرًا على نقد الأحداث والوقائع وتحقيقها ، لقد أصبح فن الدراية فنًا مستقلاً وأحكمت قواعده وأصوله بطريقة جيدة . وسوف نستعمل فى بحثنا هذه الأصول : -

١) هل يمكن حدوث الواقعة المذكورة حسب أسس العادة أو لا ؟

٢) هل كانت الواقعة فى ذلك العصر موافقة لميول عامة الناس أو مخالفة لهم ؟

٣) إذا كانت الواقعة غير عادية إلى حد كبير ، فهل الشهادة المقدمة فى إثباتها تحتاج إلى إثبات قوى أو لا ؟

٤) البحث فى الأمر الذى يبديه الراوى فى الواقعة وما مقدار ما يحتويه من رأى الراوى وقياسه فيها / .

١٥

٥) هل الصورة التى وصفها الراوى للواقعة هى صورة كاملة للواقعة أو يحتمل أن الراوى لم يستطع أن يلقى بنظره على جميع جوانبها ، ولم تتراءى له جميع خصائص الواقعة ؟

٦) تقدير التغيرات التى طرأت على أسلوب أداء الرواة للرواية بسبب البعد الزمنى .

*** الأمور التى يمكن أن نعلمها من أصول الدراية : -**

لا يستطيع شخص ما أن ينكر أصول الدراية ، فعن طريقها يمكن أن يتضح كثير من الأسرار الدفينة ، فمثلاً معظم الكتب المتداولة اليوم من كتب التاريخ نُسب فيها

---

(١) يوجد فى مكتبتى من هذه الكتب نسخة خطية من كتابى العمدة والأوائل ، أما مخطوطات سيرة العمرين وأخبار القضاة « ومحاسن (*) الوسائل » فقد اطلعت عليها فى مكتبة القسطنطينية ونقلت منها العبارات الهامة ، أما باقى الكتب فقد طبعت وموجودة عندى . (المؤلف) .

(*) ذكر شبلى هذا الكتاب فى الصفحة السابقة باسم « مجالس الوسائل إلى أخبار الأوائل » (المترجم) .

لعمر أحكام شديدة جدًا تتعلق بغير المسلمين ، لكن لوحظ أن مؤلفات هذا العصر الذى ظهر فيه هذا التعصب بين جماعة المسلمين كانت على هذا النمط فى حين أن مؤلفات العهود الغابرة ليس فيها هذا النوع من الأحداث مطلقًا أو يندر وجودها ، ويتضح جيدًا من هذا أنه كلما ظهر التعصب فى الروايات ، صيغت الروايات فى قالب التعصب تلقائيًا ، فقد جاء فى جميع كتب التاريخ أن عمر كان قد طلب من النصارى عدم دق الناقوس فى أى وقت من الأوقات ، لكن ما يمكن أن نعلمه عن طريق قواعد الدراية فى الكتب القديمة مثل كتاب الطبرى والخراج وغيرهما أن هذه الرواية قد نقلت بشرط ألا يدقوا النواقيس فى الوقت الذى يصلى فيه المسلمون ، وقد ذكر ابن الأثير وغيره أن عمر كان قد أمر بألا تعمد قبيلة تغلب النصرانية أطفالها ، إلا أن هذه الرواية جاءت فى الطبرى بهذه الكلمات « الناس الذين اعتنقوا الإسلام لا يعمد أطفالهم بالإكراه » / .

١٦

أو على سبيل المثال فقد جاء فى كثير من كتب التاريخ أن عمر كان يجبر النصارى على ارتداء لباس خاص للتحقير والإذلال ، لكن يتضح بالتحقيق والتدقيق أن الواقعة كانت بهذا النحو : « أمر عمر النصارى باختيار زى خاص بهم » أما فكرة التحقير فمن قياس الراوى ، وسوف يأتى بحثه بالتفصيل فيما بعد .

أو مثل تلك الروايات التى لها صفة دينية إلى جانب كونها تاريخية فتتراءى فيها هذه الخاصية بوضوح فكلما زاد النقد فى هذه الروايات قلت فيها الأمور التى تثير الشكوك والشبهات . فقد نقل من ابن عساكر وابن سعد والبيهقى ومسلم والبخارى جميعًا أحداث فدك والقرطاس وسقيفة بنى ساعدة إلا أنه بقدر ما كان من فرق الدرجات بين هؤلاء العلماء فى شدة الحذر ، بدأت تتضاءل الكلمات التى تثير الاشتباه والنزاع حتى إن تأثر درجات الاختلاف موجود عند البخارى ومسلم أنفسهما ، لذا فإن بيان هذا أيضًا سوف يأتى بالتفصيل فى المكان المناسب .

وطبقًا للأسس والأصول العقلية فسوف ينشأ اختلاف فى درجات صدق الأحداث والوقائع المختلفة ، فمن المسلم به مثلاً أن وقائع خلافة عمر دونت بعد مائة عام وبناء على هذا يجب التسليم بأنه لا يمكن أن تصل التفاصيل الدقيقة جدًا للحروب والمعارك مثل كيفية ترتيب الصفوف والحوار بين الفريقين واستعداد كل محارب للمعركة ونزال الأبطال وتفاصيل هذا النوع من الجزئيات إلى درجة اليقين / .

١٧

أما الشئون الإدارية وأصول الحكم فقد ظلت موجودة فى صورة ملموسة فترة طويلة لذا فإن الوقائع المذكورة فى صددها هى بلا شك جديرة بالتصديق ، فالقواعد والقوانين التى طبقها الملك أكبر فى الهند يعرفها الجميع ولا يشوبها شائبة ولم يكن سبب ذلك أن لها روايات قطعية كالأحاديث ، بل لأن هذه التنظيمات ظلت قائمة فترة طويلة وكانت معروفة باسم أكبر .

ويجب أن يكون هذا القياس أيضًا بالنسبة لمقولات عمر الفلسفية المأثورة ، فإن الفقرات التى تبدو مؤثرة بليغة هى صحيحة حتمًا ، لأن العبارات الفصيحة للخطباء تحفظ وخاصة الأحكام الشرعية لأن الناس كانوا يحفظون هذا النوع من الأقوال كأمور فقهية .

ويأتى ذكر الأحداث التى كانت غير جديرة بالذكر إلى حد ما من حيث ذوق العصر وبالنسبة لها يجب إدراك أنه ربما كانت الواقعة الأصلية أكثر منها ، فمؤرخونا على سبيل المثال لم يتعودوا على وصف الشئون الإدارية وفى مقابل ذلك نراهم بارعين فى وصف المعارك وبيان جلالها ، ويجب الاعتقاد بأن ما ذكر ضمنيًا فى سيرة الفاروق عن القضاء والشرطة والإدارة وإحصاء الناس وغيرها من الأعمال قد ترك كثير منها عند التدوين . وهناك مئات من الروايات المذكورة عن غلظة عمر وخشونته وتقشفه ولا شك أن كثيرًا من هذه الصفات كانت موجودة عند الصحابة الآخرين ، لكن يجب الاعتقاد أن جميع الروايات المذكورة فى حلية / الأولياء وابن عساكر وكنز العمال ١٨ والرياض النضرة وغيرها من الروايات المتعلقة بهم صحيحة ، بل يجب معرفة أن هذا النوع من الروايات كان سببًا لإلهاب حماس المحافل عمومًا ويقبل على سماعه العامة بشغف لهذا زادت صبغة المبالغة تلقائيًا ، وتصديقًا لهذا فإن هذه الروايات توجد بندرة فى الكتب المعتد بها الموثوق فيها ، لذا فإن هذا النوع من الروايات التى أوردتها فى كتابى أخذت فيه جانب الحيطة وغضضت البصر تمامًا عن روايات الرياض النضرة وابن عساكر وحلية الأولياء وغيرها .

وأخيرًا يجب أن نذكر شيئًا عن أسلوب الكتابة ، فإن كتب التاريخ القيمة التى نالت القبول هى مزيج بين الفلسفة وفن الإنشاء وهو ليس بأسلوب هين ، إلا أن حدود التاريخ والإنشاء فى الحقيقة منفصلان تمامًا والفرق الذى بينهما كالفرق الذى بين الخريطة والرسم ، فرسام الخريطة من واجبه حينما يرسم أى منطقة من الأرض أن

يحيط بكل شىء فيها كحدود مراكزها وجهاتها وأشكالها وهيئتها وغيرها ، وعلى العكس من هذا فإن المصور يأخذ فى الاعتبار فقط هذه الخصائص التى تبدو أكثر وضوحًا فى الصورة والتى فيها إعجاز خاص وأكثر غرابة فتترك أثرًا على القوة الانفعالية للإنسان ، فمثلاً عندما يكتب أحد المؤرخين قصة رستم وسهراب فإنه سوف يصف جميع أجزاء الواقعة بطريقة بسيطة سلسة ، لكن الكاتب الأديب سوف يبين هذه الجزئيات بحيث تمر أمام الأعين صورة لندم رستم وحسرته وحزن سهراب وقلة حيلته ولن يلتفت إلى / باقى أجزاء الواقعة الأخرى . ١٩

فواجب المؤرخ الأساسى هو ألا يتجاوز بيان الحادثة كما هى ، لقد قال أحد الأساتذة هذه الكلمات فى مدح « رينكى » أعظم مؤرخ عاش فى أوربا فى العصر الحديث ومبتكر أسلوب تأليف التاريخ الحديث بأنه « لم يستخدم فن الشعر فى التاريخ ولم يناصر دولة ولم ينحز إلى شعب أو دين ، ولا يعرف بأى الآراء يسر وما هو رأيه الشخصى عند سرد أى واقعة » ومن الضرورى أن أنبه القارئ بأننى قد حاولت خلق سلسلة الأسباب والعلل فى الأحداث لكننى تجنبت « تطرف الغربيين » فى هذا الباب .

وقد استخدمت القياس فى أكثر المواضع لخلق علاقة الأسباب بالعلل ولا مناص للمؤرخ من الاجتهاد والقياس لكن من واجبه أن يمزج بين الاجتهاد والقياس فى الواقعة بحيث لا يستطيع أن يفرق بينهما أحد .

إن الأسلوب العام لمؤرخى الغرب هو أنهم يكتبون الواقعة بأسلوب وترتيب يتوافق مع اجتهادهم بحيث تصاغ الواقعة كلها فى قالب اجتهادهم فلا يستطيع أى شخص أن يفصل القياس والاجتهاد فى الواقعة .

وهناك عدة أمور جديرة بالملاحظة فيما يتعلق بقواعد تأليف هذا الكتاب وترتيبه :-

١) بعض الأحداث لها حيثيات مختلفة لذا يمكن أن تدخل تحت عناوين مختلفة ولهذا فقد تكرر هذا النوع من الأحداث فى الكتاب وكان من اللازم أن يحدث هكذا / ٢٠ أما العنوان الخاص الذى كتب الحدث تحته فقد أبرزناه بوضوح أكثر .

٢) ذكرت المصادر والمراجع غالبًا فى تلك الأحداث التى كانت فى حاجة إلى تحقيق من أى جانب .

٣) حينما ذكرت الكتب الأقل درجة من حيث الرواية مثل : إزالة الخفاء والرياض النضرة فمعناه أن رواياتها قد وثقت من الكتب المعتبرة والموثوق بها ، وخلاصة القول إن هذا الكتاب ظهر نتيجة البحث والتحقيق والجهد والعناء لسنوات طويلة أمام الأمة الآن .

أنا من ألزمت نفسى بالصمت طويلاً
من ذا الذى يدرى ماذا جنيت من المساومة خلف هذه الستارة
إن هذا الهيكل البديع الذى أود أن أظهره لأحبائى
قد تمتعت أيضًا بتذوقى قدرًا منه
إن المجلس لم يسترح بعد من أثر شرابه ليلة البارحة
وملأت الإبريق على كتفى بخمر أشد إسكارًا
وأريد أن تسرى الروح فى جسد الفكر بنفسى مرة أخرى
فأنا ذاك الذى استجديت الفيض من أنفاس عيسى
لقد كان الجليس يبحث عن دقائق الحكمة فى الشريعة
فأمليت عليه قدرًا من نسخة روح القدس
ذلك الحبيب العارف بالأسرار الذى لم يستطع أحد أن يجعله يسافر عن وجهه
قد فككت عقدة من قيد عباءته بفنونى
ما أكثر ما عبرت ذلك الطريق محملاً بالجواهر
فملأت صحارى المعانى جميعًا بلآلئ الياقوت / ٢١

* * *

الاسم والنسب ، سن رشده وتربيته

سلسلة نسب عمر هى : عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن فهر بن مالك [١]

والعرب - عمومًا - ينحدرون من نسل عدنان أو قحطان ، وتصل سلسلة نسب عدنان إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام ، وكان فهر بن مالك رجلاً عظيمًا مقتدرًا من بين الجيل الحادى عشر لعدنان فى هذه السلسلة واشتهر أولاده بلقب قريش ، وقد نال عشرة أشخاص من نسل قريش العزة والجاه لكفاءتهم ومقدرتهم ، وانتسبت إليهم عشر من القبائل المشهورة هى : هاشم وأمية ونوفل وعبدالدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسمح . وكان عمر من أولاد عدى ، أما مُرة الأخ الثانى لعدى فهو من أجداد رسول الله - ﷺ - وهكذا تلتقى سلسلة نسب عمر من هذه الناحية مع الرسول (ﷺ) عند الجد الثامن ولأن قريشًا كانت من مجاورى الكعبة لذا كان أهلها يتمتعون بجانب الجاه والجلال الدنيوى بمظلة العظمة والسلطة الدينية أيضًا ، ولهذا - لأجل اتساع نطاق علاقتهم مع الناس وزيادة أمرهم - تشعبت أعمالهم فعملوا بكل عمل مثل : حراسة بيت الله الحرام ورعاية الحجاج واختيار شيوخ القبائل والسفارة والفصل فى المنازعات ومجلس الشورى وغيرها من الأعمال ، وعدى الجد الأكبر لسيدنا عمر كان مسئولاً عن مهمة السفارة من بين هذه الأعمال ، أى عندما تواجه قريش قبيلة ما فى أمر من أمور / القبائل فإن عديًا يرسل إليها كسفير [٢] وهكذا كان يقوم بدور الحكم (الثالث) فى مجالس المنافرات ، فقد كان من عادة العرب أنهم حينما يدعى أحد تميزه على شخص آخر كانوا يندبون رجلاً عالمًا بالأمور للفصل بينهما وهكذا يبدأ مجلس المنافرة فيسرد هذا وذاك فضائلهما أمامه ليرجح كفة واحد منهما على خصمه . وكثيرًا ما كانت هذه المساجلات تمتد شهورًا طويلة . أما الذين كانوا يعينون للفصل بين الفئات

٢٢

---

(١) انظر : نسب قريش : ٣٤٧ ، وأسد الغابة : ١٤٥/٤ . والإصابة : ٤٥٨/٢ . ومعارف ابن قتيبة : ١٧٩ - ١٩٠ . المسعودى : التنبيه والإشراف : ٢٨٨ (طبعة ليدن) . والبلاذرى : أنساب الأشراف : ٥٥٧/٢ (المترجم) .

(٢) كل هذه التفاصيل موجودة فى العقد الفريد باب فضائل العرب . (المؤلف) .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد : ٢٣٦/٣ والإصابة : ٤٥٩/٢ (المترجم)

المتنافرة فكان مشهودًا لهم بالفصاحة وقوة البيان إلى جانب فهم حقائق الأمور وقد ورثت قبيلة عدى هذين المنصبين (أى السفارة والمنافرة) جيلاً بعد جيل .

*** جد عمر :**

كان نُفيل بن عبد العزّى جد عمر يؤدى هذه الأعمال بكفاءة عالية كأسلافه ولهذا كان رؤساء القبائل يقصدونه ليحكم فى قضاياهم ، وعندما تنازع عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ وحرب بن أميه على الإمارة ، رضيا كلاهما بحكم نفيل ، فحكم نفيل لعبد المطلب وخاطب حربًا قائلاً : « أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأوسم منك وسامة ، وأعظم منك هامة ، وأكثر منك ولدًا ، وأجزل منك صلة وإنى لأقول ، هذا وإنك لبعيد الغضب رفيع الصيت فى العرب ، جلد النذيرة تحبك العشيرة » [1] .

*** أولاد عم عمر :**

٢٣ كان لنفيل ابنان هما : عمرو والخطاب . وكان عمرو رجلاً خامل الذكر لكن / ابنه زيدًا – حفيد نفيل وابن عم عمر – كان رجلاً ذا شأن عظيم ومن مشاهير وجهاء القوم الذى ترك عبادة الأصنام باجتهاده قبيل بعثة رسول الله – ﷺ – وَعَبَدَ الله الواحد . وإلى جانب زيد كان هناك قس بن ساعدة وورقة بن نوفل أيضًا من أبناء عمه . وكان زيد ينكر عبادة الأصنام وتقاليد الجاهلية علانية ويرغّب الناس فى دين إبراهيم ولهذا عاداه كثير من الناس ، وكان الخطاب والد عمر أشدهم عداوة له ، وقد ضيق الخطاب عليه السبل حتى إنه اضطر فى النهاية إلى الخروج من مكة والإقامة فى حراء ، وبالرغم من هذا كان يأتى لزيارة الكعبة متخفيًا بين الحين والحين ، وأشعار زيد موجودة حتى الآن التى يمكن أن نقدر منها اجتهاده وصفاء ضميره ومنها هذان البيتان : –

أربًا واحدًا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

---

(١) أحوال زيد موجودة بالتفصيل فى أسد الغابة وكتاب الأوائل ومعارف ابن قتيبه (المؤلف) .
– أسد الغابة : ٢٩٥/٢ – ٢٩٦ . وأبو هلال العسكرى : الأوائل : ١٢٥ . وابن قتيبه : المعارف : ١٧٩ . البلاذرى : أنساب الأشراف : ٦٥٥/٢ (المترجم) .

تركت اللّات والعُزّى جميعًا كذلك يفعل الرجل البصير [١]

*** الخطاب والد عمر : -**

كان الخطاب والد عمر من وجوه قريش [٢] وقد استمرت العداوة زمنًا بين قبيلتى عدى وبنى عبد شمس ، ولما كانت قبيلة بنى عبد شمس تعد من القبائل الكبيرة / لذا كان النصر حليفها فاضطرت قبيلة بنى عدى بما فيها الخطاب إلى أن يأووا إلى كنف بنى سهم وعندما هددهم الأعداء بالحرب أنشد الخطاب هذه الأبيات : -

٢٤

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجالاً لا ينهنها الوعيد
رجال من بنى سهم بن عمرو ألا أبياتهم تؤوى الطريد

وهذه القصيدة فى ثمانية أبيات ذكرها الأزرقى كلها فى « تاريخ مكة » . وكان جميع بنى عدى يقطنون عند الصفا فى مكة لكن عندما أقاموا علاقة مع بنى سهم باعوا بيوتهم لهم ومع ذلك بقى للخطاب عدة منازل فى الصفا ومنها منزل ورثه عمر وكان هذا المنزل بين الصفا والمروة وقام عمر بهدمه أيام خلافته ليعد منه ساحة لينزل بها الحجيج . ومع هذا فقد ظلت بعض بيوت التجارة ردحًا من الوقت ملكًا لأسرة سيدنا عمر [٣] .

وقد تزوج الخطاب زيجات متعددة من أسر عريقة ، فكانت أم عمر اسمها ختنتمة [٤] ابنة ابن هشام بن المغيرة وكان المغيرة ذا مكانة عظيمة فى قريش ويتولى مهمة الاهتمام بالجيش عندما تخرج قريش لقتال أحد ، وقد لقب « بصاحب الأعنة » لهذا

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢٢٦/١ (المترجم)
(٢) كتاب المعارف لابن قتيبة (المؤلف) .
- ابن قتيبة : المعارف : ١٧٩ (المترجم) .
(٣) تاريخ مكة للأزرقى : ذكر رباع بنى عدى بن كعب . (المؤلف) .
- الأزرقى : أخبار مكة : ٨٥/١ (المترجم) .
(٤) الصواب : حنتمة ابنة هشام بن المغيرة . انظر : ابن حجر العسقلانى : الإصابة : ٤٥٨/٢ أيضًا : المسعودى : مروج الذهب : ٣١٣/١ (المترجم) .

السبب وكان سيدنا خالد (بن الوليد) حفيدًا له / وكان هشام بن المغيرة جد عمر لأمه ٢٥
أيضًا أحد وجهاء القوم .

*** ولادة عمر :**

ولد عمر قبل الهجرة بأربعين سنة طبقًا للرواية المشهورة فى ذلك ، أما ما يتعلق بولادته وطفولته فمجهول تمامًا ، وقد نقل الحافظ ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » إحدى الروايات على لسان عمرو بن العاص يقول فيها : « لقد كنت جالسًا فى اجتماع مع بعض الأحباب فإذا بالضجيج قد ارتفع فعلمت بأنه قد ولد ابن فى بيت الخطاب وعند الاستفسار عرف من هذا أنهم قد احتفلوا بولادة عمر بن الخطاب احتفالاً غير عادى » . والمعلومات عن فترة شبابه ضئيلة وغير معروفة أيضًا وكيف يمكن أن تكون معروفة فمن كان يفكر آنذاك أن هذا الشاب سيكون فيما بعد الفاروق الأعظم . وبالرغم من هذا فقد توفرت بعض المعلومات عنه بالبحث والتنقيب وربما تكون جديرة بالذكر هنا .

عندما بلغ سن الرشد كان العمل الذى اختاره له أبوه هو رعى الإبل ، وهذه المهنة لم تكن شائنة بين العرب بل كانت تعتبر شعارًا قوميًا ، إلا أن الخطاب كان يقسو عليه للغاية فقد كان يجعله يرعى الإبل طوال النهار وعندما يبلغ منه التعب مبلغًا ويريد أن يستريح كان يعاقبه والمرعى الذى كان يؤدى فيه عمر هذه المهنة الشاقة المضنية يدعى ضجنان وهو قريب من مكة المكرمة على بعد عشرة أميال من القديد وقد مر عليه عمر فى أيام خلافته يومًا فأخذته العبرة فقال وعيناه مغرورقتان بالدموع : الله أكبر ياللزمان الذى مضى لقد كنت أرعى الإبل فى مدرعة من لبدة الصوف وعندما كنت أجلس من التعب كان أبى يضربنى وقد أمسيت اليوم وليس فوقى أى حاكم سوى الله تعالى [١] / . ٢٦

وقد اشتغل عمر فى بداية شبابه بالأعمال الشريفة التى كان أشراف العرب يشتغلون بها بشكل عام ، فكانت الخطابة والمصارعة والفروسية ومعرفة الأنساب من الأشياء التى كان العرب يتعلمونها وتعتبر لازمة من لوازم الأشراف أما فن معرفة

---

(١) طبقات ابن سعد . (المؤلف) .

- ابن سعد : طبقات ابن سعد : ٢٦٦/٣ - ٢٦٧ ، أيضًا : الإصابة : ٤٧٢/٢ (المترجم) .

الأنساب فقد كانت تتوارثه قبيلة سيدنا عمر وقد صرح الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين بأن عمر وأباه وجده نفيل كانوا ثلاثتهم من كبار النسابين [1] وسبب هذا كما ذكرت من قبل أن أسرة عمر قد ورثت المنصبين : السفارة والمنافرة وكانت معرفة الأنساب من الأمور العامة للقيام بمثل هذه الأمور ، وتعلم عمر فن الأنساب عن أبيه وقد صرح الجاحظ أن عمر عندما كان يوضح أى أمر يتعلق بالأنساب كان يشير دائمًا إلى أبيه الخطاب كمرجع . أما المصارعة والفروسية فقد حذق فيها وبلغ درجة كبرى حتى إنه كان يتصارع فى حلبة سوق عكاظ . وعكاظ هذا كان موضعًا قرب جبل عرفات حيث يقام محفل لهذا الغرض كل عام ، وكان يتجمع فيه أهل الفن من العرب كلهم ليعرضوا فنونهم ، لذا فمن كانوا يقدمون أنفسهم هناك كانوا بارعين فى كل فن من الفنون ، فالنابغة الذبيانى وحسان بن ثابت وقس بن ساعدة والخنساء أولئك الذين كان العرب جميعًا يسلمون بهم فى الشعر والخطابة قد تعلموا فى هذه المدرسة ، وقد نقل البلاذرى فى كتاب الأشراف فيما يتعلق بعمر بسند صحيح / « أنه كان يتصارع فى حلبة سوق عكاظ » ويمكن أن نقيس على هذا بأن عمر قد نال درجة عظمى فى هذا الفن . وبالنسبة للفروسية فإن تفوقه فيها كان مسلمًا به عامة ، وكما ذكر الجاحظ فإنه كان يمتطى الفرس بعد أن يقفز عليه وسرعان ما يثبت عليه ويصبح جزءًا منه .

٢٧

وبالنسبة لقوة الخطابة والبيان فمع أنه لا يوجد هناك أى شهادة صريحة فيما يتعلق بخطابته ، إلا أن جميع المؤرخين قد أجمعوا على هذا الفضل وذكروا أن قبيلة قريش كانت قد وكلت إليه منصب السفارة قبل ظهور الإسلام وأن هذا المنصب كان لا يناله إلا الشخص الذى وصل فى قوة الخطابة وفهم الأمور إلى درجة عالية .

وقد ذكرت هذا الموضوع بالتفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، أما فى الشعر فقد كان عمر متذوقًا جيدًا للشعر وأنه قد حفظ نخبة مختارة من أشعار جميع الشعراء الفحول ، وقياسًا على هذا فإنه ربما يكون قد اكتسب هذا التذوق من مدرسة عكاظ فى الجاهلية لأنه بعد اعتناقه الإسلام شغل عن هذا بالأمور الدينية وابتعد عن هذه المشاغل لعدم ميله إليها .

---

(١) الكتاب المذكور طبعة مصـــر صفحة ١١٧ ، ١٢٢ . انظر : الجاحظ : البيان والتبيين : ٣٠٤/١ (المترجم) .

وكان عمر ممن تعلموا القراءة والكتابة فى عصره وهذه الميزة كان يمتاز بها أناس قليلون جدًا فى ذلك الزمـــان ، وقد كتب البلاذرى بسند أنه لم يكن فى قريش كلها حين بعث النبى غير سبعة عشر رجلاً يقرءون ويكتبون كان من بينهم[1] عــمر بن الخطاب / . ٢٨

وبعد أن انتهى (عمر) من تعلم هذه الفنون انصرف إلى التفكير فى البحث عن الرزق وكانت التجارة فى الغالب هى أكبر وسائل الرزق عند العرب لذا اختار هذا العمل الذى كان سببًا فى تكوين شخصيته فكان يذهب إلى البلدان البعيدة بهدف التجارة ويلتقى بعظماء القوم وقد ظهرت عليه ملامح الاعتزاز بالنفس وعلو الهمة والتجربة وقد اكتسب هذه الصفات كلها فى شبابه قبل الإسلام بسبب أسفاره وربما كانت أخبار تلك الأسفار جذابة ومفيدة للغاية ، لكن للأسف لم يهتم بها أى مؤرخ ، إلا أن المسعودى قد ذكر فى كتابه المشهور « مروج الذهب » هذا القدر فقط : -

« ولعمر بن الخطاب أخبار كثيرة فى أسفاره فى الجاهلية إلى الشام والعراق مع كثير من ملوك العرب والعجم وقد أتينا على مبسوطها فى كتابنا أخبار الزمان والكتاب الأوسط »[2] .

والكتب التى أشار إليها العلاّمة المذكور مع أنها كانت بمثابة روح فن التاريخ إلا أنها فقدت كلها منذ مدة من الزمن لفـــساد ذوق الناس ولهذا الغرض فإننى اطلعت على وقائع حياة عمر وبحثت عنها فى جميع مكتبات القسطنطينية ولكن لم أحرز أى نجاح / . ٢٩

وقد ذكر المحدّث ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » بعض الأحداث والوقائع لأسفار عمر وقد اطلعت على بعض المجلدات ولكن لم يكن فيها أى فائدة .

وخلاصة القول أن معارك عكاظ الأدبية والفنية وخبرات التجارة جعلته معروفًا بين العرب وأخذ معدن مقدرته وكفاءته يظهر للناس يومًا بعد يوم إلى أن فوضت إليه

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى : ص : ٤٧١ . (المؤلف) .

- البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٥٧ (المترجم) .

(٢) المسعودى : مروج الذهب : ٣٣٩/١ (المترجم) .

قريش منصب السفارة فكانوا يرسلونه فى مهمة السفارة بين القبائل عندما ينجم أى أمر خطير .

* * *

اعتناق الإسلام والهجرة

كان عمر فى السابعة والعشرين من عمره عندما أشرقت شمس الرسالة على أرض العرب ، فقد بُعث رسول الله - ﷺ - وارتفع صوت الإسلام ، وكانت أسرة عمر تأنس بالوحدانية بسبب زيد ، لذا كان سعيد بن زيد أول من اعتنق الإسلام وكان سعيدًا متزوجًا من فاطمة أخت عمر وبهذه الرابطة أسلمت فاطمة أيضًا ، وقد أسلم نعيم بن عبدالله ، كذلك وجهاء هذه الأسرة ، أما عمر فقد كان حتى ذلك الوقت بعيدًا كل البعد عن الإسلام وغضب غضبًا شديدًا عندما وصل هذا الصوت إلى مسامعه حتى إنه أصبح عدوًّا للذين آمنوا من قبيلته وكانت لبينة إحدى جـــوارى القبيلة قد أسلمت فكان يضربها بعنف وعندما يتعب من كثرة الضرب يقول : سأستريح قليلاً ثم أضربك / ٣٠ .

وغير لبينة كان من يقع تحت يده لا يتوانى فى ضربه إلا أن نشوة الإسلام كانت قد بلغت فيهم مبلغًا عظيمًا بحيث كان كل من ينتشى بنشوته لا يفيق منها أبدًا ، ولهذا فإنه لم يستطع بجميع مظالمه وجَوره أن يجعل أحدًا يرتد عن الإسلام لذا قرر فى النهاية أن يقضى على مؤسس الإسلام ذاته (والعياذ بالله) فتوشح سيفه واتجه إلى رسول الله - ﷺ - وقال القدر : « لقد جاء ذلك الحبيب الذى كنا نريده » وفى الطريق لقيه نعيم بن عبدالله مصادفة ، فسأله عن وجهته بعد أن رأى الشر فى عينيه قال : « إننى ذاهب لأنهى أمر محمد » فقال له : عليك أن تهتم بأمر بيتك أولاً فإن أختك وزوج أختك قد أسلما . فانقلب على الفور ووصل عند أخته فكانت تقرأ القرآن فصمتت بعد أن سمعت صوت عمر وأخفت أجزاء القرآن لكن ما زال الصوت يرن فى أذنى عمر ، فسأل أخته أى صوت هذا ؟ قالت الأخت : لا شىء ، قال : « لا فقد سمعت أنكما قد ارتددتما » وبعد ما قال هذا أخذ بمجامع ثياب زوج أخته وعندما تقدمت أخته لتكفه عنه قام بضربها أيضًا حتى لطخ جسدها بالدماء . فقالت : « يا عمر افعل ما تشاء أما الإسلام فلا يمكن أن يخرج من القلب » فكانت لهذه الكلمات وقع خاص على قلب عمر فنظر لأخته بعين العطف وبعد أن رأى الدم يسيل من جسدها زاد قلبه رقة وقال : « أسمعونى ما كنتم تقرأون » فأحضرت فاطمة أجزاء من القرآن ووضعتها أمامه فأخذها ونظر فيها فكانت أمامه هذه السورة ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

٣١ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [١] فدب الرعب فى قلبه لكل كلمة قرأها / حتى وصل إلى هذه الآية ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ صاح بلا وعى « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله » . وكان الرسول محتميًا آنذاك بدار الأرقم التى تقع فى أسفل جبل الصفا ، وعندما وصل عمر إلى العتبة المباركة وطرق الباب وكان قد ذهب ممتشقًا سيفه ولم يكن أحد قد عرف ما حدث له مؤخرًا ففزع الصحابة وترددوا لكن حمزة قال دعوه يدخل فإن جاء يريد خيرًا فليكن الخير له وإلا قتلناه بسيفه ، وبمجرد أن وضع عمر قدمه نهض الرسول إليه وأخذ بمجامع ثوبه وقال : ماذا جاء بك يا عمر؟ فارتجف من صوت النبوة المرعب ، وقال بخضوع تام : لقد جئت لأومن . فكبّر الرسول وكبّر معه الصحابة تكبيرة قوية اهتزت لها جميع جبال مكة [٢] .

وباعتناق عمر الإسلام بدأ عهد جديد فى تاريخ الإسلام ولم يكن أسلم فى ذلك الوقت غير أربعين أو خمسين رجلاً وكان البطل العربى الشهير سيدنا حمزة سيد الشهداء قد أسلم كذلك وبالرغم من ذلك لم يستطع المسلمون أداء فرائضهم الدينية جهارًا ، أما الصلاة فى الكعبة فكانت مستحيلة تمامًا وبإسلام عمر تغيرت الأوضاع مرة واحدة ، فأشهر إسلامه علانية وآذاه الكفار كثيرًا فى البداية ولكن ظل يقاومهم بثبات وعزيمة ٣٢ حتى صلى مع جماعة المسلمين فى الكعبة / وقد روى ابن هشام هذه الواقعة بهذه الكلمات على لسان عبدالله بن مسعود « فلما أسلم عمر قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » [٣] . وقد وقع إسلام عمر فى العام السادس للسنة النبوية .

* * *

---

(١) سورة الحديد : آية : ١ ، وسورة الحشر : ١ ، وسورة الصف : ١ (المترجم) .

(٢) انظر : أنساب الأشراف للبلاذرى وطبقات ابن سعد وأسد الغابة والكامل لابن الأثير . (المؤلف)

– البلاذرى : أنساب الأشراف : ١٢٥/١ . وابن سعد : طبقات ابن سعد : ٢٦٨/٣-٢٦٩ .

– وابن الأثير : أسد الغابة : ١٤٨/٤ – ١٤٩ . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٨٦/١ (المترجم) .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣٤٢/١ (المترجم) .

الهجرة

هجرة عمر :

ظل أهل قريش زمنًا ينتظرون غير مكترثين إلى دعوى النبى بالنبوة لكن كلما زاد الإسلام انتشارًا تحولوا من عدم اكتراثهم إلى الغضب والغيظ وأرادت قريش القضاء على الإسلام بقوة وحزم حينما دخلت جماعة كبيرة فى دائرته ، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا هذا علانية فى حياة أبى طالب ، أما بعد وفاته فقد هب الكفار فى كل مكان وبدأ كل واحد منهم يؤذى كل مسلم يقع تحت يديه بأى طريقة ولو لم يكن هناك حب للإسلام وإقبال عليه ما استطاع أحد أن يبقى ثابت القدمين فى طريقه . وقد استمرت هذه الحالة حوالى خمس أو ست سنوات وانقضت هذه الحقبة بمحنها وتفاصيل هذه الحكاية مؤلم للغاية .

وقد أسلم فى هذه الأثناء طائفة من أشراف المدينة ، فأمر الرسول المسلمين الذين لا يقدرون على النجاة من إيذاء الكفار أن يهاجروا إلى المدينة فكان أبو سلمة عبد الله بن الأشهل ثم سيدنا بلال المؤذن وعمار بن ياسر فى طليعة الذين هاجروا ثم هاجر عمر بعدهم إلى المدينة ومعه عشرون رجلاً وقد ذكر صحيح البخارى أن عددهم عشرون رجلاً / لكنه لم يذكر الأسماء . ٣٣

رفاق عمر فى الهجرة :

أما ابن هشام [1] فقد ذكر أسماء بعضهم وهم : زيد بن الخطاب وسعيد بن زيد ابن الخطاب وخنيس بن حذافة السهمى وعمرو بن سراقة وعبد الله بن سراقة وواقد ابن عبد الله التميمى وخولى بن أبى خولى ومالك بن أبى خولى وإياس بن بكير وعاقل ابن بكير وعامر بن بكير وخالد بن بكير وكان بينهم زيد أخو عمر وسعيد ابن أخيه وخنيس صهره أما الباقون فكانوا من أصدقائه المقربين .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤٧٦/١ - ٤٧٧ (المترجم) .

إقامة عمر :

كانت المدينة صغيرة المساحة فأقام معظم المهاجرين فى قباء (على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة) ونزل عمر هناك أيضًا فى دار رفاعة بن عبد المنذر وكان يُطلق على قباء أيضًا اسم « عوالى » وقد ورد فى صحيح مسلم : أن « عوالى » هو المكان الذى نزل فيه عمر ، وهاجر معظم الصحابة بعد عمر ، وبحلول العام ١٣هـ/٦٣٢م من البعثة النبوية ترك الرسول نفسه مكة وأشرقت شمس الرسالة فى أفق المدينة .

التآخى بين المهاجرين والأنصار :

كان أول عمل قام به النبى - ﷺ - بعد وصوله إلى المدينة هو تنظيم إقامة المهاجرين ، ودعا المهاجرين والأنصار للتآخى فيما بينهم ونتيجة لهذا حينما كان يصير المهاجر أخًا للأنصارى فإنه يقسم معه أملاكه وأمتعته وجميع أسبابه مناصفة وهكذا أصبح جميع المهاجرين والأنصار أخوة ، وكان الرسول قد راعى فى قيام هذه الأخوة الفرق فى المكانة والمنزلة للطرفين .

الأخوة الإسلامية لعمر : -

٣٤ وعلى هذا فالأنصارى الذى جعله (الرسول) أخًا لعمر كان اسمه عتبان بن مالك / وكان سيد قبيلة بنى سالم [١] . وبمجىء الرســول كان أكثر الصحابة يقيمون بقباء ، وكان عمر يقيم بها كذلك وألزم نفسه أن يرى الرسول مرة كل يومين أو يزوره غبًا وقد رتب أمــره على أنه فى اليوم الذى لا يراه فيه كان أخوه فى الإسلام عتبان بن مالك يحضر ليرى الرسول وحينما يرجع يقص على عمر كل ما سمعه من الرسول ، وقد ذكر البخارى هذه الواقعة ضـمنًا فى أبواب متعددة مثل : باب العلم وباب النكاح وغيرهما .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (المؤلف) ابن هشام : السيرة النبوية : ٥٠٥/١ (المترجم) وذكر الحافظ ابن حجر اسم أوس بن خولى بدلاً من عتبان فى مقدمة فتح البارى ص : ٣٢١ لكن الشىء المثير للعجب هو أن العلامة نفسه قد ذكر اسم عتبان فى الإصابة على حاشية ابن سعد ولم يذكر أخوة عمر عند ذكر وقائع حياة أوس بن خولى (المؤلف) .

وبعد الوصول إلى المدينة حان الوقت لكى تشرع أركان الإسلام وفرائضه ، ففى مكة المكرمة كان الحفاظ على النفس من أكبر الفرائض ولهذا السبب لم ينزل آنذاك أى شيء كالزكاة والصوم وصلاة الجمعة وصلاة العيدين وصدقة الفطر وكانت الصلاة تؤدى قصرًا فكانت كل صلاة ركعتين فقط عدا صلاة المغرب كما لم تعين أى طريقة للإعلان عن الصلاة فكان أول عمل قام به الرسول هو تنظيم هذا العمل حيث كان الناقوس والبوق للإعلان عن الصلاة رائجًا عند النصارى واليهود فرأى الصحابة مثل رأيه . وقد روى ابن هشام [١] أن هذا كان اقتراح الرسول نفسه وعلى كل حال فإن هذه المسألة كانت محل البحث ولم يقرر فيها رأى بعد فإذا بعمر قد مر عليهم / وقال لماذا لا يجعل رجل لإعلان (الصلاة) فأمر رسول الله بلالاً بالأذان فى نفس الوقت [٢] .　٣٥

وهذا الأمر جدير بالملاحظة ، فالأذان مقدمة الصلاة وأكبر شعار فى الإسلام وليس يعدل لعمر كرامة من أن هذا الشعار العظيم قد نشأ طبقًا لرأيه .

المغازى والوقائع الأخرى من العام الهجرى الأول (٦٢٣ م) حتى وفاة رسول الله ﷺ : -

إن وقائع حياة عمر وأعماله من العام الأول للهجرة (٦٢٣م) حتى وفاة الرسول فى الحقيقة هى جزء من السيرة النبوية ، فالغزوات التى قام بها الرسول والمعاهدات التى عقدها مع القبائل الأخرى والتنظيمات الإدارية التى كان يُعلن عنها من آن لآخر وجميع الخطط التى وضعت لنشر الإسلام ، لم يتم أى عمل منها دون مشاركة عمر لكن المشكلة هى لو فصلنا فى الأحداث التى تتعلق تعلقًا خاصًا بعمر لتحول هذا الجزء من الكتاب إلى السيرة النبوية ، لأن أعمال عمر مهما كانت عظيمة الشأن فإنها تقع تحت أعمال رسول الله - ﷺ - لهذا فسوف تدون جميع الأحداث باسم رسول الله - ﷺ - الموقر / وسيرد ذكر أعمال عمر ضمنًا ، لهذا لجأنا إلى إيثار هذه الطريقة وهى أن تكتب هذه الأحداث باختصار شديد ، أما الأحداث التى ترتبط بعمر ارتباطًا خاصًا فسوف تفصّل فيها . ومع أن أعمال عمر فى هذه الحالة لن تكون بارزة لأنه ما لم تقدم الواقعة تصويرًا كاملاً فلن يبرز دورها الحقيقى ، ومع هذا فليس ثمة طريقة سوى هذه الطريقة ونحن الآن نتناول هذه الأحداث باختصار شديد . عندما هاجر الرسول إلى المدينة　٣٦

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٥٠٩/١ (المترجم) .

(٢) صحيح البخارى : ١٥٧/١ وصحيح مسلم : ٣٠٢/٢ (المترجم) .

المنورة رأت قريش أنه ما لم يتم استئصال المسلمين سريعًا فسوف تتعاظم قوتهم ولهذا بدءوا الاستعدادات للهجوم على المدينة ومع هذا لم تحدث أى معركة جديرة بالذكر حتى العام الثانى للهجرة عدا تقدم قريش ناحية المدينة مرتين أو ثلاثًا فى مجموعات صغيرة وعندما علم الرسول - ﷺ - أرسل لصدهم فصائل صغيرة فتوقف تقدمهم .

غزوة بدر سنة ٢ هـ / ٦٢٤ م :-

فى عام ٢ هـ / ٦٢٤م حدثت غزوة بدر [١] المعركة الشهيرة ، وسببها أن أبا سفيان سيد قريش حين كان عائدًا بتجارته من الشام علم بالطريق (خطأ) أن المسلمين يزعمون الهجوم عليه فأرسل إلى قريش رسولاً فسمعت مكة كلها هذا الخبر ، وبعد أن علم رسول الله - ﷺ - بهذا الخبر سار من المدينة ومعه ثلاثمائة رجل ، ويذكر جميع المؤرخين أن خروج رسول الله - ﷺ - من المدينة كان بهدف اغتنام القافلة فقط ، لكن هذا الافتراض خاطئ / فالقرآن الكريم الذى لا توجد أى شهادة أكثر صدقًا منه ، يذكر هذه الواقعة بهذه الكلمات : -

٣٧

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [٢] ويتضح من هذه الآيات ما يلى :

١ - عندما أراد الرسول الخروج من المدينة تردد فريق من المسلمين وكانوا يعلمون أنهم يساقون إلى الموت .

٢ - وقت الخروج من المدينة انقسم الكفار فريقين ، الفريق الأول « غير ذات الشوكة » أى قافلة تجارة أبى سفيان ، والفريق الثانى هو قريش مكة الذين خرجوا منها للقتال بعددهم وعتادهم .

---

(١) انظر : الواقدى : كتاب المغازى : ١٩/١ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ١١٦/٢ وابن قتيبة : المعارف : ١٥٢ - ١٥٨ واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى (النجف ١٣٥٨هـ) ٢ : ٣٣ (المترجم)

(٢) الأنفال : ٥-٧ (المترجم)

علاوة على هذا فإن قافلة أبى سفيان كلها كانت أربعين رجلاً ، وأن الرسول - ﷺ - قد خرج من المدينة ومعه ثلاثمائة من الشجعان ولا يعقل أن يساق إلى الموت ثلاثمائة رجل فى مقابل أربعين رجلاً / فلو كان الرسول يخرج لاغتنام القافلة فإن الله تعالى لن يذكر فى القرآن الكريم أن المسلمين يعتبرون لقاءهم كالدخول فى فوهة الموت .

على أية حال ففى [1] ٨ رمضان سنة ٢ هـ خرج الرسول - ﷺ - من المدينة ومعه ٣١٣ رجلاً منهم ٨٣ من المهاجرين والباقى من الأنصار وقد اجتمع لقريش ٩٥٠ رجلاً واشترك معهم الكبار العظام المشهورون وكانت المعركة فى « بدر » التى تبعد عن المدينة ستة منازل تقريبًا ، ولحقت بالكفار هزيمة منكرة واستشهد أربعة عشر رجلاً من المسلمين كان من بينهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، وقتل من جانب قريش سبعون وأُسر مثلهم [2] وكان من بين المقتولين أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة وكبار سادة مكة ، وبقتلهم تحطمت شوكة قريش .

كان عمر مساعدًا للرسول فى مراحل المعركة المختلفة من حيث الرأى والخطط والتضحية والثبات لذا فإن لمشاركته خصائص ملموسة هى : -

١ - جاءت جميع قبائل قريش إلى المعركة ولكن لم يشترك فى الحرب [3] أحد من بنى عدى قبيلة عمر ، ويمكن أن نعزو هذا الأمر فقط نتيجة لرعب عمر وهيبته / .

٢ - شارك فى المعركة مع عمر اثنا عشر رجلاً من قبيلته وحلفائه وهذه أسماؤهم : زيد بن الخطاب وعبد الله بن سراقة وعمرو بن سراقة وواقد بن عبد الله وخولى بن أبى خولى ومالك بن أبى خولى وعامر بن ربيعة وعامر بن بكير وعاقل بن بكير وخالد بن بكير وإياس بن بكير [4] .

---

(١) يذكر الطبرى أن معركة بدر تمت فى يوم الجمعة ١٧ رمضان . تاريخ الطبرى : ٤٤٦/٢ (المترجم)

(٢) تاريخ الطبرى : ٤٤٧/٢ والبلاذرى : أنساب الأشراف : ٣٠٥/١ (المترجم)

(٣) فى الطبرى الكبير : « ولم يكن بقى من قريش بطن إلا نفر منها ناس إلا بنى عدى بن كعب لم يخرج منهم رجل واحد » صفحة ٣٠٧ . (المؤلف) .
- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٣٨/٢ (المترجم) .

(٤) ذكر شبلى أن عدد حلفاء عمر كانوا اثنى عشر رجلاً سمى أحد عشر منهم ونسى أن يذكر الثانى عشر وهو : سعيد بن زيد بن الخطاب (المترجم) .

٣ – أول من استشهد فى هذه المعركة هو مهجع غلام عمر [١] .

٤ – قتل بيد عمر خاله العاصى بن هشام بن المغيرة [٢] أحد سادة قريش المعززين ، ويُعد هذا الأمر من مميزات عمر وهو أنه لا يمكن أن يتغلب فيه مطلقًا تأثير القرابة والمحبة على الإسلام وهذه الواقعة من أول مناقبه . ومن أسروا أحياء من جيش الكفار فى هذه المعركة فقد بلغ عددهم نحو سبعين رجلاً كان أكثرهم من سادات قريش وذوى المكانة فيها مثل : العباس بن عبد المطلب وعقيل (أخو الإمام على) وأبى العاص بن الربيع ووليد بن الوليد وقد وقع هؤلاء القادة أسرى فى ذل ومهانة فكان منظرًا مثيرًا للعبرة وقد أثر هذا على قلوب المسلمين حتى أنه عندما وقع نظر السيدة سودة زوجة رسول الله – ﷺ – الطاهرة عليهم قالت بلا تردد : « أعطيتم بأيديكم هلاّ مُتم كرامًا » .

رأى عمر فى معاملة الأسرى [٣] :

وبناء على هذا فقد نشأ هذا البحث فى مسألة الأسرى وهو ما السلوك الذى يتبع مع هؤلاء الناس / فأخذ رسول الله – ﷺ – جميع الصحابة وأدلى الجميع بآرائهم المختلفة ، فقال أبو بكر : بيننا قرابة ونسب لهذا أرى أن تأخذ منهم الفدية ويخلى سبيلهم ، وقد عارضه عمر وقال : يجب قتلهم جميعًا فلا دخل للقرابة فى الإسلام لذا يجب أن يقتل كل منا أقاربه ، فعلى على أن يضرب عنق عقيل ويقطع حمز ة رأس العباس وأقضى على فلان من أقاربى [٤] .

٤٠

واستحسن الرسول – ﷺ – رأى أبى بكر بمقتضى الرحمة فقبل الفدية وأطلق سراحهم وقد نزلت هذه الآية فى هذا الأمر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٥] .

---

(١) ابن هشام صفحة ٤٩٠ – ابن هشام : السيرة النبوية : ٧٠٧/١ (المترجم)

(٢) ابن جرير صفحة ٥٠٩ – ابن جرير الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٦١/٢ (المترجم) .
أيضًا – الاستيعاب – القاضى عبدالبر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : ٢٦١ (المترجم) .

(٣) الواقدى : كتاب المغازى : ١٣٨/١ – ١٤١ (المترجم) .

(٤) الطبرى : صفحة ١٣٠٥ (المؤلف) – الطبرى : ٤٧٤/٢ – ٤٧٥ .

(٥) الأنفال : ٦٧ (المترجم) .

ومع أن نصر بدر قد أضعف من قوة قريش لكنه كان بداية لسلسة من المشاكل الجديدة الأخرى ، فقد كان اليهود منذ زمن يسيطرون على المدينة ونواحيها وعندما جاء الرسول - ﷺ - إلى المدينة كان أول عمل قام به فى سلسلة الترتيبات الداخلية هو عقد معاهدة مع اليهود « بألا يساعدوا أعداء المسلمين ويساعدوا المسلمين عندما يهاجم المدينة أى عدو » لكن عندما رجع النبى - ﷺ - من غزوة بدر منتصرًا دب الخوف فى نفوسهم من تعاظم قوة المسلمين ومن ألا يصبحوا ندًا لهم ، لذا بدءوا يتحرشون بهم ويقولون « إن أهل قريش كانوا جاهلين بفنون الحرب / ولو وصل بنا الأمر لكنا نريكم ما يسمى قتالاً » حتى وصل بهم الأمر إلى نقض المعاهدة التى عقدوها مع رسول الله - ﷺ - وفى شوال سنة ٢ هـ حمل عليهم الرسول وأخيرًا وقع اليهود فى الأسر ونُفوا عن المدينة ، وقد كانت هذه الحادثة بداية لسلسلة الحروب المتصلة مع اليهود التى رأيناها فى تاريخ الإسلام [١] .

٤١

غزوة السويق : -

كانت قريش قد ثارت ثائرتهم يريدون الانتقام لهزيمة بدر وقد آل أبو سفيان على نفسه بألا يغتسل ما لم ينتقم لما حدث فى بدر ، وفى شهر ذى الحجة سنة ٢هـ وصل قرب المدينة ومعه مائتان من راكبى الجمال وقبض على اثنين من المسلمين بخداع وقتلهم وتعقبهم رسول الله عندما علم لكن أبا سفيان عجل بالهرب وقد حدثت مناوشات أخرى محدودة من هذا القبيل حتى وقعت معركة أحد الشهيرة فى شوال سنة ٣ هـ/ ٦٢٥م[٢].

غزوة أحد سنة ٣ هـ : -

حدثت معركة أحد سنة ٣ هـ / ٦٢٥م وتفصيل هذه المعركة هو أن عِكْرمة بن أبى جهل وعددًا من قادة قريش ذهبوا إلى أبى سفيان وقالوا له إنه يمكنهم الانتقام لما حدث فى معركة بدر لو تكفل بالنفقات ، فقبل أبو سفيان وبدءوا الاستعدادات للحرب فى نفس الوقت وشاركت فيها جميع قبائل كنانة وتهامة ، وجعل أبو سفيان نفسه قائدًا لهذا

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف : ٣٠٨/١ - ٣١٠ (المترجم) .

(٢) الطبرى : ٤٨٣/٢ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ١٣٩/٢ والواقدى : المغازى : ١٨١/١ (المترجم) .

الجيش وسار به من مكة بكامل العتاد حتى وصل بالقرب من المدينة المنورة وعسكر بها يوم الأربعاء من شهر شوال ، وكان من رأى الرسول - ﷺ - أن يتحصن فى المدينة لصد هجوم قريش ، لكن الصحابة لم يوافقوا على هذا فاضطر الرسول - ﷺ - فى النهاية إلى الخروج فخرج من المدينة فى يوم الجمعة ، وكان عدد قريش ثلاثة آلاف (رجل) [١] منهم / مائتا فارس وسبعمائة رجل مدرع وكان خالد بن الوليد قائدًا للميمنة وعكرمة بن أبى جهل قائدًا للميسرة (ولم يكن كلاهما قد أسلما حتى ذلك الوقت) أما الجانب الآخر (المسلمون) فكانوا كلهم سبعمائة رجل منهم مائة مدرع ومائتا فارس فقط ، واصطف الجيشان عند سفح جبل أحد على بعد ثلاثة أميال من المدينة [٢] وعين الرسول - ﷺ - عبد الله بن جبير ومعه خمسون من الرماة على مؤخرة الجيش لكى لا يستطيع الكفار الهجوم من ناحيته ، ثم بدأت الحرب يوم السبت السابع من شوال وكان الزبير ومن معه أول من بدأ الهجوم فهزم ميمنة قريش ثم بدأت الحرب الشاملة واخترق سيدنا حمزة وسيدنا على وأبو دجانة صفوف الأعداء فأحدثوا الفوضى فى صفوفهم ، لكن بعد هذا النصر تدافع الناس على الغنائم وظن الرماة أن المعركة قد انتهت فاتجهوا أيضًا لجمع الأسلاب [٣] وعندما ترك الرماة أماكنهم إذا بخالد بن الوليد قد حمل عليهم بشدة من المؤخرة ولم يستطع المسلمون رد هذه الضربة لأنهم انشغلوا بجمع الغنائم بعد أن ألقوا أسلحتهم وأمطر الكفار الرسول - ﷺ - بالسهام والحجارة حتى كسرت سنته المباركة وشُجت جبهته ودخلت حلقات المغفر فى وجنتيه فسقط فى حفرة وتوارى عن أعين الناس ، وبين هذا الضجيج والفوضى ارتفعت الأصوات بأن رسول الله - ﷺ - قد قتل فهز هذا الخبر صمود المسلمين وتسمر كل واحد منهم فى مكانة مذعورًا خائفًا .

٤٢

وهناك خلاف على عدد الصحابة الذين ظلوا صامدين مع الرسول حتى آخر

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٤٩/٢ (المترجم) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٦/٢ (المترجم) .

(٣) انظر : ابن قتيبة : المعارف : ١٥٨ - ١٦١ . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ١٤٨/٢ - والواقدى : كتاب المغازى : ١٩٩/١ . واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ٣٥/٢ (المترجم) .

لحظة ، فقد جاء فى صحيح مسلم [1] برواية أنس أنه بقى مع رسول الله - ﷺ - فى (معركة أحد) سبعة أنصار فقط / واثنان من قريش هما سعد وطلحة ، وقد روى النسائى والبيهقى بسند صحيح أنه لم يثبت مع الرسول أحد سوى طلحة وأحد عشر رجلاً من الأنصار ، وقد ذكر محمد بن سعد أسماء الرجال الأربعة عشر . وهناك روايات مختلفة أخرى [2] ، وقد حاول ابن حجر التوفيق بين هذه الروايات فى « فتح البارى » فقال : « إن الناس عندما تفرقوا هنا وهناك حمل الكفار وراءهم مرة واحدة وتسمر المسلمون فى أماكنهم مذعورين ثم حينما سنحت الفرصة لهم وصلوا عند الرسول - ﷺ - » وبعد الاطلاع على جميع الروايات يتضح لنا أنه عندما انتشر خبر استشهاد الرسول - ﷺ - فزع بعض الناس ولم يستقروا حتى وصلوا إلى المدينة ، بينما كان بعضهم يقاتلون للموت ظنًا منهم أن الحياة لا قيمة لها بعد رسول الله - ﷺ - وفريق منهم استولى عليهم اليأس فألقوا بأسلحتهم وقالوا ما الفائدة الآن من الحرب ؟ وكان عمر بين هذه الفئة الثالثة . وقد روى العلامة الطبرى بسند متصل ورواته هم ابن حميد وسلمة ومحمد بن إسحاق وقاسم بن عبدالرحمن بن رافع « أنه عندما رأى أنس بن النضر سيدنا عمر وطلحة وعددًا من المهاجرين والأنصار جالسين فى حالة يأس ، سألهم ما يجلسكم ؟ قالوا لقد استشهد رسول الله ، فقال أنس : ماذا تصنعون بعد رسول الله - ﷺ ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، قال هذا ثم قاتل الكفار حتى استشهد » [3] . وقد روى القاضى أبو يوسف رواية على لسان عمر نفسه قال : « مر علىّ أنس بن النضر وسألنى / ماذا حدث لرسول الله : قلت أعتقد أنه استشهد ، قال أنس : استشهد رسول الله لكن الله حى وبعد أن قال هذا استل سيفه وأخذ يقاتل حتى نال الشهادة [4] » . ويذكر ابن هشام أن أنس ضُرب فى هذه المعركة سبعين ضربة [5] .

والأمر الجدير بالاهتمام فى رواية الطبرى أن اسم طلحة ورد أيضًا ضمن رفاق عمر ومن المسلم به أنه لم يصمد أحد أكثر منه فى هذه المعركة . وعلى كل حال فإن المؤكد فى

(١) صحيح مسلم : ١٧٨/٥ (المترجم) .

(٢) التفاصيل كاملة فى فتح البارى ، طبعة مصر ، المجلد السابع صفحة ٢٧٢ . (المؤلف) .

(٣) الطبرى صفحة ٤٠٤ (المؤلف) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٥١٧/٢ (المترجم) .

(٤) كتاب الخراج صفحة ٢٥ (المؤلف) القاضى أبو يوسف : الخراج : ٤٣ (المترجم) .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية : ٨٣/٢ (المترجم) .

كل الروايات هو أن عمر لم ينسحب من ميدان المعركة حتى فى حالة اليأس والتفرق الشديد ، وعندما علم أن الرسول حى هرع إلى جنابه المقدس فورًا ، وقد جاء فى الطبرى [1] وسيرة ابن هشام « فلما عرف المسلمون رسول الله – ﷺ – نهضوا به ونهض نحو الشعب معه على بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قحافة وعمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن صمة » وكان البلاذرى أحد المؤرخين الذين
٤٥ كتبوا فى أحوال عمر فى « أنساب الأشراف » – / « وكان ممن انكشف يوم أحد فغفر له » [2] . ونقل البلاذرى رواية أخرى خلاصتها أن عمر أيام خلافته كان يقرر الرواتب للناس وكان هناك أحد الأشخاص مناسبًا فقال له الناس إن ابنك عبدالله يستحق أكثر منه . قال عمر : لا إن أباه كان ثابتًا فى معركة أحد وأن أبا عبدالله (يعنى عمر نفسه) لم يثبت .

لكن بصرف النظر عن هذه الواقعة فإن الرواية غير صحيحة دراية لأن الهروب من معركة الجهاد كان يعد من العار بحيث لا يمكن لأى شخص أن يعترف به علانية ، ولا يمكن لنا أن نعتمد عليها من حيث قواعد الرواية ، فسند الرواة الذين نقل عنهم البلاذرى من بينهم عباس بن عبد الله الباكسائى وغيض بن إسحاق وكلاهما مجهول الحال ، وعلاوة على هذا فالروايات الأخرى كلها تختلف عن هذه الرواية ، وبعد هذا البحث نعود مرة أخرى إلى الحدث الأصلى : –

توجه خالد إلى الرسول – ﷺ – ومعه كتيبة من الجيش وكان الرسول – ﷺ – فى ذلك الوقت على الجبل مع ثلاثين من الصحابة فقال بعد أن رأى خالدًا مقبلاً : « اللهم لا تجعل هؤلاء الناس [3] يأتوا إلينا » وتقدم عمر وهجم مع رهط من المهاجرين
٤٦ والأنصار ومنع هؤلاء الناس [4] / .

وبعد أن وصل أبو سفيان قائد قريش بالقرب من « درة » (العقبة) صاح أفى القوم

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٥١٨/٢ (المترجم) .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف : ٩٨/١ (المترجم) .

(٣) وردت هذه العبارة هكذا فى كتب التاريخ العربية « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا » (المترجم) .

(٤) سيرة ابن هشام صفحة ٥٧٦ . والطبرى صفحة ١٤١١ . (المؤلف) .

– ابن هشام : السيرة النبوية : ٨٦/٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٥٢١/٢ (المترجم) .

محمد أم لا ؟ فأومأ الرسول - ﷺ - بألا يجيبه أحد ، ثم ذكر أبو سفيان اسم أبى بكر وعمر بعد ذلك وقال أهما فى الجمع أم لا ؟ فقال عندما لم يرد أحد عليه : من المؤكد أن هؤلاء الناس قد قتلوا . فلم يستطع عمر الصمت وصاح « يا عدو الله نحن أحياء جميعًا » فقال أبو سفيان « أعل هُبل » (هبل اسم صنم) . فقال رسول الله - ﷺ - لعمر قل « الله أعلى وأجل » [(1)] .

زواج الرسول بحفصة : -

فى هذه السنة نال عمر هذا الشرف حين تزوج رسول الله - ﷺ - من السيدة حفصة ابنته ، وكانت حفصة متزوجة من خنيس بن حذاقة فى الجاهلية وبعد وفاة خنيس طلب عمر من أبى بكر أن يتزوج حفصة فلم يرد عليه ، ثم طلب من عثمان أن يتزوجها فصمت أيضًا لأنهما قد عرفا من قبل - أن الرسول - ﷺ - يريد الزواج من حفصة وقد تزوج الرسول - ﷺ - بحفصة فى شعبان سنة ٣ هـ .

غزوة بنى النضير سنة ٤ هـ / ٦٢٦ م : -

وقعت واقعة بنى النضير فى عام ٤ هـ / ٦٢٦ م [(2)] . وكما ذكرنا من قبل أن الرسول قد عقد معاهدة صلح مع قبائل اليهود التى تقيم فى المدينة المنورة ومنهم بنو قينقاع الذين نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأخرجوا من المدينة لهذه الجريمة ، وكان بنو النضير هم القبيلة الثانية وكانوا أشد عداوة للإسلام ، وفى سنة ٤هـ ذهب الرسول إليهم ورافقه / أبو بكر وعمر للاستعانة بهما فى أمر ما فحث هؤلاء الناس رجلاً اسمه عمرو ٤٧ ابن جحاش بن كعب على أن يصعد إلى السطح ويلقى بلوح من الحجر على رأس الرسول - ﷺ - فصعد على السطح وعلم الرسول فنهض وقفل راجعًا فأرسل إلى هؤلاء اليهود يأمرهم أن يرحلوا عن المدينة فرفضوا واستعدوا للمواجهة فانتصر الرسول

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٥٨٢ والطبرى صفحة ١٤١٧ . (المؤلف) .

- ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٩٤-٩٥ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٢/٥٢٦ - ٥٢٧ والبلاذرى : أنساب الأشراف : ١/٣٢٧ (المترجم) .

(٢) الواقدى : كتاب المغازى : ١/٣٦٣ واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ٢/٣٦ (المترجم) .

- ﷺ - وأجلاهم ، فمنهم من رحل إلى الشام ومنهم من ذهب إلى خيبر واستقر بها وأقاموا حكومة هناك .

غزوة الخندق أو الأحزاب سنة ٥ هـ / ٧٢٧م : -

كان فى أهل خيبر قادة وسادة كبار مثل : سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع وحيى بن الأخطب ، وبعد أن وصل هؤلاء الناس إلى خيبر واطمأنوا ، أرادوا الانتقام من الرسول - ﷺ - فذهبوا إلى مكة المكرمة وأثاروا قريش وطافوا بين القبائل العربية وأشعلوا نار (الفتنة) فى البلاد كلها ، وفى غضون أيام تجمع عشرة آلاف رجل تحت راية قريش ، وفى شوال سنة ٥ هـ اتجه هذا الجمع الغفير إلى المدينة بقيادة أبى سفيان فخرج الرسول من المدينة وأعد خندقًا أمام « سلع » [١] ولم يكن الخندق معروفًا لدى العرب فلذا لم يستطع الكفار أن يفعلوا شيئًا فقاموا بمحاصرتهم ونشروا جيشهم فى كل ناحية لمنع وصول المؤن ، واستمر الحصار شهرًا فكان الكفار يعبرون الخندق ويغيرون على المسلمين ولهذا السبب عين الرسول - ﷺ - كبار الصحابة على مواقع الخندق هنا وهناك فى مسافات متقاربة بينهم حتى لا ينفذ منها العدو ، وكان عمر معينًا على جزء من أجزائه ولهذا أقيم هناك مسجد باسمه / موجود حتى اليوم ، وذات يوم أراد الكفار الهجوم فمنع عمر والزبير تقدمهم وفرقا جمعهم [٢] . وفى يوم آخر ظل منهمكًا فى قتال الكفار حتى فاته صلاة العصر فجاء إلى الرسول - ﷺ - وقال : لم يترك الكفار لى مهلة اليوم للصلاة ، فقال الرسول - ﷺ - وأنا أيضًا لم أصل العصر حتى الآن . ومات فى هذه المعركة عمرو بن عبدود البطل العربى الشهير الذى كان يعادل خمسمائة فارس على يد الإمام على ، فمن ناحية دب الرعب فى قريش بعد وفاته ، ومن ناحية أخرى قام نعيم بن مسعود الذى اعتنق الإسلام ولم يعلم الكفار بإسلامه بدسيسة أوقعت الخلاف

٤٨

(١) سلع جبل بالقرب من المدينة . (المؤلف)

- ابن هشام : السيرة النبوية : ٢١٤/٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٥٦٤/٢ وابن قتيبة : ١٦١ - ١٦٦ . (المترجم) .

(٢) كتب شاه ولى الله هذه الواقعة فى كتابه « إزالة الخفاء » لكننى لم أجد لها سندًا فى أى كتاب . (المؤلف) .

بين قريش واليهود ، وخلاصة القول أن سُحُب الكُفر السوداء التى كانت قد خيمت على سماء المدينة بدأت تنقشع يومًا بعد يوم وصَفَت السماء تمامًا بعد عدة أيام .

صلح الحديبية ٦ هـ / ٦٢٨ م :

فى سنة ٦ هـ / ٦٢٨م أراد الرسول - ﷺ - زيارة الكعبة مع الصحابة فأمر بألا يكون هناك شىء يثير حفيظة قريش وشكها عن الحرب فلا يخرج أحد بسلاحه لهذا السبب ، وبعد أن وصلوا إلى ذى الحليفة (موضع على بعد ستة أميال من المدينة) رأى عمر أن الخروج هكذا (بلا سلاح) ليس فى صالح المسلمين فعرض هذا الرأى على رسول الله - ﷺ - فطلب الرسول السلاح من المدينة بناء على رأى عمر وعندما أصبح على بعد منزلين من مكة جاء بشر بن سفيان من مكة وأخبرهم أن قريش كلها تعاهدت على ألا يتركوا المسلمين يضعوا أقدامهم فى مكة ، فأراد الرسول - ﷺ - أن / يرسل ٤٩ أحد كبار الصحابة سفيرًا ليقول لهم : ليس هدفنا الحرب . وأراد تكليف عمر بهذه السفارة . فقال عمر : « إن قريشًا يعادوننى أشد العداوة ولا يوجد هناك أحد من قبيلتى ليحمينى ولعثمان هناك أقارب ولهذا يكون من المناسب إرساله إليهم »[١] فاستحسن الرسول هذا الرأى وأرسل عثمان - رضى الله عنه - إلى مكة فاحتبست قريش عثمان لديها ولما مرت عدة أيام ، أشيع عنه أنه قتل ، وبعد أن سمع رسول الله هذا أخذ البيعة من الصحابة على الجهاد وكان عددهم ألفًا وخمسمائة رجل .

ولما كانت البيعة تمت تحت الشجرة لذا اشتهرت باسم « بيعة الشجرة » ففى هذه الآية من القرآن الكريم ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ إشارة إلى هذه البيعة ، وكما ورد فى الآية فقد أطلقوا عليها اسم « بيعة الرضوان » . كان عمر قد بدأ الاستعداد للقتال من قبل البيعة ، وفى صحيح البخارى[٢] فى باب غزوة الحديبية أن عمر وهو فى الحديبية أرسل ابنه عبدالله ليستعير فرسًا من أحد الأنصار ، فخرج عبدالله بن عمر فرأى أن الناس يبايعون الرسول على الجهاد فذهب وبايعه أيضًا ، وعندما عاد إلى عمر وجده قد أعد سلاحه فقص عليه عبد الله واقعة البيعة فنهض وذهب إلى الرسول- ﷺ - وبايعه .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣١٥/٢ (المترجم) .

(٢) صحيح البخارى : ١٦٣/٥ (المترجم) .

وأصرت قريش على ألا يدخل رسول الله - ﷺ - مكة مطلقًا ، وبعد حوار وجدال طويل / تعاهدوا على هذه الشروط وهى أن يرجع المسلمون هذه المرة وأن يعودوا فى العام المقبل وألا تستغرق إقامتهم أكثر من ثلاثة أيام ، وكان من ضمن شروط المعاهدة أن تقف الحرب عشر سنوات ، وفى أثناء تلك المدة إذا ذهب شخص من قريش إلى رسول الله - ﷺ - يرده رسول الله إلى قريش لكن لو لجأ أى شخص من المسلمين إلى قريش فلهم الخيرة أن يمنعوه عندهم . ولما كان الشرط الأخير فى صالح الكفار ظاهريًا غضب عمر غضبًا شديدًا ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد . فأتى إلى أبى بكر وقال له لماذا تخضع هكذا للصلح ، فأفهمه أن ما يفعله رسول الله - ﷺ - سيكون فيه النفع والمصلحة ، لكن عمر لم يهدأ حتى أتى رسول الله نفسه وتحدث معه هكذا :

٥٠

يا رسول الله ! ألستَ برسول الله؟ قال رسول الله : بَلَى ، قال عمر : أليس الكفار أعداءنا ، قال رسول الله : بلى ، فقال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال رسول الله : أنا رسول الله ولن أخالف أمر الله [١] .

ولما كان حوار عمر هذا خارجًا عن آداب اللياقة وخاصة أسلوب حديثه لذا ندم عليه أشد الندم فيما بعد وأخذ يعتق العبيد ويتصدق ويصلى ويصوم كفارة له [٢] . / لكن النقطة الأساسية فى هذا السؤال والجواب هى أى عمل من أعمال رسول الله - ﷺ - يتعلق بأوصافه الإنسانية ، وأى عمل يتعلق برسالته ؟ وسوف يأتى بحث مفصل على هذا فى الجزء الثانى من الكتاب .

٥١

خلاصة القول أن معاهدة الصلح عقدت وشارك فيها كبار الصحابة وعمر من بينهم ووقعوا عليها وعاد الرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة بعد المعاهدة ، وفى الطريق نزلت سورة الفتح واستدعى الرسول - ﷺ - عمر وقال له : اليوم نزلت علىَّ سورة أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها . وبعد أن قال هذا قرأ هذه الآيات : [٣] ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [٤] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣١٧/٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٦٣/٢ - ٦٣٤ (المترجم) .
(٢) الطبرى صفحة ١٥٤٦ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٣٤/٢ (المترجم) .
(٣) الفتح : ١ (المترجم) .
(٤) صحيح البخارى صلح الحديبية ، صحيح مسلم : ١٧٥/٥ - ١٧٦ (المترجم) .

وقد كتب المحدثون أن المسلمين والكفار ظلوا منعزلين تمامًا حتى هذا الحين ، أما بعد الصلح فقد حدثت اللقاءات بينهم وانتشرت أفكار الإسلام وعقائده وكثر الحديث عنه يومًا بعد يوم وذاع صيتها ليلاً ونهارًا وكان من أثر هذا أن الذين اعتنقوا الإسلام فى غضون عامين كانوا أكثر من الذين أسلموا فى الفترة ما بين ثمانية عشر عامًا قبل هذا[1] . والأمر الذى لم يفهم عمر مغزاه فى البداية وعقد رسول الله - ﷺ - صلحًا من أجله كانت فيه المصلحة ، لذا فقد عبر الله تعالى عن هذا الصلح بكلمة « الفتح » فى سورة الفتح .

وكان عقد النكاح على النساء الكافرات جائزًا حتى ذلك الوقت لكن عندما نزلت هذه الآية / ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [2] حُرم هذا الأمر فطلق عمر امرأتين كانتا له فى الشرك إحداهما تسمى قريبة والأخرى أم كلثوم بنت جرول[3] وبعد طلاقهما تزوج عمر من جميلة بنت ثابت بن أبى الأقلح فولدت له عاصم بن عمر[4] . وفى هذه السنة أرسل رسول الله - ﷺ - الرسائل إلى الملوك وحكام البلاد يدعوهم إلى الإسلام [5] .

٥٢

معركة خيبر سنة ٧ هـ / ٦٢٩ م : -

وفى سنة ٧ هـ وقعت معركة خيبر الشهيرة وقد قرأتم آنفًا أن يهود قبيلة بنى النضير الذين طردوا من المدينة المنورة ذهبوا إلى خيبر واستقروا بها وكان من بينهم سلام وكنانة وغيرهما فذهبوا لإثارة قريش سنة ٥هـ وحرضوهم على الهجوم على المدينة ومع أنهم فشلوا فى هذه المؤامرة إلا أنهم لم يتراجعوا عن فكرة الانتقام هذه وظلوا يدبرون الدسائس والمكائد حتى سنة ٦هـ فأبدت قبيلة بنى سعد الاستعداد لمساعدتهم فعلم الرسول بهذا فأرسل لهم عليًا - كرّم الله وجهه - فهرب بنو سعد وغنموا خمسمائة

(١) فتح البارى طبعة مصر مجلد ٧ صفحة ٣٤٠ ذكر الحديبية . (المؤلف) .

(٢) سورة الممتحنة : ١٠ (المترجم) .

(٣) قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة وتزوجها بعده معاوية بن أبى سفيان ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أم عبيدالله بن عمر وتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٤٠/٢ (المترجم) .

(٤) الطبرى أحداث سنة ٦ هـ = الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٤٠/٢ - ٦٤٢ (المترجم) .

(٥) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٤٤/٢ (المترجم) .

ناقة [١] ثم حثوا قبيلة غطفان على مساعدتهم ، لذلك عندما تقدم الرسول - ﷺ - تجاه خيبر كانت هذه أول قبيلة أرادت سد طريقه [٢] ونظرًا لهذه الأمور كان من الواجب كسر شوكة اليهود وإلا ما استطاع المسلمون أن يكونوا فى مأمن من خطرهم . وفى سنة ٧ هـ اتجه الرسول - ﷺ - إلى خيبر ومعه ألف وأربعمائة من الرّجلة ومائتان من الركبان وكان اليهود قد أقاموا فى خيبر كثيرًا من القلاع والحصون الحصينة مثل حصن ناعم وحصن قموص [٣] / وحصن صعب والوطيح [٤] والسلالم وقد فتحت هذه القلاع جميعًا سريعًا إلا حصن السلالم والوطيح . وكان هذان الحصنان كلاهما تحت سيطرة البطل العربى المعروف مرحب فلم يستطع المسلمون فتحهما فنصب الرسول - ﷺ - أبا بكر رضى الله عنه قائدًا وأرسله إليه ولكنه رجع دون أن يفتح ثم بعث عمر فظل يقاتل حوالى يومين لكنه لم يفلح فى كلا اليومين ، وبعد أن رأى الرسول ﷺ هذا قال لأعطين غدًا الراية رجلاً يقود الحملة وفى اليوم التالى حضر كبار الصحابة جميعًا بعد أن أعدوا أسلحتهم آمنين فى الحصول على الراية النبوية ، وكان عمر من بينهم وعلى حد قوله « إننى لم أطلب الإمارة وحمل اللواء أبدًا إلا فى هذه المرة » لكن القضاء والقدر قد خص عليًا بهذا الفخر لذا لم يلتفت الرسول إلى أحد ونادى عليًا رضى الله عنه وسلمه الراية وقتل مرحب على يد سيدنا على وهكذا انتهت المعركة بقتله .

٥٣

ووزع الرسول أرض خيبر على المجاهدين وكان من بينها قطعة تسمى « ثمغ » كانت من نصيب عمر فأوقفها عمر فى سبيل الله وهذه القصة مذكورة بالتفصيل فى باب الوقف بصحيح مسلم وكان هذا أول وقف تم تنفيذه فى تاريخ الإسلام وفى هذه السنة أرسل الرسول عمر ومعه ثلاثون رجلاً للقاء قبيلة هوازن للقاء قبيلة هوازن ففر هؤلاء الناس بمجرد أن سمعوا بمجىء عمر ولم ينشب أى قتال [٥] .

---

(١) مواهب لدنيه (المؤلف) .

- الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ذكر سرية علىّ إلى بنى سعد (المترجم) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣٣٠/٢ (المترجم) .

(٣) يذكر الطبرى أن حصن القموص هو حصن ابن أبى الحقيق ، تاريخ الطبرى : ١٤/٣ (المترجم) .

(٤) حصن الصعب بن معاذ انظر السيرة النبوية : ٣٣٢/٢ (المترجم) .

(٥) صحيح مسلم : باب الوقف : ٧٣/٥ - ٧٤ (المترجم) .

وفتحت مكة فى سنة ٨هـ / ٦٣٠م وبدايته أنه كان من شروط صلح الحديبية أنه « من أحب من قبائل العرب أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه »[١] / فدخلت قبيلة بنى بكر فى عهد قريش ودخلت قبيلة خزاعة فى عهد الرسول ﷺ وكان هناك نزاع بين هاتين القبيلتين منذ زمن ودارت بينهما معارك عديدة .   ٥٤

واستمرت سلسلة المعارك حتى تم صلح الحديبية وتخلت القبيلتان عن القتال بسبب شروط المعاهدة لكن بنى بكر نقضوا العهد بعد عدة أيام ورفدتهم قريش حتى احتمت خزاعة فى الحرم فلم يجدوا الأمان هناك أيضًا ، فذهبت خزاعة واستغاثت بالرسول وعندما علم أبو سفيان بهذا الخبر وصل المدينة ليتدارك الأمر ومثل أمام الرسول ﷺ وطلب تجديد الصلح من جانب قريش فلم يعره الرسول جوابًا ، فنهض أبو سفيان وذهب إلى أبى بكر ثم عمر ليشفعا له فى هذا المهمة فرد عليه عمر بغلظة حتى فقد الأمل تمامًا [٢] .

بدأ الرسول - ﷺ - يعد العدة لمكة وخرج من المدينة فى رمضان سنة ٨هـ ومعه عشرة آلاف رجل ونزلوا فى منطقة « مر الظهران » وركب العباس بغلة الرسول واتجه يقصد مكة وكان أبو سفيان قادمًا من تلك الناحية فقال له العباس : تعال وأنا أستأمن لك الرسول - ﷺ - وإلا لن يكون اليوم فى صالحك فاغتنمها أبو سفيان وذهب مع العباس ومر فى الطريق على عمر ولما رأى أبو سفيان معه ظن عمر أن العباس ذاهب ليشفع له فأسرع ودخل على الرسول - ﷺ - وقال : قد أمكن الله من عدو الإسلام هذا بعد حين / فدعنى أضرب عنقه ، قال العباس : مهلاً يا عمر ألا إنه رجل من عبد مناف ولو كان من قبيلتك (بنو عدى) ما طلبت روحه هكذا !! قال عمر : فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب أبى لو أسلم « فقبل الرسول شفاعة العباس وأعطى أبا سفيان الأمان »[٣] .   ٥٥

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٢/٤٣-٤٤ ، وابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٣٩٠ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣/٤٦ وابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٣٩٦ (المترجم) .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٤٠٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٣/٥٢ - ٥٣ (المترجم) .

دخل الرسول - ﷺ - مكة بكل جاه وجلال ووقف على باب الكعبة وألقى خطبة بليغة منقولة بعينها فى كتب التاريخ ثم قدم إلى الصفا مصطحبًا عمر ليأخذ البيعة من الناس وجاء الناس أفواجًا ليبايعوه ، وكان عمر بالقرب من الرسول لكن مجلسه كان أسفل من مجلس رسول الله بقليل . ثم جاءت النساء للبيعة ولما كان الرسول لا يلمس يد المرأة الأجنبية لذا طلب من عمر أن يبايعهن ، فبايعن النساء جميعًا الرسول على يديه [١] .

غزوة حُنين :

وقعت فى هذه السنة معركة هوازن المعروفة باسم غزوة حنين [٢] وكانت هوازن إحدى القبائل العربية العريقة المشهورة وكان هؤلاء القوم منذ البداية ينظرون لانتشار الإسلام بعين الحسد ، وعندما خرج الرسول - ﷺ - من المدينة المنورة بقصد فتح مكة ظن هؤلاء الناس أن الهجوم عليهم هو الهدف فبدءوا الاستعداد للحرب ، فلما عرفوا أن الرسول - ﷺ - قد نزل بمكة ساروا بكامل العدد والعتاد للهجوم على مكة / ٥٦ ونزلوا فى حنين [٣] . وعندما سمع الرسول هذا الخبر سار من مكة المكرمة ومعه جيش قوامه اثنا عشر ألفًا ، واصطف الجيشان واستعدا للنزال فى حنين وأجبر المسلمون هوازن على الفرار [٤] فى بداية الهجوم لكن هوازن حملت عليهم عندما انشغلوا بجمع مال الغنيمة وأمطروهم بوابل من السهام وحدث الهرج والمرج بين المسلمين واضطربت صفوفهم وهرب الجميع ولم يبقَ سوى عدد قليل من الاثنى عشر ألفًا ، فكانت للصحابة الذين ثبتت أقدامهم فى هذه المعركة ومنهم عمر منزلة خاصة وقد صرح الطبرى بوضوح أن محمد بن إسحاق الذى يدخل ضمن شيوخ البخارى فى (رواية) الحديث ويعتبر إمامًا للمغازى والسير قد كتب فى كتابه المغازى : « وثبت مع رسول الله

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣/٦٠ - ٦٣ (المترجم) .

(٢) حنين اسم وادى خلف عرفات وهو على بعد تسعة أو عشرة أميال من مكة (المؤلف) .

(٣) تاريخ الطبرى : ٣/٧٠ (المترجم) .

(٤) صحيح مسلم : ٥/١٦٦ - ١٦٧ . والواقدى : كتاب المغازى : ٣/٨٨٥ . واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ٢/٤٧ (المترجم) .

- ﷺ - نفر من المهاجرين والأنصار وأهل البيت مثل : أبى بكر وعلى وعمر والعباس . . . » [١] .

وبعد قليل اختلت موازين المعركة مرة أخرى وانتصر المسلمون وأسروا ستة آلاف رجل من هوازن .

وفى سنة ٩هـ / ٦٣١هـ شاع أن قيصر الروم يستعد للهجوم على العرب ، وبعد أن سمع الرسول هذا أمر الصحابة بالاستعداد ، ولما كان ذلك الزمان زمان عسرة وشدة لهذا / حث النبى المسلمين ورغبهم فى إنفاق المال فقدم معظم الصحابة أموالاً كثيرة وبهذه المناسبة جاء عمر بنصف أمواله وأمتعته وقدمها للرسول [٢] وبهذه الطريقة توفرت الأسلحة والمؤن والعتاد وسار الرسول من المدينة لكن عندما وصل تَبوك عرف أنها لم تكن إلا مجرد شائعة ، فأقام بها بضعة أيام ثم انصرف عائدًا [٣] .

٥٧

وفى هذه السنة غضب الرسول على أزواجه المطهرات واعتزلهن ، وبسبب موقفه هذا اعتقد المسلمون أن الرسول - ﷺ - طلق نساءه فحزن جميع الصحابة واغتموا لهذا ومع هذا لم يجرؤ أى صحابى أن يأتى للرسول ويستفسر منه (عما حدث) وأراد عمر أن يمثل بين يديه فطلب الإذن منه مرارًا فلم يأذن له وفى النهاية رفع عمر صوته وقال للخادم « ربما ظن رسول الله - ﷺ - أننى جئت لأشفع لحفصة (ابنة عمر وزوجة رسول الله المطهرة) والله لئن أمرنى رسول الله - ﷺ - لأضربن عنق حفصة » [٤] فأذن له الرسول على الفور فقال له عمر : هل طلقت أزواجك ؟ فقال الرسول « لا » قال

---

(١) لم أرجع لكتاب ابن اسحق الأصلى لكننى اطلعت على ترجمة فارسية قديمة له والعبارة المنقولة مأخوذة عنها وكانت هذه الترجمة قد تمت بأمر من سعد بن زنكى فى سنة ٦١٢ هـ وموجود منها نسخة قديمة جدًا فى مكتبة إله آباد العامة . (المؤلف) .

(٢) ذكر الترمذى وأبو داود هذه الواقعة ضمن فضائل أبى بكر لكنهما لم يحددا الغزوة (المؤلف) .

الترمذى : جامع الترمذى : ٢٠٨/٢ (دهلى ١٣٠٨هـ) (المترجم) .

أبو داوود : سنن أبى داوود : حيدر آباد الدكن الطبعة الأولى ١٣٢١ هـ (باب أحاديث عمر بن الخطاب) المترجم .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٥٢٧/٢ (المترجم) .

(٤) صحيح مسلم : ١٨٨/٤ - ١٨٩ (المترجم) .

عمر « إن جميع الصحابة يجلسون محزونين فى المسجد فلو أذنت لى أبشرهم بهذه البشرى . ونستطيع أن نقدر من هذه الواقعة مدى تقرب عمر من النبى - ﷺ - ولذلك
٥٨ قالت السيدة أم سلمة فى مناسبة تتعلق بهذه الوقائع : « يا عمر / قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين الرسول وأزواجه » .

وفى سنة ١٠هـ / ٦٣٢ م جاءت وفود كثيرة من جميع أنحاء الجزيرة وأسلم مئات الألوف من الناس [١] وفى هذه السنة قصد رسول الله مكة المكرمة للحج وكانت هذه الحجة آخر حجة له .

وفى شهر صفر من سنة ١١ هـ / ٦٣٣م جعل الرسول - ﷺ - أسامة بن زيد أميرًا للجيش لمحاربة الروم وطلب من كبار الصحابة جميعًا الذهاب معه واستعد المسلمون ، لكن الرسول - ﷺ - مرض فى أواخر صفر وأرجئ هذا الاقتراح [٢] .

وفى الرواية المشهورة أن الرسول - ﷺ - ظل مريضًا لمدة ثلاثة عشر يومًا ، وقد ذكر البيهقى بسند صحيح أن عددها عشرة أيام وذكر سليمان التميمى أيضًا نفس هذا العدد فى مغازيه [٣] . ولم يكن المرض على وتيرة واحدة فكانت الحمى تشتد به أحيانًا وتقل حدتها أحيانًا أخرى فيتمكن من الذهاب ليؤدى الصلاة فى المسجد ، حتى إنه فى يوم وفاته تحسنت حالته إلى درجة أنه فى نفس اليوم الذى قبض فيه جاء حتى الباب ورفع الستارة وتبسم عندما رأى الناس يؤدون الصلاة [٤] .

واقعة القرطاس : -

تعد واقعة القرطاس من أشهر حكايات المرض وتفصيلها كما يلى : - قبل وفاة
٥٩ الرسول بثلاثة أيام طلب دواة وقلمًا وقال : « سأكتب لكم شيئًا / لن تضلوا بعده أبدًا » فقال عمر مخاطبًا الناس « لقد اشتد المرض برسول الله - ﷺ - والقرآن يكفينا »

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٠١/٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ١٤٨/٣ (المترجم) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٤١/٢ - ٦٤٢و ٦٠٦ وتاريخ الطبرى : ١٨٤/٣ - ١٨٥ (المترجم) .

(٣) فتح البارى : مجلد ٨ صفحة ٩٨ (المؤلف) .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٥٣/٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ١٩٨/٣ (المترجم) .

فقال بعض الحاضرين إن رسول الله يهجر (والعياذ بالله) وكلمة «هجر» معناها الهذيان .

وهذه الواقعة فى الظاهر مثيرة للعجب فمن الممكن أن يقول أحد المعترضين هل هناك إساءة وإهانة أكثر من هذا ، فرسول الله - ﷺ - على فراش الموت مع مراعاة أسى الأمة وحزنها يقول :

« تعالوا فسأكتب لكم وصية تحفظكم من الضلال » ومن الواضح أن النصيحة للإنقاذ من الضلال تتعلق بمهمة النبوة لذا لا مجال للسهو والخطأ فيها ، ورغم هذا يبدى عمر عدم اكتراثه ويقول : « لا داعى لهذا فالقرآن يكفينا » وزاد الطين بلة عندما عبر نصيحة الرسول هذه بالهذيان (والعياذ بالله) .

وأخذ هذا الطعن يتردد فى الأوساط الدينية منذ زمن طويل وظهر بسببه جدل فكرى واسع بين جماعتين من المسلمين وقد جاءت كل واحدة منهما بأفكارها فى هذا الصدد وظهرت أمور أخرى لا صلة لها بهذه الواقعة ولم يستخدم أحد منهم قواعد الدراية وأصولها ، لذا ظل الموضوع الأصلى كما هو غير محسوم وظهرت بحوث عقيمة حتى أثيرت قصة أخرى وهى أن الهذيان يمكن صدوره عن الرسول لأنه من العوارض البشرية والنبى - ﷺ - لم يكن بريئًا من العوارض البشرية / . ٦٠

وهذا الأمر فى الحقيقة يدعو إلى التفكير بأن الواقعة التى تناقلتها الروايات بهذه الطريقة أيمكن الاستناد عليها فى أى أمر أم لا؟ قبل هذا البحث يجب مراعاة الأحداث التالية : -

١ - ظل الرسول - ﷺ - مريضًا حوالى ثلاثة عشر يومًا تقريبًا .

٢ - إن واقعة طلب الورقة والقلم حدثت يوم الخميس كما هو مصرح به فى صحيح البخارى ومسلم ، ولأن الرسول - ﷺ - قد توفى يوم الاثنين فمعناه أن الرسول - ﷺ - بقى حيًا لمدة أربعة أيام بعد هذه الواقعة .

٣ - لم يرد فى موضع ما من أى رواية ذكر اختلال حواس الرسول - ﷺ - طوال فترة مرضه .

٤ - كان هناك كثير من الصحابة حاضرون عندما حدثت هذه الواقعة ومع هذا فهذه الرواية رويت بطرق عديدة (تسع طرق فى صحيح البخارى فقط) ومع هذا كله لم

يرو أى حرف يتعلق بهذه الحادثة عن أى صحابى سوى عبد الله بن عباس - رضى الله عنه .

٥ - كان عُمْر عبد الله بن عباس آنذاك ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا .

٦ - الأمر المهم فى هذا الصدد أن عبد الله بن عباس نفسه لم يكن موجودًا فى هذا المكان وقت حدوث هذه الواقعة وليس معلومًا ممن سمع هذه الواقعة [١] .

٧ - المذكور فى الروايات كلها أنه عندما طلب الرسول - ﷺ - الورقة والقلم قال الناس إن الرسول يهذى [٢] .

والآن وقبل كل شىء فإن هذا الأمر جدير بالملاحظة فلم يذكر فى موضع ما فى أى رواية عن اضطراب حواس الرسول فأنى للناس أن يتصوروا من هذا القول فقط « إلىّ بالقلم والدواة » بأنه هذيان ؟ ولنفرض أن الهذيان يمكن أن يصدر عن الأنبياء لكنه ليس معناه أن أى قول عادى يقوله النبى يعتبر هذيانًا ، فأى هذيان فى قول رسول عند وفاته « إلىّ بالقلم والدواة لأكتب لكم شيئًا حتى لا تضلوا بعدى أبدًا » [٣] .

وعلى أى حال من الأحوال فإن هذه الرواية تعتبر صحيحة ويجب أن نسلم بأن الراوى نسى هذه الوقائع فى روايته فنشأ منها هذا التصور لدى الناس بأن الرسول لم يكن فى وعيه وأنه طلب القلم والدواة فى حالة الإغماء ثم كيف يمكن الاستدلال بمثل هذه الرواية على حدث ترك فيه الراوى / أهم دقائق الحدث وخصوصياته ، ومع هذا   ٦٢

(١) الحديث الذى رواه البخارى فى باب كتابة العلم بصحيح البخارى يتضح منه أن عبدالله بن عباس كان موجودًا فى هذه الواقعة ، لذا بحث المحدثون فى هذا الأمر وأثبتوا بالدلائل القاطعة أنه لم يكن موجودًا . أنظر : فتح البارى : باب كتابة العلم (المؤلف) .

(٢) أول القرطبى فى هذه الرواية فتلطف وقال : كان الناس يقولون هذه الكلمة على سبيل الإنكار والاستعجاب ويعنى هذا أنه يجب أن يمتثلوا لأمر الرسول ويطيعوه ، فلم يفكروا أن قول الرسول - ﷺ - هذيان لا سمح الله فهذا التأويل محبوك ، لكن هذه الكلمات الواضحة فى بعض روايات البخارى ومسلم لا تحتمل مثل هذا التأويل مثل : هجر هجر (مرتين) ، أو أن رسول الله - ﷺ يهجر (صحيح مسلم) . (المؤلف) . انظر : صحيح البخارى : كتاب المغازى : ١١/٦ - ١٢ (المترجم) .

(٣) إن تحليلنا ونقدنا لهذا الموضوع الحساس هو أنه « لأن رسول الله - ﷺ - لم يكن يعرف الكتابة لهذا فإن قوله « اكتب » كان دليلاً على الهذيان ، لكن هؤلاء الناس لا يعلمون أن « الكتابة » تأتى أيضًا بمعنى « الاستكتاب » وهذا المجاز شائع ومنتشر عمومًا (المؤلف) .

فعندما تراعى تلك الأمور وهى أنه فى مثل هذا الحدث العظيم لم يكن هناك أحد من الصحابة بين الرواة سوى عبد الله بن عباس والذى كان عمره فى ذلك الوقت ما بين ثلاثة عشر وأربعة عشر عامًا ، علاوة على هذا كله لم يكن هو نفسه موجودًا فى وقت الحدث وهنا يدرك كل شخص ماذا يبقى من قيمة لهذه الرواية ؟ .

ومن الممكن لرجل قصير النظر أن يثقل عليه الارتياب فى حديث البخارى ومسلم لكن يجب أن يفهم أن هذا الشك بالنسبة لأحد رواة البخارى ومسلم - بأنه لم يستطع أن يحفظ ذ لك الحدث بكامل تفاصيله - أهون بكثير من أن يتهم هذا الراوى بنسبة تهمة الهذيان إلى الرسول - ﷺ - وتهمة الوقاحة لعمر .

المهم أن الرسول - ﷺ - ظل على قيد الحياة لمدة أربعة أيام بعد هذه الواقعة ، وكان فى تلك الأثناء كثيرًا ما يوصى وينصح من آن لآخر ، وفى يوم الوفاة ذاته استرد صحته إلى حد أن اعتقد الناس أنه أصبح معافى تمامًا لذا عاد أبو بكر إلى منزله الذى كان على بُعد ميلين من المدينة المنورة [1] . غير أن عمر ظل موجودًا حتى وقت الوفاة ، وقد توفى الرسول - ﷺ - فى منزل السيدة عائشة ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ[2] ودفن فى يوم الثلاثاء حين زالت الشمس ، فمن ذا الذى يستطيع تقدير صدمة المسلمين وحزنهم لوفاته - ﷺ - وفى الروايات عامة أن / عمر كان مذهولاً وذهب إلى المسجد النبوى وأعلن أن الشخص الذى سيقول إن الرسول مات سأقتله . لكن ليس هناك قرائن أخرى تؤكد هذه الرواية ، ففى رأينا أنه لما كان جماعة المنافقين منتشرين بكثرة فى المدينة وكانوا ينتظرون وفاة الرسول ليثيروا الفتنة لهذا منع عمر انتشار هذا الخبر بهذه الحكمة وقد أخذت هذه الواقعة شكلاً مختلفًا باختلاف الروايات ، لكن المشكلة هى أن هذا النوع من التصريحات مثبت فى صحيح البخارى وغيره وهى لا تتطابق مع قياسنا هذا [3] .

٦٣

(١) الطبرى صفحة ١٨١٣ (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٢٠٢/٣ (المترجم) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٥٢/٢ - ٦٥٣ (المترجم) .

(٣) رفض شبلى رواية عمر فى صحيح البخارى (١٧/٦) مع أنها مذكورة فى السيرة النبوية (٦٥٥/٢) وتاريخ الطبرى : ٢٠٠/٣ - ٢٠١ (المترجم) .

سقيفة بنى ساعدة وخلافة أبى بكر واستخلاف عمر

هذه الواقعة لا تخلو من غرابة فى الظاهر[1] فعندما توفى الرسول - ﷺ - بدأ النزاع على الخلافة فورًا ولم ينتظروا حتى ينتهوا من تكفين رسول الله ﷺ وتجهيزه أولاً ، فمن كان يتصور أن رسول الله يموت ويتركه أولئك الناس الذين يدعون حبهم له دون أن يكفنوه ويدفنوه وينشغلوا عنه فى التدبير حتى لا يستولى الآخرون على كرسى الحكم .

ومن عجب العجائب أن هذا الفعل قد صدر عن أناس (مثل أبى بكر وعمر) اللذين يعدان كالشمس والقمر فى سماء الإسلام ، ويزيد الأمر استياءً حينما يرى أن الناس الذين لهم صلة القرابة الفطرية بالرسول أى سيدنا على وأسرة بنى هاشم فيظهر عليهم أثر بالغ وكما تقتضى العلاقة الفطرية فقد شغلوا بالحزن وتجهيز الرسول وتكفينه / ولم تسنح لهم الفرصة للاهتمام بهذه الأمور . ٦٤

ونسلم بأن هذا النوع من الأفكار قد نشأ على ما يبدو من كتب السير والحديث ، لكنه ليس هكذا فى الحقيقة ، فصحيح أن عمر وأبا بكر وغيرهم تركوا تجهيز الرسول - ﷺ - وتكفينه وذهبوا إلى سقيفة بنى ساعدة [2] وصحيح كذلك أنهم بعد أن وصلوا السقيفة خاضوا صراعًا عنيفًا مع الأنصار من أجل الخلافة ، وظلوا منهمكين فى تلك المحاولات وكأنهم لم يواجهوا أى حادثة ، وصحيح أيضًا أنه لم يكن الأنصار فقط الذين أجبروا على تأييد خلافتهم فحسب ، بل إنهم أجبروا عليًا - رضى الله عنه - وبنى هاشم أيضًا مع أن بنى هاشم لم يسلموا بخلافتهم بسهولة ، أما هذا البحث فيدعو للتفكير فى هذه الأمور التالية : -

١ - هل أثار عمر وغيره موضوع الخلافة ؟
٢ - هل ذهب هؤلاء الناس بأنفسهم وبرغبتهم إلى سقيفة بنى ساعدة ؟
٣ - هل تخلى على وبنو هاشم تمامًا عن التفكير فى الخلافة ؟
٤ - هل العمل الذى قام به عمر وغيره كان ينبغى القيام به فى مثل هذه الحالة أو لا ؟

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٣٢٥/١ (المترجم)

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٣٢٣/١ (المترجم)

وفيما يتعلق بالمبحثين الأولين فإننا نقل عبارة مسند أبى يَعْلَى [١] وهو كتاب موثوق به ونستطيع أن نفهم منه جيدًا حقيقة أمر هذه الواقعة : -

« بينما نحن فى منزل رسول الله - ﷺ - إذا رجل ينادى وراء الجدار / أن أخرج إلىّ يا بن الخطاب ، فقلت إليك عنى فإنا عنك مشاغيل ، يعنى بأمر رسول الله - ﷺ - فقال له قد حدث أمر ، فإن الأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة فأدركوهم أن يحدثوا أمرًا يكون فيه حرب ، فقلت لأبى بكر انطلق » [٢] . ٦٥

ويبدو من هذا أن عمر وغيره لم يتعرضوا لمسألة الخلافة ولم يرغبوا فى الذهاب إلى السقيفة بإرادتهم .

وبالنسبة للمبحث الثالث فإن جماعة المسلمين يمكن تقسيمها آنذاك إلى ثلاث مجموعات ، الأولى بنو هاشم بما فيهم علىّ ، والثانية المهاجرون وكان على رأسهم أبو بكر وعمر ، والثالثة الأنصار وكان شيخهم سعد بن عبادة ، ولم تخل أى مجموعة من المجموعات الثلاث من التفكير فى الخلافة ، أما الأنصار فقد أبدوا رغبتهم علانية ، وتتضح أفكار بنى هاشم من الرواية التالية :

« خرج علىّ من المنزل يوم وفاة الرسول - ﷺ - فسأله الناس : كيف حال رسول الله ؟ ولما كانت حالة الرسول الظاهرية - مطمئنة للغاية ، قال على : هو بخير بفضل الله » فأمسك العباس بيده وقال أقسم بالله / أنكم ستستعبدون بعد ثلاثة أيام ، ٦٦ وإننى أرى بعينى أن رسول الله سيموت فى هذا المرض عما قريب وإننى أعرف كيف يتغير وجه أسرة عبد المطلب باقتراب الموت ، فهيا بنا نسأل رسول الله لمن يؤول منصب الخلافة من بعدك ، فلو نستحقه فإن الرسول سيوصى به لنا ، قال سيدنا علىّ : أنا لن أسأله لأنه لو سألناه وأنكرها علينا فلن يكون هناك أى أمل فيها فى المستقبل » [٣] .

ويبدو جليًا من هذه الرواية مدى تفكير العباس ، أما علىّ فلم يكن متيقنًا من وفاة

---

(١) انظر : فتح البارى مجلد ٧ صفحة ٢٣ (المؤلف) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٥٦/٢ (المترجم) .

(٣) صحيح البخارى : باب مرض النبى - أيضًا فتح البارى (المؤلف) .

- صحيح البخارى : ١٤/٦ - ١٥ (المترجم) .

الرسول حتى ذلك الوقت لهذا فإنه لم ير مناسبًا أن يقترح شيئًا ، وعلاوة على هذا فإنه كان واثقًا من أن اختياره للخلافة لا يعتمد على ذهابه .

وبعد وفاة الرسول - ﷺ - احتشد جمع فى بيت السيدة فاطمة شارك فيه جميع بنى هاشم وأتباعهم وكان فى طليعتهم على ، ويروى البخارى على لسان عمر قوله [1] : -

« كان من خـــبرنا حين توفى الله نبيه أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأســـرهم فى سقيفة بنى ساعدة ، وخالف عنا على والزبير ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر »/ . ٦٧

وقد خطب عمر بهذا فى جمع هائل من المسلمين وكان بينهم مئات من الصحابة لهذا لا يمكن الظن فى أنه قال أمرًا خلافًا للواقع ، وإلا منعه الناس من الحديث فى نفس الوقت ، وتتضح هذه الواقعة أكثر برواية الإمام مالك حيث يقول : -

« وإن عليًا والزبير ومن كان معهما تخلفوا فى بيت فاطمة بنت رسول الله » [2] .

وفى تاريخ الطبرى : « وتخلف على والزبير واخترط الزبير سيفه وقال لا أغمده حتى يبايع على » [3] .

وتظهر من جميع هذه الروايات النتائج التالية بصورة واضحة : -

١ - بمجرد أن توفى الرسول انقسم الناس إلى ثلاث فرق هم : الأنصار والمهاجرون وبنو هاشم .

٢ - كان على مع بنى هاشم وأبو بكر مع المهاجرين .

٣ - ترك عمر ومن معه الرسول - ﷺ - وذهبوا إلى السقيفة ، وخرج على كذلك من عند الرسول وكان اجتماع بنى هاشم فى منزل السيدة فاطمة .

---

(١) المفتى الهندى : كنز العمال : ٣٧٧/٥ (المترجم) .

(٢) فتح البارى شرح الحديث المذكور (المؤلف) ، أيضًا : مســند الإمام أحمد بن حــنبل : ٣٢٣/١ - ٣٢٧ (المترجم) .

(٣) تاريخ الطبرى صفحة ١٨٢٠ (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٠٣ (المترجم) .

ولم يكن عدم ذهاب على إلى السقيفة يرجع إلى أنه قد استولى عليه الحزن على الرسول / ولم ينتبه إلى أمر الخلافة بسبب هذه المناسبة الحزينة ، بل كان سبب هذا يرجع إلى أن المهاجرين والأنصار المجتمعين فى السقيفة لم يؤيد فريق منهم عليًا فى دعواه لأن المهاجرين كانوا قد اتفقوا على خلافة أبى بكر ، وكان الأنصار قد اختاروا سعد بن عبادة خليفة .

٦٨

والمبحث الأخير هو أن الأمر الذى تم فى ذلك الوقت ، أكان صحيحًا أم لا ؟ إن أى شخص له دراية بسيطة بأصول الحضارة يمكن أن يدرك بسهولة أنه فى الوقت الذى توفى الرسول - ﷺ - فيه كانت المدينة المنورة تغص بالمنافقين الذين كانوا ينتظرون منذ مدة وفاة الرسول - ﷺ - لكى يقضوا على الإسلام ففى هذا الوقت الحرج هل كان من الضرورى أن يجزع الناس ويفزعوا وينهمكوا فى البكاء والعويل ؟ أو يبتوا فى أمر الخلافة على الفور وتستتب حالة الأمن والنظام . وبعد أن أثار الأنصار مسألة الخلافة من جانبهم ازداد الوضع حرجًا وحساسية ، لأن قريشًا كانت تعد الأنصار أقل قدرًا ، فعندما خرج الأنصار للقائهم فى معركة بدر ، قال عتبة مخاطبًا الرسول « يا محمد ، نحن لا نحارب من ليسوا منا » ولن نحنى رءوسنا أمام الأنصار بأى حال من الأحوال . ودع موقف قريش جانبًا فإن العرب كلهم يرفضون طاعة الأنصار ، لذا فإن أبا بكر قد وضح هذه الفكرة بجلاء فى الخطبة التى ألقاها فى السقيفة فقال :

« إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش » [(١)] وعلاوة على هذا فإن الأنصار أنفسهم كانوا منقسمين جماعتين لم تكونا على وفاق فيما بينهما فكان من اللازم فى هذه الحالة أن تكتب دعوى الخلافة لدى الأنصار ويتم فورًا اختيار رجل يليق بهذه الخلافة وكان أبو بكر أكبر من فى هذا الاجتماع سنًا وأكثرهم نفوذًا / إلا أن الناس وقعوا فى ورطة نزاع الأنصار وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى استلوا سيوفهم ، وعندما رأى عمر هذا الخلاف ، قال : « ابسط يدك يا أبا بكر » فبسط يده فبايعه وبايعه معه عثمان وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ، [(٢)] ثم تتابع الناس فبايعوه

٦٩

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٥٩/٢ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٠٥ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٢٣/١ - ٣٢٤ (المترجم) .

(٢) ذكر ابن الماوردى فى الأحكام السلطانية أن الذين بايعوا فى البداية كانوا خمسة أشخاص فقط (المؤلف) - ابن الماوردى : الأحكام السلطانية . طبعة مصر (١٩٠٩) ص : ٤٠ (المترجم) .

مجتمعين وبهذه الطريقة منع نشوب الفتنة ، وانصرف الناس إلى أعمالهم بعد أن اطمأنوا وظل بنو هاشم فقط على ادعائهم ، فكانوا يجتمعون فى بيت السيدة فاطمة ليتشاوروا من حين لآخر . وأراد عمر أن يحمل بنى هاشم على المبايعة بالقوة لكن بنى هاشم ما كانوا يريدون أن يحنوا هاماتهم أمام أحد سوى عليًا - رضى الله عنه - وقد روى الطبرى فى « التاريخ الكبير » وابن أبى شيبة فى « المصنّف » أن عمر وقف على باب بيت فاطمة وقال : « يا بنت رسول الله ، أقسم بالله أننا جميعًا نحترمك ونقدرك ، ومع ذلك لو استمر الناس يجتمعون عندك بهذه الصورة فإننى بسبب هؤلاء الناس سوف أشعل النار فى المنزل » . وبالرغم من أننا لا نستطيع أن نثق فى هذه الرواية لأنه لا يتوافر لدينا أى معلومات عن هذه الرواية إلا أنه ليس هناك أى سبب لرفض هذه الرواية من ناحية « الدراية » فلا يستبعد هذا الإجراء من عمر « المعروف » بالشدة وحدة المزاج ، والحقيقة أن الإجراءات التى قام بها عمر فى هذا الوقت الحرج بكل سرعة وحماس ربما يكون فيها بعض التجاوزات ، ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن تلك التجاوزات كانت من أجل إخماد الفتن والقضاء عليها ولو أن مؤامرات بنى هاشم قد استمرت فى ذلك الوقت لتشتت شمل جماعة المسلمين / ونشبت الحروب الداخلية التى وقعت فيما بعد بين على - كرم الله وجه - ومعاوية . ٧٠

كانت فترة خلافة أبى بكر عامين فقط لأنه توفى فى جمادى الثانى سنة ١٣ هـ ومع هذا فإنه فى هذه المرة قد قام بأعمال عظيمة وشاركه الفاروق عمر فى إنجازها لذا لا أستطيع أن أكتب هذه الأعمال فى كتابنا « الفاروق » لأنها تأتى ضمن أحداث عهد الصديق وستكون من نصيب الرجل الذى سينال شرف كتابة سيرة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه .

ومع أن أبا بكر قد عرف بالتجربة الطويلة وتيقن أن عبء الخلافة الثقيل لا يستطيع أن يتحمله شخص آخر سوى عمر ، مع هذا فإنه قبيل وفاته تشاور مع كبار الصحابة لمعرفة الرأى العام فكان أول من دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له أخبرنى عن عمر؟ قال لا مجال للحديث عن أهلية عمر لكن فيه غلظة ، قال أبو بكر إنه غليظ فى طبعه لأننى رقيق الطبع ولو أفضى الأمر إليه لأصبح رقيق الطبع من تلقاء نفسه ، ثم دعا

عثمان فسأله ، قال : كل ما يمكن أن أقوله أن « سريرة عمر خير من علانيته »[1] وليس فينا مثله . وعندما شاع هذا الأمر وهو أن أبا بكر يريد أن يستخلف عمر تردد البعض فدخل طلحة على أبى بكر فقال : ألا ترى كيف يعاملنا وأنت بيننا؟ وعندما يصبح خليفة فالله يعلم ماذا يفعل بنا وأنت الآن ذاهب إلى ربك فبماذا يجيبك ؟ قال أبو بكر / سأقول لربى « لقد استخلفت على عبادك خير أهلك »[2] ، قال هذا ثم دعا عثمان وبدأ يستكتبه أمر الاستخلاف ، فأملى عليه الكلمات الأولى ثم أغمى عليه وعندما رأى عثمان هذا كتب هذه الكلمات من عنده « إنى قد استخلفت عليكم » وبعد قليل أفاق أبو بكر فقال لعثمان ماذا كتبتَ ؟ اقرأ علىّ فقرأ عليه عثمان فكبّر أبو بكر مرتجلاً وقال « جزاك الله خيرًا » وكتب الوصية وأعطاها أبو بكر لمولاه « شديد » وقال اقرأها على الملأ ، ثم صعد إلى شرفة بيته وخاطب الناس الذين تجمعوا فى الخارج ، قال : أنا لم أستخلف أحد أقاربى بل استخلفت عمر ، أترضون عنه؟ فقال الجميع « سمعنا وأطعنا » ثم دعا عمر فنصحه نصائح مفيدة مؤثرة أصبحت لعمر فيما بعد بمثابة المنهاج الرئيسى لخلافته / .

٧٢

٧١

* * *

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٢٨ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٣٣/٣ (المترجم) .

خلافة عمر وفتوحاته

لقد بدأت فى أيام أبى بكر الصديق فتوحات البلدان بعد أن تم القضاء على المرتدين من العرب وأدعياء النبوة ، ففى العام الثانى لخلافته أى فى سنة ١٢ هـ أرسل الجيش إلى العراق وفتحت جميع مدن الحيرة ، وبدأ الحملة على الشام سنة ١٣هـ - ٦٣٤م وانتشرت الجيوش الإسلامية فى جميع أقاليمها وكانت هذه الغزوات فى بداية أمرها عندما توفى أبو بكر - رضى الله عنه - وعندما أمسك عمر بزمام الخلافة بيديه [١] كان أهم الأعمال جميعًا إنجاز هذه المهمات ، ولكن قبل أن نكتب تفاصيل هذه الوقائع من الضرورى أن نذكر نوعية علاقات العرب بفارس والشام قبل الإسلام .

إن قبائل العرب التى تعرف باسم « العرب البائدة » أحوالهم غير معروفة لدينا ، إلا أنه من المعروف أن قبائل عاد والعمالقة قد استولت على العراق . أما « العرب العاربة » الذين حكموا اليمن قد قويت حكومتهم فى عصر من تلك العصور لدرجة أنهم استولوا على العراق عدة مرات وكانوا يحسبون أنفسهم أندادًا لمملكة فارس .

ثم بدأ العرب أنفسهم التوطن فى ربوع فارس تدريجيًا وكان بخت نصر ملكًا على بابل وقد ذاع صيته بسبب تحطم بيت المقدس ، وعندما حمل على العرب دخل كثير من القبائل العربية فى طاعته لذا رحلوا بسبب هذه العلاقة إلى العراق وأقاموا بها ، وبالتدريج استوطن فى هذه الأماكن كثير من أولاد معد بن عدنان حتى أقيمت دعائم الإمارة / وعندما ظهرت حركات ملوك الطوائف فى مملكة فارس ، أقام العرب لهم حكومة مستقلة آنذاك كان حاكمها الأول مالك بن فهم العدنانى . وكان جذيمة الأبرش من هذه الأسرة وتوسعت دائرة مملكته توسعًا كبيرًا وخلفه على العرش ابن أخته عمرو بن عدى فجعل الحيرة عاصمة ملكه ولقب بملك العراق ، ولقد قطعت شأوا بعيدًا فى الحضارة والمدنية فقد ذكر هشام بن الكلبى [٢] : « لقد اطلعت على معظم أحوال العرب وعلاقاتهم بفارس من كتبهم التى ألفت فى مدينة الحيرة آنذاك » وهذه هى

٧٣

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف : ٢٨٩ (المترجم) .

(٢) ذكر هشام بن الكلبى هذا فى كتاب التيجان (المؤلف) .

- سبق أن أشرنا إلى هذا الخطأ وهو أن كتاب التيجان من تأليف وهب بن منبه (المترجم) .

الفترة التى أسس فيها أردشير بن بابك مملكة واسعة بعد أن قضى على ملوك الطوائف وأجبر عمرو بن عدى على أن يدفع له الخراج وظلت أسرة عمرو بن عدى تحكم العراق زمنًا طويلاً إلا أنها فى الحقيقة كانت تتبع مملكة فارس .

وفى عهد شابور بن أردشير الملك الثانى فى الأسرة الساسانية ، أصبح اليمن والحجاز كلاهما يدفع الخرَاج له ، وعين امرؤ القيس الكندى عاملاً لتلك الأقاليم ، مع هذا فإن بقاء العرب خاضعين كان امرًا غير طبيعى ، لذا كانوا يشقون عصا الطاعة عندما تسنح لهم الفرصة ، وعندما جلس شابور ذو الأكتاف على عرش فارس وهو طفل عمت الثورة والتمرد بين العرب لدرجة أن قبيلة عبدالقيس حملت على فارس ذاتها ، كما أخضع إياد أقاليم العراق ، وعندما كبر شابور صار ملكًا ذا عزيمة وبأس ، فأراد الانتقام من العرب بسبب ثورتهم فوصل إلى هجر وقضى على قبيلة عبد القيس فى وحشية منقطعة النظير حتى وصل المدينة المنورة . وكان يستأصل أكتاف زعماء العرب الذين يأتون بهم إليه ولهذا السبب اشتهر بين العرب بلقب « ذو الأكتاف » .

والنعمان بن المنذر الذى كان من سلاطين الحيرة واعتنق النصرانية أيام كسرى برويز وقد زج به برويز فى السجن بسبب تغيير دينه أو لسبب آخر حتى توفى فيه ، وأودع النعمان سلاحه وعتاده أمانة عند هانى سيد قبيلة بكر فطلب برويز هذه الأمتعة منه لكنه رفض ، فأرسل إليها الهرمزان بجيش قوامه ألف رجل ليسلبها بالقوة ، فاجتمعت قبيلة بكر كلها فى استعداد كامل فى منطقة ذى قار ونشبت معركة حامية ، وانهزم الفرس هزيمة منكرة ، وقد اشترك رسول الله - ﷺ - فى هذه المعركة وقال عنها « هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم » وقد نظم جميع شعراء العرب القصائد والأشعار بحماس وفخر فى هذه المعركة . وفى سنة ٦ هـ عندما كتب رسول الله - ﷺ - رسائل الدعوة إلى الإسلام ولم يشر إلى الحرب فى تلك الرسائل ، فبعد أن قرأ برويز الرسالة قال « إن عبدى يكتب إلىَّ بهذا الأسلوب !! » ولم يكتف بهذا ، بل كتب إلى بازان وكان عاملاً على اليمن أن ابعث من « يأتينى بمحمد أسيرًا إلى البلاط » ، وبالصدفة فى تلك الأيام قُتل برويز على يد ابنه فظل الأمر على ما كان عليه ، وأما العلاقة بين العرب ودولة الروم فهى إن بعض القبائل العربية مثل سليح وغسان وجذام ٧٥ / وغيرها قد رحلت إلى المراكز الحدودية للشام واستوطنوها ثم استولى هؤلاء الناس تدريجيًا على مراكز الشام الداخلية ، وبعد أن تعاظمت قوتهم عرفوا بلقب « ملوك الشام » لكن هذا اللقب كان من اختراعهم كما صرح المؤرخ ابن الأثير أنهم « كانوا من عمال دولة الروم فى الحقيقة » .

وقد اعتنق هؤلاء الناس النصرانية قبل الإسلام بزمن طويل ، وبسبب هذا نشأ نوع من القرابة بينهم وبين الروم ، وعندما ظهر الإسلام ناصبوا الإسلام العداء مثل المشركين العرب . وفى سنة ٦هـ عندما كتب رسول الله - ﷺ - رسالة إلى قيصر الروم يدعوه فيها إلى الإسلام وحمل الرسالة إليه دحية الكلبى [١] ، مر وهو عائد بأرض جذام فأغار هؤلاء العرب الشوام على دحية وسلبوا جميع أمواله وأمتعته ، وكذلك عندما بعث رسول الله الحارث بن عمر برسالة أخرى إلى حاكم البصرة قتل بأمر عمرو بن شرحبيل لذلك أعد الرسول جيشًا فى سنة ٨هـ للثأر منه وهكذا وقعت غزوة مؤتة واستشهد فى هذه المعركة كبار الصحابة مثل : زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة إلا أن الجيش رجع معاق بخطة خالد بن الوليد ، ومع هذا كانت الهزيمة هى فى الحقيقة نتيجة هذه المعركة [٢] .

وفى سنة ٩هـ استعد الروم استعدادًا خاصًا للهجوم على المدينة وزحف رسول الله بنفسه حتى وصل إلى منطقة تبوك ولم يتقدموا نحوهم وتأجلت الحرب آنذاك مؤقتًا لكن

٧٦ لم يكف المسلمون أبدًا عن التفكير فى أمر الروم والغساسنة / حتى إن المسلمين كانوا يخافون دائمًا من أن يهاجم الروم المدينة . وقد جاء فى صحيح البخارى أنه عندما اشتهر أن الرسول - ﷺ - طلق أزواجه الطاهرات ذهب رجل إلى عمر وسأله : هل سمعت شيئًا قال عمر : ماذا؟ هل هاجمت الغساسنة ؟ لذا على سبيل الاحتياط أمر رسول الله - ﷺ - أسامة بن زيد وأرسله لحرب الشام سنة ١١ هـ . ولأنها كانت مواجهة مع دولة عظمى كلف أبا بكر وعمر وكبار الصحابة ليذهبوا مع الجيش ، ولم يكد أسامة يتولى الأمر حتى مرض رسول الله وتوفى ، وعندما تولى أبو بكر الخلافة كانت هذه هى حالة العرب فقد أصبح العرش هدفًا لكل من الدولتين (فارس والروم) ، وعندما أعد أبو بكر جيشًا لغزو الشام قال مخاطبًا الجيش « من مات منكم شهيدًا ، ومن عاش منكم فقد عاش مدافعًا عن الدين أى أنه حمى الدين من هجوم الأعداء » ويتضح من هذه الأحداث الأسباب التى حملت أبا بكر على القيام بالعمل الذى أكمله عمر وبعد هذا

٧٧ التمهيد الوصفى نبدأ بما هو نحن بصدده أصلاً / .

* * *

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٦٠٧/٢ (المترجم) .

(٢) المرجع السابق : ٣٧٣/٢ - ٣٧٥ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٣٦/٣ - ٣٧ (المترجم) .

فتوحات [١] العراق [٢]

إن العهد الرابع من عهود دولة فارس والذى يطلق عليه اسم العهد الساسانى نال شهرة عريضة بسبب أنو شيروان العادل ، وكان حفيده برويز على العرش فى عهد رسول الله - ﷺ - وقد ظلت المملكة قوية وعظيمة البأس حتى عهد هذا الملك المتكبر . وبعد موته فجأة بدأت عوامل الضعف والإنحلال تسرى فى أوصالها وظلت الحكومة فى اضطراب حتى نهايتها فحكم ابنه شيرويه ثمانية أشهر وقام بقتل جميع إخوته وعددهم خمسة عشر تقريبًا ، ثم جلس بعده على العرش ابنه أردشير وهو فى السابعة من عمره وبعد عام ونصف قتله أحد قادة البلاط ونصب نفسه ملكًا وحدث ذلك سنة ١٢هـ وبعد عدة أيام قتله أهل البلاط وأجلسوا على العرش جوان شير ولكنه مات بعد عام واحد ولم يكن فى الأسرة سوى يزدجرد وكان صغير السن ، ولم يبق بين الذكور أحد على قيد الحياة ، لذا نصبوا « بوران دخت » على العرش بشرط أن يمسك يزدجرد بمقاليد الحكم حينما يصل إلى سن الرشد[٣] / . ٧٨

وانتشرت الاضطرابات فى كل مكان بالدولة وعرف فى عهد بوران أنه لم يبق هناك من يرث عرش فارس وتاجه بسبب الثورات التى تعاقبت على الحكم بعد برويز

---

(١) قسم الجغرافيون العراق إلى قسمين : القسم الملحق ببلاد العرب ويسمونه عراق العرب ، والقسم الثانى الملحق ببلاد العجم ويسمونه عراق العجم ، والحدود الأربعة لعراق العرب هى : الجزيرة العربية من الشمال وبحر فارس من الجنوب وخوزستان من الشرق وديار بكر التى أشهر مدنها الموصل - من الغرب وعاصمتها بغداد ومن أشهر المدن العامرة فيها : البصرة والكوفة وواسط وغيرها . (المؤلف) .

(٢) كانت الطريقة العامة لمؤرخينا هى أنهم يعنونون الأحداث بالسنين وما يعيب هذه الطريقة أنها تجزئ تسلسل الأحداث ، فهم مثلاً يؤرخون لفتوحات إيران حتى تنتهى السنة فيكتبون فى هذه السنة جميع الأحداث التى حدثت فى تلك السنة ، لهذا تنقطع سلسلة الأحداث فى موضع حساس جدًا ، وقبل أن ينتهى سرد فتوحات إيران يتعرضون لأحداث مصر والشام فى تلك السنة ، لذا فقد ذكرت جميع فتوحات إيران فى مكان واحد وفتوحات الشام فى مكان واحد وفتوحات مصر فى مكان واحد . (المؤلف) .

(٣) لقد اختلف المؤرخون فى تحديد الأسماء وترتيب قائمة الملوك بعد شيرويه ، حتى لا يتفق مؤرخان فيما بينهما وما ذكره الفردوسى يختلف عما ذكره جميع المؤرخين وأنا أرجح ما ذكره أبو حنيفة الدينورى لكونه فارسى الأصل ولأنه الأقدم . (المؤلف) .

وأجلسوا إحدى النساء اسمًا فى الإيوان الملكى ، وعندما انتشر هذا الخبر فى العراق قام قائدان من قبيلة وائل هما : المثنى الشيبانى وسويد العجلى بجمع جماعات قليلة من الناس وبدءوا الغارة على حدود العراق من ناحية الحيرة والأبلة [١] وكان ذلك فى زمان خلافة أبى بكر . وكان خالد سيف الله قد فرغ من مهمات اليمامة والقبائل العربية الأخرى ، وجاء المثنى إلى أبى بكر وحصل على إذنه فى غزو العراق ، ومع أن المثنى نفسه كان قد أسلم إلا أن قبيلته كلها كانت حتى ذلك الوقت إما وثنيين أو نصارى ، وعندما عاد من عند أبى بكر دعا قبيلته إلى الإسلام [٢] فأسلمت القبيلة كلها وسار معه جماعة عظيمة من المسلمين الجدد واتجهت ناحية العراق ، عندئذ أرسل له أبو بكر خالدًا لمساعدته وفتح خالد جميع مناطق العراق الحدودية ورفع راية النصر على الحيرة وهذا المكان على بعد ثلاثين ميلاً من الكوفة ، وكان النعمان بن المنذر قد أقام فيها قصر « الخورنق الشهير » لذا كان هذا المكان يعد من الأماكن التذكارية .

وفتوحات خالد هذه فى العراق تشتمل على أعماله العظيمة لكن ليس هنا مجال لذكرها ، وكان من الممكن أن ينهى خالد مهمات العراق كلها ولكن كانت هناك مهمة فتح الشام وقد استعد النصارى هناك للحرب بكل ما لديهم من قوة ، ولم تكن هناك استعدادات كاملة لدى المسلمين لمواجهتهم / لذا أرسل أبو بكر فى ربيع الثانى سنة ١٣هـ[٣] / ٦٣٤م أمرًا إلى خالد بالتوجه فورًا إلى الشام وأن يخلف المثنى مكانه ، وبمجرد أن رحل خالد إلى الشام توقفت فجأة فتوحات العراق . ٧٩

وعندما استخلف عمر اهتم أولاً بأمر العراق ، وكان قد جاء لبيعته أناس بلا حصر من جميع الأماكن والبلدان وقد ظلت جموعهم تتدفق ثلاثة أيام ، واغتنم عمر هذه المناسبة فتحدث عن الجهاد فى الحشد العام ولكن لأن الناس كانوا يعتقدون أن العراق عاصمة حكومة فارس ولا يمكن فتحها بدون خالد لهذا ظل الجميع صامتين ، وظل عمر يعظ فيهم عدة أيام بلا تأثير ولما كان اليوم الرابع خطب فيهم بحماس حتى

---

(١) الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدنيورى (المؤلف) .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى صفحة ٢٤١ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٤٢ - ٢٤٣ (المترجم) .

(٣) البلاذرى صفحة ٢٥٠ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٥١ (المترجم) .

اهتزت قلوب الحاضرين ، فنهض المثنى الشيبانى وقال : « أيها المسلمون لقد جربنا المجوس فهم رجال حرب وقد فتحنا أكبر مدن العراق واعترف العجم بيأسنا »[١]
وكان أبو عبيد الثقفى من بين الحاضرين وهو سيد قبيلة ثقيف المشهور فهب واقفًا فى حماس وقال : « أنا لهذا » فألهبت شجاعة أبى عبيد جموع الحاضرين وتعالت الأصوات من كل مكان بأهبتهم كذلك ، وانتخب عمر ألف رجل من المدينة المنورة وما جاورها وأمر عليهم أبا عبيد .

لم ينل أبو عبيد الثقفى هذا شرف صحبة الرسول - ﷺ - أى لم يكن صحابيًا ، لهذا لم يكن أحد يتوقع إمارته / حتى قال أحد الناس بحرية : يا عمر أمر عليهم رجلاً من الصحابة وفى الجيش مئات الصحابة ولا يمكن أن يكون أمير الصحابى إلا صحابيًا ، فنظر عمر ناحية الصحابة وقال : لقد نلتم شرفكم بسبب الجرأة والثبات ولكنكم فقدتم هذا الشرف فلا يمكن مطلقًا أن أؤمر عليكم الذين يتثاقلون عن القتال ، ولما كانت مواساة الصحابة أمرًا ضروريًا لذا نصح أبا عبيد بأن يتأدب معهم ويشاورهم فى كل عمل (يقدم عليه)[٢] . ٨٠

لقد أفزعت الحملة على العراق فى عهد أبى بكر الفرس ، فاستدعت بوران دخت رستم إلى بلاطها وكان ابنًا لفرخ زاد حاكم خراسان وكان شجاعًا ومدبرًا فعينته وزيرًا للحرب وقالت له أنت صاحب الأمر والنهى . وبعد أن قالت هذا وضعت التاج على رأسه وأكدت لأهل البلاط - وكان من بينهم أمراء المملكة وأعيانها - بألا ينحرفوا عن طاعة رستم ، وقد رأى الفرس ما آلوا إليه لتفرقهم فأطاعوا أوامره طاعة عمياء ، ونتيجة لهذا محيت مساوئ الإدارة تمامًا فى بضعة أيام ، واستردت المملكة نفس القوة التى قد حصلت عليها فى أيام هرمز وبرويز .

وأول خطة قام بها رستم هى إرسال العمال والنقباء إلى جميع مدن العراق ليثيروا فيها الحمية الدينية وهكذا عمت الثورة ضد المسلمين فى جميع أنحاء الدولة واندلعت الثورة فى جميع مدن الفرات قبيل وصول أبى عبيد وفقد المسلمون المناطق التى كانت فى حوزتهم ، ثم أعدت بوران / جيشًا كبيرًا لنجدة رستم وأمرت عليه القائدين نرسى ٨١

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٤٥/٣ (المترجم) .

(٢) برواية البلاذرى ، وقد ذكر أبو حنيفة الدنيورى أن عددهم خمسة آلاف (المؤلف) .

وجابان ، وكان جابان أحد أثرياء العراق المعروفين ويكن عداءًا شديدًا للعرب وكان نرسى ابن خالة كسرى وكانت بعض مراكز العراق ضمن أملاكه منذ القدم واتجه هذان القائدان إلى العراق من طريقين مختلفين ، ومن ناحية أخرى وصل أبو عبيد والمثنى إلى الحيرة وعرفوا بحالة استعداد العدو ، وعَلِمَا أن المصلحة تقتضى منهم الانسحاب إلى خفان والتحصن بها ، وقد وصل جابان إلى النمارق وعسكر بها .

وجهز أبو عبيدة الجيش بالعدة والعتاد فى تلك الأثناء ، وتقدم للهجوم بنفسه والتقى الجمعان عند النمارق وكان على ميمنة جابان وميسرته القائدان الشهيران جوشن شاه ومردان شاه وقد حاربا بثبات وشجاعة ولكنهما انهزما فى النهاية وتم أسرهما فى المعركة . ومن سوء حظ مردان شاه أنه قتل فى ذلك الوقت ، لكن جابان أفلت بحيلة فالرجل الذى أسره لم يكن يعرفه فقال له جابان ماذا تصنع بى فى هذه الشيخوخة فاتركنى وخذ منى فى المقابل غلامين فقبل العرض وفيما بعد أحدث ضجيجًا عندما عرفوا أنه جابان وقالوا : يجب ألا نترك مثل هذا العدو لكن أبا عبيد قال : « إن الغدر لا يجوز فى الإسلام » [1] .

واتجه أبو عبيد بعد هذه المعركة إلى كَسْكَر حيث كان بها جيش نرسى ، وتصادم الجيشان عند السقاطية وكان نرسى يقود جيشًا جرارًا وكان على الميمنة والميسرة ابنا خال كسرى نفسه وهما بندويه وتيرويه ومع هذا أخذ نرسى يؤخر المعركة / حتى تسير إليه جيوش النجدة التى غادرت العاصمة ، وعرف أبوعبيدة أيضًا بهذا الخبر فسارع ببدء المعركة وانهزم نرسى بعد معركة حامية وأقام أبو عـبيد فى السقاطـية ذاتها وأرسل مجموعات صغيرة من الجيش فى كل مكان حيث يحتمى الفرس ليخرجوهم من هناك .

٨٢

وذات يوم خضع فرخ وفروانداد للمسلمين وكانا أميرين على باروسما وزوابى ، ولإظهار إخلاصهما أعدا طعامًا شهيًا وأرسلاه إلى أبى عبيدة ، فقال أبو عبيد أأكرمتم الجيش بمثله أم هذا لى فقط ؟ قال فرخ لم يتيسر لنا الاهتمام بالجند كله فى هذه العجالة ، فلم يقبل أبو عبيد الدعوة وقال لافضل عند المسلمين لأحد على الآخر [2] .

وعندما علم رستم بهذه الهزيمة أرسل مردان شاه – الذى كان يضمر العداء

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٤٩/٣ – ٤٥٠ (المترجم) .
(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٥١/٣ – ٤٥٢ (المترجم) .

للعرب وقد لقبه أنوشيروان بـ « بهمن » [1] احترامًا وتقديسًا له – بجيش قوامه أربعة آلاف جندى بعتادهم بحيث تتقدمهم راية « كاويانى » التى ظلت أثرًا قديمًا تتوارثه أسرة كيانى عنه عدة آلاف سنة وكانت تعتبر فاتحة النصر وكانت هذه الراية تظلل رءوسهم فى موضع على الضفة الشرقية للفرات يسمى المروحة [2] واصطف الندان كلاهما وكان النهر حائلاً بينهما ، فأرسل إلى بهمن « إما أن تعبروا إلينا أو تدعونا نعبر » فقال جميع قادة أبى عبيد بعد أن وحّدوا كلمتهم يجب أن نبقى فى هذا الجانب ، لكن أباعبيد الذى سكر بنشوة الشجاعة اعتبر هذا الأمر دليلاً على الجبن وقال للقادة لا يمكن أن يفوق علينا المجوس فى ميدان الفداء / وكان مردان شاه الذى جاءهم بهذه الرسالة قد قال لهم إن الاعتقاد السائد فى جيشنا أن العرب ليسوا رجال حرب . فزادته هذه العبارة ثورة وهياجًا وأمر أبو عبيد الجيش فى ذلك الوقت بالاستعداد ، وكان سليط والمثنى وغيرهما من كبار قادة الجيش معارضين تمامًا لهذا الرأى وكان أبو عبيد قد تجاوز عن مكانتهم وشأنهم وعندما أصر أبو عبيد قال هؤلاء الناس : مع أنه من المؤكد أن العمل بهذا الرأى فيه الهلاك لكل الجيش لكنك أنت القائد الآن وليس من شيمتنا مخالفة القائد ، ثم نصبوا الجسور وعبر الجيش وتحاربوا مع العدو وكان موضع العبور ضيقًا متوعرًا فلم يتيسر الوقت للمسلمين لكى ينظموا صفوف الجيش [3] .

٨٣

وكان منظر الجيش الفارسى مهيبًا للغاية ، وبه كثير من الفيلة المجهزة بالعتاد ، والجلاجل فرقت بين كراديسهم فكانت ترن بقوة راعدة ، وعلى الخيل آلة الحرب ويرتدى الفرسان قلانس السمور الطويلة فيبدون وكأنهم حيوانات من الغابة ورأت خيول العرب منظرًا لم تكن تراه من قبل فنفرت وتقهقرت ، وعندما رأى أبو عبيد أنه ليس هناك قوة تقف أمام الفيلة فترجل عن جواده ونادى على رجاله فقال أيها الفدائيون اقطعوا بطن هوادج الفيلة وأقلبوا عنها أهلها ، ومع هذا الصوت قفز الجميع من على الخيول وقطعوا حبال الهوادج وقتلوا أصحاب الفيلة إلا أن فيلاً مال عليهم فكان يسحق

---

(١) بهمن كلمة مركبة من (به) بمعنى الأفضل و (من) أى الخلق أى ذو الخلق الأفضل .

(٢) يقال لهذه المعركة قس الناطف ، ويقال لها الجسر ، ويقال لها المروحة وذكرها الطبرى تحت اسم وقعة القرقسى . تاريخ الطبرى : ٤٥٤/٣ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤٥٤/٣ (المترجم) .

الصفوف ، وعندما رأى أبو عبيد هذا حمل على الفيل الأبيض الذى كان قائدًا للجميع فضرب خرطومه بسيفه حتى فصله عن جبهته ، فتقدم الفيل ورماه على الأرض ووضع قدميه على صدره حتى تكسرت عظامه / . ٨٤

وبعد استشهاد أبى عبيد تلقف أخوه الحكم الراية وهجم على الفيل فأوقعه أيضًا تحت أقدامه وقتله ، وهكذا حمل الراية سبعة رجال من أقارب أبى عبيد وقتلوا واحدًا تلو الآخر ، وفى النهاية حمل المثنى الراية إلا أن النظام قد اختل واضطربت الصفوف وهرب الناس من الجيش . ومما زاد الطين بلة أن شخصًا بادر إلى الجسر وقطعة حتى لا يهرب أحد (١) ولهذا عندما هرب الناس على غير هدى ولم يجدوا الجسر ألقوا بأنفسهم فى النهر فأقام المثنى الجسر مرة أخرى وأرسل مجموعة من الفرسان ليطمئن الهاربون حتى يعبروا باطمئنان ، أما هو فقد وقف أمام العدو يمنعه بنفسه ببسالة وثبات حتى توقف الفرس الذين كانوا يدفعون المسلمون ولم يتقدموا ، ومع ذلك حينما تم الحصر علم أنه قد بقى ثلاثة آلاف فقط من الجيش المكون من تسعة آلاف جندى .

إن الفرار من أرض المعركة شاذ ونادرًا ما حدث فى تاريخ الإسلام ولو حدث مثل هذه الواقعة فإنها تترك فى (نفوس الهاربين) أثرًا محزنًا غريبًا ، فظل الناس الذين نالوا هذا الخزى فى هذه المعركة هائمين على وجوههم فى البادية لفترة طويلة ولم يعودوا إلى منازلهم خجلاً وظل كثير يبكون ويستترون من الناس ووصل هذا الخبر إلى المدينة المنورة فعم المأتم وحزن الناس لسوء حظ المسلمين وبكوا . أما الذين وصلوا منهم إلى المدينة فكانوا يتوارون فى المنازل ولا يخرجون حياءً وعارًا وكان عمر يذهب إليهم ويواسيهم وكان يقول : / لقد جئتم « متحيزًا إلى فئة » (٢) وأنا فئتكم لكنهم لم يقتنعوا بهذا التأويل . ٨٥

وقد وقعت هذه الواقعة يوم السبت من شهر رمضان سنة ١٣ هـ (كما ذكر البلاذرى) (٣) وكان من بين كبار الصحابة الذين استشهدوا فى هذه المعركة : سليط بن قيس وأبو زيد الأنصارى وعقبة وعبد الله ابنا قبطى بن قيس ويزيد بن قيس الأنصارى وأبو أمية الفزارى وغيرهم .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٥٥ - ٤٥٨ (المترجم) .

(٢) سورة الأنفال : آية : ١٦ (المترجم) . (٣) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٥٣ (المترجم)

موقعة البويب : رمضان سنة ١٤ هـ / ٦٣٥م

أغضبت هذه الهزيمة عمر غضبًا شديدًا ، فقام باستعدادات ضخمة للحرب وأرسل فى العرب الخطباء والنقباء الذين ألهبوا نار الحمية عند العرب جميعًا بالخطب الحماسية ، فأقبلت قبائل العرب متحمسين من كل صوب وحدب ، وحضر المحنف ابن سليم زعيم قبيلة الأزد ومعه سبعمائة فارس وجاء ألف رجل من بنى تميم فى صحبة حصين بن معبد ، كما جاء عدى بن حاتم الطائى بجمع غفير وكذلك جاءت حشود عظيمة من قبيلة رباب وبنى كنانة وخثعم وبنى حنظلة وبنى الضبة كل منهم مع شيوخهم ، وعم الحماس لدرجة أن زعيمى [1] نمر وتغلب وكانا نصرانيين جاءا إلى عمر وقالوا « المواجهة اليوم بين العرب والعجم ، ونحن نريد أن نشارك القوم فى هذه المعركة القومية » وكان مع هذين الزعيمين آلاف من رجال قبيلتيهما ، وكانوا متشوقين لقتال العجم .

وحضر جرير الجبلى إلى باب الخلافة فى تلك الأيام مصادفة وكان قائدًا مشهورًا ، وكان قد جاء إلى رسول الله - ﷺ - وطلب منه أن يؤمره على قبيلته / فقبل رسول الله - ﷺ - طلبه هذا ولكن لم تسنح الفرصة للتنفيذ وعندما حضر إلى عمر فأرسل عمر الأوامر إلى جميع العمال فى العرب بأن على كل مقاتل فى قبيلته - حيثما وجد - أن يمثل أمامه فى يوم محدد ، فجاء جرير بهذا الجمع الهائل ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى .

٨٦

ومن ناحية أخرى أرسل المثنى النقباء إلى جميع المناطق الحدودية وجمع جيشًا جرارًا ، ونقل الجواسيس الفرس هذه الأخبار إلى البلاط الملكى ، فأمرت بوران دخت أن يختاروا اثنى عشر ألف فارس من خاصة وجعلت مهران بن مهرويه الهمدانى قائدهم ، وقد اختير مهران لأنه تربى بين العرب ولهذا كان يستطيع أن يقدر مدى قوة العرب وكان أحد المواقع اسمه البويب قرب الكوفة فوصل إليه الجيش الإسلامى وأقاموا المعسكرات وترك مهران العاصمة مباشرة حتى وصل إلى البويب فخيموا الخيام وجعلوا نهر الفرات فاصلاً بينهما ، وفى الصباح عبر الفرات وبدأ يرتب صفوف الجيش بجميع عتاده الضخم ، وأعد المثنى الصفوف بترتيب محكم بعد أن قسم الجيش إلى

---

(١) وهما : أنس بن هلال وابن مردى الفهر التغلبى (المترجم) . (تاريخ الطبرى : ٤٦٦/٣) .

كتائب مختلفة وجعلها تحت إمرة كبار الصحابة ، فعين على الميمنة مذعورًا وعلى الميسرة النُسير وعين مسعودًا على المشاة وعاصمًا على المجردة ، وأمر عصمة على طلائع الجيش واستعد الجيش وطاف المثنى عليهم من مقدمة الجيش حتى مؤخرته وكان يقف عند كل راية ويقول : « أيها الأبطال ! إنى لأرجو ألا تؤتى العرب من قبلكم »[1]

وكانت خطة المعركة فى الجيش الإسلامى أن يكبّر القائد ثلاث مرات ، ففى التكبيرة الأولى / يعد الجند الأسلحة والحراب وفى التكبيرة الثانية يمسكون الأسلحة بأيديهم ويهجمون فى التكبيرة الثالثة ، ولم يكن المثنى قد أطلق التكبيرة الثانية حتى هجم الفرس وبعد أن رأى المسلمون هذا الأمر لم يضبطوا أنفسهم وخرج بعضهم من الصفوف بسبب الحماس فغضب المثنى وأخذ يعض على لحيته ويصيح : « بالله لا تفضحوا الإسلام » فرجعوا إلى الوراء فى صفوفهم بمجرد أن سمعوا نداءه وثبت كل واحد منهم فى مكانه ثم حملوا عليهم بعد أن كان كبّر المثنى التكبيرة الرابعة . ٨٧

وتقدم العجم يرعدون كالرعد المدوى فى ميدان المعركة ، فصاح المثنى فى الجند بألا يضطربوا فهذا ضجيج الفشل واستدعى القائدين النصرانيين اللذين كانا معه وقال لهما : « إنكم من العرب ومع أنكم لستم فى ديننا إلا أن اليوم يوم العرب فعليكم أن تكونوا معى عندما أهجم على مهران فأجابوه وكان هذان ساعدى المثنى فى الهجوم وهجم على العدو وفى أول وهلة حطم ميمنة مهران ودخل فى قلب الجيش ثم استرد الفُرس قوتهم وهجموا على المسلمين بشدة حتى تزلزلت أقدام المسلمين وتركوا أماكنهم ، فصاح المثنى وقال : « أيها المسلمون أين تذهبون هأنا ذا أقف » فرجعوا مع هذا النداء [2] وجمعهم المثنى مرة أخرى وحمل على العدو وفى نفس الوقت سقط مسعود أخو المثنى جريحًا وكان بطلاً مغوارًا فظهر الاستياء بين الجند الذين كانوا تحت إمرته ، فقال المثنى : « أيها المسلمون لا ضير أن مات أخى فهكذا يضحى الشرفاء بأنفسهم فخذوا حذركم وألا تنكس راياتكم وقال مسعود نفسه وهو يقع على الأرض لا يهولنكم مصرعى » / . ٨٨

واستمر القتال العنيف لفترة طويلة وظل القائد النصرانى أنس بن هلال يقاتل

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٦٥ (المترجم) .

(٢) الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (المؤلف) .

بثبات منقطع النظير حتى سقط قتيلاً ، فنزل المثنى بنفسه من على جواده واحتضنه ووضعه بجوار أخيه مسعود ، واستشهد كثير من القادة العظام من المسلمين ومع هذا استمرت دفة المعركة فى صالحهم بسبب ثبات المثنى وقد قاتل قلب جيش العجم قتالاً شرسًا لكنهم هلكوا وقتل « شهر براز » أحد القادة المشهورين على يد « قرط » ومع هذا ظل القائد مهران ثابتًا يقاتل بسيفه فى شجاعة نادرة حتى قتله فتى من بنى تغلب بسيفه ، فعندما سقط مهران من على فرسه وثب الفتى عليه واستوى على فرسه وزجر قائلاً بصوت ملء بالفخر « أنا الفتى التغلبى أنا قتلت المرزبان » [1] .

وانتهت المعركة بمقتل مهران وهرب العجم فى فوضى واضطراب فسابقهم المثنى إلى الجسر وسد الطريق أمامهم حتى لا يهرب العجم ، وقد ذكر المؤرخون أنه لم يترك (الفرس) فى أى معركة من المعارك هذا القدر الذى لا يحصى من الجثث والتى بقيت ذكرى لهم لزمن طويل ، فعندما كان المسافرون يمرون هناك يجدون أكوام عظام فى كل مكان . وكان لهذا النصر أثر خاص فقد زال الخوف من العجم والذى كان يخيم على العرب وتأكد لهم أن اليوم الأخير لمملكة كسرى قد قرب وعلى قول المثنى : « لقد قاتلت العجم مرارًا فى الجاهلية والله لمائة من العجم فى ذلك الوقت كانوا أشد من ألف من العرب ، لكن الآن عربى واحد أشد بأسًا من عشرة من العجم » . وانتشر المسلمون بعد هذه المعركة فى جميع مناطق العراق / . ٨٩

ففى المكان الذى توجد به مدينة بغداد الآن كانت تعقد به فى تلك الأيام سوق كبير فأغار عليها المثنى يوم سوقها فهرب أصحاب السوق ونجوا بأرواحهم على غير هدى وهكذا وقعت فى أيديهم أموال وأمتعة طائلة ، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى العاصمة قال الجميع بلسان واحد إن هذا كله نتيجة حكم المرأة والخلافات التى نشبت بيننا عندئذ أنزلوا بوران دخت من على العرش وأجلسوا عليه يزدجرد وكان شابًا فى السادسة عشرة من عمره [2] وكان آخر ذكر بقى من أسرة كسرى . أما رستم وفيروز اللذن كانا ساعدى المملكة فقد كان كل واحد منهما يكن العداوة للآخر ، فقال لهم أهل البلاط لو أنكما لا تستطيعان القيام بالعمل بالتعاون فيما بينكما فنحن قادرون على القضاء

---

(١) الطبرى : برواية سيف (المؤلف) . الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣/٤٦٦ - ٤٦٧ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٧٧ - ٤٧٨ (المترجم) .

عليكما ، وخلاصة القول أن روح جديدة دبت فى المملكة مع جلوس يزدجرد ، واستعد أمراء الدولة وقادة الجيش للقيام بواجباتهم فى أماكن العمل الخاصة بهم ، وحصنت جميع القلاع ومعسكرات الجيش وعمت الثورة فى المدن العراقية التى فتحت اعتمادًا على العجم ، وخرجت جميع الأماكن المفتوحة من أيدى المسلمين [١] .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى عمر أمر المثنى على الفور أن يجمع الشباب من كل صوب وينسحب إلى حدود جزيرة العرب وأن يرسل الأوامر إلى قبيلتى ربيعة ومضر اللتين كانتا انتشرتا فى سواد العراق ليتجها فى مكان معلوم فى يوم محدد .

وإلى جانب هذا بدأ عمر بنفسه بتجهيز الجيش بالعدة والعتاد وأرسل الرسل إلى كل مكان فى بلاد العرب فلم يدعوا قائدًا ولا رئيسًا ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولا شاعرًا ولا خطيبًا / إلا وقد أحضروا لباب الخلافة على عجل ، وقد حان وقت الحج فذهب بنفسه إلى مكة المكرمة ولم يكد يفرغ من الحج حتى تدفقت جموع قبائل العرب من كل صوب وحدب ، وأرسل سعد بن أبى وقاص ثلاثة آلاف رجل كان كل واحد منهم صاحب سيف ولواء ، وحضر كبار قادة حضرموت وصدف ومذحج وقيس وعيلان بجموع كبيرة ومعهم آلاف من الناس ، ومن بين القبائل الشهيرة كان من اليمن ألف رجل ومن بنى تميم ورباب أربعة آلاف ومن بنى أسد ثلاثة آلاف رجل [٢] .

٩٠

وعندما عاد عمر بعد الحج كانت تبدو له غاية حيثما يتجه فأمر أن يتأهب الجيش تأهبًا كاملاً وقال سأكون القائد وأخرج بنفسى وعين طلحة على الطليعة والزبير على الميمنة وعبدالرحمن بن عوف على الميسرة وعندما تمت استعدادات الجيش استدعى عليًا وسلم له أمور الخلافة وخرج من المدينة واتجه ناحية العراق وقد فجر استعداد عمر هذا نشاطًا وحماسًا عامًا واستعد الجميع للموت ووصل إلى صرار وهو مكان يبعد عن المدينة بثلاثة أميال وبه عين ماء فنزل هناك وكان هذا أول منازل السفر ، ولأن ذهاب أمير المؤمنين إلى أرض المعركة بنفسه لم يكن يتلاءم مع المصلحة العامة لذا جمع الجيش فى صرار وطلب الرأى من الناس فقالوا جميعًا بصوت واحد : « يا أمير المؤمنين لن تتم

(١) تنسب هذه الرواية لأبى حنيفة الدينورى وقد ذكر الطبرى أن عمره إحدى وعشرين سنة (تاريخ الطبرى : ٤٧٨/٣ - المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣/ ٤٨٤ (المترجم) .

هذه المهمة بدونك » لكن كبار الصحابة الذين كانوا يعرفون الأمور حق معرفتها ، رأوا خلاف هذا الرأى فقال عبد الرحمن بن عوف : « إن للمعركة جانبين / فلو كانت الهزيمة لا قدر الله وحل بك أى سوء فسوف يكون هذا نهاية الإسلام » فوقف عمر وخطب خطبة مؤثرة ووجه كلامه للعامة قائلاً : كنت أريد أن أعمل برأيكم لكن كبار الصحابة لم يتفقوا عليه [1] وخلاصة القول أنه قد تم الاتفاق على ألا يقود عمر الجيش بنفسه ، لكن كانت هناك مشكلة أخرى وهو لا يوجد رجل جدير يحمل هذا العبء الثقيل ، فقد كان أبو عبيدة وخالد منهمكين فى حروب الشام ، وطلب عمر من [2] علىّ أن يذهب فرفض ، وكان الناس فى حيرة من أمرهم وفجأة نهض عبد الرحمن بن عوف قائلاً : « لقد وجدته » قال عمر من هو ؟ قال : سعد بن أبى وقاص .

٩١

كان سعد من كبار الصحابة ، وخال رسول الله - ﷺ - وكان الناس يعترفون بشجاعته وبأسه لكن لا يُطمئن إليه من ناحية قدرته على قيادة الجيش وإعداد خطط الحرب وبناء على هذا تردد عمر لكن عندما أيد جميع الحاضرين رأى عبد الرحمن بن عوف وافق مضطرًا ورغم ذلك أمسك بزمام أمور الجيش كلها على سبيل الحيطة لذا فإنه فى هذه المعركة كان يرسل أوامره باستمرار فيما يتعلق بتحركات الجيش وإدارة الهجوم وتنظيم الجيش وتقسيم العسكر وغيرها من الأمور صغيرها وكبيرها ولم يكن يُقدم على عمل دون نصائحه الخاصة حتى إن عمر كان قد قرر جميع منازل الجيش من المدينة وحتى العراق وقد ذكرها الطبرى بأسمائها / .

٩٢

وأعد سعد الجيش وسار من المدينة المنورة ووصل إلى « ثعلبة » بعد أن طوى ما بين سبعة عشر أو ثمانية عشر منزلاً ، وعسكر هناك [3] و« ثعلبة » منزل على بعد ثلاثة منازل من الكوفة وكان يقام بها سوق كل شهر لجمال المكان ووفرة المياه ، فأقام هناك

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣/٤٨٠ - ٤٨٢ (المترجم) .

(٢) لم يرد ذكر طلب عمر من علىّ الذهاب إلى هذه الحرب عند الطبرى ولا أدرى من أين جاء شبلى بهذه الرواية التى دسها على رواية الطبرى ، لكن من الثابت أن عمر ترك أمور الخلافة لعلىّ فى المدينة وسار على رأس الجيش حتى وصل إلى صرار وتباحث مع المسلمين فى هذا الأمر (المترجم) .

(٣) ذكر البلاذرى أنه وصل « ثعلبة » بينما ذكر الطبرى أنه وصل « ورد » وهذان المكانان على مقربة أحدهما من الآخر (المؤلف) .

- البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٥٤ والطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٨٥ (المترجم) .

ثلاثة أشهر ، أما المثنى فكان فى ذى قار مع ثمانية آلاف من الرجال منهم ستة آلاف من شباب بكر بن وائل ينتظر مجىء سعد ليتقدموا معًا إلى الكوفة ولكن ساءت حالة الجروح التى أصابته فى معركة الجسر وتوفى أخيرًا بسببها ثم رحل سعد عن « ثعلبة » إلى « شراف » وخيم فيها وجاءه هناك المُعنى أخو المثنى وأبلغ سعد وصايا المثنى الهامة ، ولما كانت أوامر عمر تقتضى بأن يكتب إليه بجميع الأحوال فى كل منازل الجيش لذا فقد كتب إليه بجميع أمور الجيش فأخبره بخريطة الموقع ، وانتشار الجيش ، وطريقة إقامته ، وحالة المؤن ، فجاءته الأوامر من هناك بالتفصيل ومن بينها العديد من النصائح وأسس ترتيب الجيش فقام سعد أولاً بتفقد الجيش طبقًا لهذه الأوامر ، وكان قد قارب عدده ثلاثين ألفًا ، ثم قسم الجيش على الميمنة والميسرة وغيرها وعين على كل قسم منها قائدًا كما يتضح من الجدول التالى فصائل الجيش المختلفة وقادتها بالتفصيل طبقًا لما ذكره

٩٣ الطبرى / .

أقسام الجيش	اسم القائد	سيرة مختصرة له
المقدمة	زهرة بن عبد الله بن قتادة	كان ملكا على البحرين فى الجاهلية وجاء على رأس قومه وأسلم
الميمنة	عبد الله بن المعتصم	كان صحابيًا .
الميسرة	شرحبيل بن السمط	كان شابًا نال شهرة عظيمة فى قتال المرتدين
الساقة	عاصم بن عمرو التميمى	
الطلائع	سواد بن مالك	
المجردة	سليمان بن ربيعة الباهلى	
الرّجلَة (المشاة)	حمال بن مالك الأسدى	
الركبان	عبد الله بن ذى السهمين	
قسمة الفىء والغنائم والقضاء	عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى	
الرائد المسئول عن المؤن	سلمان الفارسى	صحابى معروف من أهل فارس
المترجم	هلال الهجرى	
الكاتب	زياد بن أبى سفيان	/
الطبيب [1]		

٩٤

(١) للأسف لم يذكر الطبرى أسماء الأطباء واكتفى بكتابة هذا فقط : بعث عمر الأطبة مع الجيش . (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٨٨ – ٤٨٩ والمترجم .

وكان من بين أمراء الأعشار سبعون من الصحابة الذين شهدوا غزوة بدو وثلاثمائة منهم حضروا بيعة الرضوان ومثلهم ممن شهدوا فتح مكة ، وسبعمائة من غير الصحابة لكنهم كانوا من أولاد الصحابة [١] .

وكان سعد فى « شراف » عندما جاءه أمر آخر من عمر كان مضمونه « أن تقدم من شراف إلى القادسية وعسكر بها » [٢] على أن تقيم خط دفاع راسخ بحيث تكون أرض العجم من أمامك وجبال العرب من خلفك ، فإن كان النصر فلتتقدم كما تريد ، ولا قدر الله لو تواجه الأمر الثانى (الهزيمة) تستطيع أن ترجع وتحتمى بهذه الجبال » [٣] .

وكانت القادسية أرضًا خصبة جدًا وكانت محصنة بسبب الأنهار والجسور القائمة عليها ، وقد مر عمر على معظم هذه الأماكن فى أيام الجاهلية وكان على علم بحالة هذا المكان وهيئته لذا فإن الأمر الذى وصل سعدًا كان مذكورًا فيه موقع القادسية أيضًا - وإن كانت هذه المعلومات قديمة - فكتب لسعد : « بعد أن تصل القادسية فلتكتب إلىّ بالمعلومات الكاملة عن أرضها فإننى لم أذكر بعض الأمور الهامة لأننى لم أكن أعرف حالة المكان معرفة تامة » . فكتب إليه سعد بالتفاصيل الدقيقة عن موقع الحرب وحدودها ، ثم جاء الأمر من دار الخلافة بالتحرك فسار سعد من « شراف » ونزل فى « العذيب » وكان هذا المكان مخزن أسلحة العجم . / فاستولوا عليه بلا قتال ، وعندما وصل القادسية أرسل سعد العيون فى كل مكان ليأتوا بأخبار العدو ، وعندما رجعوا ذكروا أن رستم « ابن فرخ زاد » صاحب أرمينية قد تولى أمر الحرب وأنه قد قدم من « المدائن » ونزل فى « ساباط » فكتب سعد لعمر بالخبر فجاءه الرد من هناك « فلتبعث إليهم رجال قبل الحرب ليدعوهم إلى الإسلام فاختار سعد أربعة عشر رجلاً معروفًا من زعماء القبائل والذين لم يكن لهم مثيلاً بين العرب فى أعمالهم ومهنهم وهم : عطار بن حاجب ، والأشعث بن قيس ، وحارث بن حسان ، وعاصم بن عمر وعمرو بن

٩٥

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٩٠ (المترجم) .

(٢) كانت القادسية مدينة صغيرة تبعد عن الكوفة ٣٥ ميلاً (المؤلف) .

(٣) الجملة فى الأصل : « على أدنى حجر من أرض العرب » وقد ترجم شبلى « أدنى حجر » بـ « بهار» أى الجبل !!(المترجم) .

معديكرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة وكانوا مشهورين بين العرب جميعًا بمهابتهم وقاماتهم الفارهة . وأما النعمان بن مقرن وبسر بن أبى رُهم وحملة بن جوية وحنظلة بن الربيع التميمى وفرات بن حيان العجلى وعدى بن سهيل والمغيرة بن زرارة فلم يكن لهم قرين فى رجاحة العقل والحزم والحكمة والتدبير والسياسة [١] .

كانت اصطخر عاصمة الساسانيين فى قديم الزمان ، لكن أنوشيروان جعل من المدائن عاصمة له ، وهكذا أصبحت المدائن العاصمة منذ ذلك الوقت ، وكانت تقع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً من معسكر سعد أى القادسية ، فامتطى السفراء الخيل واتجهوا إلى المدائن فكان يحتشد الناس فى الطريق لرؤيتهم فى الطرقات التى يمر منها هؤلاء الناس حتى وصلوا بالقرب من باب العاصمة بهذا المظهر الخارجى : فلم يكن هناك سروج على الخيول ولم يكن فى أيديهم سلاح وبالرغم من هذا كانت الجرأة والشجاعة تتعطر من وجوههم وقد تركت أثرًا على المحتشدين ، والخيول التى يركبونها كانت هزيلة وكانت تخرج من تحت أفخاد الراكبين / وتضرب الأرض بحوافرها باستمرار حتى وصلت أصوات وقع حوافر الخيل إلى مسامع يزدجرد ، فسأل ما هذه الأصوات ؟ فعلم أن سفراء الإسلام قد حضروا وبعد أن سمع هذا الخبر زين البلاط على أكمل وجه واستدعى السفراء فدخلوا البلاط وهم يرتدون البرود العربية وكانت الأردية اليمنية على عواتقهم والسياط بأيديهم والنعال فى أرجلهم وكانت المعارك السابقة قد بثت الرعب من العرب فى إيران كلها ، وعندما رأى يزدجرد السفراء على هذه الحالة هاله الخوف . ٩٦

وكان من عادة الفرس أنهم يتفاءلون بكل شىء ، فسأل يزدجرد ماذا يسمون هذه الأردية فى اللغة العربية ؟ قالوا : « البرد » قال معناها بالفارسية « جهان بَرد » [٢] أى القضاء على العالم ، ثم سأل عن المعنى العربى للسوط ، قالوا : « سوط » ففهمها « سوخت » أى حرق ، قال : « بارس راسوختند » أى احرقوا فارس . فغضب كل من البلاط على هذا الفأل السيئ لكن لم يقل أحد شيئًا مراعاة للآداب الملكية ثم سأل : ماذا جاء بكم إلى هذه البلاد ؟ فتقدم النعمان بن مقرن للإجابة وكان رئيس الوفد فبين فى البداية رسالة الإسلام باختصار ثم قال نحن نقدم للعالم شيئين : الجزية أو السيف .

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٩٥ - ٤٩٦ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٩٨ - ٤٩٩ (المترجم) .

قال يزدجرد ألا تذكرون أنه لم يكن هناك على وجه الأرض أمة كانت أشقى وأسوأ منكم ، وعندما كنتم تتمردون علينا كنا نأمر حكام الضواحى وهم يقضون على قوتكم فصمت الجميع أمام هذه الجريمة لكن المغيرة بن زرارة لم يستطع أن يتحمل فقام وقال : هؤلاء الناس « وأشار إلى رفاقه » هم رءوس العرب ويستحيون من الكلام بسبب حلمهم ووقارهم / وقد أعظموا الذى قلت ، وقالوا كل ما كان جديرًا بالقول ومع هذا فقد بقيت بعض الأحاديث الجديرة بالذكر وأننى أسردها أمامك ، حقًا لقد كنا بائسين ضالين نتعارك فيما بيننا ونئد بناتنا أحياء ، فبعث الله فينا رسولاً حسبه خير أحسابنا ، فلم يجبه أحد أول الأمر فصدق وكذبنا وزاد ونقصنا ، وبالتدريج أثر كلامه فى قلوبنا فما قال لنا هو حكم الله ، وما أمرنا به فهو أمر الله وأنه قد أمرنا أن نقدم هذا الدين للناس كافة ، فمن قبل الإسلام فله من الحقوق ما لكم ومن أبى الإسلام وقبل الجزية فهو فى حمى الإسلام ، ومن رفض كلا الأمرين فليس له إلا السيف ، فقال يزدجرد وقد تملكه الغضب : لولا أن الرسل لا تقتل ما تركت منكم أحدًا حيًا ، وقال ائتونى بوقر من تراب ، ثم قال : من أشرفكم ؟ فتقدم عاصم بن عمر وقال : « أنا » فوضع الخدم وقر التراب على رأسه ، فحمله فأتوا به سعدًا مسرعين على خيولهم وقالوا : « أبشروا فقد أعطانا العدو أقاليد ملكهم » [1] .

٩٧

وبعد هذه الواقعة ظل الهدوء سائدًا على كلا الجانبين ، وكان رستم المكلف من قبل فارس لهذه المهمة مع جيشه فى مدينة ساباط وكان يماطل فى الحرب رغم إصرار يزدجرد وتأكيده . ومن ناحية أخرى كان المسلمون يهاجمون القرى القريبة من معسكراتهم ويستولون على الماشية لمؤنهم ، وفى هذه الأثناء تحول بعض أمرائهم إلى المسلمين من هنا وهناك وكان من بينهم « جوش ماه » المفوض بكتابة أخبار الحدود ، وعندما استطالت هذه الحالة / وصلت الرعايا أفواجًا إلى يزدجرد يستغيثون وقالوا : عليكم أن تقوموا بحمايتنا الآن وإلا سنطيع العرب لذا اضطر رستم أن يتقدم للمعركة وخرج من ساباط ومعه جيش يبلغ ستين ألف رجل ووصل القادسية وخيم بها ، أما الجيش فقد كان يبطش بجميع المناطق التى يمر بها بلا رحمة وكان جميع القادة يشربون الخمر ويأتون بأعمال مشينة ولا يبالون بشىء حتى أعراض الناس وهذه الأمور قد تسببت فى شيوع هذه الفكرة فى البلاد وهى أن دولة العجم قد أشرفت على الفناء .

٩٨

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٠٠ - ٥٠١ (المترجم) .

وأرسل سعد عيونه فى كل مكان وفى اليوم الذى خرج فيه رستم بجيشه من ساباط كانت تصل إليه الأخبار لحظة بلحظة وعين قادة من الجيش للتعرف على أحوال جيش العدو وخططه وجهة الإنزال وفى هذا العمل كان الأمر يصل أحيانًا إلى المواجهة ، وحدث ذات مرة أن دخل طلحة معسكر جيش رستم فى الليل متنكرًا ، فرأى جوادًا أصيلاً مربوطًا فى أحد أركان الاصطبل فقطع زمامه بالسيف وربطه مع زمام فرسه وفى هذه الأثناء استيقظ الناس وتعقبوه وكان فارس الجواد قائدًا مشهورًا يعد بألف فارس فرماه بالرمح بعد أن اقترب منه فتفاداه ووقع على الأرض فانحنى طلحة فضربه برمحه فأنفذه فى صدره ، وكان معه فارسان آخران ، قتل أحدهما بيده وطلب الثانى الأمان شريطة أن يذهب معه كأسير ، وفى هذه الأثناء ساد الاضطراب والفوضى فى الجيش وتدفقت جموع الناس من كل جانب لكن طلحة خرج سالمًا وهو يقاتل وبقى الجيش المكون من ستين ألف فارس فى حيرة من أمره ، وقد أسلم الأسير / عندما مثل أمام سعد ، وقال إن الفارسين الذين قُتلا على يد طلحة كانا ابنى عمى ويعد كل واحد منهما بألف فارس ، وسمى الأسير « مسلم » بعد أن أسلم وعن طريقة عرفوا أمورًا كثيرة عن جيش العدو والتى لا يمكن معرفتها بأى طريقه أخرى وظل يشارك فى جميع المعارك فيما بعد وأثبت مهارته بفداء وتضحية فى كل معركة [1] .

٩٩

ولأن رستم كان يتثاقل عن القتال فإنه سعى إلى الصلح مرة أخرى ، فأرسل رسالة إلى سعد ليرسل له رجلاً من المسلمين يعتمد عليه لكى يحدثه حديث الصلح فكلف سعد ربعى بن عامر بهذه المهمة فسار إليه فى هيئة غريبة فتدرع بمعرقة وشد رأسه بمعرجته وربط على خصره بسلب ولف حول غمد سيفه ثوبًا خلقًا وركب الفرس وتوجه إليهم بهذا الشكل الغريب . ومن ناحية أخرى كان الفرس قد زينوا البلاط ببسط الحرير والوسائد الذهبية والستائر الحريرية وفى الصدارة العرش المرصع ، فجاء ربعى بالقرب من الفُرش ونزل عن الجواد وربط زمامه فى الوسائد .

ومع أن أصحاب البلاط لم يتحدثوا غير مبالين به لكنهم أرادوا أن يضع السلاح طبقًا للقواعد المتبعة قال : أنتم دعوتمونى فإن أبيتم أن آتيكم هكذا أرجع ، فأخبر أهل البلاط رستم فأذن له ، فتقدم بتهاون شديد غير مبال نحو العرش وكان يزج بنصل

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥١٣ - ٥١٤ (المترجم) .

الرمح الذى كان يستعمله كعصا فى النمارق المصفوفة حتى تمزقت البسط الثمينة وتقطعت السجاجيد التى فرشوها / فلما دنا من العرش ضرب الأرض بالرمح حتى نفذ من السجاد وغرس فى الأرض ، قال رستم : ما جاء بكم ؟ قال : « لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله » قال رستم : سوف أتشاور مع أركان المملكة ثم أجيبك ، وأقبل أهل البلاط على ربعى مرارًا وينظرون إلى سلاحه ويقولون أتريد فتح إيران بهذا العتاد ؟ لكن عندما أخرج ربعى السيف من غمده كان يلمع فى عيونهم كالبرق ، وعندما قدموا تروسهم من أجل تجربة مدى صلاحية قطعه قام ربعى بتقطيعها أربًا ورجع ربعى بينما استمرت الرسائل المتبادلة بينهما [١] .

١٠٠

وفى السفارة الأخيرة التى ذهب بها المغيرة إليهم زين الفرس بلاطهم فى ذلك اليوم بكل فخامة وفرشوا المفارش من السنجاب والديباج فى خيامهم وجلس الندماء والقادة على الكراسى وعلى رءوسهم التيجان الذهبية ووقف الخدم والمسئولون فى أماكنهم فى صفين ، ونزل المغيرة من على فرسه واتجه مباشرة نحو صدر المجلس ، وجلس مع رستم على عرشه وفخذه على فخذ رستم فغضب جميع البلاط لهذه الوقاحة ووثب عليه الحراس وجذبوه من ساعده وأنزلوه من على العرش فخاطب المغيرة أهل البلاط قائلاً : « لم آتكم بنفسى ولكنكم دعوتمونى ولا يليق هذا السلوك مع الضيف فلا نسلك مثل هذا السلوك مع الناس ولا يجلس فينا - مثلكم - أحد كالإله يحنى الناس رقابهم أمامه كالعبيد » وكان المترجم يدعى « عبود » من أهل الحيرة قد ترجم هذه الخطبة فتأثر بها جميع البلاط وقال بعضهم لبعض لقد أخطأنا عندما اعتبرنا هؤلاء القوم أذلاء / .

١٠١

وخجل رستم فقال ليمحوا آثار الخجل « إن هذا كله كان من أعمال الخدم ولم يتم شىء منه بأمرى وإيمائى ثم أخرج السهام من جعبة المغيرة بلا تكلف وأمسكها بيده وقال : ماذا تستفيد من هذه المغازل ؟ قال المغيرة ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة ؟ وعندما رأى رستم غمد سيفه قال : ما بال غمد سيفك رثًا هكذا ؟ قال نعم هو رث الكسوة حديد المضربة » وبعد هذا الحوار اللاذع بدأ الحديث الجاد وذكر رستم عظمة مملكته ثم قال على سبيل المن والإحسان لو ترجعوا الآن (إلى بلادكم) فلسنا متضايقين سوف نمنحكم العطايا ، فوضع المغيرة يده على قبضة سيفه وقال : « إن لم تقبل الإسلام والجزية فسيكون الحكم للسيف » . فاستشاط رستم غضبًا وقال قسمًا بالشمس

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥١٩ - ٥٢١ (المترجم) .

لأبيدن العرب غدًا أجمعين ونهض المغيرة وانصرف وانتهت كل آمال الصلح والمهادنة [1] .

معركة القادسية والنصر [2] . المحرم سنة ١٤ هـ / ٦٣٥م

كان رستم لا يزال حتى الآن يتثاقل عن الحرب لكن حديث المغيرة أثار فيه الحمية والغيرة ، فأصدر أوامره بالاستعداد فورًا ، وكان النهر حائلاً فيما بينهما فأمر بردمه ورصف عليه الطرق حتى الصباح ، وفى الصباح أنجزت هذه المهمة واجتاز الجيش النهر قبيل الظهر ثم أعد نفسه للمعركة ولبس درعين ذهبيين ووضع الخوذة على رأسه وحمل أسلحته / وطلب جواده الخاص به وقال فى حماس : « غدًا سأدق العرب دقًا » ١٠٢ فقال رجل من جيشه « إن شاء الله » فقال « وإن لم يشأ » وجهز الجيش تجهيزًا دقيقًا وأعد ثلاثة عشر صفًا الواحد تلو الآخر ، وأقام كتائب الفيلة فى مؤخرة قلب الجيش كالحصن الحصين ووضع المحاربين المدججين بالسلاح فى هوادج الفيلة ووضع الأفيال أيضًا على هيئة قلاع خلف الميمنة والميسرة ، ووضع الرجال على مسافات قصيرة لتوصيل أخبار المعركة إلى العاصمة وكان إذا حدث حدث كان أحدهم يصيح به بأعلى صوته مناديًا فيلتقطه آخر وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدائن [3] .

وكان فى القادسية قصر ملكى قديم ، يقع على جانب ميدان المعركة ولأن سعدًا كان يشتكى من عرق النسا وكان عاجزًا عن الحركة والمشى فلم يشترك مع الجيش بل كان يستند على وسادة ويشرف على ميدان المعركة من غرفة بأعلى القصر وأحل خالد بن عرفطة قائدًا محله ومع ذلك فقد كان يدير دفة الحرب ، فكان يرمى بالرقاع فيها أوامره لخالد كما يقتضيه الموقع وكان خالد يغير خطة المعركة من مكان لآخر طبقًا لهذه التعاليم وإن تقدم فنون القتال إلى هذا الحد فى العصور الأولى للحضارة مثير للعجب وشاهد على ذكاء العرب ومهارتهم القتالية .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٢٢ - ٥٢٣ (المترجم) .

(٢) كانت القادسية مدينة مشهورة فى العراق العربى وكانت تقع فى وسط المدائن السبعة وهى غير عامرة الآن ، وهذه المدينة متصلة بالمدائن فى خريطتنا . (المؤلف) .

انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢/٤٥٠ والمسعودى : مروج الذهب : ١/٣٢١ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٣٠ (المترجم) .

وتأهبت الجيوش وخرج شعراء العرب وخطباؤهم إلى الصفوف وألهبوا حماس الجيش بخطبهم النارية فكان من الشعراء : السماح والحطيئة وأوس بن المغراء وعبده الطيب وعمرو بن معديكرب [1] ، ومن الخطباء : قيس بن هبيرة وغالب بن الهزيل الأسدى وبسر بن أبى رهم الجهمى / وعاصم بن عمرو وربيع السعدى وربعى بن عامر الذين وقفوا يخطبون فى الميدان وكأن أحدًا يلقى بسحره على الجيش ، وهناك عبارات من هذه الخطب جديرة بالذكر ، قال ابن هزيل الأسدى : - ١٠٣

« يا معشر سعد اجعلوا حصونكم السيف ، وكونوا عليهم كأسود الأجم وادرعوا العجاج وغضوا الأبصار وإذا كلت السيوف فأرسلوا الجنادل فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد » [2] .

وإلى جانب الشعراء والخطباء خرج القراء إلى ميدان القتال وبدءوا يقرءون سورة الجهاد بصوت عذب مؤثر واهتزت القلوب بتأثيرها واحمرت العيون .

وأطلق سعد ثلاث تكبيرات طبقًا للخطة وفى الرابعة بدأت المعركة وفى البداية نزل أحد الفرس إلى أرض المعركة مهيب الهيئة ارتدى يلمق ديباج واتزر بمئزر ذهبى ، ووضع فى يده أساور من ذهب فخرج عمرو بن معد يكرب للقائه فوضع (الإيرانى) السهم فى القوس وأطلقه على عمرو لكن سهمه أخطأ نحو قيد شعره فنجا منه وتقدم نحوه بجواده واقترب منه وجذبه من مئزره ودفعه فألقاه على الأرض وقطع رأسه بسيفه واتجه للجيش مخاطبًا : « هكذا نحارب » وقال الجند : كيف يمكن أن يكون كل شخص معد يكرب .

ثم خرج بعده العديد من الأبطال من الجانبين فأبدوا شجاعتهم ، ثم نشبت الحرب الشاملة / وجه الفرس الأفيال إلى الوجهة التى تحارب فيها كتيبة بجيلة وكانت أفضل ١٠٤

---

(١) ذكر الطبرى عمرو بن معد يكرب من أهل النجدة وليس مع الشعراء كما نقل شبلى (تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٣٣) (المترجم) .

(٢) نقل شبلى هذا النص فذكر بعض الكلمات خطأ كما نسى ذكر بعض الكلمات لذا فإننى أنقل النص الصحيح هنا : « يا معشر سعد اجعلوا حصونكم السيوف وكونوا عليها كأسود الأجم وادرعوا العجاج وغضوا الأبصار فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة فأرسلوا عليهم الجنادل فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٣٤ (المترجم) .

كتيبة ، ولم تكن جياد العرب قد رأت هذه الجبال السود ففرت وانتشرت ، أما مشاة الجيش فقد حاربوا بثبات وجلد لكن سيول الفيلة قضت عليهم . ورأى سعد ما أصاب بجيلة فأرسل إلى بنى أسد ليذبوا عنهم فخاطب طلحة - زعيم القبيلة وبطلها المغوار - قبيلته قائلاً : « واعشيرتاه إن سعد يستغيثكم » فثار حماس القبيلة فأطلقوا أعنتهم وأخذوا الرماح بأيديهم وحملوا على الأفيال وبشجاعتهم هدأت هذه العاصفة العاتية قليلاً إلا أن الفرس عادوا وحملوا بقوة على بجيلة فأرسل سعد إلى قبيلة تميم وكانت مشهورة بالإقدام والطعن بالرماح فقال : ألا تستطيعون أن تدبروا حيلة لهذه الفيلة ، فعندما سمعوا هذا الكلام تقدموا وأمطروهم بوابل من السهام حتى قتلوا ركبانها واقتربوا منها فقلبوا عنها الهوادج والمحفات ، واستمرت هذه المعركة حتى المساء وعندما ساد الظلام رجع كل فريق من ميدان المعركة ، وكانت هذه أولى معارك القادسية ويطلقون عليها فى العربية اسم « يوم الأرماث » [1] .

بينما كان سعد يشرف على القتال وهو جالس فى شرفة القصر وزوجته سلمى جالسة إلى جانبه ، وكان سعد يتململ ويجزع عندما يتقدم الفرس بأفيلتهم ويتقهقر المسلمون ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال وعندما رأت سلمى هذه الحالة صاحت « واأسفاه لو كان بيننا المثنى اليوم » فلطم سعد وجهها وقال : لو كان المثنى هنا فماذا كان يفعل ؟ قالت سلمى « سبحان الله أغيرة وجبنًا » وفى هذا الكلام تعريض وطعن لأن سعدًا لم يشترك فى المعركة .

وفى اليوم التالى كان أول عمل قام به سعد هو أنه أمر بحمل جثث الشهداء من ميدان القتال لدفنها / وفوض للنساء الجرحى لتضميد الجروح ثم أمر الجيش بالاستعداد ١٠٥
ولم يكن القتال قد دار بعد حتى ثار النقع من ناحية الشام وعندما انقشع مثار النقع عرفوا أن كتائب الجيش التى أرسلها أبو عبيدة للنصرة قد وصلت ، ففى الوقت الذى كان عمر يستعد فيه للهجوم على العراق كتب إلى أبى عبيدة الذى كان مكلفًا بمهمة فتح الشام فى تلك الفترة يأمره بأن يلحق بجيش سعد الجيش الذى أرسل إليه من العراق ، فوصل هذا الجيش فى الوقت المناسب وقد عُد هذا الأمر كأنه تأييد من الغيب ، وكانوا

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٣٦ - ٥٤٠ (المترجم) .

- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٤٦٩ (المترجم) .

ستة آلاف جندى منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألفان من أهل الحجاز وكان على رأسهم هاشم بن عتبة (أخو سعد) وعلى مقدمته القعقاع وعندما وصل القعقاع خرج من بين الصفوف ينادى أليس فى الفرس من يبارز ؟ فخرج إليه بهمن وعندما رآه ذكّره القعقاع بموقعة الجسر فصاح قائلاً : « لن يجد قاتل أبو عبيد مفرًا » وتبارز الخصمان بالسيف وقتل بهمن بعد فترة قصيرة من المبارزة ، وظل الشجعان مدة طويلة ينزلون إلى أرض المعركة من الجانبين ليظهروا قوة بأسهم على انفراد فقُتل شهربراز أمير سيستان على يد الأعور بن قطبة ، وقتل بزرجمهر الهمدانى أحد الأبطال المشهورين بعد أن تبارز مع القعقاع ، وفقد جيش الفرس أكثر أبطاله المشهورين قبل بداية الحرب الشاملة ، وبالرغم من ذلك فقد حارب الجيشان حربًا شرسة [1] . وقد قسم القعقاع جيش النجدة حين خروجه من الشام إلى كتائب عديدة بحيث عندما تصل كتيبة إلى أرض المعركة كانت الأخرى تظهر على مدى البصر وهكذا استمرت الحركة فى الجيش طوال اليوم ، وبالتالى خيمت الرهبة على الفرس / . ١٠٦

وكانت كل فرقة من الفرق تتقدم إلى ميدان المعركة تكبر الله أكبر وتحمل على العدو ومعهم القعقاع وقد احتال القعقاع على الفيلة بهذه الحيلة فجلل الإبل وبرقعها وجعلها مهيبة المنظر كالفيلة ، فأخذت خيول الفرس تنفر من هذه الفيلة المصنوعة حينما اتجهت ولم يستطع الفرسان السيطرة عليها .

ووصل رُسل عمر أثناء المعركة ، ومعهم أسياف ثمينة وخيول عربية أصيلة ، فنادوا بين الناس لقد أرسل أمير المؤمنين هذه المكافأة لأولئك الناس الذين يستطيعون أداء حقها لذا أعطى القعقاع الأسياف لـ حمال بن مالك وربيل بن عمرو وطليحة بن خويلد وعاصم بن عمرو التميمى وأعطى الخيول لأبطال قبيلة يربوع الأربعة وأنشد ربيل مرتجلاً هذا البيت مفتخراً :

لقد علم الأقوام أنا أحقهم ‏ ‏ ‏ إذا حصلوا بالمرهفات البواتر[2]

وحين كانت الحرب محتدمة ، كان أبو محجن الثقفى الذى كان شاعرًا معروفًا وفارسًا مشهورًا قد سجنه سعد بتهمة شرب الخمر ، يراقب سير المعركة من نافذة باب

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٤٢ - ٥٤٣ (المترجم) .

(٢) المرجع السابق : ٣ / ٥٤٤ - ٥٤٥ (المترجم) .

السجن ، وكان ينتابه حماس الشجاعة وفى النهاية عندما لم يتحمل أتى إلى سلمى [١] (زوجة سعد) وقال لها : بالله أطلقى سراحى وإن سلمنى الله فى المعركة أعد وأضع نفسى فى القيود ، فرفضت سلمى فرجع مكتئبًا ينشد ويردد هذه الأبيات فى لهجة حزينة : / ١٠٧

كفى حزنًا أن تردى الخيل بالقنا	وأترك مشدودًا على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت	مصاريع من دونى تصم المناديا [٢]

فتأثر قلب سلمى لهذه الأبيات وفكت قيوده فذهب فورًا إلى الاصطبل وشد السرج عن فرس لسعد تدعى البلقاء وانطلق إلى ميدان المعركة وقد أمسك الرماح بيده وأخذ يركض من الميمنة حتى الميسرة وحمل عليهم بقوة وكلما يتجه إلى ناحية يقلب الصفوف فيها واندهش الناس جميعًا وتساءلوا : « من يكون هذا البطل المغوار ؟ » وتعجب سعد كذلك وكان يقول فى نفسه إنها طريقة هجوم أبى محجن لكنه حبيس فى السجن . وفى المساء أقبل أبو محجن ووضع نفسه فى الأصفاد وروت سلمى لسعد كل ما حدث فأطلق سعد سراحه [٣] وقال : والله إن الشخص الذى يضحى من أجل المسلمين لا أستطيع عقابه ، وقال أبو محجن والله لن أقرب الخمر أبدًا بعد اليوم [٤] .

وقد شاركت فى هذه المعركة الخنساء شاعرة العرب المعروفة [٥] ومعها أبناؤها ١٠٨ الأربعة / وقالت لأبنائها عندما نشب القتال : « لكم تنب بكم البلاد ولم تقحمكم السنة ، ثم جئتم بأمكم عجوزًا كبيرة فوضعتموها بين أيدى أهل فارس والله إنكم لبنو

---

(١) يذكر الطبرى أنها كانت ذبراء أم ولد سعد . تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٧٥ (المترجم) .

(٢) يروى الطبرى المصرع الثانى من هذا البيت هكذا : « مصارع دونى قد تصم المنادى » . الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٧٥ والمسعودى : مروج الذهب : ١ / ٣٢٣ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٥٤٩/٣ - ٥٥٠ وخبر أبو محجن فى الأغانى برواية الطبرى : ١٩ / ٥-٦ (المترجم) .

(٤) كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف صفحة ١٨ (المؤلف) .
- أبو الخراج : ٣١ (المترجم) .

(٥) توجد وقائع حياة الخنساء الممتعة والعجيبة فى ديوانها الذى طبع فى بيروت ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى حياتها بالتفصيل فى كتاب الأغانى ، ولا مثيل لها فى شعر الرثاء ، وقد رفع علم على باب خيمتها فى سوق عكاظ وكان مكتوبًا عليه « أرثى العرب » وقد أسلمت وحضرت إلى بلاط =

رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره » .

فانطلق الأبناء معًا وانقضوا على الأعداء ، وعندما تغيبوا عن الأنظار رفعت الخنساء يدها واتجهت إلى السماء وقالت : « اللهم احفظ أبنائى » .

وقتل وجرح فى هذا اليوم من الفرس عشرة آلاف ومن المسلمين ألفان وبالرغم من هذا لم يصل الأمر إلى النصر أو الهزيمة ، وعرفت هذه المعركة باسم (يوم أغواث) .

واشتهر اليوم الثالث للمعركة باسم يوم « العماس » [١] وبات القعقاع يسرب الجند جماعات وكتائب من الفرسان والمترجلة وأمرهم أن يبتعدوا عن المعسكر إلى ناحية الشام ويقبلوا مع طلوع الشمس مائة مائة من الفرسان مسرعين على خيولهم نحو ميدان المعركة وأن يستمروا هكذا فى المجيء ، وهكذا وصلت أول كتيبة مع طلوع الصباح فكبر الجيش جميعًا وعم الضجيج وقالوا جاءت النجدة وبدءوا الهجوم ، ومن محاسن الصدف أن هاشم [٢] الذى أرسله أبو عبيدة بالنجدة من الشام قد وصل أيضًا إلى أرض المعركة ومعه سبعمائة فارس وكانت الأخبار تصل يزدجرد لحظة بلحظة وكان يرسل الجيوش باستمرار وخطب هاشم فى الجيش وقال / إن إخوانكم قد فتحوا الشام وفتح فارس الذى وعد به الله سوف يتم على أيديكم ، وطبقًا للعادة بدأت المعركة بخروج أحد الأبطال من جيش الفرس يزأر كالأسد إلى ميدان المعركة وبعد أن رأى الجند ضخامة هيئته تثاقلوا عن لقائه ، ومن الصدف العجيبة أنه قتل على يد جندى هزيل [٣] وأحاط الفرس الفيلة بالمشاة بعد أن عركتهم التجربة ، وقال عمرو بن معد يكرب لرفاقه : « إنى سأهجم على الفيل الذى أمامى فلازمونى ولو قتل عمرو بن معد يكرب فلن يولد معد يكرب آخر » قال هذا واستل سيفه وهجم على الفيل لكن الرجالة الملتفين حوله انفضوا عليه فثار النقع وحجبه عن الأنظار وعندما رأى أصحابه هذا حملوا عليهم

١٠٩

= عمر . (المؤلف) .

انظر : الأغانى : ١٥ / ٧٦ - ١٠٩ (المترجم) .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٤٧٧ والمسعودى : مروج الذهب : ١ / ٣٢٥ - ٣٢٦ (المترجم) .

(٢) هو هاشم بن عتبة وقد ذكره شبلى خطأ باسم هشام (المترجم) .

(٣) هو شبر بن علقمة (المترجم)

وتقهقر العدو بعد معركة شرسة وتغير جسم عمرو بن معد يكرب تمامًا وعلى جسمه طعان الرماح ومع ذلك كان السيف فى قبضة يده واليد كانت فى حركة دائبة وإذا بفارس إيرانى قد مر بجانبه فى هذه الحال فأمسك بذيل [1] جواده فأخذ الإيرانى يركض حصانه مرارًا لكنه لم يستطع أن يحركه من مكانه فنزل عنه فوثب عمرو بن معد يكرب واعتلى صهوة الفرس .

ولما رأى سعد أن الفيلة كانت توقع الفرقة بين الكتائب حينما كانت تتجه استدعى « ضخم » و« سلم » وغيرهما من الفرس الذين أسلموا وسألهم ما علاج هذا البلاء الأسود ؟ قالوا عليكم بمشافر الفيلة وعيونها وكان فى السرب فيلان أشد ضراوة ومهابة وكأنهما قائدان لكل الفيلة كان الأول معروف باسم « الأبيض » والثانى « الأجرب » / ١١٠ فاستدعى سعد القعقاع وعاصم وحمال وربيل وقال هذه مهمتكم فأرسل القعقاع فى البداية مجموعة من الفرسان والرجالة ليحاصروا الفيلة ، ثم أخذ الرمح وصوبه نحو الفيل الأبيض ومعه عاصم فأطلق الاثنان رمحيهما معًا فأصابا عينى الفيل فانتفض الفيل وتراجع فضربه القعقاع بالسيف ففصل مشفره عن جبهته ومن ناحية أخرى هجم حمال والربيل على الفيل الأجرب فأصاباه فهرب وتبعه الفيلة كلها وانقشعت هذه السحابة السوداء بعد فترة وجيزة [2] . وقد سنحت الفرصة للشجعان لاختبار هممهم . واشتدت المعركة واهتزت الأرض من رعد الصيحات والهتافات الحماسية ولهذا أطلقوا على هذه المعركة « ليلة الهرير » [3] وأعاد الفرس ترتيب الجيش ترتيبًا جديدًا وأقاموا ثلاثة عشر صفًا يمين القلب ويساره وجمع المسلمون الجيش فى ثلاثة صفوف من الأمام وللخلف ، فجعلوا كتيبة الفرسان فى المقدمة والرجالة من بعدهم والرماة فى المؤخرة وأمر سعد أن يبدءوا الهجوم مع التكبيرة الثالثة ، لكن عندما بدأ الفرس يطلقون وابلاً من سهامهم لم يتحمل القعقاع فانقض مع من فى ركابه على العدو ومع أن هذا العمل يعد عصيانًا فى القوانين العسكرية ، لكن عندما رأى سعد حماس القعقاع وسير الحرب قال : « اللهم اغفر له واغفر له وانصره » وانقضت قبائل نخع وبجيلة وكِنْدة عندما

(١) يقول الطبرى : فأخذ برجل جواده وليس بذيل جواده كما ذكر شبلى . تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٥١ - ٥٥٤ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٥٥ - ٥٥٦ (المترجم) .

(٣) (ابن الأثير) الكامل فى التاريخ : ٢ / ٤٧٩ (المترجم) .

رأوا بنى أسد الذين كانوا بدورهم قد انقضوا عندما رأوا القعقاع ، وكان سعد يقول مع زحف كل قبيلة « اللهم اغفر لهم وانصرهم » وانقضت كتيبة الفرسان على مقدمة الجيش لكن الفرس ظلوا صامدين أمامهم كالحائط / وقاتلوا ببسالة وإقدام فلم تستطع خيول (المسلمين) التقدم وعندما رأى المسلمون هذا قفزوا من على الجياد وحملوا عليهم مترجلين . ١١١

وهجمت قبيلة حميضة على إحدى الكتائب الفارسية المدرعة بالحديد تدرعًا كاملاً فلم تعمل السيوف فى الدروع فصاح فيهم سيد القبيلة قالوا : لا تنفذ فيهم السيوف ، فتملكه الغضب وحمل على أحد الفرس فدق ظهره بالرمح فلما رأى الآخرون هذا الصنيع تجرءوا وحاربوا ببسالة حتى قضوا على الكتيبة كلها [(١)] .

وظل القتال محتدمًا طوال الليل حتى أنهكتهم المعركة وتوقفت أيديهم وأرجلهم عن العمل عندما غشيهم النعاس وحينما لم يصل الأمر إلى النصر أو الهزيمة اختار القعقاع جماعة من رؤساء القبائل أولى بأس شديد معروفين ببسالتهم واتجه نحو قائد الجيش (رستم) ومعه قيس بن الأشعث وعمرو بن معد يكرب وابن ذى البردين وكانوا سادة قبائلهم فقالوا لأصحابهم « لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم » . وزعماء القبائل الأخرى الذين بجانب بسالتهم كانوا من الفصحاء والبلغاء وقفوا أمام قبائلهم يخطبون بحماس حتى أضرموا نار الحماس فى الجيش كله ونزل الفرسان بين جنودهم ورموا السهام والأقواس واستلوا سيوفهم وتقدم الجيش كله كالسيل العرم ودفعوا الفيروزان والهرمزان إلى الوراء واقتربوا من رستم الذى كان جالسًا على محفة العرش يقود جيشه فى المعركة وعندما رأى هذه الحالة قفز من فوق عرشه وظل يقاتل بشجاعة لفترة من الزمن وعندما أثخن بالجراح ولى هاربًا تعقبه أحد الجنود وهو هلال بن علفة التيمى فإذا بحافة النهر أمامهم فرمى رستم / بنفسه فيها وحاول أن ينجو بنفسه عائمًا فاقتحمه عليه هلال وجره من رجله وخرج به إلى الشاطئ وأجهز عليه بالسيف ورمى هلال بجثته تحت حوافر البغال ثم صعد على محفته وصاح لقد قتلت رستم [(٢)] وعندما رأى الفرس عرش ١١٢

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٥٩ - ٥٦٢ (المترجم)

(٢) ذكر البلاذرى أن « قاتل رستم غير معلوم فقد حمل عليه عمرو بن معد يكرب وطليحة بن ويلد وفرط بن جماح ثلاثتهم » والرواية التى ذكرها هى رواية الأخبار الطوال (المؤلف) .

القائد خاليًا من القائد فر الجند جميعًا واقتفى المسلمون أثرهم لمسافات طويلة وفرشت آلاف الأشلاء ميدان المعركة .

وللأسف فإن ملك شعرائنا قد صور هذه المعركة بطريقة خاطئة تمامًا متأثرًا بالحماسة القومية :

انبعث صياح كأزير الرعد
بعضه من ناحية رستم وآخر من ناحية سعد
وعندما أظلمت الدنيا أمام عينى رستم
انتصر عليه الشاب العربى [1]

فلم يعرف شاعرنا أن سعدًا لم يشترك فى هذه المعركة [2] .

وظل عدد من القادة المعروفين أصحاب الأمارات (يحاربون) بثبات فى ميدان القتال بعد الهزيمة ومنهم من ضحى بنفسه برجولة مثل : شهريان وابن الهربد وفرخان الأهوازى وخسروشنوم الهمدانى ، أما الهرمزان واهود وقارون (من القادة الفرس) فقد فروا هاربين ، وكان قتلى الفرس بلا حصر بينما استشهد من المسلمين ستة آلاف على الأقل [3] .

وقد ظل الجيش يظن السوء بسعد لأنه لم يشترك بنفسه فى هذا الفتح لدرجة أن أحد الشعراء قال :

وقاتلت حتى أنزل الله نصره   وسعد بباب القادسية مُعصمُ
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة   ونسوة سعد ليس فيهن أيّمٌ [4]

وكانت هذه الأبيات تتردد على ألسنة كل الناس فى ذلك الوقت حتى جمع سعد الجيش كله وأراهم ما به من قروح وأثبت عذره .

---

(١) برآمد خروشبى بكردار رعد   ويک سوى رستم زيک سوى سعد
جو ديدار رستم بخون تيره كشت   جوان مرد تازى بروجيره كشت

(٢) للأسف لم يفهم شبلى معنى هذين البيتين ولهذا بنى حكمه على افتراض خاطئ فلم يقصد الفردوسى أن سعدًا قد أجهز عليه ولم يقصد أن سعدًا اشترك فى المعركة أما الذى أجهز عليه فهو الشاب العربى الذى عبر عنه بـ « جوان مرد تازى » (المترجم) .

(٣) ذكر الطبرى أنه « قد مات من الفرس ثلاثون ألفًا » تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٦٤ (المترجم) .

(٤) يروى الطبرى المصرع الأول من البيت الأول هكذا « نقاتل حتى أنزل الله نصره » تاريخ الطبرى : ٥٧٧/٣ (المترجم) .

وكتب سعد إلى عمر رسالة عن الفتح وذكر فيها تفاصيل القتلى من الجانبين ، وكان عمر منذ ذلك اليوم الذى بدأت فيه القادسية كان يخرج كل صباح بعد طلوع الشمس إلى ظاهر المدينة وينتظر مجيء الرسول ، فخرج ذات يوم حسب العادة فرأى راكبًا على ناقة قادمًا نحوه فتقدم عمر وسأله من أين جئت ؟ وكان هو رسول سعد جاء ببشرى النصر وعندما علم أنه قاصد [1] سعد بدأ يسأل عن أحواله وأخباره . فقال : لقد نصر الله المسلمين وعمر يجب معه ويستخبره حتى دخل المدينة فرأى القاصد أن كل رجل يأتى أمامه يسلم عليه ويناديه بلقب أمير المؤمنين ، فارتجف خوفًا وقال « لماذا لم تخبرنى أنك أمير المؤمنين فلا أرتكب هذه الحماقة » قال لا بأس عليك ولا تكف عن الكلام وهكذا وصل إلى المنزل وهو يمشى فى ركابه ، فى المدينة ألقى ببشرى الفتح على الملأ وخطب فيهم خطبة مؤثرة / كانت فقرتها الأخيرة : « أنا لست ملكًا حتى أستعبدكم فأنا نفسى عبد الله ، وقد وضع عبء الخلافة على عاتقى ، فمن سعادتى أن أقوم بعملكم وتنامون بسكينة فى منازلكم ولو تكون رغبتى أن تحضروا على بابى فإن فى هذا شقائى ، وهذا ما أريد أن أعلمكم إياه بالعمل لا بالقول » . ١١٤

وفى معركة القادسية التى حارب فيها العجم العرب المسلمون كان من بينهم من لا يريدون الحرب مطلقًا ، لكنهم ألحقوا بالجيش كرهًا وقسرًا وكثيرًا منهم تركوا منازلهم وهربوا فجاء هؤلاء الناس بعد النصر إلى سعد وطلبوا منه الأمان فكتب سعد إلى باب الخلافة فاستدعى عمر الصحابة ليستشيرهم فوافقوا جميعًا على هذا الأمر وعلى هذا أعطى الأمان للمملكة كلها ورجع أولئك الذين تركوا منازلهم وهربوا من ديارهم ليسكنوها مرة أخرى وقد زاد الارتباط بالرعية حينما تزوج بعض الناس منهم .

وبعد فرار الفرس من القادسية أقاموا فى بابل فقد كانت هذه المدينة مكانًا حصينًا أعدوا فيها جميع عتاد الحرب بكل طمأنينة وجعلوا الفيروزان على رأس الجيش ، فأراد أن يذهب سعد إلى بابل سنة ١٥ هـ / ٦٣٦م لاستئصالهم فأرسل عدة قادة فى الطليعة لكى يمهدوا الطريق للجيش فسد بصيرى [2] طريقهم عند بُرس [3] وقد جرح فى ميدان

---

(١) كان قاصد سعد هو : سعد بن عميلة الفزارى (المترجم) .

(٢) ذكر الطبرى هذا الاسم بهذه الصورة « بُصبهرى » تاريخ الطبرى : ٦١٩/٣ - ٦٢٠ (المترجم) .

(٣) بُرس أجمة قريبة من بابل (المترجم) .

المعركة وفر إلى بابل وصالح بسطام رئيس بُرس وأقام لهم الجسور حسب المواقع حتى بابل لكى تمر عليها الجيوش الإسلامية بسهولة ، وبالرغم من أن كبار قادة العجم مثل :
١١٥ نخيرجان وهرمزان ومهران ومهرجان وغيرهم قد اجتمعوا فى بابل إلا أنهم / ولوا هاربين فى بداية المعركة ، وقد أقام سعد نفسه فى بابل وأرسل بعض القوات إلى الأمام بقيادة زهرة وجيش العجم الهارب من « بابل » قد أقام فى « كوثى » وكان شهريار ابن الأمير قائدًا لهم ، وحينما مر زهرة « بكوثى » تقدم شهريار للقائه ونزل أرض المعركة ونادى أما من فارس مغوار منكم يخرج إلىّ ، قال زهرة كنت أود أن أبارزك لكن بعد أن سمعت دعواك هذه فسيخرج إليك عبد وبعد أن قال هذا أومأ إلى نائل [1] الذى كان عبدًا لقبيلة تميم تقدم بفرسه أما شهريار فكان ضخم الجثة كالمارد ، وعندما رأى نائل ضعيفًا ألقى الرمح فى يده ولف يده حول رقبته فسحبه بقوة وألقى به على الأرض وقعد على صدره ، وبالصدفة وقعت إبهام شهريار فى فم نائل فعضه بقوة فتململ شهريار وانتهز نائل الفرصة وصعد على صدره وجلس عليه وبقر بطنه بالسيف وكان شهريار مزينًا بالأسلحة وفى حلة فاخرة فجرده نائل من درعه وسلبه وحملها ووضعها أمام سعد ، فأمر سعد أن يأتى نائل متزينًا بتلك الملابس والأسلحة للعبرة والعظة فخرج على الجميع بعد أن تزين بأسلحة شهريار وملابسه الفاخرة فجالت فى عيون الناس صورة لتقلب الدهر وتغير الأحوال .

و« كوثى » مكان تاريخى وفى ذلك المكان سجن النمرود فيه إبراهيم عليه السلام وكان لا يزال هذا السجن حتى تلك الأيام (أيام سعد) وذهب سعد لزيارته بعد ما ألقى التحية والصلاة ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [2] وبعد « كوثى » كانت هناك مدينة « بهره شير » قريبة من العاصمة وتقيم بها كتيبة من الكتائب
١١٦ الملكية التى كانت تقسم كل يوم بأن « لا يزول ملك فارس ما عشنا » / وكان لكسرى هناك أسد [3] مستأنس لهذا كانوا يطلقون على هذه المدينة اسم « بهره شير » وعندما اقترب جيش سعد خرج ذلك الأسد فى هياج فضربه هاشم قائد المقدمة بسيفه بمهارة فائقة فأرداه قتيلاً وقد قَبَّلَ سعد جبينه على هذه الشجاعة .

---

(١) هو نائل جشعم الأعرجى . (المترجم) .
(٢) سورة آل عمران : آية : ١٤٠ (المترجم) .
(٣) اسمه « قرط » تاريخ الطبرى : ٤ / ٥ (المترجم) .

وتقدم سعد وحاصر « بهره شير » وانتشر الجيش فى كل مكان وأسروا الآلاف ، وقال شهرزاد دهقان « ساباط » لسعد ما الفائدة من أسر هؤلاء الفلاحين البسطاء ؟ فدون سعد أسمائهم فى الدفاتر وأطلق سراحهم ، وقبل جميع الدهاقين الجزية لكنه لم يستول على المدينة فاستمر حصارها لمدة شهرين ، وكان الفرس يخرجون من القلعة يقاتلون المسلمين ، وذات يوم زاد حماسهم وتأهبوا للموت وخرجوا وهم يطلقون السهام فتصدى لهم المسلمون وكان زهرة أحد مشاهير القادة فى مقدمة المعارك ، وقد تحطمت حلقات درعه فى أحد الأماكن فطلب إليه أن يغير درعًا جديدة بدلاً من هذه الدرع ، فقال لست أنا من حسن الإقبال حتى أن يدع سهم العدو الجميع ويصيبنى فإذا بأول سهم قد أصابه (فى المعركة) ، وأراد المسلمون أن يخرجوه فرفض وقال « أنا حى مادام هذا السهم موجود فى جسدى » وتقدم للهجوم فى هذه الحالة وقتل « شهربراز » أحد القادة المشهورية وفر الفرس بعد فترة وجيزة من القتال ورفع أهل المدينة راية الصلح .

وكان نهر دجلة هو الحائل بين بهرشير والمدائن ، عندما تقدم سعد إلى بهرشير كان دجلة أمامه وقد / حطم الفرس الجسور التى أقاموها من قبل وجعلوها غير صالحة ، وحينما وصل سعد إلى شاطئ دجلة فلم يكن هناك جسر أو قارب يحملهم فخاطب الجيش وهو يقول : « يا أخوة الإسلام إن العدو قد اعتصم منكم بالنهر فلو انتصرتم فى هذه المعركة فلا عوائق بعدها » وبعد أن قال هذا ألقى بجواده فى النهر فتجرأ الآخرون بعد أن رأوا هذا وقد ألقى الجميع بجيادهم فى النهر مرة واحدة ، وعلى الرغم أن النهر كان هائجًا متموجًا ، إلا أن الحماس والعزيمة قد منحت نفوسهم قوة التحدى فكانت الأمواج ترتطم بجيادهم وهم سائرون يواكب كل منهم الآخر فلم يحدث أى خلل فى صفوف الميمنة والميسرة فى الترتيب ، وعلى الضفة الأخرى كان الفرس ينظرون إلى هذا المنظر المثير للعجب ، وعندما اقترب الجيش من الشاطئ ظنوا أن هؤلاء ليسوا بشرًا بل من الجان فلاذوا بالفرار وهم يقولون « ديوان آمدند ، ديوان آمدند » [1] إلا أن القائد خرزاد قد صمد مع قليل من الجيش وعين كتائب من الرماة على المناهل ونزلت جماعة منهم فى النهر لتسد طريقهم إلا أن المسلمين كانوا يتقدمون كالسيل فأزاحوا الرماة عن

١١٧

(١) وردت هذه الكلمات فى تاريخ الطبرى ، بشكل « ديوان آمد » ولم تتكرر كما ذكرها شبلى ومعناها (أتت الجن) : ٤ : ١٤ (المترجم) .

طريقهم كالغثاء وعبروا للضفة ، وكان يزدجرد قد أرسل النساء والأسرة الملكية إلى حلوان من قبل ولما سمع هذا الخبر غادر هو بدوره المدينة وعندما دخل سعد المدائن وجد الصمت سائدًا فى جميع أطراف المدينة فاعتبر وجاءت هذه الآيات على لسانه تلقائيًا ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [1] / . ١١٨

ونصبوا المنبر مكان العرش الملكى فى إيوان كسرى ، وصلوا فيه صلاة الجمعة فكانت أول جمعة أقيمت بالعراق ، ويتعجب فقهاؤنا من أن سعدًا مع أنه كان من كبار الصحابة وظل سنوات فى صحبة الرسول - ﷺ - إلا أنه لم ينتهج نهج السلطان محمود (الغزنوى) وعالمكير عندما أبقى على جميع التماثيل التى كانت فى الإيوان [٢] .

وبعد أن أقام سعد عدة أيام أمر بأن تُحضر خزائن الدواوين الملكية والأشياء النادرة وتجمع فى مكان واحد وكان بها آلاف الأشياء التذكارية منذ عهد الأسرة الكيانية وحتى عهد آنوشيروان وكان من بينها سيوف ودروع بهرام جوبين وسياوش والنعمان بن المنذر وقيصر الروم وراجا داهر وخاقان الصين ، وخناجر كيقباد وهرمز وكسرى وتاج أنوشيروان المرصع والثياب الملكية وفرس من ذهب عليه سرج من فضة وصدره كان مطعمًا بالياقوت والزمرد وناقة من فضة عليها شليل من ذهب ولها زمام من الياقوت الثمين وعلى الناقة فارس مكلل بالجواهر من الرأس حتى القدم ، وكان من أعجب الأشياء فرش يطلق الفرس عليه اسم « بهار » أى الربيع وكان الغرض من إعداده هو عندما يحل فصل الربيع يجلسون عليه ويحتسون الخمر ، وقد حرصوا على توفير جميع عناصر الربيع فيها ، فكان فى وسط هذا الفرش الرياض اليانعة والجداول من الجهات الأربع وبها جميع أنواع الأشجار ، وفى الأشجار البراعم والزهور والثمار وقد صممت على أن كل شىء بها كان من الذهب أو الجواهر ، فالأرض كانت من ذهب والخضرة من الزمرد والجداول من الدر ، والأشجار الذهبية والفضية أوراقها من الحرير وثمرها من الجوهر / . ١١٩

---

(١) سورة الدخان : ٢٥ - ٢٨ (المترجم) .

(٢) ذكر الطبرى هذه الواقعة بصراحة وكان من كبار المحدثين (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٥ - ١٦ (المترجم) .

وقد استولى الجيش على كل هذا المتاع فى الهجوم العام ، وكان الجنود صادقين أمناء فكان كل ما يعثرون عليه يحضرونه ويسلمونه لقائدهم لذلك عندما أحضروا كل الغنائم ونسقوها وتلألأ ميدان المعركة إلى مسافة بعيدة دهش سعد وقال وقد اعتراه العجب « إن أولئك الناس الذين لم يضعوا أيديهم على هذه النفائس النادرة حقًا إنهم ورعون أتقياء وأشد أمانة » .

وقسم مال الغنيمة حسب القواعد وأرسل الخُمس إلى المدينة ، وأرسلت معه الفرش (السجادة) والكنوز القديمة ليشاهد العرب جاه الفرس وجلالهم ونصر الإسلام وإقباله ، وعندما أحطيت هذه الأشياء أمام عمر اندهش هو أيضًا من تعفف الجيش وورعه .

وكان فى المدينة رجل اسمه محلم طويل القامة بهى الطلعة فأمر عمر أن تعطى له أزياء كسرى ليرتديها وكان له عدة ثياب لكل مناسبة ثوب ، فثوب للفروسية وآخر للبلاط وثالث للاحتفال وآخر للتهنئة ، فارتدى محلم جميع الأثواب ثوبًا بعد ثوب وعندما ارتدى الثوب الخاص والتاج المرصع اندهشت عيون المشاهدين وظل الناس يحدقون فيه زما وهم حائرون ، وبالنسبة للفرش فقد رأوا ألا يقسم وكان هذا رأى عمر أيضًا لكن بإصرار علىّ حل الخريف على هذا الربيع وهكذا تقطعت اللوحة الأنوشيروانية الثمينة إلى أجزاء كثيرة .

عد هذا العمل عملاً وحشيًا طبقًا للذوق الأوربى المعاصر لكن لكل عصر مذاقه الخاص به ، ففى العصر المقدس الذين كانوا لا يهتمون فيه بالزخارف الدنيوية أنى لهم أن يهتموا بمثل هذه المآثر الدنيوية ؟ / .

١٢٠

جلولاء [1] سنة ١٦هـ / ٦٣٧م

كانت هذه المعركة « معركة جلولاء » آخر فتوحات العراق ، فبعد فتح المدائن بدأ الفرس الاستعداد للحرب فى جلولاء وجمعوا جيشًا عظيمًا وكان خرزاد أخا رستم قائدًا للجيش وكان ذا حكمة بالغة فاحتفر خندقًا حول المدينة وفرشوا الأشواك فى الطرق

---

(١) جلولاء مدينة فى سواد بغداد ولم تدرج فى الخريطة بسبب صغرها وتقع فى الطريق من بغداد إلى خراسان (المؤلف) .

والممرات . وعندما علم سعد بهذا الخبر كتب رسالة لعمر بذلك فجاء الرد من عمر بأن يتحرك هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألفًا لهذه المعركة وأن يكون القعقاع على مقدمة الجيش وشعر [1] بن مالك على الميمنة وعمرو بن مالك على الميسرة وفى الساقة عمرو بن مرة فتوجه هاشم نحو المدائن ووصل جلولاء فى اليوم الرابع واستمر هذا الحصار لعدة شهور ، وكان الفرس يخرجون من القلعة للقتال من حين لآخر وجرت بينهم نحو ثمانين معركة غلبوا الفرس فيها جميعًا ولكن مع ذلك لم تفتر هممهم لأن المدينة كان بها كل أنواع الذخيرة المهيأة وإلى جانب هذا كان لديهم جيش كبير من آلاف مؤلفة وذات يوم خرجوا بكل عتادهم وقوتهم فقاتلهم المسلمون بكل ثبات وحدث أن هبت عليهم ريح صرصر عاتية فأظلمت ما بين السماء والأرض ، وانعدمت الرؤية بسبب الغبار فاضطر الفرس إلى التقهقر وتساقط آلاف من الجنود فى الخندق وهلكوا ، فلم يجد الجند الفرس بدًا من أن يردموا الخندق ويعدون طريقًا بأماكن عديدة وبلغ المسلمين ذلك الخبر فاغتنموا هذه الفرصة واستعدوا للهجوم وكانت الأخبار تصل إلى الفرس لحظة بلحظة ففرشوا الأشواك فى ذلك الوقت فى اتجاه المسلمين واجتمعوا على باب القلعة بعد أن زودوا الجيش بالعدة والعتاد [2] . / واقتتل الفريقان قتالاً شديدًا لم يقتتلوا مثله إلا فى ليلة الهرير . وفى البداية نزلت السهام كالمطر وعندما خلت الجعب ، أمسك الأبطال بالرماح وعندما تكسرت الرماح أيضًا وتكدست على الأرض بدأت معركة السيوف والخناجر ، وحارب القعقاع ببسالة فائقة فكان يتقدم حتى وصل إلى مدخل القلعة بينما كان قائد الجيش هاشم لا يزال فى المؤخرة ومعه الجانب الأكبر من الجيش ، وأمر القعقاع مناديًا فنادى إن القائد قد وصـــل إلى باب القلعة وظن الجند القعقاع هاشمًا فانقضوا مرة واحـدة وانفرط عقد الفرس وهبروا هنا وهناك وكل ناحية يذهـبون إليها وكانوا يجدون الأشـواك المفروشة حينما ولوا فأعمل المسلمون فيهم القتل بلا توان وطبقًا لرواية الطبرى [3] فقد قتلوا مائة ألف يومئذ وغنموا ثلاثين ألف ألف (من الأموال) .

١٢١

(١) هو سعر بن مالك وليس شعر بن مالك (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٤ - ٢٥ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٥١٩ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٦ - ٢٩ (المترجم) .

وأرسل سعد الخُمس إلى المدينة المنورة مع بشرى النصر وكان زياد الذى جاء ببشرى النصر وصف المعارك الحربية ببلاغة وبراعة وصفًا دفع عمر أن يقول له : هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به ؟ فقال زياد والله ما على الأرض شخص أهيب فى صدرى منك فقام فى الناس وقص عليهم الواقعة ببلاغة وفصاحة وصور لهم المعركة فقال عمر : هذا الخطيب المصقع وقال مرتجلاً :

إن جندنا أطلقونا بالفعال لساننا [1]

ثم قدم زياد كنز الغنيمة إلا أن الليل قد حل فى ذلك الوقت فتوقف التقسيم وتركت الغنيمة مكومة فى صحن المسجد ، وبات عبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم / يحرسانها طول الليل فلما أصبح جاء (زياد) فى الناس ورفع الرداء عن أموال الغنيمة وكانت هناك أكداس من الجواهر بالإضافة إلى الدنانير والدراهم ، فبكى عمر فتعجب الناس وقالوا ما يبكيك ؟ قال ما دخل المال فى مكان إلا وقد دخل معه التحاسد والتباغض . ١٢٢

ولما بلغ يزدجرد خبر الهزيمة فى جلولاء خرج من حلوان سائرًا نحو الرى وخلّف بحلوان خسروشنوم بعدة كتائب ليدافع عنها ، وأقام سعد فى جلولاء وأرسل القعقاع إلى حلوان فوصل القعقاع بالقرب من قصر شيرين (على بعد ثلاثة أميال من حلوان) وأقبل خسروشنوم للقائه لكنه انهزم وهرب ووصل القعقاع إلى حلوان وأقام بها وجعل المنادى ينادى بالأمان فى جميع الأنحاء فكان أمراء الثغور يقبلون الجزية ويدخلون فى حمى الإسلام ، وكان هذا الفتح خاتمة فتوحات العراق ، وإلى هنا ينتهى حدود العراق .

فتوحات الشام

سنذكر هنا (فى هذا الموضع) بداية إرسال الجيش إلى الشام لربط الأحداث حسب وقوعها باقتضاب شديد ، ففى بداية سنة ١٣هـ /٦٣٤ م أرسل أبو بكر الجيوش إلى عدة

---

(١) يروى الطبرى الشطر الأول هكذا « إن جندنا أطلقوا » وهو الأصح كما يقتضى الوزن ، تاريخ الطبرى : ٣٠/٤ (المترجم) .

ثغور فى الشام ، فكلف أبا عبيدة بأمر حمص ويزيد بدمشق وشرحبيل بالأردن وعمرو ابن العاص بفلسطين ، وكان تعداد الجيش أربعة وعشرين [١] ألفًا ، وبعد أن خرج هؤلاء القادة من حدود بلاد العرب كانوا يواجهون جماعات كبيرة مستعدة للحرب من قبل الروم . وعلاوة على ذلك فإن / قيصر قد جمع الجيوش من جميع البلدان وأرسل لقتال هؤلاء القادة كل واحد على حدة ، وعندما رأى قادة جيوش الإسلام هذا اتفقوا على أن تجتمع الجيوش كلها فى مكان واحد . وإلى جانب هذا كتبوا رسالة لأبى بكر ليرسل لهم جيوشًا أخرى لنجدتهم ، لذا فإن خالد بن الوليد الذى كان مكلفًا بحرب العراق ودخل فى الطريق فى معارك صغيرة ظفر فيها حتى وصل دمشق فجعلها مقره الأساسى وأقام فيها .

١٢٣

أما قيصر فقد أرسل جيشًا [٢] جرارًا للقائه وبدأ الاستعداد للحرب بعد أن وصل أجنادين ، وخرج خالد وأبو عبيدة كلاهما وتقدما نحو أجنادين وكتبا إلى القادة الآخرين أن يوافوهم للقاء ، فوصل شرحبيل ويزيد وعمرو بن العاص أجنادين فى الوقت المحدد ، وتقدم خالد وهجم عليهم وانتصر انتصارًا كاملاً بعد معركة عظيمة استشهد فيها ثلاثة آلاف مسلم ، وقد تمت هذه المعركة طبقًا لرواية ابن إسحاق فى ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ / ٦٣٤م . وبعد أن فرغ خالد من هذه المهمة توجه إلى دمشق وعندما وصل دمشق حاصرها من جميع الجهات ، ومع أن الحصار بدأ فى عهد أبى بكر إلا أن فتحها قد تم فى عهد عمر لذا سوف نكتب عن هذه المعركة بالتفصيل [٣] .

* * *

(١) ذكر الطبرى أن تعداد الجيش كان ستة وأربعين ألفًا . تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٥ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٤ - ٣٩٥ (المترجم)

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤١٨ (المترجم)

فتح دمشق

كانت هذه المدينة عاصمة بلاد الشام العظيمة ، وكان العرب يترددون عليها فى أيام الجاهلية كثيرًا للتجارة لذا كان لها شهرة عظيمة بين العرب وقام خالد بالاستعدادات الخاصة والتدابير اللازمة للمحاصرة فعين على أبواب سور المدينة الضخم أولئك القادة الذين تم تكليفهم بفتح أقاليم الشام فنزل عمرو بن العاص[١] / على باب توما ، ١٢٤ وشرحبيل على باب الفراديس وأبو عبيدة على باب الجابية واصطحب خالد معه خمسة آلاف جندى وخيم بالقرب من الباب الشرقى حتى بدأت تفتر همم النصارى بعد أن رأوا شدة الحصار خصوصًا أن عيونهم التى كانت تأتى إلى جيش المسلمين ليستخبروا عن أحوالهم كانوا يرون حماسًا شديدًا فى جميع صفوف الجيش ويستولى على كل جندى روح الاستبسال ويتوافر فى كل واحد منهم (صفات) الشجاعة والمثابرة والصدق والعزيمة والقوة ، مع هذا فإنهم كانوا يعتمدون على وجود هرقل فوق رأسهم وأن جيوش النجدة قد تحركت من حمص (إلى دمشق) وفى تلك الأثناء توفى أبو بكر وتولى عمر الخلافة .

وكان النصارى يظنون أن العرب لا يطيقون برد هذه البلاد وأن هذه السحب سوف تنقشع تلقائيًا فى فصل الشتاء ، لكن آمالهم باءت بالفشل الذريع لأن نشاط المسلمين لم يفتر بسبب شدة البرد ، وعين خالد (ذات الكلاع) على قوة من الجيش على بعد منزل من دمشق ليمنع وصول النجدة إلى هناك ، وهكذا مُنعت الجيوش التى أرسلها هرقل من حمص ويئس أهل دمشق تمامًا ، وقد وقعت بالصدفة فى ذلك الوقت حادثة اعتبرت تأييدًا من الغيب للمسلمين ، فقد ولد لبطريق دمشق ولد وعقدت جلسات السمر احتفالاً به فى جميع أنحاء المدينة وأسرفوا فى تناول الخمر وناموا مبكرًا فى المساء ، وكان خالد قليل النوم ليلاً وكان يعرف كل شىء عن المحاصرين ولم يكن هناك فرصة أحسن من هذه الفرصة فنهض فى ذلك الوقت واصطحب معه عددًا من القادة المغاوير وعبروا الخندق الموجود تحت سور المدينة والملىء بالماء على القرب المنفوخة [٢]

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٧ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٤٢٧ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٣٨ - ٤٣٩ (المترجم) .

١٢٥ وتسلقوا على الحائط / بمساعدة الوهق وعندما ارتقوا الجدار ربطوا السلالم المصنوعة من الحبال بالسور وألقوها لأسفل وبهذه الحيلة صعد كثير من الفدائيين فى فترة وجيزة [١] وانحدر خالد إلى الباب وقتل أولاً حراس الباب ثم حطم القفل وفتح الأبواب وفى الناحية الأخرى كان الجيش واقفًا على أهبة الاستعداد فتدفقوا كالسيل مع فتح البوابة [٢] ، وقتل الجيش الحراس وعندما رأى النصارى ما حدث فتحوا بأنفسهم أبواب سور المدينة ولجئوا لأبى عبيدة ليحميهم من خالد والتقى أبو عبيدة وخالد فى سوق النحاسين (بمقسلاط) ، ولأن أبا عبيدة أجاز الصلح بينما كان الجزء الذى فتحه خالد من المدينة قد فتحه عنوة لذا دخل تحت شروط الصلح وسرت هذه الشروط على الأجزاء المفتوحة كذلك ، أى أنه لم يسمح للجند بالغنيمة ولا أن يستعبد أحد ، وكان هذا الفتح المبين مقدمة لفتح جميع بلاد الشام وكان ذلك فى رجب سنة ١٤هـ / ٦٣٥م .

فحل فى ذى القعدة سنة ١٤ هـ / ٦٣٥م

أثارت هزيمة دمشق الغضب لدى الروم ، فاجتمعوا من كل صوب وحدب واستعدوا للحرب مع المسلمين وبعد فتح دمشق اتجه المسلمون نحو الأردن لذا بدأ الروم فى تعبئة الجيوش فى مدينة بيسان إحدى مدن الإقليم الشهيرة وأرسل الملك هرقل الجيوش لنجدة دمشق لكنها لم تصل فرجعت وانضمت إليها فى ذلك الوقت وهكذا ١٢٦ تجمع ثلاثون أو أربعون ألفًا / وكان قائدهم سكلار أحد قادة الروم [٣] .

ومن أجل معرفة ميدان المعركة يجب أن نذكر هنا أن بلاد الشام تنقسم إلى ستة أقاليم ومن بين أقاليمها الشهيرة دمشق وحمص والأردن وفلسطين ، وطبرية عاصمة الأردن كانت تقع على بعد أربعة منازل من دمشق ويوجد فى الجانب الشرقى لطبرية إحدى البحيرات بطول اثنى عشر ميلاً وتقع بالقرب منها وعلى بعد عدة أميال إحدى المدن الصغيرة كان اسمها القديم « سلا » واسمها العربى الجديد « فحل » وقد اشتهرت هذه المعركة باسم هذه المدينة وهذا المكان الآن قفر وغير آهل ، ومع ذلك ففيها بضعة

---

(١) هذه رواية الطبرى ويذكر البلاذرى أن أحد النصارى قد أخبر خالد باحتفال النصارى وأن النصرانى أحضر السلم كذلك (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ١٢٨ - ١٣٠ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٤٠ (المترجم) .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٤٢٩ (المترجم) .

آثار تتراءى حتى الآن وهى على ارتفاع ستمائة قدم عن سطح البحر ، وتقع بيسان على بعد ثمانية عشر ميلاً من الناحية الجنوبية لطبرية .

وخلاصة القول اجتمعت جيوش الروم فى بيسان ورابط المسلمون أمامهم فى فحل وقام الروم بتحطيم جميع سدود الأنهار القريبة حولهم خوفًا من أن يهاجم المسلمون مرة واحدة ، فامتلأت الأرض بالماء من بيسان حتى فحل ، وتعطلت جميع الطرق بسبب الماء والوحل لكن فيضان الإسلام لم يتعطل قط ، وبعد أن رأى النصارى عزيمة المسلمين مالوا إلى الصلح وأرسلوا لأبى عبيدة رسالة ليبعث لهم سفيرًا فأرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل وعندما وصل معاذ إلى جيش الروم وجدهم فى خيمة قد فرشت بالديباج فوقف فى مكانه وجاءه أحد النصارى وقال : سأمسك زمام الجواد ولتذهب أنت لتجلس فى البلاط ، وكان معاذ معروفًا لدى الجميع بالعظمة والأنفة وقد عرف النصارى عنه هذا الأمر فأرادوا أن يكرموه فى الحقيقة حتى شق عليهم وقوفه فى الخارج ١٢٧ / فقال معاذ أنا لا أريد أن أجلس على هذه السجادة التى أعدت من سلب حق الفقراء . وبعد أن قال هذا جلس على الأرض فتأسف النصارى . وقالوا كنا نريد أن نبجلك فماذا نفعل وأنت نفسك لا تهتم بمكانتك ، فتملك معاذ الغضب فنهض واقفًا وقال : أنا لا أبالى بما تعتبرونه أنتم تبجيلاً واحترامًا ، وإذا كان الجلوس على الأرض من شأن العبيد فمن هـــنا أحق منى أن يكون عبدًا لله ؟ ! فاندهش الروم من حرية فكره وعدم اكتراثه ، حتى سأله أحدهم أليس فى المسلمين من هو أفضل منك ، قال معاذ الله يكفينى أن أكون أسوأهم . فلاذ الروم بالصمت ، وانتظر معاذ لفترة ثم قال للمترجم : « قل لهم إننى منصرف عنهم إذا لم يكن لديهم ما يقولونه » فقال الروم : « نسألك بأى هدف جئتم لهذا المكان » والحبشة قريبة منكم ، ومات ملك فارس والحكم الآن فى يد امرأة ، فلماذا تركتموهم واتجهتم نحونا ؟ مع أن مليكنا أعظم الملوك وعددنا يساوى عدد ذرات الأرض ونجوم السماء ؟ قال معاذ : « أن أول ما نطلبه منكم هو أن تُسلموا وتصلوا تجاه قبلتنا ، وتتركوا شرب الخمر ، وألا تأكلوا لحم الخنزير وإن فعلتم هذا كنتم أخوة لنا ، وإذا لم تقبلوا الدخول فى الإسلام فعليكم أن تؤدوا الجزية وإن رفضتموها فأمامكم السيف ، وإذا كنتم فى العدد كنجوم السماء فإننا لا نهتم بالكثرة ، لقد قال ربنا تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ وتفخرون بأنكم رعايا ذلك الملك الذى له الحق فى أموالكم وأرواحكم ، أما نحن / فمن نصبناه علينا لا يفضل نفسه علينا فى شىء ، يجلد إذا زنا وتقطع يده إذا سرق ، وهو لا يجلس وراء حجاب ولا يعتبر نفسه أعظم منا ولا يتفوق علينا فى المال ١٢٨

والثروة » . قال الروم : « حسنًا نعطيكم إقليم البلقاء وتلك المنطقة من الأردن ، والتى تتصل بأرضكم ، وتتركون هذا البلد وتذهبون إلى فارس » . فرفض معاذ ونهض وانصرف . وأراد الروم التحدث مباشرة مع أبى عبيدة وأرسلوا لهذا الغرض رسولاً خاصًا ، فوصل فى الوقت الذى كان فيه أبو عبيدة جالسًا على الأرض والسهام فى يده يقلب فيها وكان الرسول يتصور أن القائد سيكون صاحب جاه وحشم وأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لمعرفته وكان كلما نظر إلى أى ناحية ظهر له أنهم جميعًا سواسية وفى النهاية سأل مضطربًا من قائدكم ؟ فأشار الناس لأبى عبيدة فبهت وخاطبه بدهشة وقال : « هل أنت حقًا قائدهم ؟ » قال أبو عبيدة : نعم ، قال الرسول : سنعطى كل فرد من جيشكم دينارين لو رحلتم من هنا . فرفض أبو عبيدة فقام الرسول غاضبًا وعندما رأى أبو عبيدة أسلوبه الغاضب أمر الجيش بالاستعداد وكتب لعمر بأحوال الجيش [1] . فكتب له عمر بالرد المناسب وشجعه قائلاً : « لتثبتوا وتصبروا والله معكم يمدكم » .

أمر أبو عبيدة بالاستعداد فى نفس اليوم لكن لم يأت الروم للقائه ، وفى اليوم التالى ١٢٩ / ذهب خالد بمفرده إلى الميدان ومعه كتيبة من الفرسان وحسب ، وقد استعد الروم للحرب أيضًا وقسموا الجيش إلى ثلاثة كتائب وأرسلوهم إلى ميدان المعركة بالتناوب ، فانطلقت الكتيبة الأولى ناحية خالد وبإشارة من خالد خرج قيس بن هبيرة من الصفوف وصد حملتهم وحدثت معركة دامية ولم تكن المعركة قد انتهت بعد حتى ظهرت الكتيبة الثانية فأومأ خالد إلى سبرة بن مسروق فواجههم بجنود كانت تحت ركابه ، ثم جاءت الكتيبة الثالثة بجميع معداتها وعليها قائد مشهور وكان يقود جيشه بحكمة شديدة وعندما اقترب منه وقف وأرسل أحد القادة ومعه قوة صغيرة للقاء خالد فصمد خالد فى هذا الهجوم صمودًا فذًا ، وفى النهاية حمل القائد بنفسه وضم الكتيبتين الأولتين واستمرت المعركة لفترة طويلة ، وبعد أن رأى الروم ثبات المسلمين وصبرهم تيقنوا من عدم جدوى استمرار الحرب وأرادوا الانسحاب فصاح خالد فى رفاقه قائلاً : لقد خارت قوى الروم وجاء الآن دورنا فانقض المسلمون عليهم مرة واحدة مع هذا النداء وتقهقر الروم أمام زحفهم .

---

(١) جاء فى فتوح الشام للأزدى أن رجلاً من أهل الشام حمل هذه الرسالة وأسلم بدعوة عمر له (المؤلف) .

وأحجم النصارى عن القتال وهم ينتظرون النجدة ، وعرف خالد خدعتهم فقال لأبى عبيدة إن الروم يخافوننا وهذا هو أنسب وقت للهجوم . وفى نفس الوقت أعلن النقيب فى الجيش بأن غدًا ستكون الحرب ، فليستعد الجيش بعدته وعتاده ونهض أبو عبيدة من فراشه فى الساعات الأخيرة من الليل وبدأ فى إعداد الجيش فجعل معاذ بن جبل على الميمنة وهاشم بن عتبة على الميسرة وعين سعيد بن زيد على المترجلة ووضع الفرسان تحت إمرة خالد / وتأهب الجيش وتجول أبو عبيدة بين صفوفه وكان يقف عند كل راية ويقول « عباد الله استوجبوا من الله النصر بالصبر فإن الله مع الصابرين » . ١٣٠

وكان الروم حوالى خمسين ألفًا أقاموا خمسة صفوف الواحد إثر الآخر وقد تم ترتيبهم بحيث يكون فى الصف الأول كل فارس حوله (يمينًا ويسارًا) اثنان من الرماة وكتائب الفرسان على الميمنة والميسرة يليها فى النهاية المشاة ، وتقدموا بهذا الترتيب نحو المسلمين وهم يدقون الطبول وكان خالد أول من قابلهم لأنه كان على المقدمة وقد أمطرهم رماة الروم بوابل من السهام فاضطر المسلمون إلى التراجع ، فترك خالد هذه الناحية ومال إلى ناحية الميمنة التى كان فيها الفرسان ولم يكن فيها رماة ، وارتفعت همم الروم لدرجة أن كتيبة الميمنة انفصلت عن الجيش وحملت على خالد ، فانسحب خالد إلى الوراء تدريجيًا حتى ابتعدت الكتيبة عن الجيش فانتهز خالد الفرصة وحمل عليهم بقوة حتى أحدث خللاً فى صفوفهم وقتل على يديه أحد عشر من كبار قادة الروم ، ومن ناحية أخرى حمل قيس بن هبيرة على الميسرة فأضعف الساعد الثانى للروم ومع ذلك كان قلب الجيش متماسكًا بسبب الرماة وهاشم بن عتبة الذى كان قائدًا للميسرة فحرك الراية وقال : « والله لن أعود إذا لم أصل إلى قلب جيشهم وأثبتها » قال هذا وقفز على الجواد وأخذ فى يده الترس وأخذ يحارب واقترب منهم ولم تكن هناك فرصة لاستعمال السهام فاستعمل السيف واستمرت الحرب نحو ساعة كاملة / حتى تلطخ الميدان كله بالدماء وزلت أقدام الروم وفروا على غير هدى ، وكتب أبو عبيدة لعمر رسالة النصر وسأله كيف يتعامل مع المغلوبين فكتب إليه عمر بأن يترك الأرض كما كانت فى حوزة أصحابها من رعايا أهل الذمة . ١٣١

وبعد هذه المعركة فتحت جميع مدن وقرى إقليم الأردن بسهولة وكُتبت فى شروط الصلح فى كل مكان بأن يمنح الأمان لأرواح المغلوبين وأموالهم وأرضهم وكنائسهم وأماكن عبادتهم ، وفى مقابل هذا يؤخذ منهم قدر من الأرض لبناء المساجد فقط .

حمص ١٤ هـ / ٦٣٥ م

وحمص مدينة قديمة تعد من أكبر أقاليم الشام ، وكانوا يطلقون عليها فى الإنجليزية « أميسا » واشتهرت فى قديم الزمان بسبب هيكل كبير باسم الشمس وكان مكانًا مقدسًا يأتيه الناس من البلاد البعيدة لزيارته ، وكانت وظيفة الكاهن فى هذا الهيكل تعد من دواعى الفخر والاعتزاز ، وبعد الأردن ودمشق بقى هناك ثلاث مدن كبيرة وبفتحها يتم فتح الشام وهى : بيت المقدس وحمص وأنطاكية حيث كان يقيم هرقل نفسه . وكانت حمص أقربها وأقلها جنودًا وعتادًا ولهذا قصدها جيش الإسلام / ١٣٢ فى أول الأمر وكانت بعلبك تقع فى الطريق إليها وفتحت بعد معركة خفيفة . وأراد الروم أن يقاتلوا (المسلمين) بالقرب من حمص فخرج من حمص جيش كبير التقى بالمسلمين عند جوسية لكنهم فى بداية هجوم خالد تركوا مواقعهم وهربوا ، وأرسل خالد سبرة بن مسروق بقوة صغيرة من الجيش إلى حمص [١] فاشتبك فى الطريق مع فلول جيوش الروم المهزومة التى كانت تنتشر هنا وهناك وانتصر المسلمون .

وفى هذه المعركة قتل شرحبيل الحميرى سبعة فرسان وتركوه بمفرده وانفصل عن الجيش وتقدم نحو حمص بمفرده ورأته إحدى كتائب الروم وحيدًا قرب المدينة فانقضت عليه فحارب بصبر وعزيمة حتى قتل أحد عشر رجلاً ففر الروم هاربين ولجئوا إلى إحدى الكنائس التى كانت معروفة باسم « دير سجل » ومع هذا تعقبهم وكان يوجد بالكنيسة أناس كثيرون فحاصروه من جميع الجهات وأمطروه بوابل من الحجارة فجرح ثم استشهد ، وبعد سبرة بن مسروق توجه كل من خالد وأبو عبيدة إلى حمص ومدوا عتاد الحصار ولما كان البرد قارسًا تأكد الروم أن المسلمين لن يستطيعوا أن يحاربوا فى الميدان المفتوح زمنًا طويلاً ، ومع هذا جاء رسول هرقل يخبرهم بأن النجدة سوف ترسل إليهم بأسرع وقت ، ولهذا سار من « الجزيرة » أيضًا جمع غفير لكن سعد بن أبى وقاص الذى كان مكلفًا بفتح العراق قد أرسل مجموعة من الجيش بعد أن سمع هذا الخبر لتسد طريقهم وتمنعهم من التقدم [٢] / وطلب أهل حمص الصلح بعد أن يئسوا ١٣٣

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٤٩١ (المترجم) .

(٢) الكامل لابن الأثير (المؤلف) . ابن الأثير : الكامل : ٢ / ٤٩١ ، ٢ / ٥٣٠ (المترجم) .

من الجميع وترك أبو عبيدة عُبادة بن الصامت هناك وسار بنفسه إلى حماة [1] ، وقد طلب أهل حماة الصلح بمجرد وصوله ووافقوا على دفع الجزية ، فسار من هناك إلى شيزر ومنها إلى معرة النعمان وقبل أهل هذه المناطق الطاعة ثم اتجه إلى اللاذقية بعد أن فرغ منهم وهى مدينة قديمة جدًا أطلق عليها اسم « امانثا » فى عهد الفينيقيين وأقام أبو عبيدة على مسافة قصيرة منها ، وقد لجأ إلى حيلة جديدة عندما رأى قوة تحصنها ، فأمر بحفر العديد من الحفر فى ميدان المعركة وأعدوا هذه الخنادق بحيلة وحذر حتى لا يعلم بها الأعداء ، وذات يوم أمر الجيش بالرحيل وترك الحصار ، وقد توجه ناحية حمص سكان المدينة الذين ضاقوا ذرعًا بالتحصن زمنًا وكانت جميع شئونهم معطلة وظنوا أنه تأييد من الله لهم ففتحوا أبواب المدينة وانصرفوا إلى أعمالهم ، ولما جن الليل عاد المسلمون أدراجهم وظلوا مستترين فى تلك الحفر ، وفى الصباح خرجوا من كمائنهم [2] وهجموا عليهم مرة واحدة وفتحت المدينة فى وقت قصير ، وبعد فتح حمص أزمع أبو عبيدة على الذهاب إلى عاصمة هرقل وأرسل عدة قوات إليها لكن الأمر واتاه من الخليفة بعدم التقدم هذا العام فاستدعى الجيش بناء على هذا التوجيه [3] . وأرسل القادة والنواب إلى المدن الكبرى حتى لا يحدث أى اضطرابات فذهب خالد إلى دمشق / ١٣٤ وبصحبته ألف جندى وعسكر عمرو بن العاص فى الأردن وأقام أبو عبيدة نفسه فى حمص .

اليرموك ٥ رجب سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م

بعد أن غُلبت الروم خرجوا من دمشق وحمص وغيرها ووصلوا إلى أنطاكية واستغاثوا هرقل أن العرب سيطئون كل الشام ، فاستدعى هرقل منهم عددًا من الأشراف والمحنكين وقال : إن العرب أقل منكم عددًا وقوة وعتادًا ، فكيف لا تستطيعون الصمود أمامهم فطأطأ الجميع رءوسهم ندمًا ولم يرد عليه أحد بشىء ، عندئذ قال عجوز محنك : « إن أخلاق العرب أفضل من أخلاقنا فهم يتعبدون بالليل ويصومون بالنهار ولا يظلمون أحدًا ويتعاملون فيما بينهم بالمساواة ، أما نحن فنشرب

---

(١) حماة مدينة قديمة تقع بين حمص وقنسرين (المؤلف) .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ١٣٨ (المترجم) .

(٣) فتوح الأزدى صفحة ١٣١ (المؤلف).

الخمر ونرتكب المعاصى ونظلم الآخرين ولا نتقيد بالعهود ، ولهذا فإن فى جميع أعمالهم حماس وقوة بينما أعمالنا كلها تخلو من القوة والعزيمة . وقد أزمع قيصر فى الحقيقة على الخروج من الشام لكن جماعات النصارى كانت تسير إليه مستغيثة من كل مدينة وإقليم ، فاشتعلت نار الغيرة فى صدر القيصر واستعد بحماس شديد ليوجه قوة المملكة كلها لمنازلة العرب وأرسل الأوامر إلى الروم والقسطنطينية والجزيرة وأرمينيا وكل مكان حتى تجتمع جميع الجيوش إلى العاصمة أنطاكية فى وقت محدد وكتب إلى قادة جميع الأقاليم لكى يرسلوا إليه كل الجنود بقدر إمكانهم [(١)] . وبمجرد وصول تلك الأوامر تدفقت الجيوش كالسيول وحيثما كان يقع النظر كانت الجيوش منتشرة كأسراب الجراد

١٣٥ حول أنطاكية / وكان الأمراء والحكام الذين فى البقاع التى فتحها أبو عبيدة قد أصبحوا مولعين بعدله وإنصافه ، وبالرغم من اختلاف الدين كانوا من جانبهم يعينون الجواسيس لنقل أخبار العدو ، وهكذا فقد اطلع أبو عبيدة على جميع الأحداث عن طريقهم فجمع كل القادة ووقف فخطب فيهم خطبة مؤثرة كان خلاصتها أنه قال : « أيها المسلمون لقد اختبركم الله مرارًا ، وقد نجحتم فى اختباره فجزاكم الله بالنصر دائمًا ، والآن تحرك عدوكم للقائكم بالعدة والعتاد حتى اهتزت الأرض تحت أقدامهم وعليكم أن تخبرونا الآن ما الرأى والمشورة » فوقف يزيد بن أبى سفيان وأخذ معاوية وقال : أرى أن نبقى على النساء والأطفال فى المدينة وننظم الجيش خارج المدينة وإلى جانب هذا نكتب إلى خالد وعمرو بن العاص لكى يأتوا إلينا بالمدد من دمشق وفلسطين ، قال شرحبيل بن حسنة : يجب أن يكون لكل شخص رأى حر فى هذه القضية ، فالأمر الذى أبداه يزيد لا شك أنه يريد به النصح لكنى أخالفه ، فجميع سكان المدينة نصارى ومن الممكن أن يقبضوا على أولادنا وأهلنا بفعل التعصب ويسلموهم إلى قيصر أو يقتلوهم بأنفسهم . قال أبو عبيدة : تستطيع أن تدبروا هذا الأمر وهو إخراج النصارى من المدينة . فقام شرحبيل وقال : أيها الأمير ، ليس لديك الحق فى هذا مطلقًا ، لقد وعدنا النصارى بالأمان حتى يظلوا آمنين مطمئنين فى المدينة ، فكيف ننقض العهد ، فسلم أبو عبيدة بخطئه لكن لم يفصل فى هذا البحث فعلام

١٣٦ انتهى ؟ رأى جميع الحاضرين أن يقيموا وينتظروا النجدة . قال أبو عبيدة / لم يعد هناك متسع من الوقت ، واستقر الرأى فى النهاية على أن يتركوا حمص ويسيروا إلى دمشق

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢/٤١٠ - ٤١٢ (المترجم) .

حيث يوجد خالد ولأنها قريبة من حدود العرب ، وعندما قرروا هذا الأمر استدعى أبو عبيدة صاحب الخزانة حبيب بن مسلمة وقال له إن الجزية أو الخراج تؤخذ من النصارى عوضًا عن حمايتهم من أعدائهم لكن حالتنا الآن حرجة فلا نستطيع تحمل مسئولية حمايتهم لهذا رُدّ إليهم كل ما أخذت منهم ، وقل لهم إن العلاقات التى كانت بيننا وبينكم لا تزال قائمة ، لكنا لا نستطيع أن نتحمل مسئولية حمايتكم فى هذا الوقت لذا نرد إليكم الجزية التى تعد بدلاً عن الحماية وهكذا أعادوا عدة مئات من الآلاف كانت قد جُبيت ، وقد تأثر النصارى بهذا الموقف حتى إنهم كانوا يبكون ويقولون بحماس « ليعيدكم الله » وتأثر اليهود بهذا الموقف كذلك ، وقالوا : قسمًا بالتوراة لن يستولى قيصر على حمص ما دمنا أحياء ، قالوا هذا وأغلقوا أبواب سور المدينة وأقاموا عليها الحراس فى كل مكان .

ولم يكن سلوك أبو عبيدة هذا مع أهل حمص فحسب ، بل إنه كتب إلى كل الأقاليم المفتوحة لإعادة أموال الجزية التى حصلوا عليها على سبيل الجزية [١] .

١٣٧ وخلاصة القول سار أبو عبيدة إلى دمشق [٢] وأخبر عمر بجميع الأحوال / وقد تألم عمر عندما علم بأن المسلمين رحلوا عن حمص خوفًا من الروم ، لكنه اطمأن عندما عرف أن هذا الرأى هو رأى الجيش والقادة جميعًا ، وقال : « لعل الله يجعل الخير فى هذا الرأى الذى اتفق عليه كل المسلمون » . وكتب إلى أبى عبيدة : « إننى ممدكم بسعيد بن عامر لكن النصر والهزيمة لا يرتبطان بقلة الجيش أو كثرته » وعندما وصل أبو عبيدة إلى دمشق جمع كل القادة وشاورهم فى الأمر وهم : يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل فعرضوا جميعًا أفكارهم وآرائهم المختلفة ، وفى تلك الأثناء وصل رسول عمرو بن العاص حاملاً رسالة كان مضمونها أن الثورة انتشرت فى أقاليم الأردن كلها وأن خبر مجيء الروم أثار الفتن وأن ترك حمص تسبب فى إزالة الرعب عنهم . فرد عليه أبو عبيدة « إننا لم نترك حمص خوفًا منهم بل هدفنا من هذا أن يخرج العدو من

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٣٧ والخراج للقاضى أبى يوسف ص ١٨١ وفتوح الشام للأزدى ١٣٨ (المؤلف) - فتوح البلدان : ١٤٣ والخراج : ١٣٩ وفتوح الشام : ١٣٨ (المترجم) .

(٢) أخذت هذه الأحداث التفصيلية من فتوح الشام للأزدى ، أما واقعة ترك أبى عبيدة لحمص والذهاب إلى دمشق فقد ذكرها ابن واضح العباسى والمؤرخون الآخرون . (المؤلف) .

الثغور الحصينة ، أما نحن فنجمع الجيوش الإسلامية المبعثرة فى كل مكان بمكان واحد ، وكتب فى الرسالة أيضًا : « لا تبرح مكانك فإنى قادم إليكم وسألتقى بك » .

وفى اليوم التالى سار أبو عبيدة من دمشق ووصل إلى اليرموك على حدود الأردن وأقام بها وجاء عمرو بن العاص أيضًا والتقيا هناك ، وكان هذا المكان أنسب مكان لمتطلبات المعركة وهو الحدود العربية وكانت أقرب من جميع الثغور الأخرى حيث كان وراءهم الميدان ممتدًا حتى حدود العرب وفى حالة التقهقر يمكنهم الانسحاب حسب الخطة .

ولم يكن الجيش الذى أرسله عمر مع سعيد بن عامر قد وصل بعد ، ومن ناحية أخرى كان المسلمون مذعورين بعد أن سمعوا بمجىء الروم وعن عتادهم وأرسل أبو عبيدة / لعمر رسولاً آخر على وجه السرعة وكتب له أن الروم ظهروا فى البر والبحر وهم فى حالة من الحماس حتى فى الطرق التى يمر منها الجيش ، والرهبان - الذين لا يخرجون مطلقًا من أديرتهم - أخذوا يخرجون ويسيرون مع الجيش . وعندما وصلت الرسالة جمع عمر المهاجرين والأنصار وقرأ عليهم الرسالة فبكى جميع الصحابة وصاحوا فى حماس قائلين : « يا أمير المؤمنين بالله عليك تأذن لنا لكى نذهب نفتدى إخواننا ، فلا قدر الله لو أصابهم مكروه تكون الحياة عديمة النفع » وأخذ حماس المهاجرين والأنصار يتزايد حتى قال عبد الرحمن بن عوف : « لتكن أنت القائد يا أمير المؤمنين ونسير معك » إلا أن بقية الصحابة عارضوا هذه الفكرة واستقر الرأى على أن يرسل لهم جيوش النجدة وسأل عمر الرسول : إلى أين وصل العدو ؟ قال : « هو على مسافة ثلاثة أو أربعة منازل من اليرموك . فتملك عمر الحزن وقال : « واأسفاه ماذا نفعل الآن ؟ وكيف يمكن أن يصل المدد فى هذه الفترة فكتب لأبى عبيدة رسالة فيها كلمات مؤثرة وقال للرسول عليك أن تذهب بنفسك إلى كل الصفوف وتقرأ هذه الرسالة عليهم وقل لهم : « أنا عمر يقرئك السلام ويقول لكم : يا أهل الإسلام اصدقوا اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث وليكونوا أهون عليكم من الذر فإنا قد كنا علمنا أنكم عليهم منصورون » .

١٣٨

ومن الصدف العجيبة أنه فى اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى أبى عبيدة ، وصل عامر ومعه ألف رجل فقويت عزائم المسلمين وبدءوا الاستعدادات للحرب / بقوة ونشاط ونزل جيش الروم فى دير الجبل قبالة اليرموك وبدأ خالد الاستعداد للمعركة وعين معاذ بن جبل - وكان من كبار الصحابة - على الميمنة . وجعل قباث بن أشيم

١٣٩

على الميسرة وهاشم بن عتبة على الرجلة ، وقسم قواته إلى أربع كتائب وأبقى كتيبة تحت قيادته وعين على الكتائب الباقية : قيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل وهؤلاء الأبطال الثلاثة كانوا أشجع شجعان العرب قاطبة ولهذا السبب كان يطلق عليهم « فرسان العرب » . وخرج الروم بكامل عتادهم وكانوا أكثر من مائتى ألف صفوا أنفسهم فى أربعة وعشرين صفًا[1] ووضعوا القساوسة أمام كل صف يحملون الصلبان فى أيديهم ليبثوا فى نفوسهم الحماس ، والتقى الجيشان وخرج أحد البطارقة مخترقًا الصفوف قائلاً : أريد النزال منفردًا . فأعد ميسرة بن مسروق الفرس لكن خالد منعه لأن الخصم كان شابًا ضخم الجثة ونظر ناحية قيس بن هبيرة فتقدم قيس وهو يرتجز .

سائل نساء الحى فى أحجالها　　　ألست يوم الحرب من أبطالها

وانقض عليه قيس بغتة ولم يمسك البطريق بالسلاح بعد فهجم عليه وضرب رأسه بالسيف فانفصلت عن رقبته وسقطت وترنح البطريق ثم سقط من على الجواد وكبر المسلمون ، فقال خالد : هذا فأل حسن فلتتقدموا ولو شاء الله فالفتح أمامكم ، وعين النصارى الجيوش المتفرقة لمواجهة القادة الذين كانوا مع خالد لكنهم انهزموا جميعًا وتأجلت المعركة فى ذلك اليوم / .　١٤٠

وفى الليل جمع باهان القادة وقال لهم : لقد استلذ العرب بخيرات الشام وثرواته ومن الأفضل أن نرغبهم فى المال والذهب حتى نبعدهم عن هنا فوافق الجميع على هذا الرأى وفى اليوم الثانى أرسل إلى أبى عبيدة رسولاً أن أرسل إلينا أحدًا من كبار القادة فنحن نريد التحدث معه فى أمر الصلح فاختار أبو عبيدة خالدًا . وكان الرسول الذى جاء يحمل الرسالة اسمه جورج وكان قد وصل فى المساء وبعد فترة قصيرة بدأت صلاة المغرب ووقف المسلمون يكبرون بشوق ولهفة ثم أدوا الصلاة بخضوع وأدب ووقار وسكينة وأخذ الرسول ينظر لهم نظرة ملؤها الحيرة والدهشة ، وعندما انتهت الصلاة سأل أبا عبيدة عدة أسئلة كان من بينها هذا السؤال : هل تؤمنون بعيسى ؟ فقرأ أبو عبيدة هذه الآيات : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٣ (المترجم) .

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌۚ انتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَۚ ﴾ (١)

وترجم المترجم هذه الكلمات فقام جورج وصاح : « لا شك أن هذه هى نفس أوصاف عيسى ولا ريب أن نبيكم صادق » وبعد أن قال هذا نطق بكلمة الوحدانية وأسلم ولم يكن يريد أن يعود إلى قومه ، لكن أبا عبيدة أجبره على العودة حتى لا يظن الروم أنه خالف العهد ، وقال له أقبل مع السفير الذى سوف يذهب غدًا من هنا .

١٤١ وفى اليوم الثانى ذهب خالد إلى معسكر الروم ، وقام بهذا الترتيب من قبل / لإظهار قوتهم وبأسهم ، فأقاموا صفوف الفرسان على جانبى الطريق لمسافة بعيدة وكانوا يلبسون دروعًا سابغة لكن خالدًا لم يكترث بهذا وكان ينظر إليهم بنظرة احتقار ومر من بينهم كالأسد الذى يخترق صفوف الغنم حتى وصل إلى خيمة « باهان » فاستقبله باحترام شديد وأجلسه بجواره وبدأت المحادثات عن طريق المترجم ، وبدأ « باهان » بخطبة على هيئة محاضرة بعد حديث عادى ، فأثنى على عيسى عليه السلام ثم جاء ذكر اسم قيصر فقال بفخر : إن ملكنا هو ملك الملوك ولم يكن المترجم قد ترجم هذه الكلمات ترجمة كاملة بعد ، فقاطع خالد بهان وقال ربما يكون ملككم كذلك ، أما الذى جعلناه زعيمًا علينا لو خامرته فكرة المُلك ولو لحظة لعزلناه فورًا ، ثم استأنف باهان الخطبة وقال بعد أن وصف فخره بالجاه والثروة : أيها العرب إن أفراد قومكم الذين جاءوا إلينا وتوطنوا فى بلدنا كنا نتعامل معهم بود دائمًا وأخوة ، وكنا نتصور أن مثل هذه التصرفات ربما تسعد العرب جميعًا ، لكنكم هجمتم على بلدنا على خلاف ما توقعنا وتريدون أن تخرجونا من ديارنا ، ألا تعلمون أن أقوامًا عديدة أرادوا مثل ما تريدون مرارًا لكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع ، والآن لا يوجد قوم فى الدنيا أكثر منكم جهلاً ووحشية وفقرًا ومع هذا فإنكم تجرأتم علينا ، وإننا قد تجاوزنا عن هذا أيضًا بل إذا رحلتم من هنا نمنحكم مكافأة قدرها عشرة آلاف دينار لقائد الجيش وألف دينار لكل قائد ومائة دينار لعامة الجيش / . ١٤٢

وبعد أن ختم « باهان » خطبته قام خالد فحمد الله وأثنى عليه وقال : لا شك فى

(١) سورة النساء : آية ١٧١ - ١٧٢ (المترجم) .

أنكم أغنياء وأثرياء وأهل حكم ، ونعرف أيضًا تلك المعاملة التى تعاملتم بها مع جيرانكم العرب ، لكن هذا لم يكن إحسانًا منكم بل كان أحد الحيل لنشر الدين المسيحى ، وكانت النتيجة أنهم أصبحوا نصارى ، واليوم هم أنفسهم يحاربون ضدنا وصحيح أننا كنا فقراء وبائسين وأهل بداوة وقد بلغنا فى الظلم والجهل إلى درجة أن القوى منا كان يحطم الضعيف وتتعارك القبائل فيما بينها فيهلكون وكنا نصنع كثيرًا من الآلهة لنعبدها وننحت الأصنام بأيدينا ونعبدها لكن الله رحمنا وأرسل النبى - ﷺ - من بيننا وكان أكثرنا شرفًا وكرمًا وطهرًا ، علمنا التوحيد وأخبرنا أن الله لا شريك له ، وليس له زوجة ولا أولاد ، وهو أحد صمد ، وأمرنا أن نقدم هذه العقائد للناس كافة فمن آمن صار مسلمًا وأخًا لنا والذى لم يؤمن بها وقبل دفع الجزية فنحن بحمايته ونحافظ عليه ومن يرفضهما معًا فالسيف له » .

زفر « باهان » زفرة حارة بعد أن سمع اسم الجزية وأشار إلى جيشه وقال : لو قتل هذا الجيش كله فلن تدفع الجزية ، فنحن نأخذ الجزية ولا ندفعها . وخلاصة القول أنه لم يتم أى اتفاق ونهض خالد وانصرف وبدأ الاستعدادات للحرب الأخيرة والتى لن يسترد الروم بعدها قوتهم . وبعد رحيل خالد جمع « باهان » القادة وقال لقد سمعتم / ١٤٣ أن العرب يزعمون أنكم لن تسلموا من حملتهم ما لم تصبحوا من رعاياهم أتقبلون عبوديتهم ؟ قال القادة جميعًا بحماس شديد نموت ولكن لن نحتمل هذه المذلة .

وفى الصباح خرج الروم بالحماس والعدة والعتاد حتى دهش المسلمون ، وعندما رأى خالد هذا رتب صفوف الجيش بطريقة جديدة لم ترتبها العرب من قبل ، وقسم الجيش - الذى كان قوامه ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين [1] ألفًا - إلى ستة وثلاثين كردوسًا ونظم الصفوف واحدًا إثر الآخر بنفس العدد وبدقة تامة ، وأعطى قلب الجيش لأبى عبيدة وجعل على الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل ، وكانت الميسرة تحت قيادة يزيد بن أبى سفيان وعلاوة على هذا عين لكل صف قائدًا خاصًا به واختار الرجال المعروفين بالشجاعة والإقدام والمهرة فى فنون الحرب ، وكما أن الخطباء القادرين على إثارة عواطف الناس أنيطت بهم مهمة إثارة حماس الجيش بخطبهم الحماسية وكان من بينهم أبو سفيان الذى كان يمر أمام الجنود ويقول هذه الكلمات : « الله - إنكم زادة

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٦ (المترجم) .

العرب وأنصار الإسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك - اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك » . وكان عمرو بن العاص يتجول بينهم ويقول هذا الكلام : -

« أيها الناس غضوا أبصاركم وأشرعوا الرماح والزموا مراكزكم ، فإذا حمل عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثوب الأسد » [١] / . ١٤٤

ومع أن عدد الجيش كان قليلاً أى لا يزيد عن ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف رجل إلا أنه قد تم اختيارهم من جميع العرب وبينهم بصفة خاصة ألفًا من كبار الصحابة الذين رأوا جمال رسول الله - ﷺ - ونحو من مائة صحابى ممن شهدوا غزوة بدر مع الرسول - ﷺ ، وكانت قبيلة الأزد من بين القبائل العربية الشهيرة التى لها أكثر من عشرة آلاف وحدها ، ومجموعة كبيرة من قبيلة جميع ، وكان فيهم قادة همدان وخُولان ولخم وجذام المشهورين وكانت إحدى خصائص هذه المعركة أن النساء قد شاركن فيها وحاربن بشجاعة فائقة ، وجعلت هند تتقدم وتهجم وتقول : « عضدوا الغُلفان بسيوفكم » [٢] وقاتلت جويرة ابنة معاوية بشجاعة نادرة أيضًا .

وكان للمقداد صوت كثير العذوبة فتقدم صفوف الجيش وأخذ يتلو سورة الأنفال : (وهذه السورة تحث المسلمين على الجهاد) .

وفى الناحية الأخرى فقد بلغ حماس الروم إلى درجة أن ثلاثين ألف رجل وضعوا القيود فى أرجلهم حتى لا تراودهم فكرة الانسحاب ، وبدأت المعركة من جانب الروم وتقدم نحو مائتى ألف كأسراب الجراد وأمامهم آلاف من القساوسة والأساقفة يحملون الصلبان فى أيديهم ، ويهتفون باسم عيسى عليه السلام ، وعندما رأى رجل هذا العتاد قال بلا تردد : الله أكبر « ما أكثر جيش الروم » فثار خالد غضبًا وقال : كُف عن هذا . والله لو كانت حوافر فرسى سليمة لقلت « ما أقل جيش الروم ، لو ضاعفوا فى عدد هذا الجيش ! ! » [٣] .

---

(١) المرجع السابق : ٣ / ٣٩٧ (المترجم) .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ١٤١ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٧ - ٣٩٨ (المترجم) .

وخلاصة القول حمل النصارى بشراسة وقوة وتقدموا وهم يمطرون عليهم بوابل من السهام / وظل المسلمون مرابطين زمنًا طويلاً فى ثبات ، لكن الهجوم كان ضاريًا ١٤٥ إلى حد أن تحطمت فيه ميمنة المسلمين وانفصلت عن الجيش وانسحبت بلا نظام وأخذ المهزومين ينسحبون حتى وصلوا إلى خيام النساء ، وعندما رأى النساء هذه الحالة غضبن غضبًا شديدًا واقتلعن أخشاب الخيام وصحن : أيها الجبناء تعالوا هنا حتى نحطم رءوسكم بالأخشاب وثارت حمية الجند وكانت خولة تردد هذا البيت وتحث فيهم الغيرة : -

يا هاربًا عن نسوة تقيات رميت بالسهم والمنيات

وبعد أن رأى معاذ بن جبل هذه الحالة وكان قائدًا على إحدى كتائب الميمنة ، قفز من على الجواد وقال : سأحارب مترجلاً وليحضر أى بطل يستطيع أن يؤدى حق هذا الجواد (أى يحارب عليه) ، قال ابنه : « نعم أنا أؤدى هذا الحق » لأننى أستطيع أن أحارب أفضل وأنا راكب ودخل الأب والابن كلاهما فى الجيش وحاربا بشجاعة حتى ثبتت أقدام المسلمين بعد أن تزلزلت ، وشاركه الحجاج زعيم قبيلة زبيد الذى تقدم ومعه خمسمائة رجل واعترض النصارى الذين كانوا يتعقبون المسلمين ووقف من دونهم ، وقد ظلت قبيلة الأزد مرابطة فى الميمنة منذ بداية الهجوم وألقى عليهم النصارى بثقلهم طوال المعركة ، لكنهم ظلوا راسخين متماسكين كالجبل وكانت المعركة قد بلغت غايتها فى الشراسة حتى تقطعت الرءوس والأيدى والسواعد وتناثرت فى كل مكان ، وبالرغم من هذا فلم يتزلزل المسلمون قيد أنملة ، وكان عمرو بن الطفيل زعيم القبيلة يحارب بالسيف وينادى : « أيها الأزديون حتى لا يصاب المسلمون بسببكم » وقتل على يديه تسعة من كبار القادة ونال الشهادة فى النهاية .

أما خالد فقد كان يقود كتيبة فإذا به قد اخترق الصف وهجم بقوة حتى / ١٤٦ اضطربت صفوف الروم ، وتقدم عِكرمة بن أبى جهل بفرسه - وكان كثيرًا ما حارب مع الكفار قبل اعتناقه الإسلام - فقال : أيها المسيحيون ، لقد كنت فى وقت ما (أيام الكفر) أقاتل رسول الله بنفسى فهل أفر اليوم من لقائكم ، قال هذا ونظر ناحية الجيش وقال : من يبايع على الموت ؟ فبايعه على الموت أربعمائة رجل كان من بينهم ضرار بن الأزور ، فقاتلوا بصبر وجلد حتى قتل معظمهم هناك ، ووجدت جثة عكرمة بين

أكداس القتلى وكان فيه بقية من أنفاسه فوضع خالد رأسه على فخذه وأخذ يقطر فى حلقه الماء ويقول : « والله إن زعم عمر هذا بأننا لا نستشهد كان خاطئًا » [١]

وخلاصة القول أنه على الرغم من أن عكرمة والذين معه قتلوا لكنهم أبادوا آلافًا من الروم وحطمت هجمات خالد قواهم أيضًا فاضطروا أخيرًا إلى الانسحاب ، وضغط عليهم خالد حتى وصل إلى قائد الجيش « درنجار » وكان درنجار وقادة الروم قد وضعوا المناديل على عيونهم لكى لا تتمكن عيونهم من أن ترى الفتح فلا ترى الهزيمة كذلك .

وحمل ابن قناطر [٢] على الميسرة فى نفس الوقت الذى احتدم فيه القتال فى ميمنة الجيش ومن سوء الحظ أن أغلب المحاربين فى هذا المكان كانوا من قبيلتى لخم وغسان اللتين كانتا تقيمان فى ضواحى الشام وتدفعان الخراج للروم منذ زمن طويل وبسبب الخوف والرهبة من الروم والتى كانت مسيطرة على قلوبهم تركوا أماكنهم مع بداية الحملة ، وكان من الممكن عندئذ أن تنتهى المعركة إلا أن القادة لم يفقدوا عزمهم وهممهم ، وتعقب الروم فلول الهاربين حتى وصلوا إلى الخيام ، وعندما رأت النساء هذه الحالة خرجن إليهم ومنعت بشجاعتهن النصارى من التقدم للأمام ، وبالرغم من سوء حالة الجيش إلا أن قادة مثل قباث بن أشم وسعيد بن زيد ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة قد أبلوا بلاء حسنًا ، وكانت السيوف والرماح تنكسر فى يد قباث وتتساقط ولم تبد عليه علامات الغضب فكان كلما تحطم رمح أو سقط قال : « هل من أحد يعطى السلاح للشخص الذى أقر أمام الله أنه لن ينسحب من ميدان الحرب إلا بعد الموت » فيناوله الناس على الفور سيفًا أو رمحًا عندئذ ينقض على العدو كالأسد . وقفز أبو الأعور من على الفرس وقال مخاطبًا القوات التى معه « إن العزة فى الدنيا بالصبر والمرابطة ، وفى الآخرة بالرحمة فانتبهوا ألا تفلت هذه الثروة والجاه من أيديكم » وكان سعيد بن زيد واقفًا على ركبتيه وقد انتابه الغضب فتقدم الروم

---

(١) تاريخ الطبرى : موقعة اليرموك (المؤلف) .

– الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٣٩٤ . وذكر الطبرى قول خالد هكذا « كلا ، زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد » ٣ / ٤٠١ (المترجم) .

(٢) كان قائدًا لميمنة الروم (المترجم) .

من ناحيته فوثب كالأسد وقتل قائد المقدمة . وكان يزيد بن أبى سفيان (أخو معاوية) يقاتل بثبات وبأس شديد ، وبالصدفة أقبل عليه أبوه أبو سفيان الذى كان يلهب حماس الجند فقال عندما رأى أبيه « يا روحى العزيزة ! فى هذا الوقت يُظهر كل جندى شجاعته فى ميدان القتال وأنت قائد فعليك أن تكون أكثر شجاعة من الجنود لأنه لو فاق عليك جندى من جيشك فى هذا الميدان فسيكون فى هذا موضع خجل لك » . أما شرحبيل فقد كان الروم يحاصرونه من جميع الجهات ، وكان يقف فى وسطهم راسخًا كالجبل يقرأ هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [1] / ثم كبر وقال : « أين المتاجرون مع الله ؟ ، وأين الذين يدعون أنهم أقرباء الله ؟ فكان كل من يقع فى أذنيه هذا النداء يرجع » وهكذا استعاد الجيش المنهار قوته مرة أخرى وقاتل شرحبيل ببسالة حتى منع الروم – الذين زحفوا عليهم – من التقدم . ومن ناحية أخرى خرجت النساء من الخيام ووقفت خلف الجيش وكن يصرخن : لو فررتم من الميدان : « فلن تروا وجوهنا » . ١٤٨

وكانت المعركة حتى ذاك الوقت سجالاً بين الفريقين ، بل كانت كفة الغلبة تميل لصالح الروم وفجأة انطلق قيس بن هبيرة من المؤخرة وكان خالد قد عينه على مؤخرة ميسرة إحدى كتائب الجيش وحمل عليهم بشدة وحاول قادة الروم السيطرة على الجيش لكنه لم يصمد وحدث خلل فى جميع الصفوف فانسحبوا إلى الوراء فى حالة ذعر وفى نفس الوقت خرج سعيد بن زيد من القلب وهجم عليهم فانسحب الروم بعيدًا حتى وصلوا إلى الممر المائى الذى كان على حافة الميدان وفى فترة امتلأ الممر بالجثث وأصبح الميدان خاليًا .

وهناك حدث جدير بالذكر فى هذه المعركة ، وهو أنه فى الوقت الذى كان القتال فيه لا يزال ضاريًا ، كان حباش[2] بن قيس أحد الجنود الأبطال يقاتل بشجاعة شديدة ، وفى تلك الأثناء ، ضرب أحدهم رجليه بالسيف فبتر إحدى ساقيه وانفصلت ولم يشعر بها حباش وبعد لحظات استرد وعيه فأخذ يبحث عنها ويقول : ماذا حدث لقدمى ؟ فكان أهل قبيلته يفخرون دائمًا بهذه الواقعة ، وأنشد سواد بن أوفى أحد الشعراء قائلاً : / ١٤٩

---

(١) سورة التوبة : ١١١ (المترجم) .

(٢) جاء فى فتوح البلدان أنه : حباس بن قيس القشيرى (المترجم) .

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ومنا الذى أدى إلى الحى حاجبا [1]

وهناك اختلاف فى أعداد الروم الذين قتلوا ، فقد ذكر الطبرى والأزدى أن عددهم يزيد عن مائة ألف ، بينما ذكر البلاذرى [1] أنهم كانوا سبعين ألفًا واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف منهم ضرار بن الأزور وهشام بن العاصى وأبان وسعيد وغيرهم .

وكان قيصر فى أنطاكية عندما جاءه خبر الهزيمة فتأهب للسير إلى القسطنطينية وعند الرحيل توجه ناحية الشام وقال : « الوداع يا شام » [2] .

وكتب أبو عبيدة بالنصر وبعث إليه بسفارة صغيرة كان فيها حذيفة بن اليمان وكان عمر لم ينم منذ ثلاثة أيام فى انتظار خبر اليرموك ، وعندما جاءه خبر النصر خر ساجدًا وشكر الله .

وعاد أبو عبيدة من اليرموك إلى حمص وبعث خالد إلى قنسرين ، فقاومه أهل المدينة فى البداية ثم تحصنوا فى القلعة وطلبوا الصلح على الجزية [3] وكانت قبيلة تنوخ من بين القبائل العربية التى كانت تسكن هناك منذ زمن ، وكان هؤلاء الناس يعيشون منذ سنوات فى خيام من الوبر لكنهم تأثروا بالحضارة تدريجيًا فشيدوا المبانى الفخمة ، وأخذ أبو عبيدة يدعوهم للإسلام لاتحاد القومية فأسلموا جميعًا ، وظلت قبيلة بنى سليح على نصرانيتها لكنها أسلمت أيضًا بعد أيام قلائل ، وكان يعيش هناك كثيرون من قبيلة طيئ فقبلوا الإسلام عن طيب خاطر / . ١٥٠

ثم اتجه أبو عبيدة إلى حلب بعد فتح قنسرين وكان يسكن فى ظاهر المدينة كثير من القبائل العربية فصالحهم على الجزية وبعد فترة قصيرة أسلموا جميعًا ، وقد لاذ أهل حلب بالقلعة بعد أن سمعوا بمجيء أبو عبيدة وحاصر عياض بن غنم قائد مقدمة جيش المدينة وبعد عدة أيام تم الصلح بنفس شروط المدن المفتوحة الأخرى وقبل النصارى دفع الجزية وكتبت المعاهدة للحفاظ على أرواحهم وأموالهم وأسوارهم

---

(١) هذه الواقعة مذكورة كاملة فى فتوح البلدان ص : ١٣١ (المؤلف) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ١٤٢ - ١٤٣ (المترجم) .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ١٤١ (المترجم) .
(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٦٠٣ (المترجم) .
(٤) فتوح البلدان صفحة ١٤٠ (المؤلف) = البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٤ (المترجم) .

ومنازلهم وقلاعهم وكنائسهم . وبعد حلب سار أبو عبيدة إلى أنطاكية وكانت هذه المدينة المقر الخاص للقيصر ، وكان قد لجأ إليها كثير من الروم وعامة النصارى ليحتموا فيها ، فحاصر أبو عبيدة المدينة من كل ناحية حتى اضطر النصارى إلى طلب الصلح بعد عدة أيام ، وبفتح هذه المدن الرئيسية عم الرعب جميع أنحاء الشام ووصل الأمر إلى حد أن النصارى كانوا يأتون بأنفسهم مستسلمين حيث كان يتجه قليل من الجند المسلمين ليطلبوا منهم الصلح والأمان .

وبعد أنطاكية نشر أبو عبيدة الجيوش فى جميع الأنحاء وفُتحت المراكز الصغيرة بسهولة مثل : بوقا وجومة وسرمين وتوزى وقورس وتل غرار ودلوك ورعبان ولم ترق على الأرض قطرة دم واحدة وكذلك فتحت بالس وقاصرين من أول هجمة وقد رفض أهل جرجومة الجزية وقالوا سنقاتل مع المسلمين فى المعركة وقد قُبل طلبهم هذا لأن الجزية كانت بديلاً عن الخدمة العسكرية .

وكانت بغراس إحدى ضواحى أنطاكية وتلتقى عندها حدود آسيا الصغرى وكان بها من القبائل العربية مثل : غسان وتنوخ وإياد الذين كانوا يستعدون مع الروم عند هرقل / فحمل عليهم حبيب بن مسلمة ودارت معركة طاحنة قتل فيها الآلاف وحمل خالد على « مرعش » وتم الصلح بشرط أن يترك النصارى المدينة ويرحلوا . ١٥١

بيت المقدس سنة ١٦هـ / ٦٣٧م

ذكرنا فيما سبق أنه عندما أراد أبو بكر غزو الشام ، أرسل لكل إقليم قائدًا خاصًا به ، فكانت فلسطين من نصيب عمرو بن العاص ، وكان عمرو بن العاص قد فتح بعض المدن فى عهد أبى بكر وفى عهد الفاروق تم الاستيلاء على جميع المدن الكبرى مثل : نابلس واللد وعمواس وبيت جرين ، وكان عمر عند قيام أى معركة كبرى يترك فلسطين ويذهب ليلتقى بأبى عبيدة ليساعده ، وكان يعجل بالعودة مع نهاية المهمة وينصرف إلى شئونه حتى أنه بعد أن فتح المدن المحيطة ببيت المقدس قام بمحاصرتها وقد تحصن النصارى بالقلعة وظلوا يقاتلون ، وفى هذا الوقت كان أبو عبيدة قد فتح أقاليم الشام الأخيرة مثل قنسرين وغيرها ، وقد سنحت له الفرصة للتوجه من هناك إلى بيت المقدس فخارت قوة النصارى وطلبوا الصلح وأضافوا هذا الشرط لمزيد من الاطمئنان وهو أن يأتى عمر بنفسه إليهم وأن يكتب معاهدة الصلح بيده ، فكتب أبو عبيدة رسالة

إلى عمر قال له فيها : إن فتح بيت المقدس متوقف على حضوركم ، فجمع عمر
١٥٢ الصحابة المقربين وشاورهم / فقال عثمان : « إن النصارى قد تحطمت قلوبهم وهم مذعورين ولو رفضت طلبهم سيكون هذا بمثابة مذلة أخرى وهم يحسبون أن المسلمين يحقرونهم جميعًا وأنهم سيلقون السلاح بدون أى شرط » . لكن سيدنا علىّ خالف هذا الرأى [١] فاستحسن عمر رأى عثمان واستعد للسفر واستخلف عليًا وأسند إليه شئون الخلافة ، وغادر المدينة فى رجب ١٦هـ .

ولعل القارئ يريد أن يعرف كيف كانت استعدادات سفر الفاروق ذلك السفر الذى كان من هدفه إثارة الرعب فى قلوب الأعداء بعظمة الإسلام ، لا تفكر قط فى أن صاحبته الطبول والموسيقى والخدم والحشم ، بل لم يكن معه سوى خيمة عادية وكان فى ركابه فرس ومعه عدد قليل من المهاجرين والأنصار ومع ذلك كانت الأرض تهتز عندما يصل الصوت بأن الفاروق الأعظم قد عزم على السفر من المدينة إلى الشام .

وقد أبلغ قادة الأجناد أن يوافوه فى الجابية ليلتقوا به ، فاستقبله يزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وغيرهم طبقًا للأوامر ، ولم تبق فى هؤلاء الأمراء بساطة العرب بعد أن أقاموا فى الشام ، لذا فإن هؤلاء القادة الذين جاءوا أمام عمر كانوا يرتدون على أجسامهم اليلامق الحريرية الثمينة ، والملابس الفاخرة المزركشة ويبدون فى الظاهر كأنهم من العجم ، فغضب عمر غضبًا شديدًا ونزل عن فرسه وأخذ قطعة من الحجارة
١٥٣ ورماهم بها وصاح فيهم : « أبهذه السرعة قبلتم عادات العجم » / .

فقال هؤلاء الأمراء إن الأسلحة تحت اليلامق (أى أنهم لم يفقدوا روح الجندية) فقال : « نعم إذاً » [٢] وعندما اقترب من المدينة وقف على هضبة مرتفعة وألقى نظرة على جميع الأنحاء وأمامه الغوطة بمراعيها الخلابة ودمشق بقصورها وبناياتها العالية فكان لها أثر خاص على نفسه وقرأ هذه الآية بلهجة فيها عـــبرة : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍۢ ﴾ [٣] وأنشد عدة أبيات للنابغة بحسرة بالغة .

---

(١) هذه رواية الطبرى (المؤلف) = الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٦٠٨ (المترجم) .
- أيضًا : تاريخ اليعقوبى : ٢ / ١٢٤ (المترجم) .

(٢) الطبرى صفحة ٢٤٠٢ (المؤلف) . الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٦٠٧ (المترجم) .

(٣) سورة الدخان : آية : ٢٥ (المترجم) .

وأقام عمر فى الجابية زمنًا وكتب هناك معاهدة بيت المقدس وقد وصل النصارى هناك قبل خبر مجيء عمر ، وسار جماعة من أعيان المدينة إلى دمشق للقائه وبينما كان عمر جالسًا وسط الجيش فإذا بجماعة من الفرسان آتية على الخيل والسيوف تبرق فهرع المسلمون إلى السلاح على عجل فقال عمر ما شأنكم ؟ فأشار الناس ناحية الفرسان فقال عمر وقد علم بالفراسة أنهم نصارى بيت المقدس ، « لا تضطربوا فقد جاء هؤلاء الناس يطلبون الأمان » ، وبعد ما كتبت معاهدة الصلح صادق عليها كبار الصحابة [(١)] .

وبعد إتمام المعاهدة قصد عمر بيت المقدس ، وكان الفرس الذى يركبه قد انسحقت حوافرها من كثرة المشى فكان يتعثر فى السير فنزل عمر من عليها بعد أن رأى هذا / فأحضر له الناس فرسًا تركيًا أصيلاً (برذونا) وكانت الفرس ذكية وشقية فركبها عمر فبدأت تتخلع به ، فقال قبحك الله من أين تعلمتِ هذه الخيلاء ؟ ونزل وترجل وعندما اقترب من بيت المقدس جاء أبو عبيدة وأمراء الجيش لاستقباله وكانت ملابس عمر وأمتعته بسيطة جدًا حتى شعر المسلمون بالخجل عندما رأوها وخشوا مغبة تأثيرها على النصارى لذا أحضر المسلمون فرسًا مطهمًا وثوبًا ثمينًا ، قال عمر : « إن العزة التى منحها الله لنا هى عزة الإسلام وهى كافية لنا » . ١٥٤

ودخل بيت المقدس على هيئته هذه فذهب أولاً إلى المسجد ومضى نحو محراب داوود وقرأ آية سجدة داوود وسجد ثم أتى كنيسة النصارى وظل يتجول هنا وهناك . وكان قد اجتمع هنا معظم أمراء الجيش والعمال فأقام عدة أيام وأصدر لهم أوامر هامة ، وذات يوم جاء بلال (مؤذن الرسول ﷺ) يشكو إلى أمير المؤمنين فقال : « إن أمراءنا يأكلون لحم الطير وأرغفة الدقيق بينما لا يجد عامة المسلمين القوت العادى » فنظر عمر إلى الأمراء فقالوا : « إن جميع الأشياء فى هذه البلد رخيصة فبالثمن الذى تجد به البلح والخبز فى الحجاز تجد به هنا لحم الطير والدقيق الفاخر » ، فلم يرغم عمر الأمراء لكنه أمرهم أن يعينوا الطعام لكل جندى بالإضافة إلى مال الغنيمة والراتب .

---

(١) هذه رواية الطبرى ، وقد ذكر البلاذرى والأزدى أن معاهدة الصلح كتبت فى بيت المقدس ، وقد ذكرنا هذه المعاهدة كاملة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (المؤلف) . انظر الفاروق : ٢ / ١٤٩ (المترجم) . - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٦٠٨ والبلاذرى : فتوح البلدان : ١٤٤ (المترجم) .

وذات يوم حان وقت الصلاة فطلب من بلال أن يؤذن للصلاة ، فقال بلال : لقد
١٥٥ عزمت ألا / أؤذن لأحد بعد رسول الله - ﷺ - لكن اليوم (واليوم فقط) سوف أطيع أمرك وبدأ يؤذن فتذكر جميع الصحابة عهد رسول الله المبارك وطرأت عليهم حالة من الوجد ورقت قلوبهم واستولى الاضطراب على أبى عبيدة ومعاذ بن جبل من كثرة البكاء المتواصل واختنق عمر فى البكاء وظل هذا التأثير ردحًا من الوقت [١] .

وذهب عمر ذات يوم إلى المسجد الأقصى واستدعى كعب الأخبار فسأله أين ترى أن نقيم الصلاة ؟ وكان فى المسجد الأقصى حجر من آثار الأنبياء السابقين يسمونه « الصخرة » وكان اليهود يقدسونها مثلما يقدس المسلمون الحجر الأسود ، وعندما سأل عمر عن القبلة قال كعب : إلى الصخرة . قال عمر إن تأثير اليهودية باقى فيك [٢] حتى الآن لذا خلعت نعليك عند هذه الصخرة [٣] . ويعتبر موقف عمر هذا إضافة إلى هذا النوع من المآثر القديمة ويجب أن تدرسوه فى الجزء الثانى من كتابنا صفحة ٢٠٧ و٢٠٨ .

محاولة النصارى استرداد حمص ثانية ١٧ هـ / ٦٣٨م

وهذه المعركة جديرة بالذكر من حيث أنها مهدت المجال لفتح أرمينية والجزيرة . وقد ذكرنا من قبل أسباب حروب الروم وإيران ، ولكن لم يبد هناك أى سبب خاص
١٥٦ للهجوم على أرمينية آنذاك وكانت الفتوحات الإسلامية تتسع يومًا بعد يوم / وفى المقابل تتضاعف حدود الحكومة الإسلامية ، وبدأ الخوف يدب تلقائيًا فى الممالك المجاورة لأنه سيأتى دورهم يوم ما ، عندئذ كتب أهل الجزيرة إلى قيصر قائلين : عليك أن تجدد عزيمتك ونحن نساعدك ، لذلك أرسل قيصر جيشًا كبيرًا إلى حمص ، وتوجه أهل الجزيرة بحشد من ثلاثين ألفًا إلى الشام وقد جمع أبو عبيدة الجيوش بدوره من هنا وهناك على أن يحصنوا صفوفهم خارج حمص وأخبر عمر بجميع الترتيبات وكان عمر قد أقام معسكرات للجيش فى ثمان من المدن الكبرى وجعل فى كل معسكر أربعة آلاف فرس

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٦ (المترجم) .

(٢) ابن حنبل : مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١ / ٢٦٨ - ٢٦٩ (المترجم) .

(٣) تاريخ الطبرى صفحة ٢٤٠٨ (المؤلف) - تاريخ الطبرى : ٣ / ٦١١ (المترجم) .

على أهبة الاستعداد فى كل وقت بحيث لو حدث شىء طارئ أسرعت الجيوش من كل مكان إلى المكان المطلوب ، وعندما جاء خطاب أبى عبيدة أرسل عمر رسولاً إلى كل مكان وكتب إلى القعقاع بن عمرو الذى كان يقيم فى الكوفة ليأتى فورًا إلى حمص ومعه أربعة آلاف فارس وأمر سهيل بن عمر أن يصل إلى الجزيرة ويمنع أهل الجزيرة من التوجه إلى حمص وأرسل عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، وأمر الوليد بن عقبة بالذهاب إلى الجزيرة على أن يجعل القبائل العربية الذين يقيمون فى الجزيرة ترابط بأماكنها ، ورغم ذلك لم يكتف عمر بهذه الترتيبات وسار بنفسه من المدينة إلى دمشق ، وعندما سمع أهل الجزيرة بأن المسلمين قد دخلوا بلادهم تركوا حصار حمص ورحلوا إلى الجزيرة ، وندمت القبائل العربية التى جاءت لمساعدة النصارى وأرسلوا رسالة سرًا إلى خالد قالوا فيها : « إننا مستعدون لإرضائك ونستطيع أن نتخلى عن النصارى فى نفس الوقت فى المعركة » . فاعتذر إليهم خالد بأنه تحت إمرة رجل آخر (يقصد أبا عبيدة) وإنه لا يفضل الهجوم / وقال أما أنا فلا أحفل مطلقًا بذهابكم أو ببقائكم ، ومع هذا فلو أنتم ١٥٧ صادقون فعليكم أن تتركوا الحصار وأن ترحلوا إلى أى مكان . ومن ناحية أخرى بدأ الجيش يطلب من أبى عبيدة أن يأذن له بالهجوم فسأل خالد فقال : إن رأيى معروف وهو أن النصارى يحاربون دائمًا معتمدين على كثرة الجيش والآن لم تبق تلك الكثرة ففيما تفكر ؟ لكن لم يطمئن قلب أبو عبيدة لهذا الحديث فجمع الجيش وخطب فيهم خطبة قوية مؤثرة فقال : « أيها المسلمون من ثبت اليوم سيحصل على المال والجاه إن بقى حيًا وسينال نعمة الشهادة إن مات ، وأشهد أن (وليست هذه مناسبة للكذب) رسول الله - ﷺ - قال : من مات غير مشرك سيدخل الجنة » وكان الجيش متشوقًا للقتال منذ البداية أما خطبة أبى عبيدة فقد ألهبت حماسه فهب الجميع مرة واحدة وحملوا السلاح وكان أبو عبيدة فى قلب الجيش وخالد والعباس على الميمنة والميسرة ، وكان القعقاع الذى جاء من الكوفة ومعه أربعة آلاف جندى للنجدة كان على بعد عدة أميال من حمص عندما سمع بخبر هذه الحادثة ترك الجيش وجاء للقاء أبى عبيدة ومعه مائة فارس وانسحبت القبائل العربية (كما تعهدوا لخالد) مع هجوم المسلمين بفوضى واضطراب فتحطم عضد النصارى من انسحابهم فهربوا فى حيرة وذهول بعد أن حاربوا زمنًا يسيرًا ، ولم ينظموا صفوفهم حتى عند مرج الديباج وكانت هذه المعركة الأخيرة قد بدأت من جانب النصارى أنفسهم وبعدها لم يجرءوا على التقدم مطلقًا / . ١٥٨

عزل خالد بن الوليد

كان عزل خالد وفتوحات الشام من أهم الأحداث التى حدثت سنة ١٧هـ ، فقد ذكر جميع المؤرخين أن عزل خالد كان أول قرار اتخذه عمر مع توليه زمام الحكم ، وقد أجمع على هذا ابن الأثير وغيره من المؤرخين وهذا من أشد أخطائهم ، وهذا أمر مؤسف فابن الأثير لم يفكر هو نفسه فى اختلاف آرائه فهو نفسه هو الذى ذكر عزل خالد ضمن أحداث سنة ١٣ هـ وهو الذى جعل عنوانًا متصلاً لعزله ضمن أحداث سنة ١٧هـ وينقل نفس الوقائع كلها كما هى فى كلا الموضعين .

لقد كان عمر فى الحقيقة غير راض عن خالد منذ فترة بسبب عدم اعتداله فى بعض أموره ومع هذه لم يتعرض له بشىء فى بداية الخلافة ، لكن لما كان من عادة خالد أنه لا يرسل مستندات النفقات إلى بلاط الخلافة لهذا كتب إليه مؤكدًا أن يراعى هذا فى المستقبل فرد عليه خالد : « إننى كنت أفعل هكذا منذ عهد أبى بكر ولن أفعل الآن خلافًا لهذا » أى ، فكيف يقبل عمر استقلاله هكذا ؟ وكيف يترك مال بيت المال فى يد أحد بدون حساب لذا كتب لخالد يقول : تستطيع أن تبقى قائدًا بشرط أن ترسل حساب مصروفات الجيش باستمرار فلم يوافق خالد على هذا الشرط ، وبناء على هذا عُزل من مسئولية إمارة الجيش ، فقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الحادثة بالتفصيل فى كتاب الإصابة عند ذكر خبر خالد بن الوليد [١] .

ومع هذا لم يُعزل تمامًا بل جعله تحت إمرة أبى عبيدة ، وبعد ذلك حدثت الواقعة الآتية فى سنة ١٧هـ / ٦٣٨م / فقد أنعم خالد على أحد الشعراء بعشرة آلاف درهم [٢] فكتب أصحاب البريد بتقرير إلى عمر ، فكتب عمر إلى أبى عبيدة يقول : « إن كانت هذه الجائزة من ماله الخاص فقد أسرف ، وإن كانت من بيت المال فقد أقر بالخيانة وفى كل حال فهو يستحق العزل » .

١٥٩

والطريقة التى عُزل بها خالد جديرة بالعلم – فقد سأله الرسول الذى جاء برسالة

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الإصابة : ١ / ٤١٥ (المترجم) .

(٢) الشاعر هو الأشعث بن قيس وقد مدح خالد بن الوليد فأعطاه عشرة آلاف درهم . وقد ذكر شبلى كلمة « روبية » بدلاً من « درهم » ولعله يقصد بها « درهم » عملة ذلك الوقت . (المترجم) .

عزله فى جمع عام « من أين أعطيته هذه الجائزة » ؟ ولو أن خالد قد اعترف بخطئه لكان عمر قد أمر بالعفو عنه لكنه لم يرض الاعتراف بالخطأ ، فاضطر الرسول أن ينزع قلنسوته عن رأسه كإعلان بعزله وعقله بعمامته لعقابه على تمرده [١] . لقد أثارت هذه الواقعة الحيرة والدهشة ، فمثل هذا القائد الذى لم يوجد مثيله فى الإسلام والذى حسم سيفه أمر العراق والشام كيف يُهان بهذه الطريقة وإلى هذا الحد فلا يتفوه بكلمة ، ونستطيع أن نجد فى هذه الواقعة دليلاً على طيب خاطر خالد ومدى إيمانه ، ومعرفة مدى سطوة عمر وجلاله .

وبعد أن وصل خالد حمص ألقى خطبة تتعلق بعزله ، فقال فى هذه الخطبة إن أمير المؤمنين عمر قد ولانى على الشام وعندما أخضعت الشام كله عزلنى . وبسبب هذه الفقرة هب أحد الجنود واقفًا وقال : لتصمت أيها القائد فإن الفتنة يمكن أن تنشب من هذه الكلمات فقال خالد أى فتنة يمكن إثارتها مادام عمر موجودًا ؟! [٢] / . ١٦٠

أتى خالد المدينة وقدم على عمر فقال : والله لم تكن عادلاً فى أمرى يا عمر . قال عمر : من أين هذه الثروة التى عندك ؟ قال خالد من الأنفال ثم قال : وما زاد عن الستين ألفًا أعطيه لك فزادت عشرين ألف درهم فأدخلها بيت المال . فقال عمر لخالد مخاطبًا « يا خالد والله إنك إلىّ لحبيب وإننى لأقدرك » . ثم كتب إلى عمال الأمصار بأننى لم أعزل خالد عن سخط ولا خيانة ، لكن عندما رأيت الناس قد فتنوا به رأيت أنه من الأفضل عزله حتى يعلم الناس أن الله هو الصانع [٣] . والمتفحص يستطيع أن يفهم بسهولة من هذه الأحداث ما هى أسباب عزل خالد وما الحكمة من عزله .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٧/٤ (المترجم)

(٢) انظر كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف صفحة ٨٧ ، وتاريخ الطبرى : صفحة ٢٥٢٧ (المؤلف) .

- الخراج : ١٤٨ وتاريخ الطبرى : ٤ / ٦٧ وقال خالد بالنص كما جاء فى تاريخ الطبرى « أما وابن الخطاب حى فلا » (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٨ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٥٥٨ (المترجم) .

طاعون عمواس ١٨هـ / ٦٣٩م

وفى هذه السنة انتشر الوباء (الطاعون) فى العراق ومصر والشام انتشارًا مروعًا وقد وارى الثرى كثيرًا من أعلام المسلمين وكانت بداية الوباء فى آخر سنة ١٧هـ واستمر الوباء عدة شهور ، وعندما وصل الخبر إلى عمر سار بنفسه لمواجهة هذا البلاء ، وعندما وصل إلى « سرغ » كان أبو عبيدة والذين معه قد قدموا لاستقباله وعلم منهم أن شدة المرض تتعاظم ، فاستدعى المهاجرين الأولين والأنصار واستشارهم ، فرأى ١٦١ اختلاف المسلمين فى آرائهم / أما مهاجرة الفتح فلم يختلفوا فى أمر واحد وقالوا : إن بقاءك هنا غير مناسب ، فأمر عمر ابن عباس أن ينادى فى الناس أن « غدًا السفر » أما أبو عبيدة الذى كان يعتقد بالقدر اعتقادًا راسخًا فاستشاط غضبًا وقال « أفرارًا من قدر الله » فتحمل عمر غلظة كلامه وقال : « نعم أفر من قضاء الله إلى قضاء الله » . وخلاصة القول عاد عمر إلى المدينة وكتب لأبى عبيدة يقول : أنا لا أطلب منك أى عمل فلتحضر هنا فى غضون أيام ، فاعتقد أبو عبيدة أنه يستدعيه خوفًا من الوباء فأرسل له الرد بأن ما كُتب فى القدر سيكون وأنا لا أستطيع أن أنسل من هنا لأنقذ نفسى وأترك المسلمين ، فلما قرأ عمر الرسالة بكى وكتب له : إن المكان الذى نزل الجيش فيه أرض منحدرة رطبة فاختر مكانًا مناسبًا وانتقل إليه ، فامتثل أبو عبيدة لهذه الأوامر وسار إلى الجابية وأقام بها وكانت مشهورة بطيب مناخها [(١)] ، ومرض أبو عبيدة بعد أن وصل الجابية وعندما اشتد به المرض جمع الناس وأوصاهم بكلمات مؤثرة وعين معاذ بن جبل خليفة له ولماحان وقت الصلاة أمره أن يؤم المصلين وقد لبى نداء ربه بمجرد أن انتهت الصلاة وكان الرض على أشده واستشرى فى الجيش وقال عمرو بن العاص للناس إن هذا الوباء من الابتلاءات التى ألمت بمصر فى أيام بنى إسرائيل لذا يجب الفرار من هنا ، وعندما سمع معاذ هذا الكلام صعد على المنبر وقال : « إن هذا ١٦٢ الوباء ليس بلاء بل رحمة من الله » وعاد إلى الخيمة بعد الخطبة فوجد ابنه مريضًا فقال / بصبر وعزيمة ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [(٢)] فقال الابن ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٨ . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٥٥٨ (المترجم) .

(٢) سورة البقرة : آية : ١٤٧ (المترجم) .

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [١] وتوفى بعد أن قال هذا ومرض معاذ بعدما عاد من دفن ابنه فاستخلف عمرو بن العاص وأسلم الروح بكل رضا وبشاشة ظانًا أن هذه الحياة كانت حجابًا (بينه) وبين القربى من الله .

إن نشوة الدين لأمر عجيب ، وقد تفاقم أمر الوباء وصار آلاف الرجال طعمة للموت إلا أن معاذا يعتبرها بالنسبة له رحمة من الله ولم يقم بأى نوع من التدابير ، لكن هذا الحماس كان بدرجة أقل عند عمرو بن العاص ، فعندما مات معاذ قام خطيبًا فى الناس وقال : إن الوباء عندما يظهر فإنه ينتشر كالضريم ، لهذا يجب على الجيش كله ترك هذا المكان ويعتصم بالجبال ، ولم يرق رأيه لبعض الصحابة المتفقين فى الرأى مع معاذ فقام أحد [٢] الصحابة وقال على الملأ : كذبت !! ومع هذا عمل عمرو برأيه وانتشر الجيش فى الجبال طبقًا لأمره ، وانقشع خطر الوباء إلا أن تنفيذ هذه الحيلة قد جاء فى الوقت الذى قضى الوباء فيه على خمسة وعشرين ألف مسلم كانوا بإمكانهم فتح نصف الدنيا وكان من بينهم كبار الصحابة مثل : أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمر وعتبة بن سهيل وكان عمر يطلع على هذه التطورات والأوضاع ويرسل لهم الأوامر المناسبة [٣] وعندما انتهى إليه مُصاب يزيد ومعاذ جعل معاوية أميرًا على دمشق وشرحبيل على الأردن / وبسبب هذا الوباء ١٦٣ المهلك توقف فيضان الفتوح الإسلامية مرة واحدة وبدل أن يحمل الجيش على العدو صار هو نفسه أسير حاله وظروفه حيث تيتم آلاف الأولاد وترملت آلاف النساء ، وأموال من مات منهم قد باتت رهن الفوضى ، وعندما علم عمر بهذه الأحوال خرج إلى الشام وخلف عليًا على المدينة واتخذ « أيلة » طريقًا ، واصطحب معه غلامه « يرفا » والعديد من الصحابة ، وعندما دنا من أيلة ، أعطى غلامه مركبه ثم ركب هو بعيره لحكمة ما ، فكان الناس الذين يرونه فى الطريق يسألونه : أين أمير المؤمنين ؟ فيقول : « أمامكم » وأتوا أيلة على هذه الحالة وقضوا هناك يومًا أو بعض يوم وقد تمزقت مؤخرة الثوب الذى كان يرتديه بسبب احتكاكه بالمحفة فسلمه إلى أسقف أيلة ليرقعه فرقعه بيديه

(١) سورة الصافات : آية : ١٠٢ (المترجم) .
(٢) هو أبو وائل الهزلى (المترجم) .
(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٢ (المترجم) .

وأعد معه قميصًا جديدًا وقدمه له ، فارتدى عمر قميصه وقال : هذا أنشف للعرق . وأتى دمشق من أيلة ومكث فى معظم أقاليم الشام عدة أيام ليرتب الأمور ترتيبًا جيدًا وقسم رواتب الجند واستدعى ورثة الناس الذين ماتوا فى الوباء على اختلاف منازلهم وأعطاهم ميراثهم وأقام معسكرات الجيش على الثغور الحديدية وعين الموظفين الجدد فى المناصب الشاغرة (وسيأتى ذكر هذه الأمور تفصيلاً فى الجزء الثانى) وعند الرحيل جمع الناس وخطب فيهم عما يتعلق بتلك الترتيبات .

وفى هذه السنة أصاب العرب جدب شديد ولو لم يكن عمر قد واجه هذه الأزمة سريعًا لهلك آلاف المسلمين جوعًا ، وفى هذه السنة أجرى الرواتب والأرزاق على المهاجرين والأنصار والقبائل / العربية وسيأتى تفصيل هذه الترتيبات فى الجزء الثانى .

١٦٤

فتح قيسارية شوال ١٩هـ / ٦٤٠

تقع هذه المدينة على ساحل بحر الشام ، وتُعد ضمن مدن فلسطين وقد أصابها الخراب الآن لكنها كانت من أشهر المدن آنذاك ، وعلى حد قول البلاذرى : كان بها ثلاثمائة سوق قائمة وكان عمرو بن العاص أول من هجم على هذه المدينة فى سنة ١٣هـ وظل محاصرًا لها زمنًا ولكنه لم يتمكن من فتحها ، وبعد وفاة أبى عبيدة ولى عمر يزيد ابن أبى سفيان مكانه وأمر بغزو قيسارية فنهض إليها فى سبعة عشر ألفًا وحاصر المدينة لكنه عندما مرض سنة ١٨هـ / ٦٣٩م استخلف عليها أخاه معاوية وسار إلى دمشق وتوفى بها ، وحاصرها معاوية بكامل العتاد وقد خرج أهل المدينة عدة مرات من القلعة للقتال ولكنهم أصيبوا بالهزيمة فى كل مرة ، وبالرغم من ذلك لم يتمكن من الاستيلاء على المدينة ، وذات يوم أتى معاوية يهودى يدعى يوسف وله نفق كان يصل إلى بوابة القلعة داخل المدينة ، فقام مجموعة من الأبطال بالوصول عن طريقة داخل القلعة . وفتحوا البوابة وقضوا على الجيش وقتلوهم شر قتلة . ويذكر المؤرخون أن جيش

(١) البلاذرى (المؤلف) يقول البلاذرى فى كتابه فتح فتوح البلدان « اختلف علينا فى أمر قيسارية فقال قائلون فتحها معاوية وقال آخرون بل فتحها عياض بن غنم » ص : ١٤٦ - ١٤٧ (المترجم) .

النصارى كان فى ثمانين ألفًا على الأقل لم ينج منهم إلا قليل ، وكانت هذه المدينة إحدى المدن الشهيرة وقد وصفت بفتحها سماء الشام [١] . / ١٦٥

الجزيرة [٢] سنة ١٧ هـ / ٦٣٧م

وبفتح المدائن فُتحت أعين العجم وانتبهوا مرة واحدة ، فقد كانوا ينظرون إلى العرب بنظرة تحقير لكنهم الآن كانوا يرتعدون خوفًا بمجرد ذكرهم ، ولذا بدأ كل إقليم الاستعدادات للقاء العرب ، فكانت الجزيرة أول من حملت السلاح لأن حدودها كانت تجاور حدود العراق . وأخبر سعد عمر بهذه التطورات فكلف من هناك عبد الله بن المعتم ، وقد اهتم عمر بهذه الغزوة اهتمامًا بالغًا فعين القادة بنفسه وجعل على مقدمة الجيش ربعى بن الأفكل وعلى الميمنة الحارث بن حسان وعلى الميسرة فرات بن حيان ، وعين على الساقة هانى بن قيس ، وتقدم عبد الله بن المعتم بجيش مكون من خمسة آلاف مقاتل نحو تكريت [٣] . وحاصر المدينة أكثر من شهر ، وحمل عليها أربعًا وعشرين حملة وقد اشترك مع العجم بعض القبائل (العربية) وهى : إياد وتغلب ونمر ، فأرسل عبد الله رسالة سرية يثير فيهم الغيرة ، قال : كيف تحتملون العبودية للعجم وأنتم عرب ؟ فتأثروا بهذه الرسالة وأسلموا جميعًا وأرسلوا لهم يدعوهم لأن يحملوا على المدينة وأننا سوف نخذل العجم إبان المعركة وننضم إليكم بعد أن تقضوا على العجم . وبعد هذه الترتيبات تم تحديد موعد الهجوم ، وعندما خرج العجم للقتال هجم عليهم العرب الذين معهم من الخلف وسقط العجم تحت الأقدام / بعد أن حُصروا من جميع الجهات . ١٦٦

ومع أن هذه المعركة تدخل ضمن حروب الجزيرة لكن لأن موقعها يأتى بالصدفة

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٦٠٤ و ٤ / ١٠٢ أيضًا : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٢٩٧ (المترجم) .

(٢) الجزيرة اسم لتلك المنطقة العامرة التى تقع فيما بين دجلة والفرات وحدودها الأربعة هى : جزء صغير من أرمينية وآسيا الصغرى من الغرب ، والشام جنوبًا ، والعراق شرقًا ، وجزء صغير من أرمينية شمالاً وهذا المكان موجود فى الخريطة (المؤلف) .

(٣) تكريت : أولى مدن الجزيرة وتلتقى حدودها مع العراق وتقع على الجانب الغربى لدجلة وعلى بعد ستة منازل من الموصل (المؤلف) .

ضمن حدود العراق لذا فإن المؤرخين المسلمين لا يبدءون فتوحات الجزيرة بها لأنها إذ ذاك لم تكن تعد منفصلة من سلسلة معارك العراق ، وفى سنة ١٧هـ عندما اطمأنوا من جانب الشام والعراق ، أرسل عمر أمرًا باسم سعد ليرسل الجيوش إلى الجزيرة ، فكلف سعد ، عياض بن غنم بهذه المعركة ومعه خمسة آلاف رجل ، فغادر العراق وتقدم ناحية الجزيرة وعسكر بالقرب من مدينة الرها التى كانت فى وقت من الأوقات مقرًا معروفًا للإمبراطورية الرومانية . وهنا قبل الحاكم الصلح على الجزية بقيود بسيطة وبعد الرها فُتحت الجزيرة كلها من أولها إلى آخرها فى عدة أيام . وأسماء الأماكن التى حدثت فيها حروب ومناوشات خفيفة هى : الرقة وحران ونصبين وميافا وسمساط وسروج وقرقيسيا وزوزان وعين الوردة [١] .

خوزستـان [٢]

فى سنة ١٥ هـ عين المغيرة بن شعبه حاكمًا على البصرة ، ولأن حدود خوزستان تلتقى بالبصرة ، لذا رأى أنه لا يمكن أن يستتب الأمن والأمان بشكل كامل فى البصرة دون فتحها / لذا حمل فى بداية سنة ١٦هـ على الأهواز التى يطلق عليه الفرس اسم مدينة هرمز ، هنا طلب حاكمها الصلح بعد أن دفع مبلغًا صغيرًا من المال وتوقف المغيرة هناك . وفى سنة ١٧هـ عُزل المغيرة وعين مكانه أبو موسى الأشعرى وبسبب هذا التغيير أوقف حاكم الأهواز المبلغ السنوى وأبدى العصيان والتمرد علانية ، فاضطر أبو موسى إلى أن يقود الجيش إليه فاتجه نحو الأهواز وحاصر الجيش الملكى الذى كان يقيم هناك [٣] وحاربه بشجاعة نادرة لكنه انهزم فى النهاية وفتحت المدينة وقسم مع الغنائم آلافًا من الأرقاء عبيدًا وإماء ، لكن عندما علم عمر بذلك كتب إليه بإطلاق سراح الجميع فتركهم جميعًا ، وبعد الأهواز توجه أبو موسى إلى « مناذر » وكان مكانًا حصينًا أيضًا ، فتصدى أهل المدينة للهجوم بصبر وشجاعة واستشهد فى هذه المعركة مهاجر بن زياد وكان من كبار القادة وقد قطع أهل القلعة رأسه وعلقوها بأعلى البرج .

١٦٧

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٥٣ - والبلاذرى : فتوح البلدان : ١٧٦ - ١٧٧ وابن الأثير : الكامل : ٢ / ٥٣٢ (المترجم) .

(٢) خوزستان اسم لتلك المنطقة العامرة التى تقع بين العراق وفارس وبها أربعة عشر مدينة كبرى والأهواز أكبر مدينة فيها وقد ذكرت فى الخريطة (المؤلف) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٩ - ٧٢ (المترجم) .

وترك أبو موسى ربيعًا أخا مهاجر فى هذه المدينة وسافر بنفسه إلى سوس وفتح ربيع مناذر وحاصر أبو موسى السوس ومنع عنها المؤن من جميع الجهات ، وقد نفدت مؤنة الطعام والشراب فى القلعة فاضطر حاكم المدينة إلى أن يطلب الصلح بشرط أن يُترك مائة شخص من أسرته أحياء فوافق أبو موسى وسمى الحاكم كل فرد وأمنه ، ومن سوء الحظ أن الحاكم لم يذكر اسمه هو نفسه فى الحصر لذا عندما اكتمل العدد مائة أمر أبو موسى بقتل الحاكم الذى كان خارج الحصر ، وبعد السوس حاصر « رامهرز » وتم الصلح على ثمانمائة ألف سنويًا وكان يزدجرد يقيم فى قم آنذاك / ومعه جميع أعضاء ١٦٨ الأسرة الملكية وكانت تصل إليه باستمرار أخبار حملات أبو موسى ، وكان هرمزان خال شيرويه قائدًا قويًا وقديرًا فجاء إلى يزدجرد وقال له لو أعطيتنى حكم فارس والأهواز فلأوقفن فيضان العرب من التقدم فأعطاه يزدجرد الأمر بالحكم فى نفس الوقت وأعطاه جمعًا غفيرًا ، وكانت شوستر عاصمة خوزستان وتقع بها جميع المبانى الحكومية والمعسكرات ، وعندما وصل هرمزان هناك قام بترميم القلعة وحصن القلعة بالأبراج والخنادق ، فضلاً عن أنه جد فى إرسال النقباء والخطباء إلى كل مكان لكى يلهبوا حماس الناس ويحفزوهم للمعركة وبهذه الحيلة تجدد الحماس القوى الذى كان قد تبلد . وفى خلال عدة أيام تجمع جمع هائل ، وكتب أبو موسى إلى باب الخلافة يطلب النجدة فأرسل من هناك أمرًا إلى عمار بن ياسر الذى كان حاكمًا للكوفة فى ذلك الوقت يقضى بأن يرسل النعمان بن مقرن ومعه ألف رجل للنجدة ولكن هذا الجيش كان عديم الفائدة أمام الاستعدادات التى أعدها العدو ، فكتب أبو موسى مرة ثانية فجاء الأمر لعمار بأن يترك عبد الله بن مسعود ومعه نصف الجيش فى الكوفة ويصطحب باقى الجيش ويسير هو بنفسه لنجدة أبو موسى ، ومن ناحية أخرى وصل جرير البجلى إلى جلولاء مصطحبًا معه جيشًا عظيمًا ، وتوجه أبو موسى إلى شوستر بهذا العتاد ، وعندما اقترب من المدينة أقام المعسكر ، وخرج هرمزان بنفسه من المدينة للهجوم معتمدًا على قوته ، ونظم أبو موسى الصفوف تنظيمًا دقيقًا فجعل على الميمنة براء بن مالك (وهو أخو أنس بن مالك الصحابى الشهير) وعين على الميسرة البراء بن عازب الأنصارى ، وكانت كتيبة الفرسان فى ركاب أنس رضى الله عنه ، وتحارب الجيشان حربًا طاحنة / حتى وصل البراء بن مالك وهو يقاتل إلى بوابة سور المدينة ، وعلى ١٦٩ الجانب الآخر ظل الهرمزان يقود الجيش بشجاعة وإقدام حتى تقابل الاثنان أمام باب القلعة ، وقتل البراء وحينما عمل عليه مجزأة بن ثور الذى كان يحارب قريبًا منه قتله

هرمزان أيضًا ومع ذلك ظلت دفة المعركة فى أيدى المسلمين فقُتل من العجم ألف وأسر ستمائة أحياء وواصل هرمزان المعركة بعد أن أغلق القلعة (١) .

وفى يوم جاء إلى أبى موسى أحد سكان المدينة سرًا ، وقال له لو أمنتنى على أهلى ومالى فسوف أجعلك تستولى على المدينة فوافق أبو موسى وأخذ معه عربيًا اسمه الأشرس وعبرا نهر دجيل وهو فرع من فروع دجلة كان ينساب تحت شوستر ودخلا المدينة عن طريق سرداب وقال للأشرس بعد أن تلثم ، عليك أن تمشى خلفى كالخادم ومرا هكذا من حوارى المدينة وأزقتها حتى وصلا إلى القصر الخاص لهرمزان ، وكان الهرمزان جالسًا مع الأمراء وأهل البلاط حفلة وقد أراه ذلك المدنى جميع المبانى وعرّفه بمعالم المدينة وتضاريسها ثم مثل أمام أبى موسى وقال له : لقد قمت بواجبى والآن أنتم أمام جرأتكم وخطتكم وصدق الأشرس على وضعه وقال : لو يكون معى مائتان من الفدائيين لفتحت المدينة على الفور ، فنظر أبو موسى ناحية الجيش فتقدم مائتا بطل وقالوا : ها هى ذى أرواحنا نقدمها فداء فى سبيل الله ، ووصل الأشرس إلى بوابة السور عن طريق ذلك السرداب وقتل الحراس وفتح البوابة من الداخل ، ومن ناحية أخرى كان أبو موسى موجودًا فى مكانه مع الجيش . ومع فتح البوابة تدفقت جموع الجيش واضطربت المدينة ، وهرب الهرمزان / واعتصم بالقلعة ووصل المسلمون ١٧٠ بأسفل القلعة فصعد إلى البرج وقال : فى جعبتى الآن مائة سهم وأن أقع أسيرًا حتى تفترش الجثث هذا المكان ، وبالرغم من ذلك فإننى أهبط بشرط أن ترسلونى إلى المدينة وليصنع عمر بى ما يشاء ، فوافق أبو موسى وطلب من أنس أن يذهب معه إلى المدينة ، وسار الهرمزان فى غاية العظمة والأبهة واصطحب معه كبار الأشراف والأمراء جميعًا ، وعندما وصل بالقرب من المدينة زين نفسه بالملابس الملكية ، فوضع على رأسه التاج المرصع المعروف بلقب « آذين» (٢) واكتسى بقباء من الديباج ، وتحلى بالمجوهرات طبقًا لعادة ملوك العجم وربط السيف المرصع بخصره ودخل المدينة فى أحلى صور العظمة والأبهة وسأل الناس : أين أمير المؤمنين ؟ وكان يتخيل أن هذا الرجل الذى انتشرت هيبته فى كل أنحاء الدنيا لابد أن يكون بلاطه فى غاية الفخامة وكان عمر يجلس فى ذلك الوقت فى المسجد ممددًا على أديم الأرض .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٨٦ (المترجم) .

(٢) فارسية بمعنى (الزينة) المترجم .

ودخل الهرمزان المسجد فكان معه آلاف المشاهدين والمتفرجين كانوا ينظرون مرارًا إلى ثيابه الفاخرة الزاهية ويتعجبون فاستيقظ عمر من جلبة الناس فكانت أمامه صورة كاملة لأبهة العجم فتأمل فيه مليًا وخاطب الحاضرين قائلاً : « هذه ملذات الدنيا الدنيئة » ثم خاطب الهرمزان ولم يكن المترجم قد أتى بعد ، وكان المغيرة يفقه شيئًا من الفارسية فقام / بالترجمة فسأل عمر أولاً عن الوطن فى الفارسية لهذا قال « از كدام أرضى ؟ » يعنى من أى أرض أنت ؟ ثم دار باقى الحديث وبعد القادسية تصالح الهرمزان مع سعد عدة مرات ، وكان دائمًا ينقض العهد [(١)] . وقتل على يديه فى معركة شوستر اثنان من القادة المسلمين الكبار ، وقد تألم عمر لهذا الأمر تألمًا شديدًا وعزم عزمًا أكيدًا على قتل الهرمزان ومع هذا سمح له بالتماس لإتمام الحجة ، فقال يا عمر « عندما كان الله معنا كنتم عبيدًا لنا ، والآن الله معكم ونحن عبيدكم » وبعد أن قال هذا طلب الماء ليشرب ، فجاء الماء فأمسك الكأس بيده وطلب ألا يقتلوه مادام لم يشرب الماء ، فأمنه عمر فوضع الكأس من يده وقال لن أشرب الماء ولهذا طبقًا للشرط لا يمكن أن تقتلنى فتحير عمر لهذه الخدعة ، ونطق الهرمزان بالشهادتين وقال : لقد أسلمت من قبل لكنى قمت بهذه الحيلة لكى لا يقول الناس أننى أسلمت خوفًا من السيف [(٢)] . وفرح عمر وسمح له بالإقامة داخل المدينة وفرض له راتبًا قدره ألفان وكان عمر كثيرًا ما يشاوره فى حروب فارس وغيرها . ١٧١

وحمل على جندى سابور بعد شوستر التى تبعد عن شوستر بأربعة وعشرين ميلاً ، وظل محاصرًا لها عدة أيام ، وذات يوم فتح أهل المدينة أبوابها بأنفسهم وانصرف جميع الناس / إلى شئونهم باطمئنان وتعجب المسلمون لطمأنينتهم وعرفوا سببها ، فقد قال أهل المدينة لقد أعطيتم لنا الأمان بشرط الجزية ولم يبق أى خلاف بيننا ، فاندهش الجميع فمن الذى أمنهم ؟ وبالبحث علموا أن عبدًا[(٣)] قد كتب وثيقة الأمان فى خفاء عن الناس . قال أبو موسى إنما هو عبد وليس حجة ، فقال أهل المدينة إننا لا نعرف ١٧٢

(١) ذكر الطبرى : هذه الأحداث بالتفصيل (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ /٨٧ - ٨٨ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٩٣ - ٩٤ (المترجم) .

(٣) هذا العبد يدعى « مكنف » . الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٩٣ (المترجم) .

أحراركم من عبيدكم . وفى النهاية كتبوا إلى عمر فكتب إليهم أن عبد المسلمين مسلم ومن أعطاه الأمان فقد أعطى الأمان المسلمين أيضًا ، [1] وبفتح هذه المدينة ثبتت سيطرة الإسلام على خوزستان كلها ، وأضيفت بلدة جديدة إلى قائمة الفتوحات .

* * *

(١) تنقسم أرض العراق إلى قسمين ، القسم الغربى ويطلقون عليه اسم العراق العربى ، والقسم الشرقى ويطلقون عليه اسم العراق العجمى ، وحدود العراق العجمى الأربعة هى : طبرستان فى الشمال وخوزستان فى الشرق ، ومدينة مراغة من الغرب ، وكانت همدان والرى وأصفهان تعتبر من أعظم مدنها فى ذلك الوقت ، أما الرى فقد أصبحت غير عامرة الآن ، وظهرت مدينة طهران بالقرب منها وهى عاصمة الملوك القاجاريين (المؤلف) .

العراق العجمى [1] سنة ٢١ هـ / ٦٤١م

رحل يزدجرد إلى الرى بعد جلولاء كما ذكرنا من قبل إلا أن حاكمها « آبان جادوية » قد غدر به لذا خرج من الرى مارًا بأصفهان وكرمان حتى وصل إلى خراسان ، وأقام بمرو وكانت معه « نار المجوس » لذا أعد للنار معبدًا وقام بإعداد الحكومة ونظم المملكة بكل جاه وجلال ، وهنا جاءته الأخبار أن العرب قد فتحوا خورستان بالإضافة إلى العراق وأن هرمزان الذى كان الساعد القوى للدولة قد أسر حيًا ، فاستشاط غضبًا / بعد أن سمع هذه التطورات ، ومع أنه لم يبق لمملكته أى مكانة وهيبة كما كانت من قبل إلا أنه كان من الصعب أن يزول حكم الأسر الحاكمة التى حكمت منذ ثلاثة آلاف سنة مرة واحدة ، وكان الفرس يعتقدون أن عاصفة العرب سوف تقف بعد أن تصل عند الثغور ولهذا كانوا فى حالة اطمئنان من ناحية مملكتهم الخاصة ، إلا أن حادثة خوزستان قد فتحت أعينهم ، وتلا هذا أوامر الملك والنقباء وهكذا أحدثت هذه العملية ثورة فى طبرستان وجرجان ودماوند والرى وأصفهان وهمدان ووصلت بدورها إلى خراسان والسند وجاءت جموع غفيرة كأسراب الجراد نحو مائة وخمسين ألف ونزلت فى قم ، وعين يزدجرد مردان شاه بن هرمز قائدًا للجيش فاتجه نحو نهاوند فخرج فى هذه المعركة متفائلاً بعلم كاويانى وكان العجم يعتبرونه فألاً للنصر ، لذا عندما سار مردان شاه كان ظل هذا العلم المبارك يظله ، وقد أخبر عمار ابن ياسر الذى كان حاكمًا على الكوفة فى ذلك الوقت ، عمر بهذه الأوضاع فكتب عمر لعمار وجاء عمر إلى المسجد النبوى والخطاب فى يده وقرأه على الجميع ، قال : يا معشر العرب إن إيران كلها تأهبت هذه المرة لتمحو المسلمين من الدنيا فما رأيكم ؟ فقام طلحة بن عبيد الله وقال : « يا أمير المؤمنين لقد جعلتك الأحداث محنكًا ونحن لا نعرف سوى أن تأمرنا ونحن نمتثل للأمر » وقال عثمان : أرى أن نرسل لحكام البصرة واليمن والشام أن يرسلوا بجيوشهم إلى العراق ، ولتأخذ أنت نفسك أهل بيتك وتغادر المدينة ولتجتمع جميع الجيوش فى الكوفة تحت رايتك ثم تتوجه نحو نهاوند ، فاستحسن الجميع رأى عثمان هذا لكن عليًا - كرم الله وجهه - كان صامتًا ، فنظر عمر إليه فقال : « عندما نسحب الجيوش من الشام والبصرة / فسوف يستولى الأعداء على

١٧٣

١٧٤

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١١٥ - ١١٨ (المترجم) .

الثغور التى على الحدود ولو تركت المدينة فسوف تثور ثائرة العرب فى كل مكان وربما يكون من الصعب السيطرة على بلدنا ذاتها ، لذا أرى ألا تتحرك من هنا وترسل الأوامر إلى البصرة واليمن والشام لكى يرسلوا ثلث الجيش الموجود فى أى مكان » فقال عمر هذا هو الرأى أيضًا ولكننى ما كنت أريد أن أفصل فيه وحدى ، ووصل الأمر إلى البحث عن الرجل الذى يقوم بقيادة الجيش فى هذه المهمة العظيمة وأخذ الناس يجيلون بخاطرهم فى كل اتجاه لكنهم لم يجدوا أحد ، فالقادة الجديرون بهذا المنصب قد انشغلوا بمهمات أخرى .

ومن سمات عبقرية عمر أنه كان لديه معرفة كاملة بجميع أحوال البلد لدرجة أنه كان تحت نظره ميزات كل فرد من أفراد الرعية ومؤهلاته ، لذلك قال الحاضرون فى هذه المناسبة ، من ذا الذى هو أولى أن يفصل فى هذا الأمر منك ؟ فاختار عمر النعمان ابن مقرن وأيده الجميع ، فسار النعمان من الكوفة بثلاثين ألفًا من المقاتلين وكان هذا الجيش يضم كبار الصحابة ومن أشهرهم : حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمر وجرير البجلى والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معد يكرب . وأرسل النعمان العيون فعلم أن الطريق ممهد حتى نهاوند ، فواصل التقدم حتى نهاوند ، ورابط الجيش فى اسبهدان وهو موضع يبعد عن نهاوند بتسعة أميال ، ومن حسن تدبير عمر أنه كتب إلى الجيوش الإسلامية المرابطة فى فارس بألا تتقدم جيوش العجم نحو نهاوند وهكذا حرم العدو من أهم الإمدادات من هذا الطريق / . ١٧٥

وأرسل العجم رسالة للسفارة إلى النعمان ، فسار إليهم المغيرة بن شعبة سفيرًا وكان قد قام بهذه المهمة من قبل ، وهيأ العجم البلاط وزينوه بالزينة الفاخرة وأجلسوا مردان شاه على العرش « المصنوع من الذهب » بعد أن لبس التاج وجلس الأمراء يمين العرش وشماله فى حلل مزركشة ، وعلى رأس كل منهم تاج من الذهب وبيديه أساور من ذهب واصطفت الجند من خلفهم لمسافة بعيدة وكان بريق سيوفهم المسلولة يخطف الأبصار وبدأت المحادثات عن طريق المترجم ، قال مردان شاه : « أنتم العرب أسوأ الناس حظًا وأكثرهم فقرًا وأكثرهم دنسًا وأن رماة السهام الذين يقفون حول عرشى يستطيعون أن يقضوا عليك الآن لكننى لا أحب أن يلوثوا سهامهم بدمائك القذرة وإذا رحلتم من هنا الآن فسوف أعف عنكم » . قال المغيرة :« نعم كنا هكذا أذلاء فقراء وحقراء ، لكن بعد أن أتينا إلى هذه الدولة تذوقنا طعم النعمة ، وسوف لا ندع هذا

الطعم حتى تفترش جثثنا التراب » وهكذا لم تأت السفارة بنتيجة . وبدأ الفريقان يستعدان للحرب ، فعين النعمان حذيفة وسويد بن مقرن على الميمنة والميسرة وأمر القعقاع على المجردة ، وعين مجاشع على الساقة ، وفى الناحية الأخرى كان « زردك » على الميمنة و« بهمن » على الميسرة وكان العجم قد فرشوا الأشواك فى كل مكان فى ميدان المعركة وبسبب هذا كان هناك صعوبة فى تقدم المسلمين ، أما العجم فكانوا يخرجون من المدينة للهجوم حسبما شاءوا ، وعندما رأى النعمان هذه الحالة جمع القادة يستشيرهم وطبقًا لرأى طليحة بن خالد الأسدى تجمعت الجيوش ورابطت على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة وأرسل القعقاع بكتيبة من الجيش ليهاجم المدينة / . وخرج الفرس ١٧٦ للقائه بحماس متأجج وكلما تقدموا للأمام فرشوا الأشواك خلفهم حتى لا يولى واحد دبره بعد أن أثار القعقاع المعركة لفترة ما بدأ يتقهقر والعجم يتقدمون باستمرار حتى خرجوا عن حدود الأشواك . ومن ناحية أخرى كانت الجيوش التى جمعها النعمان تنتظر هذه الفرصة وكلما تعرض لهم العجم أرادوا الهجوم عليهم إلا أن النعمان كان يستوقفهم ، وقضى العجم الذين كانوا يمطرون بالسهام على آلاف من المسلمين لكنهم صمدوا لأمر القائد حتى جرحوا ولكنهم لم يتوقفوا ، وكان المغيرة يقول مرارًا أن الجيش سيفقد قوته والفرصة تفلت من أيدينا ، إلا أن النعمان كان ينتظر وقت الهجير (أى زوال الشمس) وهو الوقت الذى كان رسول الله – ﷺ – يهجم فيه على العدو ، المهم أنه عندما مالت الشمس أطلق النعمان ثلاث صيحات حسب الاتفاق ، ففى الصيحة الأولى تسلح الجيش بأسلحته ومعداته ، وفى الثانية سلت الجنود السيوف وفى الثالثة هجموا مرة واحدة وانقضوا عليهم ببسالة وقتلوهم شر قتلة وظهرت السدود من أشلاء القتلى فعثرت بها أقدام الخيل ، وكان أن عثرت أقدام فرس النعمان فسقط معه وكان مثخنًا بالجراح ، وكان زيه المميز الذى كان يعرف به فى أرض المعركة القلنسوة والقباء الأبيض ، ولما خر من فوق فرسه سارع نعيم بن مقرن أخوه إلى حمل الراية وامتطى فرسه وارتدى قلنسوته وقباءه ، وبهذه الحيلة لم يعلم أحد بوفاة النعمان واستمرت المعركة كالمعتاد ، ويمكن أن نقوّم الصبر والثبات الذى منحه الله للمسلمين فى ذلك العهد المبارك من / الحادثة التالية : كان النعمان قد سقط بعد أن جرح فقال أنا أموت ١٧٧ فلا يتجه إلىّ أحد تاركًا المعركة ، وبالصدفة خرج إليه أحد الجنود ورأى فيه رمقًا من حياة نفس فنزل من فوق جواده وأراد الجلوس عنده لكنه سرعان ما تذكر أوامره فتركه

ومضى إلى سبيله ، وبعد الفتح ذهب إليه أحد الجنود ففتح عينيه وسأل كيف انتهت (المعركة) فقال : « لقد انتصر المسلمون » فشكر الله وقال عجلوا بإخبار عمر .

وتزلزلت أقدام العجم فى الليل وهربوا وتعقبهم المسلمون حتى همدان .

ووصل حذيفة بن اليمان الذى عين قائدًا للجيش خلفًا للنعمان إلى نهاوند وأقام بها ، وكان فيها بيت شهير للنار فجاء موبده إلى حذيفة وقال له : اعطنى الأمان وأنا أدلك على كنز ثمين فقد كان كسرى يجمع الجواهر النفيسة ليدخرها للأوقات الصعبة ، فقسم حذيفة أموال الغنيمة وأرسل الخمس والجواهر إلى عمر ، ولم تكن قد وصلت عمر أخبار عن القتال منذ أسابيع ، فبشره الرسول بالنصر فسر عمر غاية السرور ، لكن عندما سمع باستشهاد النعمان انفجر بالبكاء وظل يبكى فترة واضعًا يديه على رأسه ، ثم أحصى الرسول الشهداء وقال لقد نال الشهادة كثيرون غيره لا أعرفهم فقال عمر وهو يبكى ما ضرهم ألا يعرفهم عمر ولكن الله يعرفهم [١] ، وعندما رأى الجواهر قال فى حدة عُد فورًا وقل لحذيفة / أن يقسمها بين الجند ، فبيعت هذه الجواهر بأربعين مليون درهم .

١٧٨

وقتل فى هذه المعركة حوالى ثلاثين ألفًا من العجم ولم تقم لهم قائمة بعدها ولذلك سمى العرب هذا الفتح باسم فتح الفتوح وقد أسر فى هذه المعركة « فيروز » الذى كتبت شهادة عمر على يديه .

الاستعداد للحرب العامة سنة ٢١هـ / ٦٤٢م

لم يكن عمر فى هذا الوقت يريد فتح إيران كلها ، وكانت المعارك التى حدثت حتى الآن كلها كانت للحفاظ على مملكته ، إلا أن العراق قد أضيفت إلى رقعة الدولة وهى فى الحقيقة كانت جزءًا من بلاد العرب ، لأن العرب كانوا يسكنون فى مختلف أنحائها قبل الإسلام وقد حدثت المعارك التى وقعت بعد أن تقدموا فى أرض العراق بدون توقع وكان نفسه يقول : يا ليت بيننا وبين فارس جبلاً من نار فلا يستطيعون أن يهجموا علينا ولا نستطيع أن نصل إليهم .

---

(١) المرجع السابق : ٤ / ١٣٦ (المترجم) .

لكن الفرس لم يهدأ لهم بال قط ، فكانوا يجهزون الجيوش الجديدة ويتقدمون للقتال ، وكانوا يقومون بأعمال التمرد فى البلاد التى استولى عليها المسلمون ، وفكر عمر فى معركة نهاوند واستدعى كبار الصحابة وسألهم : لماذا يندلع التمرد مرارًا فى البلاد المفتوحة ؟ قالوا : لا يمكن أن تخمد هذه الفتنة ما لم يخرج يزدجرد من حدود إيران ولا يمكن أن تنقطع آمال الإيرانيين طالما تراودهم هذه الفكرة وهى أن وارث عرش « كنعان » موجود على قيد الحياة / .

١٧٩

وبناء على هذا أراد عمر الاستعداد للحرب العامة فأعد بنفسه عدة ألوية وسماها باسم البلدان عند مشاهر القادة فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس ، ولواء أردشير وسابور إلى مجاشع بن سعود ولواء اصطخر إلى عثمان بن العاص الثقفى ، ولواء فسا إلى سارية بن رهم [١] الكنانى ، ولواء كرمان لسهيل بن عدى ولواء سجستان لعاصم بن عمر ، ولواء مكران للحكم بن عمر التغلبى ، ولواء أذربيجان إلى عتبة ، وفى سنة ٢١هـ سار هؤلاء القادة إلى الأمصار والولايات التى عينوا عليها لذا فإننا سوف نذكر ما يخص كل لواء منفصلاً عن الآخر حسب الترتيب .

كانت أصفهان فى سلسلة هذه الفتوحات ، ففى عام ٢١هـ هجم عبد الله بن عبدالله بن عتبان على هذا الإقليم وكان عليه حاكم اسمه (استندار) [٢] وقد جمع حشدًا عظيمًا فى ضواحى أصفهان على مقدمته شهربراز جادويه وكان قائدًا محنكًا والتقى الجمعان وصاح جادويه فى الميدان : من أراد النزال فليأت لنزالى منفردًا ، فخرج عبد الله لنزاله وقتل جادويه وانتهت المعركة بنهايته ، وطلب « استندار » الصلح على الشروط المعتادة ثم تقدم عبد الله إلى « جى » [٣] أى أصفهان وحاصرها فأرسل حاكمها « فاذوسفان » رسالة قال فيها : لماذا نزهق أرواح الآخرين ؟ وليكن فى نزالنا الفيصل نفسه ، فبرز الخصمان إلى الميدان ، فهجم فاذوسفان بالسيف وقابل عبد الله هجومه

---

(١) الصواب : سارية بن زنيم الكنانى (المترجم)

(٢) استندار أو استاندار بمعنى حاكم الإقليم أو المحافظ (المترجم) .

(٣) كانت أصفهان تتكون من مدينتين متجاورتين هما : « جى » و« اليهودية » . والأخيرة مستعمرة يهودية الأصل أنشأها يزدجرد الأول إجابة لزوجته اليهودية « جوشن دخت » أما « جى » فهى القصبة (المترجم) .

بشجاعة حتى خرج من فم « فاذوسفان » كلمات الاستحسان وقال : لا أريد أن أقاتلك ؟ بل أسلم لك المدينة بشرط أن يقيم من يشاء من السكان / فى المدينة ويدفع الجزية ومن شاء الخروج يخرج ، فقبل عبد الله هذا الشرط وعقد معاهدة الصلح [١] .

١٨٠

وفى تلك الأثناء جاء خبر التمرد فى همدان فأرسل عمر نعيم بن مقرن إليها ، فوصل إلى همدان فى اثنى عشر ألفًا وأخذ أهبته للحصار ، لكن عندما تأخر الحصار نشر الجيوش فى جميع أنحاء الولاية ، عندئذ تركوا همدان وفتحوا جميع المناطق الباقية ، وقد فترت همة المحاصرين بعد أن رأوا هذه الحالة وطلبوا الصلح ، وفتحت همدان [٢] إلا أن الديلم تبادلوا الرسائل مع الرى وأذربيجان وغيرها وجمعوا جيشًا كبيرًا ومن ناحية أخرى قد جاء « الزينبدى » أبو « الفرخان » الذى كان حاكمًا على الرى بجمع حاشد ، ومن ناحية أخرى وصل أسفنديار أخو رستم من أذربيجان واجتمعت هذه الجيوش فى وادى رود وكانت هذه المعركة من الشراسة بمكان حتى تذكر الناس معركة نهاوند وانهزم الديلم فى النهاية ، وجاء عروة الذى قد جاء إلى عمر بخبر الهزيمة فى موقعة الجسر من قبل ، برسالة الفتح هذه كفارة عما فات ، وكان عمر فى غاية التردد بعد أن سمع عن استعدادات الديلم وأخذ أهبته للنجدة ، وفجأة قدم عروة فتشاءم عمر وقال بلا تكلف « إنا لله » فقال عروة : لا تضطرب فقد نصر الله المسلمين .

وأرسل عمر إلى نعيم كتابًا « أن استخلف أحدًا على همدان وسر حتى الرى ، وكان سياوش [٣] حاكمًا للرى آنذاك وهو حفيد « بهرام جوبين » فطلب النجدة من حكام جرجان وقوس وطبرستان ودنباوند فجاءته جيوش النجدة من كل مكان ، إلا أن « الزينبدى » الذى كان على خلاف مع سياوش / انضم إلى نعيم بن مقرن وحمل على المدينة بحيلته وفتحت المدينة مرة واحدة مع الهجوم وأعطى نعيم رئاسة الرى للزينبدى وأمر أن تبنى مدينة جديدة بعد أن تحطمت المدينة القديمة ، وأقام نعيم نفسه فى الرى طبقًا لأوامر عمر وأرسل أخاه سويدًا إلى قوس التى فتحت بدون قتال وبهذا الفتح تم الاستيلاء على العراق العجمى بأكمله [٤] .

١٨١

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٣٩ - ١٤٠ (المترجم) .
(٢) المرجع السابق : ٤ / ١٤٦ - ١٤٩ (المترجم) .
(٣) يذكره مؤرخو العرب باسم « سياوخش » (المترجم) .
(٤) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٥٠ - ١٥١ (المترجم) .

أذربيجان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م [١]

أرسل عمر لواء أذربيجان إلى عتبة بن فرقد وبكير ، كما كتبنا من قبل وحدد لهما جهات التقدم ، وعندما وصل بكير إلى الميدان واجه أسفنديار وأسر حيًا ، ومن ناحية أخرى سد بهرام أخو أسفنديار طريق عتبة لكنه هزم أيضًا وولى هاربًا ، وعندما علم أسفنديار بهزيمة أخيه قال لبكير : الآن أطفئت نار الحرب وإننى أصالحكم على الجزية . ولما كانت أذربيجان فى حوزة الآخرين لذا أطلق عتبة سراح أسفنديار شريطة أن يبقى حاكمًا لأذربيجان ويؤدى الجزية / ويذكر البلاذرى أن حذيفة بن اليمان الذى تلقى لواء أذربيجان سار من نهاوند ووصل أردبيل عاصمة أذربيجان [٢] ، وكان الحاكم قد جمع للقتال جمعًا غفيرًا من مقاطعات ميانج وسبز وسراة وميمند وماجروان وغيرها لكنه انهزم وعقد الصلح على ثمانمائة ألف درهم سنويًا ، ثم حمل حذيفة بعد ذلك على موقان وجبلاتى ورفعوا عليها رايات النصر [٣] .

١٨٢

وفى تلك الأثناء وصل أمر من دار الخلافة بعزل حذيفة وعُين مكانة عتبة بن فرقد ، وقد عمت الثورة فى جميع أرجاء أذربيجان عندما وصل عتبة ، فقام بفتح هذه البلدان مرة ثانية .

---

(١) بالاطلاع على خريطة أذربيجان يتضح أن مدينة تبريز عاصمتها (أما فى الماضى فقد كانت مدينة مراغة هى العاصمة) وكانت بردعة واردبيل من مدن هذا الإقليم المأهولة ، وهناك روايتان عن سبب تسميته آذربيجان : الأولى : هى أن الموبد آذرباد بنى بها معبدًا للنار كان اسمه (آذرآباد كان) والرواية الثانية هى : أن « آذر » تعنى النار فى اللغة البهلوية و « بايجان » تعنى المحافظ أى الراعى أو السادن للنار ، وقد أطلق هذا الاسم على هذا الإقليم لكثرة معابد النار به ويسميه العرب فى لغتهم بـ « آذربيجان » (المؤلف) .

(٢) لم يذكر شبلى اسم « بكير » فيما سبق عندما ذكر توزيع عمر للألوية على القادة (المترجم) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٢١ - ٣٢٦ (المترجم) .

طبرستان [1] سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م

لقد كتبنا من قبل أنه عندما فتح نعيم الرى ، تقدم أخوه سويد نحو قومس فاستولى على هذا الإقليم الكبير بلا حرب أو مقاومة وكانت جرجان قصبة طبرستان الشهيرة أقرب مكان فى « قوس » ، وتراسل سويد مع حاكمه روزبان فطلب الصلح على الجزية وكتب بوضوح فى معاهدة الصلح أن المسلمين مسئولون عن أمن جرجان ودهستان وغيرها ، وأن سكان المدينة الذين يساعدون المسلمين فى صد الحملات الخارجية يعفون من الجزية . وبعد أن سمع حاكم طبرستان ، وكان يدعى سبهدار ما حدث فى جرجان (تصالح) بشرط أن يدفع كل سنة / ولا يكون على المسلمين تجاههم أى حق ، ولا للمسلمين عليهم أى حق [2]

١٨٣

أرمينية

كان بكير مكلفًا بفتح أذربيجان ، فوصل بالقرب من « باب » بعد أن فتح أذربيجان فأعد عمر جيشًا جديدًا وأرسله مددًا وكان اسم حاكم « باب » شهر براز وكان مجوسيًا من قبل مملكة إيران وقد جاء بنفسه عندما علم بمقدم المسلمين وقال : أنا لا أناصر قط لئام أرمينية ، فأنا إيرانى الحسب والنسب وإنكم قد غلبتم على بلادى وأنا مطيع لكم لكننى أطلب ألا تأخذوا منى الجزية ، وأنا أمدكم بالجيش عندما تقتضى الضرورة وقُبل هذا الشرط لأن الجزية كانت فى الحقيقة عوضًا عن الدفاع عنهم ، ثم تقدمت الجيوش بعد أن انتهت من هذا وسار عبد الرحمن بن ربيعة صوب لنجر وكانت قصبة مملكة الخزر وكان معه شهربراز فقال له متعجبًا ماذا تريد أن تصنع ؟ إن الناس فى عهدنا كانوا يعتبرون عدم هجوم هؤلاء القوم علينا مغنمًا ، فقال عبد الرحمن إننى

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٥٣ - ١٥٥ (المترجم) .

(٢) سوف تجد فى الخريطة إقليم طبرستان ضمن الفتوحات العثمانية لأنهم امتنعوا عن أداء الجزية فى عهد الفاروق ، وحدودها الأربعة هى : خراسان وجرجان من الشرق ، وأذربيجان من الغرب وبحر جرجان من الشمال وبلاد جبل بسطام من الجنوب واستر آباد أشهر مدنها . (المؤلف) .

لا أتراجع حتى أدخل فى كبدة هذه الأرض ، وقد فتح البيضاء وفى هذه الفترة انتهى عهد خلافة عمر [١] .

ومن ناحية أخرى اتجه بكير إلى « قان » التى تبدأ منها حدود « اران » ففتحها وضمها إلى الدولة الإسلامية ، وتوجه حبيب بن مسلمة وحذيفة إلى تفليس وجبال اللان ، وقبل أن ترتفع راية الإسلام هناك / انتهى عهد خلافة عمر وأنجزت هذه المعارك فى عهد الخليفة عثمان - رضى الله عنه [٢] . ١٨٤

فارس [٣] سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤م

مع أول هجوم على فارس كان سنة ١٧هـ إلا أن عمر رضى الله عنه لم يأذن بهذه الحملة ولم تحدث انتصارات تذكر آنذاك لذا لم نستحسن ذكرها مع الوقائع التى حدثت فى تلك الفترة . لقد فتحت العراق والأهواز وكانتا جارتين للعرب ، وكان عمر يقول : « لو كان يحول بيننا وبين فارس جبل من نار لكان أفضل » إلا أن الحرب نشبت مع فارس بدون انتظار . ففى سنة ١٧هـ عُين العلاء بن الحضرى عاملاً على البحرين وكان رجلاً شجاعًا ذا همة عالية وكان بينه وبين سعد بن أبى وقاص منافسة ، فكان كل واحد منهما يريد أن يتقدم عن الآخر فى كل ميدان ، وعندما انتصر سعد فى معركة القادسية تميز علاء من الغيظ حتى أنه جمع الجيوش وحمل على فارس من البحر دون أن يستأذن من الخلافة . وكان خليد بن منذر على رأس الجيش ولكل من جارود بن المعلى وسوار بن همام جيشان مستقلان ، ووصلوا اصطخر ورست السفن ونزلت الجيوش على الساحل ، وكان هربد حاكمًا هناك ، فجاءه بجمع حاشد ونزل إلى البحر وأقام الصفوف حتى لا تصل إليهم سفن المسلمين ، وبالرغم من أن عدد المسلمين كان قليلاً جدًا وكادت سفنهم أن تقع فى قبضة العدو لكن ذلك لم يؤثر فى ثبات قائد الجيش وتقدم

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٥٦ - ١٥٨ (المترجم)

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ١٩٧ وما بعدها (المترجم) .

(٣) لقد أنقصوا من حدود العراق فى الكتب الجغرافية المعاصرة وأضافوا إلى حدود فارس إلا أن الخريطة التى ذكرناها بها حدود فارس آنذاك كما يلى : أصفهان من الشمال وبحر فارس من الجنوب وكرمان من الشرق والعراق العربى من الغرب . وكانت شيراز أعظم مدنها قاطبة (المؤلف) .

١٨٥ بكل حماس للهجوم / وصاح فى الجيش أيها الجيش لا تجزعوا ، فالعدو يريد الاستيلاء على سفننا لكن الله يريد أن تستولوا على أرض العدو والسفن كذلك .

وكان خليد وجاورد يرجزان ويحاربان بكل تضحية وفداء وقد قتلوا الآلاف وهذا ما كان يرجز به خليد :

يا آل عبد القيس للنزاع　　قد حفل الإمداد بالجراع
وكلهم فى سنن المصاع　　بحسن ضرب القوم بالقطاع

ودارت معركة حامية الوطيس ، ومع أن النصر كان حليفًا للمسلمين إلا أن جزءًا كبيرًا من الجيش قد هلك لأنهم لم يستطيعوا التقدم وعندما أرادوا التقهقر كان العدو قد أغرق السفن ، فاتجهوا مضطرين إلى البصرة عن طريق البر ، ومن سوء حظهم أن سُدت المسالك هناك ، وكان الفرس فى البداية قد سدوا الطرق من كل ناحية وعينوا الجيوش على جميع المنافذ .

وعندما علم عمر بالحملة على فارس غضب غضبًا شديدًا وكتب كتابًا إلى العلاء يهدده فيه وكتب إلى عتبة بن غزوان لكى يجهز جيشًا على الفور لإنقاذ المسلمين ويذهب إلى فارس ، فتقدم عتبة إلى فارس بعد أن أعد جيشًا قوامه اثنا عشر ألفًا على رأسهم أبو سبرة وعسكروا عندما وصلوا هناك حيث يوجد المسلمون ، ومن ناحية أخرى أرسل المجوس النقباء فى كل مكان وجمعوا لهم جموعًا غفيرة تحت قيادة « شهرك » وتحارب الخصمان بكل ما لديهما من قوة وانتصر أبو سبرة فى النهاية وعاد إلى البصرة لأنه لم يكن لديه أمر بالتقدم ، وبعد معركة نهاوند حينما أرسل عمر رضى الله عنه
١٨٦ الجيوش إلى جميع البلاد أمر بالهجوم على فارس أيضًا وعين لها جيوشًا خاصة بها / .

وجعل المجوس « توج » عاصمة لهم وقاموا باستعدادات عظيمة ، لكن عندما انتشرت الجيوش الإسلامية فى المناطق المختلفة اضطروا بدورهم إلى الانتشار وكان هذا بداية لهزيمتهم لذا فتحت سابور وأردشير وتوج واصطخر جميعًا الواحدة تلو الأخرى ، لكن فى أواخر خلافة عمر أى سنة ٢٣ هـ عندما عين عثمان بى أبى وقاص عاملاً على البحرين تمرد شهرك وكان حاكم فارس وانسلخت عنه جميع البلاد المفتوحة ، فولى عثمان أخاه الحكم لهذه المهمة وجمع له جمعًا حاشدًا فتقدم الحكم إلى توج بعد أن فتح

« جزيرة ابركادان » [1] وأقام فيها معسكرًا وبنى المساجد ، ووطن فيها كثيرًا من قبائل العرب ، الذين كانوا يغيرون أحيانًا على المدن الحدودية ثم يعودون وهكذا استولوا على أجزاء كبيرة من أرجان واصطخر وسابور وأردشير ، واستشاط شهرك غضبًا عندما علم بهذا فجمع جيشًا جرارًا وتوجه به إلى توج ووصل به إلى رامشهر ، ومن ناحية أخرى تقدم الحكم وواجهه وقد رتب شهرك صفوف الجيش ترتيبًا دقيقًا ، واستبقى فى مؤخرته كتيبة وأمرها بقتال كل فارس يولى ظهره مدبرًا ، ثم نشبت الحرب واستمرت المعركة زمنًا وانهزم المجوس وقُتل شهرك وأرسل عثمان الجيوش بعد ذلك فى كل صوب وحدب وبهذه المعركة انتشر الرعب فى جميع ربوع فارس ، وكان عثمان يفتح البلاد والممالك حينما اتجه الواحدة بعد الأخرى مثل : جازرون ونونبد جان وأرجان وشيراز وسابور والتى تعتبر من المدن الهامة فى فارس وقد فتحت على يد عثمان نفسه ، كما أرسلت الجيوش إلى فسا ودارابجرد وغيرها فرجعوا ظافرين [2] / . ١٨٧

كرمان [3] سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م

كلف سهيل [4] بن عدى بفتح كرمان وعلى هذا ففى سنة ٢٣ هـ هجم على كرمان بشير بن عمر العجلى الذى كان على مقدمة الجيش فطلب حاكمها النجدة من « قفس » وغيرها من المدن وقابله لكنه هو نفسه قتل فى ميدان المعركة على يد النسير ولما لم يكن هناك ما يعوق تقدمه فقد واصلت الجيوش تقدمها حتى « جيرفت » و« سيرجان » وغنموا منها الإبل والشاة وقد كانت جيرفت المركز التجارى لكرمان وسيرجان من أعظم مدن كرمان قاطبة [5] . .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٧٤ - ١٧٧ (المترجم)

(٢) المرجع السابق : ٤ / ١٧٨ - ١٧٩ (المترجم) .

(٣) اسمها القديم كرمانية وحدودها الأربعة هى : كوهستان فى الشمال وبحر عمان فى الجنوب وسجستان فى الشرق ، وفارس فى الغرب وكانت عاصمتها فى الماضى أسبر (بروسير) ومكانها الآن جيرفت (المؤلف) .

(٤) فى رواية الطبرى : إن فتح كرمان كان على يد عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى . تاريخ الطبرى : ٤ / ١٨٠ (المترجم) .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٨٣ - ٣٨٤ (المترجم) .

سجستان [1] سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م

فتحت هذه المدينة على يد عاصم بن عمرو قاتل أهل سجستان على تخوم بلادهم ثم ولوا هاربين وأخذ عاصم فى إثرهم يتعقبهم حتى « زرنج » وهذا هو الاسم الثانى لسجستان ، فحاصرها فطلب المحاصرون الصلح بعد عدة أيام بشرط أن تعتبر جميع أراضيهم حمى / فقبل المسلمون هذه الشرط ووفاء لهذا الشرط فإن المسلمين كلما كانوا ١٨٨ يخرجون لأمر ما ناحية مزارعهم كانوا يسرعون فى السير خشية أن يلتصق بهم شئ منها . ومن الفوائد العظيمة للإستيلاء على هذا الإقليم هى أنهم استولوا على مفتاح فتح البلدان التى كانت بين السند ونهر بلخ ولهذا فإنهم كانوا يهجمون على تلك البلدان بين الحين والحين [2] .

مكران [3] سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م

عُين الحكم بن عمرو التغلبى لمهمة مكران ، وسار إليها فى عام ٢٣ هـ وأنزل القوات على شاطىء نهر مكران أما ملك مكران الذى كان اسمه « راسل » فقد عبر إليهم النهر بنفسه ورتب الصفوف وانهزم راسل بعد معركة واحدة ضارية واستولى المسلمون على مكران ، وأرسل الحكم عدة أفيال من التى سلبوها إلى دار الخلافة مع رسالة الفتح ، وجاء « صحار العبدى » يحمل رسالة الفتح فسأله عمر عن مكران فقال : « أرض سهلها جبل وماؤها وشل ، وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل والكثير بها قليل » قال عمر : أسجّاع أنت أم مخبر ؟ قال : إننى

---

(١) يطلق العرب اسم سجستان على سيستان وحدودها الأربعة هى : هراة فى الشمال ومكران فى الجنوب والسند فى الشرق وكوهستان فى الغرب وأشهر مدنها زرنج حيث تنمو الفاكهة فيها بكثرة ومساحتها ٢٥ ألف ميل مربع (المؤلف) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤/ ١٨٠ - ١٨١ والبلاذرى : فتوح البلدان : ٣٨٥ (المترجم) .

(٣) يسمى نصف مكران فى الوقت الحالى ببلوجستان ، ويذكر البلاذرى أن فتوحات الفاروق تنتهى عند مدينة ديبل فى السند بينما يذكر الطبرى أن مكران هى آخر الفتوحات (الحدود) لهذا فقد حددنا حدود الفتوحات الفاروقية فى الخريطة عندها (المؤلف) .

أذكر حقائق واقعية ، فكتب عمر للجيوش يأمرها بأن تبقى فى المكان التى وصلت إليه ، لذا تعد مكران آخر حدود فتوحات عمر طبقا لرواية [1] الطبرى / وقد ذُكر للبلاذرى أن الجيوش وصلت إلى المنطقة المنخفضة من الديبل وبلدة تهانة ، وإن صح هذا فإن الإسلام قد دخل السند والهند فى عهد عمر [2] . ١٨٩

فتح خراسان [3] وهزيمة يزدجرد سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م

كتبنا من قبل أن الأحنف بن قيس كان من بين القادة الذين أرسل لهم عمر راية فتح الممالك ، فقد أنعم عليه براية خراسان ، فتوجه الأحنف [4] سنة ٢٢ هـ إلى خراسان وبلغ هراة من الطبسين وبعد أن فتحها سار نحو مروشاهجهان وكان يزدجرد ملك ملوك فارس يقيم بها ، فذهب إلى مرو رود عندما سمع بمجيئهم وكتب يستمد خاقان الصين والسلاطين الآخرين ، واستخلف الأحنف حارثه بن النعمان على مروشاهجان ، وتوجه هو نحو مرو رود فهرب يزدجرد من هناك أيضا ووصل مباشرة إلى بلخ ، وفى تلك الأثناء جاءت جُيوش النجدة من الكوفة وكان على ميمنتها وميسرتها وغيرها من مراكز الجيش كل من علقمة بن النضرى وربعى بن عامر التميمى وعبد الله ابن أبى عقيل الثقفى وابن أم غزال الهمدانى .

فسار الأحنف بالجيش المتحفز وحمل على بلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر ولجأ إلى الخاقان ، وعندما وجد الأحنف أمامه مجالاً خاليًا أرسل الجيوش إلى جميع الأماكن وفتح البلاد من نيسابور حتى طخارستان وجعل مرورود قصبة لها وأقام بها / وكتب إلى عمر

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤/١٨١ - ١٨٢ (المترجم) .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٢٠ (المترجم) .

(٣) طبقا لما ذكره البلاذرى فإن جميع بلاد ماوراء النهر وفرغانه وخوارزم وطخارستان وسجستان تدخل ضمن إقليم خراسان إلا أن حدودها فى الأصل ظلت تتغير فى كل عصر ، وكانت مدنها الشهيرة مثل نيسابور ومرو وهراة وبلخ وطوس وفسا وأبى درد وغيرها بما فيها ماوراء النهر غير عامرة أو مأهولة (المؤلف) .

(٤) فى رواية سيف كان خروج الأحنف إلى خراسان فى سنة ١٨ هـ وقد ذكر الطبرى فتحها فى أحداث سنة ٢٢ هـ . تاريخ الطبرى : ٤/١٦٦ (المترجم) .

١٩٠ بفتح خراسان ودخولها فى حظيرة الإسلام ، ولم يكن عمر يفضل التوسع فى الفتوحات وعندما قرأ الخطاب قال : « لوددت أن يكون بيننا وبين خراسان بحر من نار يحول بيننا » ومع أن عمر أثنى على الأحنف ثناءً جميلاً وقال : الأحنف سيد أهل المشرق ، إلا أنه كتب إليه ألا يتجاوز ما وصل إليه . ومن ناحية أخرى ذهب يزدجرد إلى خاقان فأكرمه وعززه وسار خاقان بجيش كبير مع يزدجرد واتجها نحو خراسان ، وكان الأحنف مقيمًا فى بلخ فى أربعة وعشرين ألفًا ، وعندما علم بمجيئ خاقان سار إلى مرورود وأقام هناك ، ووصل خاقان مرورود مارًا ببلخ وانفصل يزدجرد عن خاقان وسار نحو مرو شاهجان ، وكان الأحنف لا يفضل اللقاء فى الميدان ، فعبر النهر حتى وصل إلى متسع وراءه الجبل فأعد الصفوف وظل الجيشان مصطفين وجهًا لوجه زمنًا ، وكان العجم يختلفون إلى ميدان القتال صباحًا ومساءًا متأهبين بالعدة والعتاد ، وعندما لا يخرج أحد للقائهم كانوا يعودون بغير قتال ، وكان من عادة الأتراك أن يخرج منهم ثلاثة أبطال بالتناوب إلى ميدان القتال وكل يضرب بطبلة وبوقه ثم يتحرك باقى الجيش ، وذات يوم ذهب الأحنف بنفسه إلى ميدان القتال فخرج إليه أحد الأتراك بالطبل والعلم طبقًا لعادتهم فهجم عليه الأحنف واستمر النزال زمنًا وفى النهاية قتل الأحنف التركى برمح فسقط على الأرض فقال الأحنف بحماس : -

إن على كل رئيس حقًا   أن يخضب الصعدة أو يندقا [1]

١٩١ وخرج بطلان تركيان آخران طبقًا للتقاليد وقتلا على يد الأحنف / وجاء الخاقان بنفسه إلى الميدان ورأى جثث فرسانه الثلاثة وكان المنظر يبعث على التشاؤم فاشتد به الأمل وقال للجيش ليس علينا أن نحمل عن الآخرين بلاءهم سدى وهكذا أمرهم بالرحيل فورًا .

وكان يزدجرد يحاصر مرو شاهجان فجاءه هذا الخبر فيأس من النصر وحمل جواهره وخزائنه واتجه إلى التركستان ، وعندما رأى أهل البلاط أن ثروة فارس وخزائنها تضيع أمام أعينهم منعوه وعندما لم يسمع لرأيهم قاتلوه واستولوا على جميع الأموال والأمتعة ، وصل يزدجرد عند خاقان بلا مال أو متاع ، وظل مقيمًا فى فرغانه

(١) روى الطبرى هذا المصرع هكذا « أن يخضب الصعده أو تندقا) تاريخ الطبرى : ٤ / ١٦٩ (المترجم) .

التى كانت قصبة الخاقان حتى آخر خلافة عمر ، وكتب الأحنف إلى عمر رسالة بالفتح ، وعندما وصل الرسول إلى المدينة جمع عمر الناس كلهم وبشرهم بالنصر وخطب فيهم خطبة مؤثرة قال فى آخرها : « لقد دالت اليوم دولة المجوس فلا يستطيعون أن يصيبوا الإسلام بأى أذى الآن ، لكن إذا لم تثبتوا على العمل الطيب فسيستبدل الله بكم غيركم » [1] .

فتح مصر سنة ٢٠هـ / ٦٤١

مع أن فتح مصر يدخل فى نطاق المآثر الفاروقية [2] إلا أن عمرو بن العاص كان أساس هذا الفتح فقد كان يقوم بأعمال تجارية قبل الإسلام وكانت مصر مسرحًا لتجارته وربما لم يكن يخطر بباله هذه الفكرة المتعلقة بمصر فى ذلك الوقت ، إلا أن صورة خصوبة أراضيها ونضارتها كانت ماثلة أمام عينيه دائمًا وقد إلتقى عمر به فى سفره الأخير للشام / وتحدث عن مصر فرفض أولاً على سبيل الاحتياط لكنه وافق فى النهاية لإصراره وعقد له أربعة آلاف جندى ورغم هذا لم يطمئن قلبه ، وقال لعمرو : « سر باسم الله فإن وصلك خطابى قبل أن تصل مصر فارجع » وكان قد وصل العريش عندما جاءه كتاب عمر ، يمنعه فيه من التقدم ، لكن لما كان أمرًا مشروطًا قال عمرو الآن نحن قد دخلنا فى حدود مصر [3] .

١٩٢

فمضى من العريش حتى وصل « الفرما » وتقع هذه المدينة على ساحل بحر

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٧٠ - ١٧٣ والبلاذرى : فتوح البلدان : ٣٩٤ (المترجم) .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٥٦٤ - ٥٦٨ (المترجم) .

(٣) ذكر المقريزى وغيره من المؤرخين أن الرسول التقى بعمرو فى رفح فاعتقد أنه ربما يمنعه من التقدم فلم يأخذ الخطاب من الرسول وقال أسرع سآخذه عندما أصل إلى منزل ، وعندما اقترب من العريش أخذ الخطاب وقرأه وقال : لقد كتب أمير المؤمنين أنه « إذا لم تكن وصلت مصر لا تدخلها لكننا الآن فى حدود مصر » فلا داعى لمثل هذه التهم التى توجه إلى عمرو أولاً فقد ذكر البلاذرى وغيره أن تلقى الخطاب فى العريش ولا حرج فى هذا الأمر لأن رفح نفسها داخل مصر (المؤلف) .

- المقريزى : خطط المقريزى : طبعة دار التحرير : ١ / ٥٤٠ (المترجم) .

الروم ، ومع أنها غير عامرة الآن إلا أنها كانت عامرة آنذاك ، وكانت تعد من المدن العظيمة لأنها كانت مزارًا لجالينوس ، وكان الجيش الحكومى يقيم فيها فخرج للقتال من المدينة ، وظلت المعركة محتدمة شهرًا وانهزم الروم فى النهاية ، وسار عمرو من الفرما وفتح أم دنين وبلبيس حتى وصل الفسطاط ، وكانت « الفسطاط » فى ذلك الوقت صحراء جرداء وهذا الاسم كان يطلق على قطعة الأرض التى كانت تقع ما بين نهر النيل وجبل المقطم وكانت هناك فى ذلك الوقت مساحات للمراعى ومزارع للزراعة وكانت هناك القلعة الحكومية ويعيش فيها حكام دولة الروم المقيمون فى مصر ، وعلاوة على هذا فإن هذه القطعة كانت تقع على نهر النيل فكانت المراكب والسفن ترسى على بوابة القلعة / ولهذه الأسباب كانت مكانًا مناسبًا جدًا للمصالح الحكومية ، لذا جعلها عمرو نصب عينيه منذ أول وهلة ثم بدأ يستعد لمحاصرتها . ١٩٣

وكان المقوقس الذى كان حاكمًا على مصر ويدفع الخراج لقيصر قد وصل القلعة قبل عمرو بن العاص وأخذ يعد العدة للمعركة ، وعندما رأى عمرو قوة القلعة وقلة عدد جيشه ، كتب إلى عمر يستمده ، فأرسل له عشرة آلاف جندى وأربعة من القادة وكتب له فى الرسالة « إن كل قائد من هؤلاء القادة يعدل ألف فارس وهم [1] الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن عمرو ومسلمة بن مخلد . وعين عمرو الزبير قائدًا لمنزلته ومكانته وعزا إليه أمر الحصار وغيره من الأمور ، فركب الزبير الفرس وطاف حول الخندق ، وعين فى كل مكان يحتاج إليه عددًا مناسبًا من الفرسان والرجلة وبدأ إلى جانب هذا يرمون عليهم الحجارة بالمنجانيق واستمر على هذا سبعة أشهر كاملة ولم يصل الأمر إلى نصر أو هزيمة ، وفى يوم ضاق الزبير وقال : [2] اليوم أقدم نفسى فداء للمسلمين ثم أمسك بالسيف المسلول ووضع سُلمًا وصعد سور القلعة وعاونه نفر من الصحابة ، وعندما صعد السور كبروا معًا تكبيرة عظيمة وكبر معهم كل الجيش فتزلزلت أرض القلعة ، ولما علم القبط أن المسلمين اقتحموا القلعة ، هربوا على غير هدى وفى هذه الناحية نزل الزبير من على السور وفتح باب القلعة فاقتحمها سائر الجيش وطلب المقوقس الصلح بعد أن رأى هذا وأعطى الأمان للجميع فى نفس الوقت [3] .

---

(١) المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٥٤٢ - ٥٤٣ (المترجم) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٠٧ (المترجم) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢١٤ - ٢١٥ (المترجم) .

وذات يوم دعا الأقباط عمرو بن العاص وقادة الجيش إلى مأدبة عظيمة فقبل عمرو ابن العاص الدعوة وذهب مصطحبًا معه شعراء مصقعين / .

١٩٤

وفى اليوم الثانى دعا عمرو هؤلاء الناس فجاء الروم وأقاموا مأدبة فخمة وجلسوا على كراسى من القطيفة واشترك المسلمون معهم فى الطعام كما أمرهم عمرو من قبل وكانوا فى ملابس عربية بسيطة وجلسوا للطعام طبقًا لعادة العرب وطريقتهم ، وكان الطعام بسيطًا كذلك ، أى لحمًا وخبزًا وبدأ العرب يأكلون فكانوا يغمسون قطع اللحم فى المرق بقوة وينهشونها بأسنانهم فتتطاير قطرات المرق على ملابس الروم ، وبعد الأكل قالت الروم : أين أولئك الناس الذين شاركونا المأدبة بالأمس ؟ أى أنهم لم يكونوا أجلافًا عديمى الكياسة مثلهم . قال عمرو : كان أولئك أصحاب الرأى وهؤلاء هم الجنود [١] .

ومع أن المقوقس استكتب معاهدة الصلح لمصر كلها إلا أن هرقل أبدى سخطه الشديد عندما علم وأرسل له رسالة قال فيها : إذا لم يكن الأقباط يستطيعون أن يحاربوا العرب فإن عدد الروم ليس بقليل فأرسل فى ذلك الوقت جيشًا عظيمًا وصل إلى الإسكندرية استعدادًا للقاء المسلمين [٢] .

* * *

(١) المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٥٥٠ - ٥٥١ (المترجم) .

(٢) المرجع السابق : ٣٠٣ (المترجم) .

بعد فتح الفسطاط أقام عمرو فيها عدة أيام وكتب إلى عمر من هناك رسالة بالفتح ويستأذنه فى إرسال الجيوش لفتح الإسكندرية وجاءت الموافقة من هناك فأمر عمرو الجيش بالرحيل ، ونصبت اتفاقًا إحدى الحمامات [١] عشها فى فسطاط عمرو ، ووقع نظر عمرو عليها عند رفع الخيمة فأمر أن تبقى كما هى فى مكانها وقال : نحن لا نؤذى ضيفنا ، لأن كلمة فسطاط فى اللغة العربية تطلق على الخيمة ، وبعد أن عاد عمرو من الإسكندرية أسس مدينة بالقرب من هذه الخيمة واشتهرت / المدينة ذاتها باسم الفسطاط وتتسمى بهذا الاسم حتى اليوم . ١٩٥

على كل حال اتجه عمرو إلى الإسكندرية فى سنة ٢١ هـ وحاولت المستعمرات الرومانية التى كانت بين الفسطاط والإسكندرية سد طريقه فجمعت لهذا جيشًا عظيمًا فيه آلاف من الأقباط وتوجهوا نحو الفسطاط لكى يوقفوا المسلمين هناك وتواجه الخصمان فى « كريون » فاستشاط المسلمون غضبًا وحاربوهم بشدة وقتل عدد لا حصر له من الأقباط وبعد ذلك لم يجرؤ أحد على التعرض لهم ، ولم يسترح عمرو إلا بعد أن وصل الإسكندرية ، وكان المقوقس يريد الصلح على الجزية ، لكنه لم يتمكن خوفًا من روما ، ومع هذا التمس تحديد مهلة للصلح فأبى عمرو ، فأمر المقوقس جميع رجال المدينة أن يحملوا السلاح لتهديد المسلمين وأمرهم بأن يقفوا على سور القلعة مصطفين بمواجهة المسلمين وقد شمل الأمر النساء كذلك فوجهن وجوههن تجاه المدينة حتى لا يُعرفن فأرسل عمرو رسالة إليه يقول فيها : « نحن نعلم هدفك ، ولكنك لا تعلم أن البلدان التى فتحناها لم نفتحها بكثرة عدد الجيش وتعلم أيضًا الجيش والعتاد الذى جاء به هرقل للقائنا »[٢] قال المقوقس : « حقًا إنهم العرب الذين أجبروا ملكنا على التقهقر إلى القسطنطينية » وغضب قادة الروم لهذا غضبًا شديدًا ووبخوا المقوقس ، وبدءوا الاستعداد للحرب .

---

(١) ذكر المقريزى أن إحدى اليمامات قد أفرخت وليست إحدى الحمامات كما ذكر شبلى (المترجم) .

(٢) فتوح البلدان : ٢٢٠ (المؤلف) .

ولم يوافق المقوقس على الحرب فأخذ عهدًا من عمر هو « إننى منفصل عن الروم ويجب ألا ينال قومى (أى القبط) / الأذى على أيديكم » ولم يكتف الأقباط بهذا فحسب ، أى أن يبقوا بعيدين عن الطرفين فى هذه المعركة ، بل ساعدوا المسلمين فقد خرجوا يمهدون الطرق ويصلحون الجسور أمام الجيش من الفسطاط حتى الإسكندرية بل فى حصار الإسكندرية ذاتها أمدوا المسلمين بالمؤن وغيرها ، وكان الروم يخرجون للقتال من القلعة أحيانًا وفى يوم جرت معركة ضارية وتعدى الأمر من السهام والنبال إلى السيوف وبرز رجل من الروم وقال : هل من مبارز يخرج للقائى ؟ فتقدم مسلمة بن مخلد بجواده وطرح الرومى على الأرض وكان يريد قتله بالسيف فجاء فارس من الخلف وأنقذه فغضب عمرو غضبًا شديدًا وقال غير مبال بمكانته « لا داعى لمجيء الجبان إلى أرض المعركة » فاستاء مسلمة إساءة بالغة لكنه لم ينطق ببنت شفة إيثارًا للمصلحة العامة . ١٩٦

واستمرت ضراوة المعركة وفى النهاية حمل عليهم المسلمون بكل ما لديهم من قوة وضغطوا على الروم حتى تراجعوا ودخلوا فى القلعة واستمرت المعركة ردحًا من الوقت فى صحن القلعة وتماسك الروم فى النهاية وحملوا حملة واحدة فأخرجوا المسلمين من القلعة وأوصدوا الأبواب إلا أن عمرو بن العاص ومسلمة وشخصين آخرين بقوا داخل القلعة فأراد أن يأسروا هؤلاء الناس أحياء ، لكنهم حينما رأوا أنهم يريدون الموت بفداء قالوا لهم : ليخرج واحد من كل طرف للنزال ، فلو قتل رجلنا سوف نترككم تخرجوا من القلعة ، وإن قتل رجلكم فعليكم جميعًا أن تلقوا السلاح فوافق عمرو بن العاص بسرور وأراد الخروج بنفسه للقتال / فمنعه مسلمة وقال له : أنت أمير الجيش ولو أصابك مكروه لحدث خلل فى النظام ، ثم ركب جواده وأمسك الرومى بسلاحه كذلك وظلا يتعاركان زمنًا ، وفى النهاية قتله مسلمة بضربة جعلت الرومى جثة هامدة على الأرض ولم يدر الروم أن الأمير معهم ففتحوا باب الحصن طبقًا لقرارهم فخرجوا جميعًا سالمين وطلب عمرو من مسلمة العفو عما ارتكبه من إساءة له فسامحه بصفاء سريرة[1] . ١٩٧

---

(١) المقريزى : صفحة ١٦٤ - ١٦٥ المجلد الأول (المؤلف) .
- المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٣٠٦ (المترجم) .

وكان عمر يزداد اضطرابًا كلما طال الحصار فكتب إلى عمرو يقول : « ربما أصبحتم من محبى الدنيا كالنصارى بعد أن أقمتم هناك وإلا ما تأخر الفتح هذا التأخير ، ففى اليوم الذى يصل فيه خطابى اجمع الجيش واخطب فيهم وحرضهم على الجهاد ثم أهجم عليهم ، وقدم القادة الذين كنت قد أرسلتهم فى صدر الجيش وليهجم الجيش كله على العدو مرة واحدة » .

فجمع عمرو سائر الجيش فى مكان واحد وخطب فيهم ، فجددت هذه الخطبة المؤثرة من حماسهم الفاتر وكان عبادة بن الصامت قد ظل لسنوات فى صحبة رسول الله - ﷺ - فاستدعاه وقال له : أعطنى رمحك ونزع عمامته عن رأسه وثبت فيها الرمح وسلمها له وقال هذه راية القائد فأنت الأمير اليوم وجعل الزبير بن العوام ومسلمة بن مخلد على طليعة الجيش وتقدم بهذا العتاد والعدة إلى القلعة وفتحت المدينة من الهجوم الأول ، وفى ذلك الوقت استدعى عمرو معاوية بن حديج وقال له : سر إلى أمير المؤمنين بأقصى ما تستطيع من سرعة وبشره بالفتح ، فامتطى معاوية الناقة وأسرع حتى وصل المدينة فى وقت الظهيرة تمامًا ، وظن أن هذا هو وقت الراحة فاتجه مباشرة إلى / ١٩٨ المسجد النبوى قبل الذهاب إلى باب الخلافة وبالصدفة مرت جارية عمر من هناك وعندما رأته فى هيئة المسافر ، سألته من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ فقال من الإسكندرية فذهبت وأخبرت عمر فى الحال ثم عادت وقالت عليك بأمير المؤمنين فإنه يستدعيك ، ولم يستطع عمر الانتظار فاستعد للذهاب بنفسه ، وكان لا يزال ممسكًا بردائه حتى وصل معاوية وعلم بالنصر فخر على الأرض وسجد سجود الشكر ، ونهض فجاء المسجد وأمر بإعلان أن « الصلاة جامعة » فتدفقت جموع المدينة ، وذكر معاوية أخبار الفتح أمام الجميع ، ثم نهض من هناك وذهب مع عمر إلى منزله ، فسأل عمر الجارية قائلاً : هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت زيتون ووضعته أمام الضيف . وقال له : لماذا لم تأت عندى ؟ قال معاوية ظننت أن هذا هو وقت الراحة وربما كنت نائمًا قال : واأسفاه أتظن بى هذا ؟ لئن نمت النهار فمن ذا الذى يحمل عبء الخلافة ؟ [1] .

عاد عمرو إلى الفسطاط بعد فتح الإسكندرية وأراد بناء المدينة فقسمها أقسامًا

---

(١) أخذت هذه التفاصيل من المقريزى (المؤلف) - المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨ (المترجم) .

منفصلة وقام بتأسيسها وشيدت المبانى طبقًا للطرز العربية البسيطة وسيأتى تفصيل ذلك فى الجزء الثانى .

وبالرغم من أنه لم يعد هناك أى عدو أمامهم بعد الفسطاط والإسكندرية إلا أن الروم كانوا منتشرين فى جميع الأقاليم فأرسل الجيوش الصغيرة إلى كل مكان حتى لا يبقى هناك احتمال لأى خطر فى المستقبل / فوجه خارجه بن حذاقة العدوى إلى الفيوم وأشمونين وأخميم وبشرودات ومعيد فقام بجولة فى جميع أجوارها ، وقبل الناس أداء الجزية بسرور فى كل مكان وأحضر عمير بن وهب الجمحى مدن : تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوهبر [١] ، وفتح عقبة بن عامر الجهنى سائر مناطق مصر السفلى [٢] . ١٩٩

ولما كان قد أسر فى هذه المعارك عدد كبير من القبط والروم ، لذا كتب عمرو إلى دار الخلافة يسأله ماذا يفعل بشأنهم فرد عليه عمر قائلاً : أن استدعهم وخيرهم فى أن يكونوا مسلمين أو يبقوا على دينهم فإن قبلوا الإسلام يحصلون على جميع الحقوق التى يحصل عليها المسلمون ، وإلاّ يؤدوا الجزية التى تؤخذ من جميع الذميين ، فجمع عمرو جميع الأسرى فى مكان واحد وكانوا يزيدون عن الآلاف ، كما استدعى القادة النصارى كذلك ، وجلس المسلمون والنصارى بالترتيب كل على حدة متواجهين وبينهم جماعة الأسرى ، وقرأ عمرو عليهم أمر الخلافة فأسلم كثير من الأسرى الذين عاشروا المسلمين ووقفوا على مبادئ الإسلام ، كما ظل الكثيرون منهم على دينهم وكان كلما شهد مصرى الشهادتين يصيح المسلمون بسعادة غامرة (الله أكبر) وإذا أعلن نصرانى بقاءه على دينه علت صيحات الفرحة من النصارى ، وجزع المسلمون من ذلك جزعًا شديدًا حتى كانت تنساب منهم الدموع ، واستمروا على هذا ردحًا من الوقت ، وكان كلا الفريقين ينجح بقدر ما ضُم إلى جانبه من الجانب الآخر [٣] / . ٢٠٠

---

(١) الصواب مدينة « بوصير » وهى مدينة بالقرب من سمنود على نيل مصر . خطط المقريزى : ١ / ٣٠٨ (المترجم) .

(٢) فتوح البلدان صفحة ٢١٧ (المؤلف) .

- البلاذرى : فتوح البلدان : ٢١٨ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٠٥ - ١٠٦ (المترجم)

شهادة عمر فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ الموافق ٦٤٤ م

فترة الخلافة كلها عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام

كان فى المدينة المنورة غلام فارسى يُدعى فيروز ، ويكنى بأبى لؤلؤة ، جاء ذات يوم إلى عمر يشتكى ويقول : إن سيدى المغيرة بن شعبه قرر علىَّ خراجًا كثيرًا فلتخففه ، فسأله عمر عن مقداره . فقال : درهمان فى كل يوم (سبعة آنه [١] تقريبًا) قال عمر وما صناعتك ؟ قال أنا نجار ونقاش وحداد ، فقال : ما أرى خراجك بكثير بالنسبة لتلك الحرف . فانصرف فيروز وهو يضمر الحنق والغضب فى قلبه .

وفى اليوم الثانى خرج عمر لصلاة الفجر ، فدخل فيروز المسجد وفى يده خنجر [٢] وكان عمر قد وكل بعض الناس بتسوية الصفوف ، وكانت إذا قامت الجماعة وسويت الصفوف أتى عمر ليؤم الناس ، وفى هذا اليوم أيضًا استوت الصفوف حسب العادة فتقدم عمر للإمامة وعندما بدأ الصلاة خرج فيروز من مكانه فجأة وطعنه ست طعنات إحداهن تحت سرته ، فأمسك عمر على الفور بيد عبد الرحمن بن عوف وأوقفه مكانه وسقط هو من صدمة الجرح .

وصلى عبد الرحمن بن عوف فى هذه الحالة وأمامه عمر ملقى مجروحًا ، وطعن فيروز أناسًا آخرين ولحقوا به فى النهاية ولكنه قتل نفسه [٣] .

٢٠١ وحمل الناس عمر وأدخلوه داره فسأل أول ما سأل وقال : من قتلنى ؟ / قال الناس فيروز . قال : « الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل ينسب للإسلام » وظن الناس أن الجرح ليس عميقًا ، وسيشفى غالبًا ، لذا استدعوا طبيبًا فسقاه نبيذًا ولبنًا فكان كلاهما يخرج من الجرح فتأكد الناس عندئذ أنه لن يبرأ من هذا الجرح [٤] ، فقال له الناس لتختر الآن خليفتك ؟

---

(١) آنه : تساوى قرشًا مصريًا ، والروبية تعادل عشرة آنه تقريبًا (المترجم)

(٢) المسعودى : مروج الذهب : ١ / ٣٢٩ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٩٠ - ١٩١ (المترجم)

(٤) المرجع السابق ص ١٩٣ (المترجم) وأيضًا مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١ / ٢٨٢ - ٢٨٣ (المترجم) .

فاستدعى عمر ابنه عبد الله وقال له اذهب إلى عائشة وقل لها : إن عمر يستأذنك أن يدفن بجوار رسول الله فجاء عبد الله إلى السيدة عائشة وهو يبكى فأبلغها تحيات عمر ورسالته ، قالت السيدة عائشة « كنت أريد الاحتفاظ بهذا المكان لى ، لكنى اليوم سأعطيه لعمر وأفضله على نفسى » . وعاد عبد الله فأخبر الناس عمر ، فخاطب ابنه قائلاً : ماذا أحضرت ؟ قال : كان الذى تريده ؟ فقال عمر كان هذا أعظم ما أتمنى .
وكان اختيار الخليفة فى ذلك الوقت أهم عمل فى حق الإسلام ، فطلب الصحابة جميعًا من عمر أن يفصل فى هذا الأمر ، وكان عمر يفكر كثيرًا فى أمور الخلافة ، وكان يفكر فيها أكثر ما يفكر ، وقد رآه الناس مرارًا فى هذه الحالة جالسًا منعزلاً عن الجميع مستغرقًا فى التفكير ، فسألوه فاتضح أنه حائر فى أمر الخلافة .

وبعد فترة من التفكير والإمعان لم يثبت فى ذهنه شخص يختاره ، وكان كثيرًا ما يخرج من فمه أهه بلا تكلف / ويقول : واأسفاه لا يبدو هناك أحد يحمل هذا العبء الثقيل . ٢٠٢

وقد وقع اختياره فى ذلك الوقت على ستة أشخاص من بين جميع الصحابة وهم : عثمان وعلى والزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، إلا أن عمر وجد فى كل واحد منهم نقصًا [1] وقد ذكرها / فى مواضع مختلفة وقد ذكر الطبرى ٢٠٣

---

(١) مع أننا لم نكتب ماينسب لعمر والصحابة من عيوب ونقد بطريقة مهذبة ، لكن ليس فيها محل للنقاش والجدل ، ولا ريب فيما تناقلته كتب التاريخ عامة من النقد الموجة إلى علىّ على لسان عمر رضى الله عنهما وهو أن فى « مزاجه دعابة ، فيبدو من هذه الملاحظة أن عليا كرم الله وجهه كان متلطفا لكن لم يكن من كبار المتلطفين .

والحقيقة أن علاقات علىّ كانت معقدة شائكة مع قريش إلى حد ما ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تحنى رأسها أمامه ، وقد نقل الطبرى آراء عمر فيما يتعلق بهذه العلاقة على هيئة حوار ، نذكرها فى هذه المناسبة ربما نعلم منها السر المكنون لأفكار عمر ، فقد كان الحوار مع عبد الله بن عباس الذى كان من قبيلة سيدنا علىّ ومن أعوانه المؤيدين له :-

- عمر - رضى الله عنه :- ياعبد الله بن عباس ، مامنع عليا من الخروج معنا ؟
- عبد الله بن عباس :- لا أدرى ؟
- عمر : أبوك عم رسول الله وأنت ابن عمه فما منع قومكم منكم ؟
- عبد الله بن عباس :- لا أدرى ؟

=

وغيره من المؤرخين هذه الملاحظات بالتفصيل ، وكان يعلم أن عليًا أفضل الصحابة المذكورين عاليًا ، لكنه لم يستطع أن يحسم الأمر لصالحه / لبعض الأسباب [1] . ٢٠٤

وخلاصة القول أنه عندما أصر الناس على ذلك قال : « من يكن أكثر الآراء له من بين الأشخاص الستة فاختاروه خليفة » .

= - عمر : لكنى أدرى ، قومكم يكرهون ولايتكم لهم .

- عبد الله بن عباس :- لم ؟!!

- عمر : يكرهون : أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة ، لعلكم تقولون إن أبا بكر حرمكم من الخلافة ، لا والله ، أن أبا بكر قد جاء بأحزم ماحضره من أحد ولو جعلها لكم مانفعكم مع قربكم .

والحوار الثانى : هو أكثر تفصيلا من الحوار الأول ففيه بعض من الحوار الذى جرى من قبل وفيه أيضا نواح جديدة هى :-

- عمر : هيهات ياعبد الله بن عباس ، قد كانت تبلغنى عنك أشياء كنت أكره أن أفرك عنها فتزيل منزلتك منى .

- عبد الله بن عباس : ماهى ؟

- عمر : بلغنى عنك أنك تقول إن الناس صرفوا عنا الخلافة حسدًا وظلمًا .

- عبد الله بن عباس : لا أستطيع أن أقول ظلمًا ، لأن هذا الأمر لا يخفى على أحد ، لكن حسدًا فأى عجب فى هذا ، فابليس حسد آدم ونحن أولاده المحسودون فما العجب ؟

- عمر : هيهات فإن قلوب بنى هاشم أبت إلا حسدا وضغنا لا يزول .

- عبد الله بن عباس لاتقل هذا الكلام ، فالرسول هاشمى كذلك .

- عمر : إليك غنى .

- عبد الله بن عباس : هذا أفضل .

- انظر تاريخ الطبرى صفحة ٢٧٦٨ حتى ٢٧٧١ (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤/٢٢٢ - ٢٢٤ (المترجم) .

وعلاوة على هذه الحوارات فإنكم ستعرفون من هذه الأحداث أيضا أن الناس كانوا يبدون آراءهم بشجاعة وبلا خوف فى عهد عمر المبارك ، ولهذا السبب فى الغالب كان عمر نفسه يريد نشر الحرية وقول الحق بين الناس .

(١) الطبرى : صفحة ٢٧٧٧ (المؤلف)

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٣٠ (المترجم) .

ويمكن أن ندرك من هذا مدى ما كان يفكر فيه عمر من خير وصلاح للدولة والرعية ، فأثناء حالة المعاناة والألم ظل فكره مشغولاً بقدر ما كانت تسعفه قواه وحواسه وقال مخاطبًا الناس : أوصى الشخص الذى يختار خليفة أن يرعى حقوق خمس فرق هى : المهاجرون والأنصار والأعراب وأهل العرب الذين ذهبوا إلى المدن الأخرى واستقروا بها ، وأهل الذمة (أى المسيحيين واليهود والمجوس الذين كانوا من رعايا الإسلام) ثم صرح بحقوق كل فرقة فقال هذه الكلمات فى حق أهل الذمة « أوصى الخليفة من بعدى أن يعتنى بأمر الله وأمر رسول الله أى يوفى ما أقر به لأهل الذمة بأن يحاربوا عدوهم وألا يكلفوهم بما لا طاقة لهم به » .

وعندما انتهى من أمور الرعية صب اهتمامه على أموره الشخصية ، فاستدعى ابنه عبد الله وقال : كم علىَّ من دين ؟ قال : ستة وثمانون ألف درهم . قال إن استطعت أن تؤديه من مالى / فخيرًا وإلا فسل بنى عدى ، وإذا لم توف فسل قريشًا ولا ترهق الآخرين عدا قريش . وهذه رواية صحيح البخارى (انظر كتاب المناقب باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان) إلا أن عمر بن شبه قد روى فى كتابه المدينة بسند صحيح أن نافعًا غلام عمر كان يقول : « كيف يمكن أن يكون على عمر دين ؟ مع أن أحد ورثته قد باع نصيبه من الإرث بمائة ألف » [1] .

٢٠٥

والحقيقة أن عمر اقترض ستة وثمانين ألف درهم ، لكنها سددت عندما بيع بيته الذى كان يسكن فيه ومعاوية هو الذى اشتراه وهذا البيت كان يقع بين باب السلام وباب الرحمة ، وقد وفى الدين بهذه الطريقة ، وقد ظل هذا البيت فترة من الوقت معروفًا باسم دار القضاء ، والواقعة مذكورة بالتفصيل فى « خلاصة الوفاء فى أخبار دار المصطفى » [2] .

وتوفى عمر [3] بعد ثلاثة أيام ودفن يوم السبت من غرة المحرم ، وصلّ صُهَيب

(١) انظر فتح البارى طبعة مصر - المجلد السابع صفحة ٥٣ (المؤلف) .

(٢) انظر الكتاب المذكور طبعة مصر صفحة ١٧٩ و ١٢٩ (المؤلف) .

(٣) قتل عمر سنة ثلاث وعشرين من ذى الحجة وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة كسن النبى وأبى بكر حين توفى . أنظر ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة : ٢ / ٢٦٧ - ٤٧٠ والمسعودى : التنبيه والأشراف : ٢٩٢ (المترجم) .

صلاة الجنازة ودفنه عبد الرحمن وعلى وعثمان وطلحة وسعد بن أبى وقاص
٢٠٦ وعبد الرحمن بن عوف . وبذلك غربت شمس العالم المضيئة فى الثرى / .

* * *

(تم بحمد الله تعالى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

الجزء الثانى



نظرة إجمالية على الفتوحات

لقد قرأتم فى الجزء الأول تفاصيل الفتوحات ، ولعلها تركت فى قلوبكم أثرًا قويًا لما كان لمسلمى ذلك العصر من حماس وهمة وعزيمة وثبات ، ولعلكم حينما كنتم تسمعون قصة الأسـلاف لم تكترثوا بأن تنظروا فى هذه الأحداث نظرة فلسفية للتاريخ .

أما المؤرخ الذكى فإنه (بعد سماع هذه الأحداث) فسوف تنبعث فى داخله على الفور عدة أسئلة هى : كيف طوت فئة قليلة من سكان الصحراء صفحات دولتى فارس والروم ؟ وهل هذه ظاهرة مستثناة فى تاريخ العالم ؟ وأخيرًا ما أسبابها ؟ ألا يمكن تشبيه هذه الأحداث بفتوحات الإسكندر وجنكيز خان ؟ وكم كان نصيب القائم بأمر الخلافة فيما حدث ؟ نريد فى هذه المناسبة الإجابة على هذه الأسئلة ومن الضرورى قبل أن نجيب عليها أن نعرف – بإيجاز شديد – مدى اتساع رقعة الفتوحات الفاروقية وما حدودها الأربعة .

اتساع الفتوحات الفاروقية :

إن المساحة الكلية للبلاد التى قام عمر بفتحها (٢٢٥١٠٣٠) ميلاً مربعًا أى (١٠٣٦) ميلاً من الناحية الشمالية لمكة المكرمة / و(١٠٨٧) ميلاً من ناحية الشرق و(٤٨٣) ميلاً من ناحية الجنوب ، أما ناحية الغرب فكانت غير جديرة بالذكر لأن حدود الحكومة كانت حتى جدة فقط .

وهذه الرقعة كانت تشتمل على الشام ومصر والعراق والجزيرة وخوزستان والعراق العجمى وآرمينية وآذربيجان وفارس وكرمان وخراسان ومكران ويدخل فى نطاقها جزء صغير من بلوجستان أيضًا ، وكان قد حمل فى سنة ٢٠هـ على آسيا الصغرى التى يطلق عليها العرب اسم « الروم » لكنها غير جديرة لإدراجها ضمن فهرس الفتوحات . لقد كانت هذه الفتوحات كلها تخص سيدنا عمر وقد تمت جميعًا فى عهده الذى يزيد عن عشر سنوات بقليل .

عوامل الفتح طبقًا لآراء المؤرخين الأوربيين :

لقد أجاب المؤرخون الأوربيون على السؤال الأول وهو أن مملكتى فارس والروم فقدا أوج مجدهما ، فقد اختل نظام الدولة فى فارس تمامًا بعد خسرو برويز لأنه لم يكن هناك أى شخص جدير يصلح أحوال الدولة وكانت المؤامرات قد تفشت بين أعضاء البلاط وأركان الدولة ، وعن طريق تلك المؤامرات التى حدثت بسبب التغيير فى ولاية العرش باستمرار فإنه فى غضون ثلاث أو أربع سنوات صار الحكم فى أيدى ستة أو سبعة من الملوك ثم خرج من أيديهم ، وكان هناك سبب آخر وهو أن فرقة المزوكية قد اشتد أمرها قبل أنوشيروان بقليل وكانت هذه الجماعة تميل إلى الإلحاد والزندقة ، ومع أن أنوشيروان قضى على هذا المذهب بالسيف لكنه لم يستطع أن يستأصله تمامًا وعندما وطئت أقدام الإسلام أرض فارس اعتبر أصحاب هذه الفرقة المسلمين أنصارًا لهم لعدم تعرضهم لأى مذهب أو ديانة / حتى إن فرقة النساطرة وهم من النصارى الذين لم يجدوا مأوى لهم فى أى حكومة وجدوا أمنهم فى ظل الإسلام بعيدًا عن ظلم المعارضين وجورهم ، وهكذا فقد حصل المسلمون على النجدة والعون من هاتين الفرقتين الكبيرتين .

٣

أما دولة الروم فقد تسرب إليها الضعف ، ومع هذا كانت الخلافات والنزاعات فى المسيحية على أشدها فى تلك الأيام ، ولأن الدين كان حتى ذلك الوقت له دخل فى نظام الحكم لذا لم يكن تأثير هذا النزاع محدودًا بالأفكار الدينية فحسب بل إن الدولة ذاتها قد ضعفت بسببه .

خطأ رأى المؤرخين الأوربيين :

هذه الإجابة لا تخلو من الحقيقة ، إلا أن المغالطة فى الاستدلال والزيف أكثر بكثير من الحقيقة وهذا هو الأسلوب الخاص بالأوربيين ، فلا شك أن دولتى الفرس والروم لم تكونا فى ذلك الوقت فى أوج قوتهما الحقيقية ، ويمكن أن نستنتج من هذا أنهما كانتا لا يستطيعان أن تواجها مملكة قوية أما أن يُمزقا على يد قوم بلا عدة أو عتاد كالعرب فهذا أمر لا يمكن أن يستنتج مهما كانت حالة الفرس والروم فقد كانتا بارعتين فى فنون الحرب بدليل أن الكتب التى كتبت عن قواعد الحرب والأصول الخاصة بها والتى توجد حتى الآن ، ظلت رائجة بطريقة عملية عند الروم وإلى جانب هذا لم يعترها أى نقص فى

كثرة الجيش وتنوع آلات الحرب ووفرة المؤن وكثرة العدة والعتاد وعلاوة على هذا كله فهى لم تخرج للهجوم على دولة أخرى بل ظلت فى بلدها وفى قلاعها وخطوطها الدفاعية تدافع عن ترابها . وفى عهد خسرو برويز الذى كانت إيران فيه فى أوج شوكتها وشبابها وقبل هجوم المسلمين بسنين قليلة حمل قيصر الروم على إيران / وأخذ يتقدم فى الفتوحات حتى وصل أصفهان واستعاد بعض أقاليم الشام التى كان الفرس قد انتزعوها منهم وأعاد تنظيم الإدارة من جديد . ٤

ومن المسلم به عمومًا بالنسبة لإيران أن المملكة كانت فى أوج ازدهارها حتى عهد خسرو برويز وكانت الفترة ما بين وفاة خسرو برويز والحملة الإسلامية أربع سنوات فقط ، فكيف يمكن أن تضعف مثل هذه الدولة القوية والعتيدة فى هذه الفترة القصيرة ؟! لا شك أن التغيير الذى حدث بسبب الذين اعتلوا العرش من بعده قد أخل بالنظام إلا أن مؤسسات الدولة كالخزانة والجيش ومصادر الدخل لم يعترها أى خلل ولما جلس يزدجرد على العرش واتجه أهل البلاط ناحية الإصلاح استردوا نفس الجاه والعظمة مرة أخرى ، أما الفرقة المزدكية فقد كانت موجودة فى إيران لكن لم نعرف من كتب التاريخ عن تلقى المسلمين أى نوع من العون أو النجدة منهم ، كما لم نعرف شيئًا عن المساعدة فى جانب النساطرة ، ولم يذكر أحد المؤرخين الأوربيين أثر الفرق المسيحية وخلافاتهم على أى حدث فى هذا الصدد .

ولتنظر الآن إلى حالة العرب فإن جميع الجيوش التى كانت منهمكة فى حروب الروم وإيران ومصر لم يصل مجموعها أبدًا إلى مائة ألف أما من ناحية خبرتهم فى فنون الحرب فقد كانت اليرموك أول معركة استخدم العرب فيها نظام « التعبئة » فى تنظيم الصفوف فى حين أن الخوذات والدروع والسترة والجواشن المدرعة والقفافيز الحديدية والأخفاف التى كانت من مستلزمات ملابس الحرب لكل جندى إيرانى [١] لم يكن يعرف العرب منها سوى الدروع وكثيرًا ما كانت تصنع من الجلد وكان الركاب / من الخشب بدلاً من الحديد ولم يكن العرب يعرفون من آلات الحرب سوى الصولجان والوهق أما سهامهم فقد كانت صغيرة وضعيفة حتى إن الفرس عندما رأوها لأول مرة فى معركة القادسية ظنوها مغازل . ٥

(١) ذكر ابن قتيبة فى الأخبار الطوال أن كل جندى كان يستخدم هذه الأشياء . (المؤلف) .

– الأخبار الطوال تأليف الدينورى وليس ابن قتيبة كما ذكر شبلى (المترجم) .

الأسباب الأصلية للفتوحات :

إن الجواب الحقيقى لهذا السؤال فى رأيى هو أن المسلمين كانوا قد دب فيهم فى ذلك الوقت الشجاعة والهمة العالية والقوة والصبر والعزيمة والحماس بسبب بعثة النبى - ﷺ - فيهم وقد ضاعف عمر من هذه الصفات وشحذها فلم تستطع مملكتا فارس والروم فى عصريهما الذهبى أن تتصديا لهم ، وإلى جانب هذا توجد أسباب أخرى ساعدت ليس فى الفتوحات فحسب بل فى تأسيس الحكومة أيضًا ، وأولها صدق المسلمين وأمانتهم فقد كان الناس فى أى بلد تفتح يقعون فى حب المسلمين لصدقهم بحيث إنهم كانوا لا يريدون زوال حكمهم بالرغم من اختلاف الدين ، ففى معركة اليرموك عندما خرج المسلمون من مدن الشام صاح جميع الرعايا المسيحيون قائلين : « ليردكم الله إلى هذه البلد » بل إن اليهود خرجوا حاملين التوراة قائلين : « لا يمكن أن يأتى قيصر إلى هنا ما دمنا أحياء » .

لقد كان حكم الروم فى مصر والشام حكما جائرًا ، لذلك واجه الروم المسلمين بقوة الحكم والجيش ولم يكن معهم الرعايا وعندما قضى المسلمون على قوة الدولة كان الجو مهيئًا أمامهم لأنهم لم يجدوا أى نوع من أنواع المقاومة من جانب الرعايا ، إلا أن حالة إيران كانت مختلفة عن هذه الحالة / فقد كان هناك كثير من الحكام والأمراء تحت لواء المملكة وكانوا يملكون الأقاليم والمراكز فكانوا يحاربون للحفاظ على حكومتهم الخاصة لا من أجل الدولة ، ولهذا السبب فإن المسلمين حتى بعد فتحهم العاصمة أيضًا واجهوا الصعوبات والمقاومة فى كل مكان فى فارس . ٦

وكان هناك سبب جوهرى آخر وهو السبب الأكبر ، فعندما قام المسلمون بحملاتهم الأولى على الشام والعراق كان يقطن فى كلا البلدين كثير من العرب فالذى كان يحكم دمشق كان من أسرة الغساسنة فى الشام وكان قيصر يحكمها اسميًا . وكان اللخميون فى العراق فى الحقيقة يملكون البلاد مع أنهم كانوا يدفعون لكسرى شيئًا من الخراج وقد واجه هؤلاء العرب المسلمين فى البداية لأنهم كانوا نصارى ، إلا أن نزعة القومية لا يمكن أن تذهب سدى فسرعان ما أسلم كبار حكام العراق وأصبحوا عونًا للمسلمين ، وأسلم [١] العرب فى الشام فى نهاية الأمر أيضًا وتحرروا من حكم الروم .

---

(١) سنذكر أسماءهم بالتفصيل فيما بعد فى أحد المواضع (المؤلف) .

المقارنة بين فتوحات الإسكندر وغيره : -

لا يجدر بنا أن نذكر هنا اسم الإسكندر وجنكيز وغيرهما فلا شك أن كليهما قد قام بفتوحات كبيرة لكن كيف ؟ بالقهر والظلم والقتل العام فأخبار جنكيز معروفة للجميع ، أما الإسكندر فإنه عندما توجه إلى الشام وفتح مدينة صور / أمر بالقتل العام لأن الناس هناك حاربوه وقتًا طويلاً ، وقد علق رءوس ألف من سكان المدينة على أسوار المدينة وعلاوة على هذا استرق ثلاثين ألفًا من السكان وباعهم عبيدًا وجوارى ولم يترك شخصًا يحافظ على حريته على قيد الحياة من السكان القدماء وكذلك فإنه عندما فتح اصطخر قتل جميع الرجال وهناك مظالم أخرى تُذكر ضمن أعماله . ٧

ومن المعروف بوجه عام أن الدولة تفنى وتنهار بالظلم والجور وأن الظلم فى الحقيقة لا يدوم لذا لم تبق مملكتا جنكيز والإسكندر لفترة طويلة ، إلا أن هذا النوع من المذابح قد أثبت فعاليته فى الفتوحات الغورية وبسببها انتشر الرعب من بلد إلى بلد ، ولما كانت طائفة كبيرة من الرعايا قد هلكت لهذا لم يكن يخشى أن تقوم ثورات ولهذا السبب ذاته عُد جنكيز خان وبخت نصر وتيمور ونادر والعديد من كبار الفاتحين جميعًا من السفاكين .

إلا أن عمر لم يتجاوز فى فتوحاته قانون العدل قيد أنملة ناهيك عن قتل عامة الناس بل إنه لم يسمح لهم بقطع الأشجار ولم يتعرض للأطفال والشيوخ مطلقًا ، ولم يقتل شخصًا إلا فى أرض المعركة ولم يخدع العدو أو يغدر به فى أى مناسبة قط وكانت الأوامر والأحكام المشددة تصل إلى القادة « فإن قاتلوكم فلا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا »[1] / . ٨

وعندما كان الناس يركنون إلى التمرد بعد الاستسلام يستوثق من طاعتهم ويصفح عنهم ، حتى إنه عندما غدر أهل عربسوس ثلاث مرات متوالية ونكثوا العهد اكتفى بأن أجلاهم ونفاهم من هناك ومع هذا دفع لهم قيمة جميع أملاكهم التى استولى عليها . وعندما أخرج يهود خيبر بجريمة الثورة والمؤامرة أعطاهم تعويضًا للأراضى التى أخذها وأرسل الأوامر إلى حكام الأقاليم بأن يعطوا الأمان ويساعدوا الذين يمرون ببلادهم وكانوا يعفون من دفع الجزية عامًا إذا استقروا ببلد ما .

---

(١) كتاب الخراج صفحة ١٢٠ (المؤلف) .
- القاضى أبو سيف : كتاب الخراج ص ١٩٤ (المترجم) .

ونرد على الناس الذين يعجبون من الفتوحات الفاروقية ويقولون إن هناك فاتحين ظهروا قبله بأن نظهر لهم هل فتح فاتح قط أرضًا بمثل حيطة عمر وانضباطه والتزامه وعفوه ؟

علاوة على هذا فإن الإسكندر وجنكيز وغيرهما كانوا يشتركون بأنفسهم فى كل معركة وموقعة ويقومون بقيادة الجيش فى المعارك فضلاً عن أن الجيش كان يحظى بقائد بارع وهذا كان يقوى من عزيمة الجيوش ومن الطبيعى أن ينشأ لديهم الحمية والحماس ليقدموا أنفسهم فداء له .

أما عمر – رضى الله عنه – فإنهم لم يشترك طوال مدة خلافته فى أى معركة وكانت الجيوش تعمل فى كل مكان وظل زمام قيادتها فى يد عمر .

٩ وهناك فرق واضح آخر هو أن فتوحات الإسكندر وغيره كانت كالسحاب العابر / الذى أتى بقوة مرة واحدة ثم انقشع كما أن هؤلاء الناس الذين فتحوا البلاد لم يؤسسوا أى نظام للحكم بها وخلافًا لذلك فقد كانت الفتوحات الفاروقية محكمة إلى درجة أن البلاد التى فُتحت فى ذلك الوقت بقيت حتى اليوم فى حوزة الإسلام بعد مضى ثلاثة عشر قرنًا ، وفى عهد عمر نفسه أقيمت فيها جميع أنواع النظم والمؤسسات المدنية .

خصائص فتوحات عمر :

والإجابة على السؤال الأخير طبقًا للرأى العام هو أنه لم تكن هناك خاصية مميزة للخليفة فى الفتوحات ، فقد كانت حالة الحماس والعزيمة فى ذلك الوقت بذاتها كفيلة بكل الفتوحات لكن هذا الرد عندى ليس بصحيح ففى عهد عثمان وعلّى كان المسلمون هم نفس المسلمين السابقين لكن ماذا كانت النتيجة ؟ لا شك أن الحماس والتأثر له قوة كالبرق ، إلا أن هذه القوة كان يمكن أن تفيد فى ذلك الوقت عندما يكون الإنسان الذى يستعملها بنفس القوة والطاقة وهذا الأمر لا يحتاج إلى قياس أو استدلال فالأحداث نفسها يمكن أن تكون فاصلة فى هذا الأمر .

ويبدو جليًا بعد قراءة الأحوال التفصيلية للفتوحات أن جميع الجيش كان يتحرك كالدمية بإشارات عمر ، كما أن إدارة الجيش وتنظيمه كانت نتيجة لسياسته وتدبيره الخاص وحينما تقرأ فى هذا الكتاب بشكل مفصل أن عمر قد اخترع بنفسه تنظيمات عديدة مثل ترتيب الجيش والمناورات العسكرية وبناء المعسكرات وتربية الخيل وحماية

القلاع وتحديد توقيت الحملات من حيث فصول البرد والحر والتنقلات والتحركات العسكرية وإدارة البريد واختيار قادة الجيش واستعمال الآلات لتحطيم القلاع وكثيرًا ما قام باستعدادات لغيرها من الأمور المتعلقة بها وثبت هذه الأمور وأقامها بقوة وعزيمة وسوف تقرر بنفسك / أنه لم يكن من الممكن أن تقوم هذه الآلة بإنجاز مثل هذا العمل مطلقًا بدون عمر . ١٠

والحقيقة أن عمر - رضى الله عنه - قد أشرف بنفسه على القيادة فى فتوحات العراق ، فعندما سار الجيش من المدينة كان يحدد له كل منزل من منازله ، بل حدد كل الطرق بنفسه وظل يرسل لهم الأوامر المكتوبة وفقًا لرؤيته ، ولما وصل الجيش بالقرب من القادسية أرسل يطلب خريطة المكان وبناء عليها بعث بنصائحه فيما يتعلق بإعداد الجيش وترتيب الصفوف ، والقادة الذين عينوا لإنجاز الأمور قد تم تعيينهم وفقًا لحكمه الخاص .

وإذا دققت النظر إلى أحداث العراق فى « تاريخ الطبرى » فسيبدو جليًا أن هناك قائدًا عظيمًا ظل يقوم بقيادة الجيوش من بعيد وكان كل ما تم بإشارة منه .

ومن بين جموع الحروب التى وقعت فى مدة عشر سنوات حدثت معركتان من أخطر المعارك الأولى هى معركة « نهاوند » عندما أرسل الفرس النقباء فى كل بقعة من أقاليم فارس وأشعلوا ناس الحماس فى سائر البلاد وتوجهوا ناحية المسلمين بعد أن أعدوا مئات الآلاف من الجنود .

والمعركة الثانية عندما هجم قيصر الروم على حمص مرة ثانية بمساعدة أهل الجزيرة وفى هاتين المعركتين لم يكن هناك إلا حسن تدبير عمر فهو من ناحية أخمد العاصفة الثائرة ومن ناحية أخرى حطم جبلاً عظيمًا وقد كتبنا تلك الأحداث فى الجزء الأول / . ١١

بعد تفصيل جميع هذه الأحداث تثبت هذه الدعوى حقيقة وهى أنه لم يظهر مثل الفاروق الأعظم فاتحًا وغازيًا من فجر التاريخ حتى ظهور عمر .

* * *

نظام الحكومة

مع أنه قد تم إرساء أساس الحكومة والخلافة فى الإسلام فى عهد أبى بكر إلا أن عهد تنظيم الحكم يبدأ بخلافة عمر ، فبالرغم من أن أبا بكر قد فصل فى القضايا العظيمة فى سنتى خلافته ، أى أنه قضى على المرتدين العرب وبدأت الفتوحات الخارجية ، مع ذلك لم يُنشئ أى نظام خاص للحكم لقصر خلافة أبى بكر ، أما عمر فقد وسع من نطاق الفتوحات فقد دالت بلاد قيصر وكسرى الشاسعة وانضمت للعرب من ناحية كما أنه أقام نظامًا للدولة والحكم ونهض بها وطورها حتى ظهرت جميع شعبها المختلفة إلى حيز الوجود عند وفاته .

لكن قبل أن نتناول بالتفصيل قواعد حكمه وقوانينه يجب أن نذكر أولاً كيف كان أساس هذه الحكومة ؟ هل كانت حكومة فردية أو جمهورية ؟ نظرًا للمدى الذى وصلت إليه حضارة العرب فى ذلك الوقت لا يمكن أن يطلق على خلافة عمر وحكمه اسم الحكومة الفردية أو الجمهورية ويكفى فى هذا الموضع / معرفة هذا الأمر وهو هل كانت طريقة الحكم تشبه النظام الجمهورى فى الحكم أو الفردى ؟ أى هل كانت السلطة تميل إلى السلطة الشخصية أو إلى الرأى العام ؟ ١٢

المقارنة بين الحكومة الفردية والجمهورية

إن أهم ما يميز بين طريقة الحكم الفردى والجماعى هو مشاركة الشعب وعدم مشاركته فيها بمعنى أنه كلما زادت حقوق المشاركة لعامة الناس فى الحكم زادت فى الحكم عناصر الجمهورية . والحد الأخير فى الحكم هو أن يترك رئيس الحكومة جميع سلطاتها ليصبح فقط عضوًا من أعضاء الجماعة وعلى العكس من هذا فإن مناط الأشياء ومحورها فى الحكم الفردى رهن على فرد واحد بعينه وبناء على هذا تظهر النتائج التالية من الحكم الفردى لا محالة :

١ – إن تصريف الأمور يكون قاصرًا على تفكير وتدبير عدد من أعضاء الحكومة بدلاً من أن تستغل مهارات جميع ذوى اللياقة من الشعب .

٢ – لا يكون لبقية الناس علاقة بتنظيم أمور الدولة – عدا عدة مسئولين – لهذا يظل أكثر أفراد الشعب يفقد الكفاءة والقوة الإدارية تدريجيًا .

٣ - لا يتم حماية الحقوق الخاصة لمختلف الجماعات والأقليات كما ينبغى ، لأن ذوى المصلحة فى تلك الحقوق لا يكون لهم دخل فى إدارة الدولة والذين لهم دخل فى أمور الدولة لا يهتمون بحقوق الآخرين اهتمام أصحاب الحقوق أنفسهم / . ١٣

وعندما لا يجوز لأى شخص التدخل فى الأعمال القومية وأعمال الدولة عدا قليلاً من أعضاء الحكومة فإن الشعب لا يهتم إلا بمصالحه الشخصية وينعدم لديهم الحماس لإنجاز الأعمال القومية .

وهذه النتائج من عواقب الحكومة الفردية ولا يمكن أن تنفصل عنها مطلقًا وخلافًا لهذا ففى الحكم الجمهورى تظهر النتائج على عكس هذا ، وبناء على هذا فالحكومة التى تتخذ أسلوب الحكم الفردى أو الجمهورى يمكن تحديد نوعية حكمها من نتائجها .

ولا ينبغى أن نعتقد أن الأسلوب الجمهورى كان مذاقًا فطريًا عند العرب ، لهذا فإن الحكومة التى قامت بين العرب يجب أن يكون نظامها نظامًا جمهوريًا ، فقد كانت هناك ثلاث حكومات عربية كبيرة منذ زمن بعيد وهى دولة اللخميين والحمريين والغساسنة وكلها كانت حكومات فردية ، ولا شك أنهم كانوا يختارون مشايخ القبيلة طبقًا للقواعد الجمهورية لكنهم كانوا لا يتمتعون بأى نوع من المشاركة فى حكم الدولة بل كانوا يعتبرون كالقضاة وقادة الجيش ، ولم يحسم أبو بكر هذا الأمر فى خلافته لأنه وإن كان اختياره تم بكثرة الآراء لكنه كان إجراءًا فوريًا كما قال عمر - رضى الله عنه - « فلا يفترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعه أبى بكر فلتة وتمت إلا أنها كانت كذلك لكن الله وقى شرها » (١) .

والدول التى كانت حول عمر كانت غير جمهورية أيضًا ، أما إيران فلم تظهر فيها هذه النزعة / مطلقًا من البداية ، وأما الروم فقد كانوا يمتازون بهذا الشرف فى وقت من الأوقات فقد قامت هناك حكومة فردية قبل عهد عمر بكثير وفى عهد عمر لم يبق إلا حكومة جائرة مستقلة ، المهم أن عمر وضع أساس الحكم الجمهورى دون أى مثال أو نموذج يحتذى به ولا يمكن ترتيب جميع أصوله وفروعه لمقتضيات العصر إلا أن الأشياء التى تعد بمثابة روح الحكم الجمهورى قد ظهرت جميعها إلى حيز الوجود . ١٤

---

(١) انظر صحيح البخارى المطبعة الأحمدية ، ميريت ، الطبعة الثانية ص : ١٠٠٩ (المؤلف) .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١ / ٣٢٣ - ٣٢٧ (المترجم) .

مجلس الشورى فى خلافة عمر :

إن انعقاد مجلس الشورى كان من أصل الأصول فيها ، فإذا كان يحدث أمر يحتاج إلى التدبير كان مجلس أصحاب الشورى ينعقد على الدوام ولا يمكن إنجاز أى أمر بدون شورى وأغلبية الآراء ، وكان فى جماعة المسلمين آنذاك جماعتان يتقدمان سائر القوم وكان العرب جميعًا معترفين بمكانتهما ومنزلتهما وهما : المهاجرون والأنصار .

أعضاء مجلس الشورى وطريقة انعقاده :

كان اشتراك أعضاء كلا الجماعتين فى مجلس الشورى أمرًا حتميًا ، وكان الأنصار ينقسمون بدورهم إلى قبيلتين هما : الأوس والخزرج لذلك كان اشتراك هاتين القبيلتين أيضًا فى مجلس الشورى أمرًا ضروريًا ، ومع أننا لا نستطيع أن نذكر جميع أسماء أعضاء مجلس الشورى إلا أننا نعلم أن عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى ابن كعب وزيد بن ثابت كانوا فى هذا المجلس (١) وكانت طريقة انعقاد المجلس هى أن ينادى مناد أولاً أن « الصلاة جامعة » وعندما يجتمع الناس يذهب عمر إلى المسجد ١٥ النبوى / ويصلى ركعتين وبعد الصلاة يصعد على المنبر ويلقى خطبة ثم يقدم الأمر الذى يحتاج إلى البحث (٢) .

جلسات مجلس الشورى :

تعتبر أحكام هذا المجلس كافية فى شئون الحياة اليومية العاديةلكن عندما كان يطرأ أمر هام تعقد إذ ذاك جلسة عامة للمهاجرين والأنصار ويقرر باتفاق الجميع ، فمثلاً عندما أصر بعض الصحابة بعد فتح العراق والشام أن تقطع هذه البلاد المفتوحة لأفراد الجيش انعقدت جلسة واسعة النطاق شارك فيها جميع المهاجرين والأنصار القدامى علاوة على عامة الناس كان بينهم عشرة من كبار القادة الذين يتميزون على العامة ، منهم خمسة أفراد من قبيلة الأوس وخمسة من قبيلة الخزرج واستمرت جلسات هذا المجلس عدة أيام فكان الناس يلقون الخطب بجرأة وبحرية عامة ، وننقل هنا بعض

---

(١) كنز العمال نقلاً عن طبقات بن سعد المجلد الثالث ص : ١٣٤ (طبعة حيدر آباد) (المؤلف) .

(٢) تاريخ الطبرى صفحة ٢٥٧٤ (المؤلف) . الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٩٨ (المترجم) .

المقتطفات[١] من خطب عمر التى ألقاها فى هذا المجلس وذلك لتقدير سلطة خليفة المسلمين وحقيقة منصب الخليفة فى ذلك الوقت : « إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى » .

وفى سنة ٢١ هـ عندما وقعت معركة « نهاوند » الشرسة وأعد العجم العدة والعتاد للحرب قرر الناس ذهاب الخليفة إلى تلك المعركة بنفسه / فانعقد مجلس شورى موسع ووقف كل من عثمان وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم يخطبون بالتناوب وقالوا له إنه ليس من المناسب ذهابك إلى مكان القتال ، ثم وقف علىّ – رضى الله عنه – وألقى خطبة أيد فيها رأى أولئك الناس وخلاصة القول أن هذه القضية تم الفصل فيها بأكثرية الآراء وبالإجماع بألا يذهب عمر بنفسه إلى أرض المعركة ، وهكذا الأمر بالنسبة لمرتبات الجيش وترتيب الدواوين وتعيين العمال وحرية التجارة للأجانب وتحديد الضرائب عليها وكثير من القضايا من هذا النوع قد ذكرت بوضوح فى كتب التاريخ وأنها عرضت على مجلس الشورى وبت فى أمرها ، حتى أن الخطب التى خطبها أعضاء المجلس وقت تقديم هذه القضايا مذكورة أيضًا فى كتب التاريخ . ١٦

إن انعقاد مجلس الشورى ومشورة أهل الرأى لم تكن على سبيل الإحسان والتبرع ، بل إن عمر صرح بوضوح فى أكثر من مناسبة مختلفة أن الخلافة لا وجود لها إطلاقًا إلا بالشورى ومن كلماته الخاصة فى هذا الصدد : « لا خلافة إلا عن مشورة » [٢] .

مجلس آخر :

تنعقد جلسة مجلس الشورى لعرض الأشياء الخاصة جدًا ، لكن علاوة على هذا كان هناك مجلس آخر يناقشون فيه الإدارة والمتطلبات اليومية وكان هذا المجلس ينعقد بصفة دائمة فى المسجد النبوى ، ولا يشترك فيه إلا المهاجرون من الصحابة ، وكان عمر

---

(١) جميع هذه التفاصيل فى كتاب الخراج للقاضى أبو يوسف صفحة ١٤ – ١٥ (المؤلف) – أبو يوسف : الخراج : ٢٥ (المترجم) .

(٢) كنز العمال نقلاً عن ابن أبى شيبة . المجلد الثالث صفحة ١٣٩ (المؤلف) .

يعرض فى المجلس الأخبار اليومية التى كانت تصل إلى باب الخلافة من الأقاليم والمراكز ولو عنّ أمر يحتاج / إلى بحث فقد كان يسترشد فيه بالناس ، فمسألة وضع الجزية على المجوس قد عرضت على هذا المجلس أولاً وقد ذكر البلاذرى هيئة هذا المجلس بهذه الكلمات وهو يتناول أمرًا آخر : « كان للمهاجرين مجلس فى المسجد فكان عمر يجلس معهم فيه ويحدثهم عما ينتهى إليه من أمر الآفاق فقال يومًا ما أدرى كيف أصنع بالمجوس » .

١٧

مشاركة عامة الرعايا :

وفضلاً عن أعضاء مجلس الشورى فقد كان لعامة الرعايا دخل فى الشئون الإدارية وكان حكام الأقاليم والولايات يعينون برضا أكثر الرعايا ، بل إنها كانت تتم فى بعض الأحيان بطريقة الانتخاب ، فعندما بدءوا تعيين عمال الخراج فى الشام والبصرة والكوفة أرسل عمر الأوامر إلى تلك الأقاليم الثلاثة لكى يختار الناس كل شخص يفضلونه ثم يبعثونه إليه على أن يكون أولئك الناس أكثر تدينًا وجدارة لديهم ، فاختار هؤلاء الناس معن بن يزيد من الشام والحجاج بن علاط من البصرة وعثمان بن فرقد من الكوفة وبعثوا أسمائهم فعين عمر هؤلاء الناس حكامًا لتلك الأماكن وقد ذكر القاضى أبو سيف هذه الواقعة بهذه الكلمات : « كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلاً من أخيرهم وأصلحهم وإلى أهل البصرة كذلك وإلى أهل الشام كذلك قال فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد / وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط كلهم سلميون قال فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه » (١) .

١٨

وكان سعد بن أبى وقاص من كبار الصحابة وفاتح عاصمة أنوشيروان ، عينه عمر حاكمًا على الكوفة لكنه عزله عندما اشتكى الناس منه .

إن من أكبر الأصول وأهمها بالنسبة للحكم الجمهورى هو أن يهيأ لكل شخص الفرصة والسلطة الكاملة للحفاظ على حقوقه وأعراضه ، وقد نال كل شخص فى

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٤ (المؤلف) .

- القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٣ (المترجم) .

حكومة عمر هذه الفرصة بحرية تامة وكان الناس يعبرون عن حقوقهم علانية ، وكانت السفارات تأتى كل عام من المراكز ويطلقون عليها اسم « وفد » وكان الهدف من هذه السفارات هو اطلاع الخلافة على كل أنواع الشكاوى وأحوال الدولة ويراد من هذا العدل والإنصاف وقد أعلى عمر هذا الحق بنفسه فى مناسبات عديدة حتى إنه خطب خصيصًا لهذا الغرض فى حشد عام وصرح بذلك أيضًا فى أوامره وذات مرة طلب جميع عمال الدولة فى الحج وأعلن لهم هذا فى ملأ من الناس وسيأتى تفصيله كاملاً عند ذكر العمال .

مساواة الخليفة بين الجميع فى كافة الحقوق :

١٩

إن أهم ميزة فى الحكم الجمهورى هو أن الحاكم يساوى بين عامة الناس فى جميع الحقوق بحيث لا يستثنى أحدًا من طائلة أى قانون من القوانين / ولا يستطيع أن يأخذ من إيرادات الدولة أكثر من متطلبات الحياة وألا يراعى عظمة مكانته كحاكم فى المجتمع العام ، وأن تكون سلطاته محددة ويكون لكل شخص الحق فى نقده ، وقد وصلت جميع هذه الأمور إلى آخر مداها فى أيام خلافة عمر وكل ما حدث كان نتيجة لأسلوب عمر ومنهجه وقد أعلن فى مناسبات عديدة عن مكانته ودوره من ناحية الحكم وعن سلطاته وأن بعض فقرات الخطبة التى ألقاها فى إحدى المناسبات جديرة بالذكر فى هذا المكان :
« إنما [1] أنا ومالكم كولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، لكم علىّ أيها الناس خصال فخذونى بها . لكم علىّ ألا أجتبى شيئًا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ولكم علىّ أن أزيد فى أعطياتكم وأسد ثغوركم ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك » / .

٢٠

وحدث ذات مرة أن رجلاً قال لعمر عدة مرات « اتق الله يا عمر » فمنعه رجل من الحاضرين وقال له « اسكت لقد أكثرت » فقال عمر : « دعه يتكلم لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا ولا خير فينا إن لم نقبل » [2] .

---

(١) انظر كتاب الخراج ص ٦٧ (المؤلف) .
- القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٧ (المترجم) .
(٢) كتاب الخراج صفحة ٧ (المؤلف) .
- القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٢ (المترجم) .

وكان من تأثير تلك الأمور أن ظهر لجميع الناس حدود الحكم وسلطات الخلافة وزالت من نفوسهم فكرة النفوذ والسطوة الشخصية ، وإن الخطبة التى ألقاها معاذ بن جبل فى سفارته للروم عن خلافة عمر هى فى الحقيقة الصورة الأصلية للحكم الجمهورى ، ولا يمكن أن يكون هناك تصور لحقيقة الحكم الجمهورى أوضح وأفضل من ذلك حتى اليوم .

وبعد أن ذكرنا نوعية الحكم نتوجه إلى نظام حكم عمر .

إن أهم شىء فى إدارة الحكم هو أن تستقل جميع التنظيمات الإدارية المختلفة الواحدة عن الأخرى وهذا أكبر دليل على التمدن والرقى ، كما كانت البيوت فى الحالة البدائية للحضارة تتكون من حجرة واحدة وكانت تكفى لجميع الاحتياجات ثم اتسع نطاق التمدن والتحضر بحيث أصبح يُعد حجرات مستقلة للطعام والنوم والاستقبال وحجرة القراءة والكتابة والاحتياجات الأخرى ، وكذلك الحال بالنسبة لأمر الحكم ، ففى بداية الحضارة كانت التنظيمات الإدارية كلها متشابكة ومتداخلة ، فمن / يحكم الأقليم كان هو نفسه القائد وقت الحرب وهو نفسه الذى كان يقوم بعمل القاضى فى الحكم فى القضايا ، ويقوم بمهمة البوليس أيضًا فى العقاب على الجرائم ، وبتطور الحضارة أسست إدارات مستقلة وعين على كل إدارة قائد مستقل ، لقد مضى على الحكم الإنجليزى مائة عام إلا أن القانون والتنظيمات الإدارية متداخلة ومتشابكة حتى الآن ، أى أن حاكم المركز كان يجمع الخراج ويفصل فى القضايا الأخرى ، كما كان هناك تداخل أكثر فى المحافظات الخارجة عن دائرة القانون وهذه إحدى إنجازات عمر المعجزة فبالرغم من أن حضارة العرب فى ذلك الوقت كانت فى حالة بدائية للغاية ولم يكن قد انقضى على الحكم سوى بضع سنوات فقط ، إلا أنه أقام إدارات منفصلة لكثير من الأقسام المتداخلة وسوف نكتب عن تلك الإدارات جميعًا بالتفصيل .

٢١

* * *

تقسيم الدولة : الأقاليم والمحافظات وموظفو الدولة

إن السلسلة الأولى لنظام الحكم والتى يتفرع منها جميع التنظيمات هى تقسيم الدولة إلى أجزاء مختلفة يطلق عليها الأقليم والمحافظة والمركز ، وكان عمر أول رجل فى الإسلام بدأ بتحديد حدودها بدقة وبشكل موزون حسب / متطلبات تلك الفترة . ٢٢

تحديد عمر للأقاليم :

وقد صرح جميع المؤرخين أن عمر قسم البلاد المفتوحة إلى ثمانية أقاليم هى : مكة والمدينة والشام والجزيرة والبصرة والكوفة ومصر وفلسطين ، وقد ذكر المؤرخ اليعقوبى سبعة أقاليم بدلاً من ثمانية وكتب أن عمر قام بهذا التنظيم فى سنة ٢٠هـ ومع أن وصف المؤرخين لا يخلو من الحقيقة إلا أن فيه إجمالاً يحتاج إلى تفصيل لأن اتساع رقعة الفتوحات الفاروقية لا يكفيها ثمانية أقاليم فقط ، ويوضع فى الاعتبار أن فارس وخوزستان وكرمان وغيرها كانت أقاليم أيضًا .

والحقيقة أن عمر قد أبقى التقسيم السابق لمناطق البلاد المفتوحة سواء من حيث الأقاليم أو المحافظات لذا لم يذكر المؤرخون أسماءها ، فكان من الضرورى ذكر الأقاليم التى أقامها عمر بنفسه وهى ثمانية ، عمومًا فإن هذا الأمر صحيح فى الغالب وإلا فإنه ثابت من الأقوال التاريخية أن عمر قد تصرف فى التقسيم القديم للدولة ، فكانت فلسطين تعد منذ البداية أقليمًا وتضم عشر محافظات وفى سنه ١٥ هـ عندما ذهب عمر بنفسه إلى فلسطين وكتب معاهدة الأمان قسم هذا الأقليم إلى نصفين وجعل عاصمة أحدهما إيليا والثانى الرملة وولى علقمة بين حكيم وعلقمة بن مجزر كل واحد منهما فى إقليم منفصل عن الآخر [١] / أما ما يتعلق بمصر فلا نعلم كيف كان حالها قبل الفتح لكن عمر قسمها إلى إقليمين ، المنطقة العليا ويطلق عليها فى العربية « صعيد » وكانت تضم ثمانى وعشرين محافظة فجعلها إقليمًا مستقلاً واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن أبى مسرح ، والمنطقة السفلى وكانت تحتوى على خمس عشرة محافظة ولى عليها حاكمًا آخر ، وكان عمرو بن العاص حاكمًا عامًا لمصر . ٢٣

---

(١) الطبرى صفحة ٢٤٠٣ و ٢٤٠٧ . العبارة الأصلية هى : « فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل الرملة وهم عشر كور وفلسطين تعدل الشام كله . وفرق فلسطين على رجلين . فنزل كل واحد منهما فى عمله » . المؤلف - الطبرى (٣ / ٦٠٨) (المترجم) .

الأقاليم فى عهد أنوشيروان :

لقد أبقى عمر جميع الإدارات والتنظيمات الأنوشيروانية فى فارس وغيرها على حالها تقريبًا ، ويكفى أن نذكر هنا عدد المناطق التى تنقسم إليها البلاد فى عهد أنوشيروان .

يذكر المؤرخ اليعقوبى [1] أن مملكة أنوشيروان كانت تنقسم إلى ثلاثة أقاليم كبيرة فضلاً عن العراق .

١ - خراسان :

وكانت تضم البلاد الآتية : نيسابور وهراة ومرو ومرورود وفارياب وطالقان وبلخ وبخارا وبادغيس وباورد وغرشتان وطوس وسرخس وجرجان .

٢ - أذربيجان :

وكانت تشتمل على المحافظات الآتية : طبرستان والرى وقزوين وزنجان وقم وأصفهان وهمدان ونهاوند ودينور وحلوان وماسبذان ومهرجان وقذف وشهرزور وصامغان ، وأذرسبحان .

٣ - فارس :

٢٤ وهذا الإقليم يشتمل على المحافظات الآتية : اصطخر وشيراز ونوبندجان وجور / كازرون وفسا ودارابجرد وأردشيرخره وسابور والأهواز وجنديسابور وسوس ونهرتيرى ومناذر وتستر وإيذج ورام هرمز .

ولاة الأقاليم :

كان كبار الموظفين يقيمون فى الأقاليم وتفصيلهم كما يلى : الوالى (أى حاكم الأقليم) والكاتب (أى كاتب فى ديوان الجيش) وصاحب الخراج وصاحب الأحداث

---

(١) تاريخ اليعقوبى صفحة ٢٠١ و ٢٠٢ المجلد الأول (المؤلف) - اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ١ : ١٣٣ - ١٣٤ (المترجم) .

وصاحب بيت المال والقاضى فمثلاً كان عمّار بن ياسر واليًا على الكوفة وعثمان بن حنيف صاحب الخراج وعبد الله بن مسعود صاحب بيت المال وشريح قاضيًا وعبد الله ابن خلف الخزاعى كاتبًا للديوان [١] .

وكان هناك قائد للجيش فى كل أقليم أيضًا إلا أنه فى معظم الأحوال كان والى الأقليم مكلفًا بهذه المهمة ، ولم تكن إدارة البوليس مستقلة فى جميع الأقاليم بقدر ما نعلم ، فكثيرًا ما كان صاحب الخراج أو الوالى يقوم بهذه الخدمة ، ففى الوقت الذى كان فيه عمّار بن ياسر حاكمًا للكوفة أسند إليه مهمة الأحداث (الشرطة) وفى البحرين كان قدامة بن مظعون صاحب الخراج يقوم بمهمة الأحداث كذلك ، أما إدارة الوالى فقد كانت مستقلة كما كانت تشتمل على كثير من الأفراد وكان أعضاء هذه الإدارة يعينون من قبل الخلافة ، فعندما أرسل عمر عمار واليًا على الكوفة أمده بعشرة من أكفاء الرجال بين المسئولين عن الإدارة كان من بينهم قرظ الخزرجى [٢] . / ٢٥

أما الكاتب فكان من الواجب أن يكون جديرًا بعمله وفريدًا فى الإنشاء والخطابة ، فعندما كان أبو موسى الأشعرى واليًا على البصرة كان عمر يندهش لبلاغة كاتبه زياد بن سمية ويتعجب لفصحاته ، وكان عمرو بن العاص يقول : لو كان هذا الشاب من نسل قريش لجاءت جميع العرب تحت لوائه . وهكذا كان فى المراكز العامل وصاحب بيت المال والقاضى وغيرهم جميعًا تابعين لحاكم الإقليم ويعملون تحت إدارته ، أما المحصلون فقد كانوا يقيمون فى المراكز مع أفراد إداراتهم .

كان أهم شيء بعد تقسيم الأقاليم والمراكز هو اختيار موظفى الدولة والتخطيط لأعمالهم ، فالحاكم وإن بلغت يقظته والقانون وإن تم وكمل إلا أن الدولة لا يمكن أن ترقى ما دام أعضاء الحكومة أى موظفو الدولة على غير دين وصدق وكفاءة وما لم يعملوا بيقظة فائقة ، والحق أن السياسة والتدبير ونفاذ البصيرة التى استخدمها عمر فى هذا الصدد لن نجد لها مثيلاً مهما قلبنا آلاف الصفحات فى تاريخ العالم .

---

(١) الطبرى : ٢٦٤٧ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٤٥ (المترجم) .
- ابن خلكان صفحة ٢٥٣ (المؤلف) - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢ / ٤٦٠ - ٤٦٣ و ٢ / ٨٣ - ٨٤ (المترجم) .

(٢) أسد الغابة تذكرة قرظ (المؤلف) - أسد الغابة : تذكرة قرظ بن كعب الخزرجى : ٤ / ٣٣٩ - ٤٠٠ (المترجم) .

معرفة عمر لمعادن الناس :

وقد ساعده فى هذا الأمر وفى هذه المرحلة معرفته بمعادن الناس منذ البداية ، أى أنه كان يدرك كنه ذلك الرجل الذى يتوفر فيه أى جانب من القدرة وبجانب هذا جهز نفسه بمعرفة جميع أفراد الدولة الأكفاء لذا كلما أسند أى عمل لأى رجل لم يكن ممكنًا / أن يوجد رجل أفضل منه لإنجازه . وكان هناك أربعة رجال يعرفون بدهاة العرب لم يكن لهم مثيل فى فن السياسة والتدبير وهم : معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة [١] وزياد بن سُمية وقد عهد عمر إلى ثلاثتهم بأكبر مناصب الدولة فيما عدا زيادًا لأن هذه الجماعة كانت ذات تطلع فتغلب عليهم بهذا الأسلوب لكى لا يعلنوا التمرد ، أما زياد ففى أيامه كان شابًا فى السادسة عشرة من عمره لذا لم يسند إليه أى وظيفة كبيرة لكن بناءً على جدارته وأهليته كتب إلى أبى موسى أن يجعله مستشارًا له فى أمور الحكم وقد كان عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خالد بارعين فى فنون الحرب لكن لم يكن لهما دخل فى السياسة والتدبير فعينهما عمر تحت إمرة النعمان بن مقرن فى فتوحات العراق وكتب إلى النعمان بألا يعطى لهما قيادة أى إدارة لأن كل إنسان يعرف فنه جيدًا [٢] . كان عبد الله بن الأرقم صحابيًا جليلاً وذات مرة كان عند رسول الله - ﷺ - فجاءته رسالة رجل من مكان ما يستجوبه فيها ، فقال رسول الله من سيكتب جوابه ؟ قال عبد الله أنا ثم كتب الجواب بنفسه وأحضره فسمعه الرسول واستحسنه وكان عمر موجودًا فى ذلك الوقت وكان يهتم بمؤهلاته وقدراته بطريقة خاصة ، وكما يذكر ابن الأثير وغيره فقد ظلت هذه الفكرة تراوده دائمًا وعندما أصبح خليفة عينه كاتبًا / .

٢٦

٢٧

وعندما عقد مجلس الشورى جلسته العمومية للنظر فى أمر مهمة « نهاوند » وطلب عمر المشورة فى الرجل الذى يرسل على هذه المعركة فقال المجلس بإجماع أن المعرفة التى لديك لا تتوفر لأحد فينا وأنت قدرت مؤهلاتنا وقدراتنا ولم يستطع أحد أن يقدرها ، عندئذ سمى عمر النعمان بن مقرن وقال الجميع فى صوت واحد هذا الاختيار فى محله

---

(١) أسد الغابة تذكرة المغيرة بن شعبة (المؤلف) .
- أسد الغابة : ٥ / ٢٤٧ - ٢٤٨ (المترجم) .
(٢) استيعاب القاضى عبد البر (المؤلف) .
- القاضى عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : ٣٠٧ (المترجم) .

تمامًا . وكان عمار بن ياسر من كبار الصحابة ولا نظير له فى الزهد والتقوى لكنه لم يكن عالمًا بأمور السياسة والتدبير فولاه عمر على الكوفة لشهرته العامة ولحكمة ما لبعض الأسباب الأخرى لكنه عزله بعد عدة أيام عندما لم يتمكن من تصريف الأمور وكأنه عرض على المؤيد له بأنه كان غير جدير بهذا العمل ، وهناك مئات من الأمثلة من هذا القبيل لا يمكن حصرها ومن كان لديه رغبة فى معرفة جميع الرجال الأكفاء فعليه بكتب الرجال وسيرى كيف كان عمر يركب هذه القطع الصغيرة فى الأماكن المناسبة لها فى آلة الحكومة .

مع هذا كله لم يكن ممكنًا أن يترك عمر مسئولية العمل العظيم لرجل واحد فقط ، لذا عقد عمر مجلس الشورى وقال للصحابة « إذا لم تساعدونى فمن يساعدنى » [١] ؟ فقال أبو هريرة نحن نساعدك إلا أن الاشتراك فى إدارة الدولة فى ذلك الوقت كان يعتبر ضد الزهد والورع ولهذا قال أبو عبيدة / لعمر لقد لطخت أصحاب رسول الله – ﷺ – بالدنيا فقال عمر إن لم أستعن بهؤلاء الكبار فمن هم الذين أستعين بهم ؟ قال أبو عبيدة أما إن فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة [٢] . المهم أن عمر اختار رجالاً أكفاء أمناء برأى الناس ومشورتهم وعهد إليهم بخدمة البلاد وكان مجلس الشورى ينتخب فى جلسته العمومية الخدمات المهمة ، فالشخص الذى كان ينتخب من جانب جميع أعضاء المجلس يستخدم لتلك الخدمة المهمة ، وقد تم تعيين عثمان بن حنيف بهذه الطريقة وفى الطريق وفى بعض الأحيان كان يُرسل الأوامر لأهل المراكز والأقاليم بأن يختاروا من بينهم من هو أكثر أمانة وجدارة وأن يرسلوا اسمه وهكذا كان يعين من يختاره الناس عاملاً هناك . وكان عثمان بن فرقد ومعن بن يزيد والحجاج بن علاط قد استعملوا طبقًا لهذه القاعدة . وقد كتبنا عن هذا الموضوع بالتفصيل من قبل .

٢٨

قضية الرواتب :

كانت هناك مشكلة أخرى وهى أن الناس كانوا لا يفضلون أخذ الرواتب مقابل

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٥ . والعبارة الأصلية هى : أن عمر بن الخطاب دعا أصحاب رسول الله – ﷺ – فقال : « إذا لم تعينونى فمن يعيننى . . الخ » (المؤلف) – القاضى أبو يوسف : الخراج : ١١٤ (المترجم) .

(٢) كتاب الخراج صفحة ٦٤ . – القاضى أبو يوسف : الخراج : ١١٣ (المترجم) .

أى عمل أو خدمة لأنهم كانوا يعتبرون هذا الأمر ضد الزهد والتدين ، وهذا ما يحدث بعينه فى الوقت الحاضر ، فلو يقال للوعاظ المحترمين أدوا خدماتكم بانتظام وخذوا رواتب عليها فإنهم ربما يشعرون باستياء شديد ، لكنهم لا يحترزون من الأموال التى يتلقونها باسم الهدايا والنذر وقد ابتلى كثير من الناس بهذا الخطأ فى أيام عمر ، ولما كان
٢٩ هذا الأمر ضد التمدن وقواعد الإدارة / فإن عمر أزال هذا التفكير الخاطئ بجهد كبير وأجرى الرواتب ، وفى إحدى المناسبات رفض أبو عبيدة – الذى كان صحابيًا معروفًا وقائدًا للجيش – أخذ حق الخدمة فاسترضاه عمر بصعوبة كبيرة [١] أما حكيم بن حزام فإنه مع إصرار عمر مرارًا لم يقبل مطلقًا منحة أو راتبًا [٢] .

واجبات العمال وتفصيلها فى أحكام عمر :

كان من يعينه عمر عاملاً يعطيه أمرًا مكتوبًا يذكر فيه واجباته وسلطاته [٣] ويوجد فى هذه الرسالة إمضاءات لعدد كبير من المهاجرين والأنصار كشهود الرسالة يطلع الناس على واجباته وسلطاته وعندما يتجاوز حدود سلطته كان الناس يجدون الفرصة لمحاسبته ومؤاخذته وكان عمر يحرص كثيرًا على أن يعرف الناس واجبات جميع العمال وكثيرًا ما خطب عمر فيما يتعلق بهذا الأمر مرارًا فى مختلف المناسبات والأماكن . وفى إحدى الخطب التى ألقاها فى جمع حاشد خاطب العمال قائلاً هذه الكلمات : « ألا وإنى لم
٣٠ أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدروا على / المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم » .

وعندما كان عمر يستعمل رجلاً فى مكان ما كان يعطى له رسالة التعيين أمام جمع

---

(١) الطبرى صفحة ٢٥٧٧ . (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٠٠ (المترجم) .
(٢) كنز العمال : ٣ / ٣٢٢ (المؤلف) .
(٣) الطبرى صفحة ٢٧٤٧ (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٠٤ (المترجم) .
– أسد الغابة (تذكرة حذيفة بن اليمان) : كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عهده وقد بعثت فلانًا وأمرته بكذا . . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين فلما قرأ عهده . . . إلخ . ١ / ٤٦٩ (المترجم) .

من الصحابة ويشهد عليهم هؤلاء الصحابة [١] وكان الهدف من هذا هو أن يعلن عن الشخص الذى يعين وعن واجباته وقدراته .

العهود التى تؤخذ من العمال :

كان عمر يأخذ عهدًا من كل عامل بألا يركب برذونًا (حصانًا تركيًا) ولا يلبس ثوبًا رقيقًا ولا يأكل دقيقًا نقيًا ولا يتخذ حاجبًا وأن يترك بابه مفتوحًا أمام حوائج الناس[٢] وكانت هذه الشروط كثيرًا ما تقيد فى أمر التعيين وتتلى على الناس فى جمع عام .

قائمة بأموال العمال وأمتعتهم :

وعندما كان يعين أى عامل كان يكتب قائمة بمقدار ما لديه من أموال وأمتعة بالتفصيل وتحفظ وإذا زادت الحالة المالية للعامل زيادة غير عادية كان يحاسب عليها[٣] وذات مرة وقع كثير من العمال فى هذا البلاء / .

٣١

ورفع خالد بن الصعق هذا الأمر إلى عمر فى صورة أشعار فاستعرض عمر جميع ما كان لديهم وقسم أموالهم نصفين وأدخل النصف فى بيت المال وقد ذكر أسماء هؤلاء العمال بالتفصيل فى عدة أبيات من بين هذه الأبيات : -

أبلغ أمير المؤمنين رسالة   فأنت أمين الله فى المال والأمر
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى   يسيغون مال الله فى الآدم الوفر
فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه   وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما   ولا ابن غلاب من سراة بنى نصر

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٦ وجاء فيه : كان عمر إذا استعمل رجلاً أشهد عليه رهطًا من الأنصار . (المؤلف) - أبو يوسف : الخراج : ١١٥ - ١١٦ (المترجم) .

(٢) المرجع السابق : ١١٦ (المترجم) .

(٣) فتوح البلدان صفحة ٢١٩ وجاء فيها « كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك » (المؤلف) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٢٠ - ٢٢١ (المترجم) .

وما عاصم منها بصفر عيابه وذاك الذى فى السوق مولى بنى بدر
وشبلاً فسله المال وابن محرش فقد كان فى أهل الرساتيق ذا ذكر
نؤوب إذا آبوا ونغزوا إذا غزوا فإنى لهم وفر ولسنا أولى وفر
إذا التاجر الدارى جاء بفارة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى [١]

استدعاء جميع العمال فى موسم الحج :

وكان عمر يأمر جميع العمال بالحضور كل سنة فى موسم الحج وكان الناس يحضرون بمناسبة الحج من كل صوب وحدب فيقف عمر ويقول على الملأ : من لديه أى شكوى من أى عامل فليرفعها [٢] ، وهكذا كانت الشكاوى تعرض ولو كانت تافهة / وكان يتم تداركها بعد البحث والتحقيق ، وذات مرة جمع عمر كثيرًا من الناس وخطب فيهم قائلاً : « أيها السادة إنى والله ما أبعث إليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا من أموالكم لكنى أبعثهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ، فإذا عمل أى عامل خلافًا لذلك فأخبرونى لأقصنه منه » فقام إليه عمرو بن العاص وكان حاكمًا لمصر فقال : لو أن عاملاً أدب بعضهم أنك لتقصه منه ؟ قال عمر : والله الذى نفسى بيده لأقصنه منه ، كيف هذا وقد رأيت رسول الله - ﷺ - يقص من نفسه فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم [٣] .

٣٢

وذات مرة جاء جمع من العمال حسب العادة فقام رجل وقال : يا أمير المؤمنين إن عاملك ضربنى مائة سوط بلا ذنب ، فأمر عمر المستغيث أن يضرب العامل أمام الجميع مائة سوط ، فقام إليه عمرو بن العاص وقال : هذا الأمر سيكون ثقيلاً على عمالك .

---

(١) أورد البلاذرى اثنى عشر بيتًا من هذه الأبيات منسوبة إلى أبى المختار يزيد بن قيس بن الصعق وروى الشطر الثانى من البيت هكذا « فأنت أمين الله فى النهى والأمر » فتوح البلدان : ٣٧٧ (المترجم) .

(٢) فى تاريخ الطبرى صفحة ٢٦٨٠ : « وكان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج فى كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية وليكون لشكاة الرعية وقتًا وغاية ينهونها فيه إليه » (المؤلف) .

- الطبرى : ٤ / ١٦٥ - ١٦٦ (المترجم) .

(٣) كتاب الخراج صفحة ٦٦ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : الخراج : ١١٥ (المترجم) . وتاريخ الطبرى : ٤ / ٢٠٤ .

فقال عمر : لا يمكن هذا حتى أنتقم من الظالم . فجعل عمرو بن العاص يستلطف حتى أرضاه على أن يأخذ دينارين لكل ضربة سوط ويترك حقه [١] .

تقصى أحوال العمال :

وأقام (عمر) منصبًا خاصًا للبحث فى الشكاوى التى ترفع ضد العمال من حين لآخر / وكان محمد بن مسلمة يقوم بهذا العمل ، وكان من كبار الصحابة وصاحب رسول الله – ﷺ – فى جميع الغزوات ، ففى إحدى المهمات التى خرج فيها رسول الله – ﷺ – عينه نائبًا له على المدينة ولهذه الأسباب اختاره عمر لمثل هذا العمل العظيم فكان يكلف الناس بالتحريات عندما تأتى شكوى ضد أى عامل [٢] ، حيث يذهب إلى الموقع الأصلى ويجمع أقوال الناس وشهاداتهم فى جمع عام ، وفى سنة ٢١هـ ذهب الناس إلى عمر – رضى الله عنه – واشتكوا إليه سعد بن أبى وقاص فاتح القادسية والذى كان حاكمًا على الكوفة ، ووصل هؤلاء الناس فى الوقت الذى كان الفُرس يستعدون فيه استعدادًا كاملاً للمعركة وقد وصلوا بالقرب من « نهاوند » ومعهم مائة وخمسون ألف جندى وكان المسلمون مترددين كثيرًا والجيوش على أهبة الاستعداد للخروج من الكوفة للقائهم ، فقال عمر بالرغم من أن هذا الوقت حرج جدًا ومحفوف بالمخاطر ، إلا أنه لا يمكن أن يمنعنى هذا من التقصى عن سعد بن أبى وقاص وأرسل فى ذلك الوقت محمد بن مسلمة إلى الكوفة فطاف فى كل مساجد الكوفة ليسمع أقوال الناس ثم اصطحب سعد بن أبى وقاص معه إلى المدينة وهناك سمع أقواله بنفسه [٣] .

٣٣

---

(١) القاضى أبو يوسف : الخراج ١١٦ (المترجم) .

(٢) أسد الغابة تذكرة محمد بن مسلمة وهو كان صاحب العمال أيام عمر وكان عمر إذا اشتكى إليه عامل أرسل محمد يكشف الحال وهو الذى أرسله عمر إلى عماله ليأخذ شطر أموالهم . وقد ذكر الطبرى فى مواضع مختلفة أن محمد بن مسلمة كان مكلفًا بالتحرى عن العمال (المؤلف) .

– أسد الغابة : ٥ / ١١٢ (المترجم) .

(٣) هذه الواقعة بكامل تفاصيلها فى تاريخ الطبرى صفحة ٢٦٠٦ حتى ٢٦٠٨ ، وفى صحيح البخارى إشارة إلى هذه الواقعة كذلك – انظر الكتاب المذكور المجلد الأول صفحة ١٠٤ طبعة ميرت (المؤلف) .

– الطبرى : ٤ / ١٢١ – ١٢٢ (المترجم) .

لجنة التحقيق :

وكان يرسل فى بعض الأحيان عدة أشخاص للتحقيق « كلجنة للتحقيق » وهناك عدة وقائع من هذا النوع مذكورة فى كتب التاريخ ، وفى بداية الأمر كانوا يستدعون العامل إلى المدينة ويجرون معه التحقيقات مباشرة ، وغالبًا ما كان يحدث هذا عندما يكون العامل حاكمًا للأقليم أو مسئولاً كبيرًا مثلما حدث مع أبى موسى الأشعرى حاكم البصرة عندما رفعت شكوى ضده ، كتب عمر بيان الشاكى بيده واستدعى أباموسى وحقق معه بنفسه وكانت التهم هى أن أبا موسى خصص ستين من أبناء الدهاقين من أسرى الحرب لنفسه وله جارية تقدم له الطعام الفاخر صباحًا ومساءًا مع أن هذا النوع من الطعام لا يتوفر لعامة المسلمين ، وأنه قد ترك جميع أمور حكمه فى يد زياد بن سمية ، وأنه المسيطر على كل شىء ، وقد ثبت بالتحقيق زيف التهمة الأولى ، وكان رد أبى موسى على التهمة الثالثة أن زيادًا رجل سياسة وتدبير ولهذا انتصبته مستشارًا لى ، فطلب عمر زيادًا وامتحنه فكان فى الحقيقة رجلاً داهية لذا أمر حكام البصرة بنفسه أن يجعلوا زيادًا مشيرًا لهم . وعندما عرضت التهمة الثانية لم يستطع أبو موسى الرد بأى حجة فأخذت منه الجارية [1] .

وكان عمر يحاسب عماله حسابًا عسيرًا على أخطائهم وبصفة خاصة عن تلك الأمور التى يثبت منها الفخر والتميز والتعالى ، فكانوا يؤخذون بشدة ويعزل العامل ٣٥ الذى يثبت فى حقه أنه / لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف فى مقر عمله [2] .

وذات مرة كان عمر يمر فى السوق حين هتف به رجل قائلاً : يا عمر أترى هذه الشروط التى حددتها لعمالك تنجيك من عذاب الله ؟ ألا تعلم أن عامل مصر عياض ابن غُنيم يلبس الملابس الرقيقة وهناك حاجب على بابه ، فدعا عمر محمد بن مسلمة وقال له : ايتنى به فى الحالة التى تجده عليها ، فأتاه محمد بن مسلمة فوجد حقًا حاجبًا على بابه ، فدخل فوجد عياض وهو لابس قميصًا مصنوعًا من قماش رقيق فأخذه إلى المدينة بنفس الملابس ونفس الهيئة ، فأمر عمر بنزع قميصه وألبسه مدرعة من الصوف

(١) الطبرى : صفحة ٢٧١٠ - ٢٧١٢ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٨٤ - ١٨٥ (المترجم) .

(٢) كتاب الخراج صفحة ٦٦ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : الخراج : ١١٧ (المترجم) .

وطلب قطيعًا من الغنم وأمره أن يذهب إلى الصحراء ليرعاها ولم يكن هناك مجال لرفض عياض فأخذ يردد : الموت أحب إلىّ من هذا . فقال له عمر : لماذا تكره هذا ؟ وإنما عرف أبوك بغُنيم لأنه كان يرعى الغنم المهم أن عياض تاب توبةً نصوحًا وظل يؤدى واجبه على أكمل وجه ما دام حيًا [١] .

وقد بنى سعد بن أبى وقاص قصرًا له فى الكوفة وجعل فيه دهليزًا ، فظن عمر أنه ربما كان لمنع أصحاب الحاجة ، فكلف محمد بن مسلمة أن يذهب ويشعل النار فى ذلك الدهليز فامتثل للأمر تمامًا وظل سعد بن أبى وقاص ينظر إليه وهو صامت .

إن هذه الإجراءات التى من هذا النوع يمكن الاعتراض عليها فى الظاهر لأن التعرض للأفعال الشخصية وأسلوب حياة الناس هو ضد مبادئ الحرية ، لأن روح المساواة والجمهورية التى كان عمر يريد أن ينفثها فى جميع أوصال الدولة لا يمكن بثها حتى يصبغ عمر نفسه وأركان دولته بهذه الصبغة ، أما عامة الناس فلهم أن يفعلوا ما يريدون لأن تأثير أفعالهم يكون محدودًا ومقصورًا عليهم ، أما أعضاء الحكم فإن أسلوب معيشتهم المتميز عن الآخرين يولد فى قلوب الناس الحقد عليهم ، وينشأ من هذه الأمور تدريجيًا جميع خصائص الحكم الشخصى ومعنى ذلك أن يصبح الفرد الوحيد سيدًا ويصبح بقية الناس عبيدًا له علاوة على هذا فالشخص الذى على معرفة بطبيعة العرب يستطيع أن يفهم بسهولة أن هذا النوع من الإجراءات لم يكن يخلو من المصالح السياسية ، فالمساواة وتكافؤ الفرص التى يطلق عليها فى الوقت الحالى مصطلح « الاشتراكية » هو الطابع الأصلى للعرب ، فالحكم الذى يقام فى العرب على هذه الأصول يكون أكثر نجاحًا من جميع أنواع الحكم الأخرى ، ولهذا السبب كانت هذه الأحكام محددة فى الأماكن التى كان العرب يسكنونها وإلا فمعاوية كان يعيش فى الشام حياة رغد وترف ولم يتعرض عمر له أى تعرض ، وعندما رأى خدمه وحشمه فى سفر الشام قال له : أكسروانية هذه ؟ وعندما أجاب قائلاً : « إننا هنا فى مواجهة الروم وأرى أن بقاء هيبة الدولة لا يقوم إلا بهذا الأسلوب » لم يتعرض له عمر بشىء / . ٣٧

ولقد وضع عمر مبدأ عظيمًا وهو مبدأ الرواتب المرتفعة لكى يبقى العمال على صدقهم وتدينهم وقد تعلمت أوربا هذه الأصول بعد تجارب طويلة ، أما الدول

---

(١) كتاب الخراج : ١١٦ والطبرى : تاريخ الطبرى ٢٠٧/٤ (المترجم) .

الآسيوية فلم تدرك هذا السر حتى الآن والذى بسببه أصبحت الرشوة والخيانة من صفات الدول الآسيوية ، وبالرغم من أن الحياة الاجتماعية فى عهد عمر كانت رخيصة وقيمة العملة مرتفعة إلا أن الرواتب كانت عمومًا مرتفعة بالنسبة لمرتباتهم ومناصبهم فكان راتب حاكم الأقليم يصل إلى خمسة آلاف دينار خلافًا لما يحصلون عليه من تقسيم الغنائم وعلى هذا فقد كان راتب معاوية ألف دينار شهريًا (١) .

ونذكر الآن فهرسا إجماليا لعمال عمرو سنعرف منه نوعية الأجزاء التى اختارها عمر فى آلة حكمه

٣٨

الاسم	مكان العمل	الوظيفة	الحالة
أبو عبيدة	الشام	والى	صحابى معروف من العشرة المبشرين بالجنة .
يزيد بن أبى سفيان	»	»	لم يكن فى سائر بنى أمية رجل أجدر منه .
الأمير معاوية	»	»	معروف بالدهاء والسياسة .
عمرو بن العاص	مصر	»	فاتح مصر .
سعد بن أبى وقاص	الكوفة	»	خال رسول الله - ﷺ . /
عتبة بن غزوان	البصرة	»	كان من المهاجرين واستقر بالبصرة .
أبو موسى الأشعرى	»	»	صحابى جليل معروف .
عتاب بن أسيد	مكة المكرمة	»	كان الرسول قد عينه عاملاً على مكة المكرمة .
نافع بن عبد الحارث	»	-	من أفاضل الصحابة .
خالد بن العاص	»	-	ابن أخى أبى جهل وكان رجلاً عظيمًا .
عثمان بن أبى العاص	الطائف	-	أوقف أهل الطائف عند ما انتشرت الردة بعد الرسول .
يعلى بن أمية	اليمن	-	من الصحابة وكان مشهورا بالكرم .
علاء بن الحضرى	»	-	كان له نفوذ كبير وعينه الرسول عاملاً على اليمن .

(١) الاستيعاب للقاضى عبد البر (معاوية بن أبى سفيان) (المؤلف) .

الاسم	مكان العمل	الوظيفة	الحالة
النعمان	المدائن	صاحب الخراج	
عثمان بن حنيف	مراكز الفرات	المسئول عن مساحة الأراضى	كان بارعًا فى أعمال الحساب
والمساحة والقياس .			
عياض بن غُنم	الجزيرة	والى	فاتح الجزيرة .
عمرو بن سعد	حمص	»	كان عمر يبجله كثيرًا .
حذيفة بن اليمان	المدائن	»	صحابى مشهور وصاحب سر
رسول الله .			
نافع بن عبد الحارث [1]	–	–	كان من أسرة عريقة .
خالد بن حرث الدهمانى		صاحب بيت المال	
أصفهان			
سمرة بن جندب	سوق الأهواز	–	من كبار الصحابة / .
النعمان بن عدى	ميسان	–	كان أول الصحابة الذين تلقوا
مال الوراثة .			
عرفجة بن هرثمة	الموصل	صاحب الراج	أقام مدينة للجيش فى الموصل

٣٩

(١) أخطأ شبلى وكرر هذا الاسم مرتين (المترجم) .

إدارة المال : الخراج

اختراع عمر طريقة الخراج عند العرب :

كان تنظيم الخراج إضافة جديدة فى تاريخ حضارة العرب ، ومع أن القبائل العربية المختلفة كانوا أصحاب تيجان وعروش قبل الإسلام وقد أسسوا جميع شئون الحكم إلا أنه لم يكن لديهم قاعدة منظمة للخراج مطلقًا ، وفى صدر الإسلام عندما تم فتح خيبر قال اليهود نحن نجيد أعمال الزراعة فاتركوا لنا الأرض فى حوزتنا فقبل رسول الله ﷺ – طلبهم نظير أجر وفيما عدا هذا فقد حدد العُشر على الأراضى التى أصبح جميع سكانها مسلمين والذى كان نوعًا من أنواع الزكاة ، وفى عهد أبى بكر تم فتح بعض أجزاء من العراق لكن لم يتم تنظيم الخراج بل قرر مبلغًا إجماليًا من المال .

وحينما اطمأن عمر من جانب المهام القتالية إلى حد ما بعد أن استولى على العراق العربى تمامًا فى سنة ١٦هـ ومن ناحية أخرى استأصل قوة الروم بفتح اليرموك ، توجه إلى تنظيم إدارة الخراج وترتيبها فكانت أولى الصعاب التى واجهته / فى هذه المرحلة هى إصرار أمراء الجيش على أن يقطع لهم جميع الأراضى المفتوحة مكافأة للنصر ويسترق لهم أهلها ، وقد أمر عمر سعد بن أبى وقاص مع فتح العراق بإحصاء الناس فقام سعد بإحصاء الناس بدقة ثم رتب الأوراق وأرسلها له وقارن بين جميع السكان والجنود فوجد أن نصيب الرجل من المسلمين ثلاثة من الفلاحين وقد استقر رأى عمر فى ذلك الوقت على أن يترك أراضى أهل السواد فى أيديهم ويطلق لهم [1] فيها الحرية ، لكن عبد الرحمن بن عوف وغيره من كبار الصحابة كانوا موافقين الجيش فى طلبه وقد أصر بلال على ذلك إضرارًا شديدًا حتى تضايق عمر وقال : اللهم اكف بلالاً . وكان دليل عمر فى هذا الأمر هو أن البلاد المفتوحة لو قسمت على الجيش فمن أين سيأتى بنفقات استتباب أمن الدولة وأمانها وحمايتها من الحملات الخارجية وتجهيز الجيوش فى المستقبل . فقال عبد الرحمن بن عوف إن الذين فتحوا الدولة من حقهم أن يستولوا

٤٠

(١) الطبرى : ٢٦٧ (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٣٠ (المترجم) .
– فتوح البلدان صفحة ٢٦٦ (المؤلف) – البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٢٦ – ٢٦٨ (المترجم) .
– كتاب الخراج صفحة ٢١ (المؤلف) – أبو يوسف : الخراج : ٣٦ (المترجم) .

عليها فلا يمكن أن تحصل عليها الأجيال القادمة بدون أى كفاح ، ولما كانت طريقة حكمه طريقة جمهورية أى أن الحكم الذى كان يفصل فيه يتم بأكثرية الآراء لذا انعقدت جلسة عامة كان من بينهم قدماء المهاجرين وخمسة من الأوس وخمسة من الخزرج اشتركوا كوكلاء [١] واتفق رأى علىّ وعثمان وطلحة / مع رأى عمر ومع هذا لم يتخذ قرارًا يسوى النزاع واستمرت هذه الحالة عدة أيام . ٤١

استدلال عمر :

وفجأة تذكر عمر آية من القرآن الكريم فكانت نصًا قاطعًا لهذه القضية ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ . . الخ ﴾ [٢] واحتج عمر بالفقرة الأخيرة من هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [٣] بأن للأجيال القادمة حقًا أيضًا فى هذه الفتوحات ، لكن لو قسمت على الفاتحين الآن فلن يتبقى شىء للأجيال القادمة . فنهض عمر وألقى خطبة قوية وقدم هذه الآية دليلاً فقال الناس لا ريب فى أن رأيك صواب وبناء على هذا الدليل استقر هذا المبدأ وهو أن البلاد التى فتحت لا تصبح ملكًا للجيش بل تبقى ملكًا للحكومة ولا يتنحى عنها أصحابها السالفون وبعد إرساء هذا المبدأ عمل على تنظيم أراضى البلاد المفتوحة .

تنظيم أراضى العراق :

لقد أصبح العراق إقليمًا عربيًا لاستيطان العرب فيه ولأنه قريب جدًا من تخوم العرب فبدأ بتنظيمها قبل الأماكن الأخرى ، وكان من عادة عمر أنه قبل أن يبدأ عمله يتعرف على تقاليد تلك البلاد القديمة وكثيرًا ما كان يبقى النظم القديمة على حالها مع بعض الإصلاحات الطفيفة فالطريقة المتبعة فى خراج العراق آنذاك كانت فى تحصيل

---

(١) كتاب الخراج صفحة ١٤ (المؤلف) – القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ٢٥ (المترجم) .

(٢) ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ . سورة الحشر : ٨ (المترجم) .

(٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة الحشر : ١٠ (المترجم) – انظر البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٥ (المترجم) .

الضرائب بنسبة محددة على كل نوع من الإنتاج الزراعى والتى تدفع على ثلاثة أقساط . وكان « قباد » أول من وضع هذه الطريقة وأكملها أنوشيروان . وقد روعى هذا المبدأ فى أيام أنوشيروان / وهو ألا تزيد نسبة الضريبة عن نصف المحصول الزراعى إلا أن خسرو برويز قد أضاف عليها ، كما حدث فيها تعديلات أخرى فى عهد يزدجرد [١] وقد أمر عمر بمزيد من التحقيقات فى هذا الصدد فأمر بمسح الأرض من أجل هذا العمل وكان من الضرورى الإلمام بفن المساحة إلى جانب التدين ، ولم يكن هذا النوع من الفنون رائجًا بين العرب حتى ذلك الوقت ولهذا فإنه فى البداية واجه شيئًا من الصعوبات وأخيرًا اختار رجلين هما : عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان وكلاهما كان من كبار الصحابة وبسبب كثرة إقامتهما فى العراق تعرفوا على مثل هذا النوع من الأعمال وبصفة خاصة عثمان بن حنيف فقد كانت له مهارة كاملة فى هذا الفن ويذكر القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج أنه كان يقيس بدقة كما لو كان يقيس الأقمشة النفيسة وقد أعد عمر « مقياس المساحة » نفسه بيده المباركة وقد استمر عمل المساحة باهتمام ودقة بالغة لعدة شهور .

٤٢

المساحة الكلية للعراق :

قدرت المساحة الكلية بـ ٣٧٥٠ ميلاً طولاً ، و٢٤٠٠ ميل عرضًا أى ثلاثون ألف ميل مربع ، تاركًا الأنهار والصحراء والجبال وقد وصلت مساحة الأرض الصالحة للزراعة إلى ثلاثين مليونًا وسبعمائة ألف جريب [٢] أما إقطاعية الأسرة المالكة وأوقاف معابد النار وأراضى من لا وارث لهم والهاربين والمتمردين والأراضى التى خصصت لإعداد الشوارع وإصلاحها والأراضى الخاصة بنفقات البريد وطرح النهر والغابات فقد جعل عمر جميع تلك الأراضى أرضًا حكومية (ملكًا شائعًا) ويبلغ دخلها السنوى / ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ خصصها لأعمال الرفاة العام وأحيانًا كانت تقطع إقطاعية لشخص ما نظيرًا لجهوده

---

(١) كتاب الأوائل ذكر أول من غير سنة ساسان وذكر أول من وضع الخراج (المؤلف) .

- أبو هلال العسكرى : كتاب الأوائل ص : ٣٣٠ و ٣٣٨ (المترجم) .

(٢) الجريب : الوادى واستعير للقطعة المميزة من الأرض ويختلف مقدارها باختلاف الأقاليم ويذكر أبو الفصل فى « آئين اكبرى » أنه حوالى ١٨٠ مترًا مربعًا بينما البيكة حوالى ٣٦٠ مترًا مربعًا . (المترجم) . (أبو الفضل) : آئين اكبرى . جلد أول . ترجمة محمد فدا على طالب سنگ ميل ببلى كيشر . اردوبازار لاهور : ٦٦ .

الإسلامية فكانت تقطع من هذه الأراضى إلا أن هذه الإقطاعيات لم تكن تستثنى من العشر أو الخراج بأى حال من الأحوال ، وأعطيت جميع الأراضى الباقية لأصحابها القدامى وحددت لها الضريبة طبقًا لما يلى :

نسبة الضريبة

القمح	فى الجريب أى ربع فدان	درهمان فى السنة
الشعير	»	درهم فى السنة
قصب السكر	»	ستة دراهم فى السنة
القطن	»	خمسة دراهم فى السنة
العنب	»	عشرة دراهم فى السنة
النخل	»	عشرة دراهم فى السنة
السمسم	»	ثمانية دراهم فى السنة
الخضروات [١]	»	ثلاثة دراهم فى السنة

وكان هناك تفاوت فى هذه النسبة فى بعض الأماكن من حيث قدرة الأرض وصلاحيتها ، أى أنه قد حددت أربعة دراهم فى جريب القمح ودرهمين فى جريب الشعير .

خراج العراق :

أما الأراضى البعيدة عن العمران فقد حدد لها درهم على كل جريبين بشرط أن تكون صالحة للزراعة وهكذا وصل خراج العراق كله إلى ثمانية ملايين وسبعمائة ألف درهم ولأن كفاءة مسئولى المساحة كانت متفاوتة ظل هناك فرق فى تحديد مجموع الضرائب عليها وكل ما زاد عن المجموع المحدد فى أى مكان يترك لأصحاب الأرض / ٤٤ وكان عمر يفكر فى أهل الذمة إلى درجة أنه استدعى كلا المسئولين عن المساحة وقال لهما ، هل شددتم فى تحديد الجمع ؟ قال عثمان : لا بل إن هذا التحديد يتسع لمثله أيضًا [٢] .

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج : ص ٣٦ (المترجم) .

(٢) كتاب الخراج صفحة ٢١ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ٨٤ (المترجم) .

الإقطاعى وحاكم الأقليم :

أما الإقطاعيون وملاك الأراضى منذ القدم والذين يطلق عليهم فى اللغة الفارسية اسم « مرزبان » و« دهقان » فقد تركهم عمر على حالهم وأبقى جميع السلطات الخاصة بهم .

وكانت النتيجة التى ظهرت لقيام عملية مسح الأراضى كلها بطريقة جيدة مدهشة وتحديد الضرائب على الأراضى وإن زاد على الشريحة المقررة أيام أنوشيروان إلا أن كثيرًا من الأراضى البور قد استصلحت ونمت المحاصيل الزراعية مرة واحدة .

تنمية الدخل والإنتاج الزراعى :

وهكذا ارتفع بعد مسح الأرض بعام مقدار خراج الأرض من ثمانية ملايين إلى عشرة ملايين وعشرين ألف درهم [١] وقد زاد هذا المقدار أيضًا فى السنوات التالية ، ومع ذلك كان عمر حريصًا كل الحرص فى هذا الصدد فكان عندما يجبى الخراج يطلب عشرة أشخاص من ثقات الكوفة ومثلهم من البصرة وكان يشهدهم أربع شهادات بالله أن هذا الخراج لم يؤخذ بظلم من مسلم ولامعاهد [٢] .

٤٥ ومن أغرب الأمور أنه بالرغم من أن عمر قد حدد الخراج فى يسر وسهولة لكن / مقدار الخراج الذى جُبى فى عهده لم يُجب مطلقًا فيما بعد .

مقدار الخراج الذى جُبى فى عهد عمر لم يحدث مطلقًا فيما بعد :

كان عمر بن عبد العزيز يقول : لعن الله الحجاج فإنه لم يكن يصلح للدنيا ولا للآخرة ، فقد جبى عمر خراج الطرق مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف

---

(١) تاريخ اليعقوبى صفحة ١٧٤ (المؤلف) – اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ١٣٣ – ١٣٤ (المترجم) .

(٢) كتاب الخراج صفحة ٦٥ . وهذه العبارة الأصلية « إن عمر بن الخطاب كان يجبى العراق كل سنة مائة ألف ألف أوقية ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد » (المؤلف) – الخراج ١١٤ (المترجم) .

درهم وجباه زياد مائة ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف ثم جباه الحجاج مع ظلمه وعسفه ثمانية عشر ألف ألف درهم (١) ، وقد اشتهر عهد المأمون بن الرشيد بالعدل والإنصاف لكن فى عهده أيضًا لم يزد مقدار خراج العراق مطلقًا عن خمسين مليونًا و٤٨٠٠٠٠ درهم .

ديوان الخراج باللغة الرومية والفارسية :

وبقدر ما نعلم فإن عمر لم يقم بمسح أى إقليم سوى العراق ، وقد أبقى على الإدارة وأوراق الإدارة التى كانت قد أعدت من قبل حتى إنه لم يغير لغة الدواوين ، أى كما كانت الدواوين قبل الإسلام بالرومية فى الشام وبالفارسية فى إيران والعراق والقبطية فى مصر وظلت هكذا فى عهد عمر كما ظل الموظفون الفرس واليونان والأقباط فى إدارة الخراج كالمعتاد ومع ذلك فقد أصلح عمر أى خطأ رآه فى طريقة الإدارة القديمة وسوف تأتى تفاصيله .

قواعد الخراج فى مصر فى عهد الفراعنة :

أبقى البطالمة على مساحة الأراضى التى أعدت فى أيام الفراعنة على ما هى عليه كما استمر تقدير هذه المساحة ساريًا فى الإمبراطورية الرومانية وقد مسح الفراعنة جميع الأراضى وحددوا كيفية الدخل على الأراضى المحررة وجعلوا هذه المبادئ أساسًا لدفع الخراج / .

٤٦

١ - يحصل الخراج فى صورة نقد أو انتاج .

٢ - تحدد الضريبة بناء على خراج متوسط الإنتاج لعدة سنوات .

٣ - يعاد مسح الأرض والأمور المتعلقة بها كل أربع سنوات (٢) .

---

(١) معجم البلدان ذكر السواد (المؤلف) - ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٣ / ٢٧٤ (المترجم) .

(٢) البروفيسور فافان برخيم FAVAN BERCHEM كتب كتابًا باللغة الفرنسية عن قانون الخراج عند المسلمين وقد أخذت هذه البيانات من هذا الكتاب وسوف أرجع إلى هذا الكتاب فيما بعد والاسم الكامل لهذا الكتاب هو : =

زيادة الرومان :

لقد أبقى الرومان على جميع القواعد السالفة فى عهد حكومتهم ، لكنهم أصدروا دستورًا جديدًا وعليه فقد كانت الغلال ترسل كل عام بكميات كبيرة من مصر إلى القسطنطينية فضلاً عن الخراج وكانت الغلات ترسل من مصر مؤونة للجيش فى كل أقاليم الدولة ولم تكن تحسب من الخراج فألغى عمر كلا الطريقتين الجائرتين ، وقد ذكر المؤرخون الأوربيون أن هذه الطريقة استمرت حتى فى عهد عمر وأن الغلال التى أرسلت إلى المدينة المنورة من مصر فى عام المجاعة قد أرسلت طبقًا لتلك القاعدة إلا أن هذا خطأ كبير وقياس باطل ، فلا شك أن الغلال وصلت من مصر فى عام القحط ثم استمرت هذه العادة لفترة من الوقت لكن هذه الغلات لم تكن إلا الغلال التى تجبى من الخراج ولم تكن هناك أية ضريبة أو خراج جديد كما ذكر البلاذرى بوضوح فى فتوح البلدان [١] . والدليل على هذا الأمر هو أنه عندما بقيت الطريقة النقدية وحدها فى تحصيل الخراج / فإن الغلة التى كانت ترسل إلى الحرمين كانت تشترى أولاً ثم ترسل مثلما ذكر المقريزى بوضوح فيما يتعلق بأيام حكم معاوية [٢] وكذلك عمر فقد أقام نظام جمع المؤونة للجيش فى صورة غلال فى كل أقليم إلا أن هذه الغلال كانت من الخراج أيضًا .

٤٧

طريقة جباية الخراج فى مصر :

لقد جعل عمر - رضى الله عنه - تحصيل الخراج أمرًا سهلاً وهكذا فقد أدخل التعديلات فى القواعد القديمة لكلتا الدولتين ، وكانت مصر دولة تعتمد أساسًا على فيضان نهر النيل فى محصولها الزراعى ، ولأن منسوب فيضانه يتفاوت تفاوتًا كبيرًا دائمًا لذا لا يمكن أن يكون هناك أى تقدير خاص للإنتاج الزراعى ولا يفيد معه متوسط إنتاج عدة سنوات ، الفلاح البسيط لا يستطيع أن يقسم نفقاته بهذا النظام بحيث يستطيع أن يصرف شئونه فى سنوات الجفاف طبقًا لمتوسط الحساب .

" LA PROPRIERE TERITORIAL ETU, IMPOT FONCIER SONSLES = PREMIERS CALIFES"

(١) فتوح البلدان : ٢١٦ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٢١٧ - ٢١٨ (المترجم) .

(٢) المقريزى المجلد الأول صفحة ٧٩ (المؤلف) .

وعلى كل حال فقد كانت طريقة جباية الخراج فى عهد عمر هو أنه عندما كان يحين أجل أقساط الخراج كان يستدعى الأعيان وأصحاب الأراضى والعراق فى محافظات البلاد كلها فيقدمون خراجًا تقديريًا للدولة كلها طبقًا لحالة المحصول ، وبعد هذا يرتب تقديرًا خاصًا بكل محافظة ومركز ويشترك فيه أصحاب الأراضى المحليين وعُمد القرى وهذا المبلغ التقديرى الذى يتم بمشورة هؤلاء الناس كان يوزع على القرى كلها ، وفى البداية يستخرجون من المحصول تكاليف الحمامات / والكنائس ونفقات ضيافة المسلمين ٤٨ ويستخرج من بقية المحصول المبلغ المحدد من الخراج على كل قرية من الحرفيين أيضًا [١] .

ومع أن هذه الطريقة كانت شاقة جدًا إلا أن الإدارة كانت تقوم بإعادة تقدير الخراج كل عام وذلك لأن حالة مصر تقتضى مراعاة العدل والإنصاف وهذه الطريقة رائجة فى مصر منذ مدة مع تعديلات طفيفة .

وجعل شريحة الضرائب فى الجريب دينارًا وثلاثة أرادب من الحبوب وكتبت هذه المعاهدة « ألا يضيف إليها كمية أخرى » .

خراج مصر العام :

مع هذا العدل والإنصاف فإن الخراج الذى كان يُجبى فى عهد عمر كان مقداره اثنى عشر مليون دينار أى حوالى خمسين مليون و٠٠٠ ر ٦٠٠ روبية تقريبًا ، وذكر المقريزى أن هذا المبلغ كان مال الجزية فقط بالإضافة إلى الخراج ، كما أن القول الذى نقله ابن حوقل البغدادى عن ابن حزم يؤكد هذا الكلام أيضًا ، وفى رأيى أن كليهما قد أخطأ ، فقد ذكر المقريزى نفسه أنه عندما جبى عمرو بن العاص عشرة ملايين دينار فى السنة الأولى اعترض عليه عمر وسأله معتقدًا أن المقوقس قد جبى فى السنة الماضية مائتى مليون دينار . / ٤٩

ومن المسلم به أنه لم يكن فى عهد المقوقس قانون للجزية ، لذا فإن المبلغ الذى بعثه عمرو بن العاص هذا لو كان جزية فإن مقارنته فى هذه الحالة بمبلغ المقوقس حساب

---

(١) انظر التفاصيل كاملة فى كتاب المقريزى (المؤلف) - المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٧٧ (المترجم) . وقد أكد ذلك العلامة بشارة المقدسى فى كتاب الجغرافيا - بشارة المقدسى : أحسن التقاسيم : ٢١٢ - ٢١٣ (المترجم) .

خاطئ ، فضلاً عن هذا فإن جميع المؤرخين والمقريزى نفسه عندما قارنوا الخراج قبل الإسلام بالعصور التى بعده ذكروا فى نفس هذا المبلغ .

خراج مصر فى عهد الأمويين والعباسيين :

على كل حال فإن مقدار ما وصل إليه الخراج فى عهد عمر لم يصل إليه فى العصور اللاحقة ، فلم يزد ماجبى فى عهد بنى أمية وبنى العباس عن ثلاثة ملايين دينار ، وعندما مسح هشام بن عبد الملك جميع أراضى الدولة باهتمام شديد وصلت إلى ثلاثين مليون فدان فارتفع الخراج من ثلاثة ملايين إلى أربعة ملايين ولا شك أنه فى عهد عثمان جبى عبد الله والى مصر أربعة عشر مليون دينار ، وعندما قال عثمان – رضى الله عنه – لعمرو بن العاص وهو يفتخر : « لقد درت الناقة هذه المرة كثيرًا » ، فقال عمرو بن العاص غير مبال : نعم إلا أن صغارها لم يجدوا ما يشبع [٢] . وفى عهد معاوية الذى يعتبر رمزًا لكل أنواع التطور الدنيوى كان خراج مصر تسعة ملايين دينار [٣] . وفى عهد الفاطميين – على الرغم من أن الخليفة المعتز لدين الله ضاعف نسبة الخراج – إلا أنه لم يجب أكثر من ثلاثة ملايين و٠٠٠ و ٢٠٠ دينار [٤] .

الشام :

أما فى الشام فإن القانون المعمول به حتى عهد الإسلام كان ذلك القانون الذى وضعه أحد ملوك اليونان فى جميع البلاد التى تحت سلطته وهكذا وضع على كل نوع من الأرض ضريبة مختلفة عن الأخرى بعد أن قدر أنواع الأرض من حيث اختلاف المحاصيل ، وقد ترجم هذا القانون فى بداية القرن السادس الميلادى من اللغة اليونانية

---

(١) ابن حوقل البغدادى : المسالك والممالك : ٨٨ (المترجم) .

(٢) المقريزى المجلد الأول صفحة ١٨ (المؤلف) المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٩٨ (المترجم) .

(٣) معجم البلدان ذكر مصر (المؤلف) ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٥ / ١٤١ .

(٤) ابن حوقل ذكر مصر . (المؤلف) ابن حوقل : المسالك والممالك : ١٠٧ – ١٠٨ (المترجم) .

إلى اللغة الشامية [١] . وكان هذا القانون ساريًا فى جميع تلك الدول حتى الفتوحات الإسلامية [٢] ، ويتضح من القرائن والقياس أن عمر قد أبقى هنا نفس القانون القديم أيضًا كما فعل فى مصر ، وكان المقدار الكلى للخراج الذى جُبى من الشام فى عهد عمر أربعة عشر مليون دينار أى ثلاثة وثلاثين مليون روبية .

وفيما عدا الشام ومصر والعراق فإن لدينا معلومات ضئيلة جدًا عن تحديد الخراج وإدارة المساحة وتنظيم الأراضى فى البلاد المفتوحة الأخرى مثل فارس وكرمان وأرمينية ، ولم يذكر المؤرخون فى فتح هذه البلاد سوى هذا فقط « لقد تقرر الخراج على الأرض والجزية على الناس هناك » وحينما تعقد المعاهدة فى بعض الأماكن على مبلغ معين من المال كان يحدد مقداره لكنهم لم يكتبوا شيئًا بالتفصيل عن الأشياء الأخرى ولأن التفاصيل الجزئية لا ترتبط بأى نتائج كبرى من هذا النوع لذا لا يوليها اهتمامًا .

إصلاحات عمر فى قانون الخراج :

لا شك أن المحقق يستطيع أن يدقق النظر فى هذا الأمر وهو الإصلاحات والاختراعات الخاصة بالفتوحات الفاروقية فى هذا الصدد ، إننا نريد أن نلقى نظرة على هذا الجانب الخاص ، إن أعظم ثورة أحدثها عمر فى هذا الباب وحدث بسببها تطور عظيم ومفاجىء فى رخاء الرعايا ورفاهيتهم / أنه قضى على القانون القديم الجائر ٥١ للإقطاع وملكية الأرض ، فعندما استولى الروم على مصر والشام استلبوا جميع الأراضى من السكان الأصليين وأعطوها لبعض أعضاء البلاد وقادة الجيش وجعلوا جزءًا منها إقطاعًا ملكيًا وأوقفوا بعضها على الكنيسة ولم يبق فى يد السكان الأصليين غير قطعة صغيرة من الأرض ولم يكن لهم إلا حق زراعتها فقط ، وعندما تنتقل ملكية الأرض من مالكها لمالك آخر كان المزارعون ينتقلون معها ، حتى تقطع الأرض لبعض السكان أيضًا ، لكنهم كانوا يستمدون العون من الإقطاعيين الروم من أجل الحفاظ على الإقطاع والتمتع بمزاياه وبهذه الحيلة صار الإقطاعى نفسه هو المتصرف فى هذه الأرض ويبقى الفلاح البائس فلاحًا بائسًا كما كان من قبل ، ولم تكن هذه الطريقة مقصورة على دولة

(١) لم تكن آنذاك لغة تسمى اللغة الشامية ولعل شبلى يقصد اللغة السريانية (المترجم) .

(٢) انظر كتاب البروفيسور بروخيم الفرنسى : قانون الخراج عند المسلمين (المؤلف) .

الروم فقط بل كما نعلم فإن هذه الطريقة كانت سائدة تقريبًا فى جميع أنحاء العالم حيث كانت تعطى مساحة كبيرة جدًا من الأرض كإقطاعية لرجال الدولة وقادة الجيش .

وعندما استولى عمر على هذه البلاد قضى على هذا القانون الجائر ، أما أبناء الروم فقد رحل معظمهم بعد فتح البلاد ومن بقى منهم نزعت الأراضى من أيديهم وسلم عمر - رضى الله عنه - جميع الأراضى التى كانت إقطاعًا ملكيًا أو التى كان قادة جيش الروم يستولون عليها إلى رعايا الدولة وبدل أن يعطيها للقادة المسلمين من المدنيين أو الجيش وضع منهجًا صارمًا بحيث لا يمكن لمسلم أن يستولى على تلك الأراضى بأى حال من الأحوال / ولا يمكن لهم شراؤها بدفع الثمن لمالك الأرض . وظلت هذه القاعدة متبعة وسارية بعض الوقت حتى إنه عندما اشترى الليث بن سعد شيئًا من أرض مصر اعترض على ذلك كبار أئمة الدين مثل الإمام مالك ونافع بن يزيد وابن لهيعة [1] ، ولم يكتف عمر بهذه الإجراءات فحسب بل حظر على العرب الذين بدءوا ينتشرون فى تلك البلدان القيام بالزراعة ، فأرسل الأوامر باسم جميع قادة الجيش ليجروا الرواتب على هؤلاء الناس ولهذا لم يعمل أى شخص بالزراعة وقد أصدر هذا الأمر بحزم وشدة حتى إنه عندما عمل شريك الغطفى بالزراعة فى مصر استدعاه عمر وعنفه بشدة وقال : « سأعاقبك عقابًا يكون عبرة للآخرين » [2] .

٥٢

بجانب هذه الضوابط والقواعد فإن عمر قد أقام نموذجًا للعدل والإنصاف لا يوجد له مثيل فى أى بقعة من بقاع الأرض ، فلم يتسامح أى فاتح مطلقًا مع المهزومين بمثل هذا التسامح ، ومن ناحية أخرى تطورت الزراعة والعمران بسبب هذا تطورًا عظيمًا ولهذا فإن العرب البدو لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام السكان الأصليين المهرة فى تلك الأعمال منذ وقت طويل فضلاً عن هذا فقد ساهمت إدارة عمر للأمور فى اتساع الفتوحات ، وقد ذكر مؤلف فرنسى من الثقات أن من المسلم به أنه كان لأمور الخراج وتحصيل الأموال دخل كبير فى الفتوحات الإسلامية ، لأن الخراج المجحف الذى كان يؤديه رعايا الدولة فى الإمبراطورية الرومانية / ضاعف من سرعة الفتوحات الإسلامية لأن المقاومة التى كانت تواجه المسلمين لم تكن من جانب أهل البلد بل كانت

٥٣

---

(١) المقريزى : ١ / ٢٩٥ (المؤلف) .

(٢) حسن المحاضرة : ٩٣ (المؤلف) .

من قبل الحكومة ، فقد كان الزراع الأقباط أنفسهم فى مصر يساعدون المسلمين ضد جيش الرومان ، وفى دمشق وحمص أغلق النصارى أبواب المدينة فى وجه جيش هرقل وقالوا للمسلمين نحن نفضل حكمكم كثيرًا على حكم الروم الجائر .

ويجب ألا نعتقد أن عمر قد هضم حق قومه فى عدله مع الأقوام الأخرى حين منعهم من الفلاحة والزراعة ، والحقيقة أن هذا بُعد نظر من عمر لأن الجوهر الأصلى للعرب هو الشجاعة والبطولة والمعاناة والقوة والمضاء وقد بقى فيهم وقتما كانوا بعيدين عن الإقطاع والزراعة وأنهم قد فقدوا جميع هذه الصفات فى ذلك اليوم الذى وضعوا فيه أيديهم على الأراضى .

أخذ رأى أهل الذمة فى تنظيم الخراج :

والقواعد والأصول الأخرى التى وضعها عمر فى هذا الصدد كانت غاية فى العدل والإنصاف وكان دائمًا يطلب الرأى والمشورة من الرعايا الذميين الذين كانوا من النصارى أو من المجوس ويشاركهم فى تقديم الرأى فى تنظيم الأراضى وجميع الأمور المتعلقة بها ، وكان يراعى تظلماتهم . وعندما أراد تنظيم مساحة العراق كتب للعمال أولاً أن أرسلوا إلى اثنين من دهاقين العراق ومعهم مترجم [١] وكذلك عند تنظيم مصر للحاكم هناك أن يأخذ رأى المقوقس - (الذى كان حاكمًا لمصر سابقًا) فى أمور الخراج وحينما لم يقتنع بهذا استدعى إلى المدينة خبيرًا قبطيًا وسمع آراءه [٢] ولم تكن هذه الطريقة أعلى نماذج العدل والإنصاف فحسب بل كانت ذات أهمية مفيدة لتنظيم الإدارة .

ويجب ضم هذه الإصلاحات إلى جانب تلك الأمور التى ذكرناها فى بداية تنظيم الأراضى ومساحتها .

تطوير الزراعة :

وقد ولى عمر اهتمامه بتطوير الزراعة واستصلاح الأراضى إلى جانب المساحة ،

(١) كتاب الخراج صفحة ٢١ - القاضى أبو يوسف : الخراج : ٣٨ (المترجم) .
(٢) المقريزى : ١ / ٧٤ - ٧٥ (المؤلف) .

وأصدر حكمًا عامًا بأن من يصلح الأراضى البور غير الصالحة للزراعة حينما وجدت فى جميع أنحاء الدولة تؤول ملكيتها له لكن لو أن أحدًا استولى على هذا النوع من الأرض بغرض إصلاحها ولم يستصلحها فى غضون ثلاث سنوات تسترد منه الأرض ، وبهذه الطريقة استصلحت الأراضى غير الصالحة للزراعة بسرعة فائقة ، أما الرعايا الذين تركوا منازلهم وقت الحملات وهربوا فقد طلب منهم العودة لتملك أرضهم . ونستطيع أن نقدر تصور عمر لتطوير الزراعة حين جاء رجل ذات مرة يشتكى ويقول إن عندى زرعًا بالشام ومر به جيشك فأفسده فأمر عمر أن يعوض بعشرة آلاف درهم[1] / .   ٥٥

إدارة الرى :

لقد أجرى عمر الأنهار فى جميع البلاد المفتوحة وأقام إدارة كبيرة لهذا النوع من الأعمال مثل إقامة السدود وإعداد البحيرات وبناء القناطر لتوزيع المياه وشق فروع الأنهار ، وقد ذكر المقريزى أنه فى مصر بصفة خاصة مائة وعشرون ألف عامل كانوا يقومون بهذا العمل يوميًا طوال العام ، وكانت جميع هذه النفقات تؤدى من بيت المال[2] . وقد استأذن جزء بن معاوية عمر ليحتفر أنهارًا كثيرة فى مراكز الأهواز وخوزستان وعن طريقها تم استصلاح كثير من الأراضى غير الصالحة للزراعة ، وهكذا شقت مئات الأنهار التى نجد بعض أخبارها فى كتب التاريخ .

الخراج والعشور : [3]

هناك تقسيم آخر للأرض من حيث نوعية الحيازة أى أرض الخراجى والعشرى ، ولقد مر بنا وصف الخراجى ، أما العشرى فكان اسمًا لتلك الأراضى التى كانت فى حوزة المسلمين . وأقسامها حسب ما يلى :

١ - أرض العرب التى صار أصحابها مسلمين فى بداية الإسلام مثل أراضى المدينة المنورة وغيرها .

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٨ (المؤلف) - أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٩ (المترجم) .

(٢) المقريزى : ١ / ٧٦ (المؤلف) .

(٣) كنز العمال : ٤ / ٢٢٦ (المترجم) .

٢ – الأرض التى انتقلت ملكيتها من ذمى وآلت إلى مسلم مثل من مات بلا وريث أو هرب أو تمرد أو الذى قدم استقالته .

٣ – الأرض غير الصالحة للزراعة التى لم تكن ملكًا لأحد واستصلحها مسلم / .   ٥٦

وكانوا يطلقون اسم عشرى على تلك الأراضى كلها ، ولأن كل ما يؤخذ من المسلمين كان يدخل فى نطاق الزكاة لهذا قررت الزكاة على تلك الأراضى بدلاً من الخراج وكان مقدارها يعادل عشر المحصول الأصلى وكان الرسول قد قرر بنفسه هذه النسبة وبقيت كما هى فى عهد عمر ، وقد فعل عمر كذلك فى الأراضى التى استولى عليها المسلمون فى إيران وغيرها وكان يقرر الخراج عليهم إذ كانت تروى بأنهار الذميين وآبارهم القديمة فقد كانت مثل هذه الأراضى فى حوزة عبد الله بن مسعود وخباب وهى أجود أنواع الأراضى . أما إذا حفر المسلم بنفسه نهرًا جديدًا أو بئرًا جديدًا لرى أرضه كان يقرر عليه العشر [١] .

إن تخصيص العشر على المسلمين مع أنه يبدو فى الظاهر نوعًا من أنواع الظلم أو الترجيح القومى إلا أنه ليس هكذا فى الواقع ، أولاً : فإن المسلمين كانوا يؤدون مبالغ كبيرة فى مقابل أهل الذمة مثل الزكاة على المواشى والزكاة على الخيل والزكاة على المال مع أن أهل الذمة كانوا يستثنون تمامًا من تلك الرسوم . وبناء على هذا فإن التعامل فى الأرض الخاصة التى فى حوزة القلة القليلة من المسلمين وهذا النوع من التفضيل كان بمقتضى العدل الكامل . وثانيًا فإن العشر كان مبلغًا لا يمكن أن يُعفى منه أو يخفض فى أى حال من الأحوال حتى إن الخليفة أو الملك نفسه لو أراد أن يعفى فلا يستطيع أن يُعفى منها ، وخلافًا لهذا فالتخفيف والمعاناة فى الخراج أو أحدهما كان جائزًا وكان يعمل بهذا من وقت لآخر ، وعلاوة على هذا / فإن الخراج كان يؤدى مرة واحدة فى السنة ، بينما كان العشر يُجبى عن المحاصيل كل واحد منها بعدد فصول السنة .   ٥٧

* * *

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٣٥ و ٣٧ (المؤلف) – القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ٦٢ – ٦٣ (المترجم) .

أنواع الدخل الأخرى

كانت أنواع الدخل الأخرى غير العشر والخراج كما يلى : الزكاة والعشور والجزية وخمس مال الغنيمة ، أما الزكاة فكانت مخصصة على المسلمين ولا يستثنى منها أى نوع من أملاك المسلمين أو دخلهم ، فكانت الزكاة على الإبل والماعز والأغنام جميعًا ، وقد تم ترتيب جميع الأحكام المتعلقة بالزكاة فى عهد رسول الله – ﷺ – أما الإضافة الجديدة التى حدثت فى عهد عمر فقد كانت تقرير الزكاة على خيل التجارة .

زكاة الخيل :

مع أن الرسول – ﷺ – قد أمر باستثناء الخيل من الزكاة لكن يجب ألا يفهم من هذا أن عمر خالف الرسول – ﷺ – (والعياذ بالله) لأن الكلمات التى قالها الرسول كان يفهم منها فى الظاهر خيل الركوب ، وقد أبقى عمر على هذا المفهوم فلم يكن هناك وجود لخيل التجارة فى أيام رسول الله ، لهذا لم يكن هناك أى سبب لاستثنائها من الزكاة ، وعلى كل حال فإنه كان دخلاً جديدًا فى نطاق الزكاة ، وبدأت أول ما بدأت فى عهد عمر .

العشور : [1]

والعشور من اختراع عمر – رضى الله عنه – وكانت بدايتها عندما ذهب المسلمون للتجارة فى الدول الأجنبية فكان يؤخذ منهم ضريبة عشرة فى المائة على مال التجارة طبقًا للقانون هناك ، وقد أخبر أبو موسى الأشعرى بهذه الواقعة / فأمر عمر بتحصيل مثل هذا القدر أيضًا من التجار الأجانب الذين يأتون إلى بلاد المسلمين ، وأرسل نصارى « منبج » الذين لم يخضعوا للإسلام حتى ذلك الوقت طلبًا مكتوبًا إلى عمر يعرضون عليه أن يؤدوا العشر بشرط أن يسمح لهم بالتجارة فى بلاد العرب فوافق عمر [2] ثم طبقت هذه اللوائح على المسلمين وأهل الذمة إلا أنها كانت تختلف فى الشريحة أى أنه كان يؤخذ عشر فى المائة من الذين يسكنون فى دار الحرب وخمسة فى المائة من أهل الذمة واثنان

٥٨

---

(١) كنز العمال : ٤ / ٣٢٦ (المترجم) .

(٢) المرجع السابق : ٤ / ٣٢٧ (المترجم) .

ونصف من المسلمين ، وبعد أن نفذ عمر هذا القانون فى البلاد المفتوحة أقام له إدارة خاصة أدت إلى زيادة الدخل وهذه الضريبة كانت تؤخذ على مال التجارة بصفة خاصة ، وكان موعد الاستيراد والتصدير طوال العام ، أى أن التاجر حيثما يريد أن يأخذ المال فى سنة لا يؤخذ منه ضريبة مرة ثانية ، وكان هناك قانون آخر بألا يؤخذ أى شىء من الضريبة على المال الذى تقل قيمته عن مائتى درهم ، وقد أكد عمر على محصلى الضرائب بأن يُحصل العشر عن الأشياء الظاهرة أى أنه لا يبحث عن أمتعة أحد ، أما فيما يتعلق بالجزية فستأتى تفاصيله كاملة فيما بعد .

إدارة العدل

إدارة القضاء :

ظهرت هذه الإدارة إلى حيز الوجود فى الإسلام عن طريق عمر ، فإن أولى مقدمات التقدم الحضارى هو أن تقام إدارة للعدل مستقلة عن إدارة الحكم ، ففى جميع الحكومات التى أقيمت فى العالم فإنه يتم الفصل بين كلا الإدارتين بعد فترة طويلة ، إلا أن عمر قد فصل هذه الإدارة بعد عدة أيام من خلافته / فقد كان قادة الدولة والخليفة نفسه يقومون بمهمة القضاء حتى عهد أبى بكر ، وقد أبقى عمر فى البداية على هذا العرف وكان هذا ضروريًا ما لم تكتمل إدارة الحكومة ، فكل إدارة تحتاج إلى الحزم والهيبة فى تنفيذ الأمور ولهذا لا يمكن أن يقوم شخص بمهمة الفصل فى القضايا إلا الذى ليس له أى سلطة أخرى سوى الفصل فى القضايا ولهذا السبب كتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى بألا يعين قاضيًا ليس له هيبة ومكانة (١) وبناء على هذا أوقف عبد الله ابن مسعود من الفصل فى القضايا .

٥٩

وقد فصل عمر القضاء فصلاً تامًا عندما اكتملت أركان الإدارة على الوجه الأمثل ، وأقام المحاكم فى جميع المحافظات وعين فيها القضاة وإلى جانب هذا كتب أمرًا يحتوى على قواعد القضاء ولوائحه باسم أبى موسى الأشعرى عامل الكوفة ودوّن فيه

---

(١) أخبار القضاة لمحمد بن خلف وكيع . (المؤلف) – محمد بن خلف وكيع : أخبار القضاة : ١ / ٢٨٥ (المترجم) .

جميع الأحكام الأساسية لإدارة العدل ونتقله هنا كما هو فى هذا المكان [١] فقوانين الإمبراطورية الرومانية الاثنا عشر [٢] التى يعتقد الرومان أنها من المآثر العظيمة والتى ينسب / وضعها إلى خطيب الروم الشهير « سيسرو » هذه القوانين كانت تزيد عن مؤلفات الفلاسفة وهى أمامنا ويستطيع كل شخص الحكم بعد أن يقارن بين كليهما ويدرك أيهما يحتوى على أصول الحضارة على نطاق واسع / .

٦٠

٦١

---

(١) ذكر هذا الفرمان كل من الماوردى والجاحظ وابن عبد ربه وكثير من المحدثين والمؤرخين . (المؤلف)

- الماوردى : الأحكام السلطانية : ٥٩ (المترجم) .
- الجاحظ : البيان والتبين : ٤٨/٢ - ٤٩ (المترجم) .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد : ٦٣/١ (المترجم) .
- المتقى الهندى : كنز العمال : ٥ / ٤٨٢ - ٤٨٣ (المترجم) .

(٢) أرسلت الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٥١ ق . م . السفراء إلى اليونان ليتعلموا القانون هناك ثم يعدون قانونًا مستقلاً للحكم ، فذهب هؤلاء السفراء إلى اليونان ثم عادوا من هناك وأعدوا دستورًا يحتوى على اثنى عشر أمرًا إداريًا وحفرت هذه القوانين على ألواح الرصاص وظلت زمنًا القانون الملكى للإمبراطورية الرومانية . وفيما يلى الأحكام التى تتعلق بإدارة القضاء :

١- اذهبوا إلى المحكمة فورًا عند الطلب وليأتى الخصم بالدعوى معه .
٢ - إذا أنكر المدعى عليه قدموا شاهدًا ليحضره بالقوة .
٣ - إذا أراد المدعى عليه الهرب فأنتم يمكنكم أن تقبضوا عليه .
٤ - إذا كان المدعى عليه مريضًا أو شيخًا أعطوه مركبًا وإلا فلا يمكن أن تجبروه على الحضور .
٥ - لو قدم المدعى عليه الضامن - فخلوا سبيله .
٦ - يجب أن يكون ضامن الغنى غنيًا .
٧ - يجب أن يحكم القاضى باتفاق الطرفين
٨ - يسمع القاضى الدعوى من الصبح حتى الظهر .
٩ - الحكم بعد الظهر فى حضور الطرفين .
١٠ - تظل المحكمة مغلقة بعد المغرب .
١١ - إذا أراد الخصمان أن يقدما حكمًا فيجب أن يقدما الضامن .
١٢ - من لا يتمكن من تقديم الشاهد فعليه أن ينادى على القضية على باب المدعى عليه .

هذه القوانين التى بذكرها تفخر أوربا بالإمبراطورية الرومانية .

- الجاحظ : البيان والتبين : ٢ / ٢٤ (المترجم) .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد : ١ / ٦٣ (المترجم)
- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ٢ / ٦٢٨ (المترجم) .

وثيقة عمر المتعلقة بقوانين العدل :

وفيما يلى أوامر عمر بعبارته كما هى : « أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا ييئس الضعيف من عدلك ولا يطمع الشريف فى حيفك ، البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً ، لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك أن ترجع إلى الحق ، الفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عند ذلك واجعل لمن ادعى بينة أمدًا ينتهى إليه فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت القضاء عليه ، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا فى شهادة زور أو ظنيًا فى ولاء أو ورثة » / . ٦٢

والأحكام القانونية التى تتعلق بالقضاء والمذكورة فى هذه الرسالة هى كما يلى :

١ - يجب أن يعامل القاضى جميع الناس بمساواة من حيث كونه حكمًا .

٢ - البينة على المدعى .

٣ - إذا لم يكن للمدعى عليه أى نوع من الإثبات أو الشهادة فعليه بالحلف .

٤ - يمكن للطرفين أن يصطلحا فى كل حالة لكن لا يمكن أن يكون هناك صلح فى أمر ضد القانون .

٥ - بعد أن يفصل القاضى فى القضية برضاه ، يمكن له أن يرجع فيها مرة ثانية .

٦ - يجب أن يحدد تاريخًا معينًا لتقديم الدعوى .

٧ - إذا لم يحضر المدعى عليه فى التاريخ المحدد يمكن أن يحكم فى القضية غيابيًا .

٨ - كل مسلم يصلح لأداء الشهادة ، ما عدا من وقع عليه عقاب أو الذى يثبت كذب شهادته فلا تقبل شهادته .

إن نزاهة إدارة القضاء فى تقديم العدل والإنصاف الكامل فى فصل المنازعات متوقف على أمور [1] ثلاثة هى :

---

(١) ذكر شبلى أن الفصل فى المنازعات يتوقف على أمور ثلاثة لكنه ذكر أمرًا رابعًا (المترجم) .

١ – القانون الكامل والجيد الذى تفصل القضايا طبقًا له .

٢ – اختيار الحكام المتدينين الصالحين .

٣ – وجود تلك اللوائح والقوانين التى بسببها يمتنع القضاة أن يميلوا إلى طرف ويفصلوا فى القضايا بسبب الرشوة أو الوسائل الأخرى غير الشرعية .

٦٣ ٤ – أن يكون عدد القضاة كافيًا لعدد السكان حتى لا يتأخر فصل الدعاوى / .

وقد أدار عمر جميع هذه الأمور بطريقة لا يمكن إتيان طريقة أفضل منها ، ولم تكن هناك أى حاجة إلى إعداد القانون فقد كان القرآن الكريم القانون الأصلى للإسلام موجودًا ، ولما لم يكن فيه إحاطة بالجزئيات ، لذا كان من اللازم أن يستعين بالحديث والإجماع والقياس وقد كتب عمر نصائحه بشكل خاص إلى القضاة ، فقد كتب كتابًا إلى القاضى شريح « عليك أن تحكم فى القضايا أولاً طبقًا لما جاء فى القرآن الكريم فإن لم تكن تلك الحالة مذكورة فى القرآن فانظر فى الحديث وإن لم تكن فى الحديث فليكن طبقًا للإجماع وإن لم تكن فى مكان ما فاجتهد رأيك » [١]

ولم يكتف عمر بهذا وحسب ، بل كان دائمًا يكتب الفتاوى المتعلقة بالأمور الهامة والشائكة ويرسلها لحكام إدارة العدل من آن لآخر ، ولو تم ترتيبها الآن لأصبحت / ٦٤ مجموعة قوانين مختصرة لكننا لا يمكن أن نستقصيها فى هذا المكان ولو أراد أحد ذلك فعليه أن يرجع إلى « كنز العمال » و« إزالة الخفاء » وغيرهما من كتب الفقه ، كما يوجد عدد من فتاويه فى كتاب « أخبار القضاة » .

اختيار القضاة :

إن الدقة والبراعة التى اتخذها عمر فى اختيار القضاة يمكن أن نلمسها من هذا

---

(١) كنز العمال : ٣ / ١٧٤ وهذا الفرمان مذكور فى مسند الدارمى أيضًا باختلاف طفيف فى النص فعبارته الأصلية هى : « عن شريح أن عمر بن الخطاب كتب إليه : إن جاءك شيء من كتاب الله فاقض به فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله – ﷺ – فاقض بها فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فى سنة رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت . إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم وإن شئت تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك » (المؤلف) .

– سنن الدارمى : ١ / ٦٠ (المترجم) .

الموقف ، فالناس الذين اختيروا كانوا نخبة من بين جموع العرب ، فقد كان قاضى العاصمة أى المدينة المنورة هو زيد بن ثابت [1] الذى كان كاتب الوحى فى عهد رسول الله - ﷺ - وكان ضليعًا فى اللغة العربية والسريانية ، وفى العلوم الفقهية لم يكن له مثيل بين العرب فى فن الفرائض ، وكان قاضى البصرة كعب بن سور الأزدى سريع الفهم متوقد الذكاء وروى له الإمام ابن سيرين كثيرًا من أحكامه فى القضايا [2] ، وكان قاضى فلسطين عبادة بن الصامت وكان من بين الأشخاص الخمسة الذين حفظوا القرآن كله فى عهد رسول الله ، ولهذا السبب كلفه الرسول - ﷺ - بتعليم أهل الصفة وكان عمر يقدره ويحترمه كثيرًا حتى إنه عندما اختلف معه الأمير معاوية ذات مرة أبعده عمر عن تبعية معاوية [3] .

القضاة فى عهد عمر :

كان عبد الله بن مسعود قاضى الكوفة وهو ليس بحاجة إلى وصف فضله وكماله وهو المؤسس الأول للفقه الحنفى ، وفى سنة ١٩هـ عين القاضى شريح بعد عبد الله بن مسعود ومع أنه لم يكن من الصحابة إلا أنه كان ذكيًا فطنًا ولم يكن له مثيل بين العرب ، ويذكر اسمه حتى اليوم كمثال يحتذى به ، وقال عنه الإمام على إنه « أقضى العرب » فضلاً عن هذا فقد كان هناك قضاة آخرون فى عهد عمر هم : جميل بن معمر الجمحى وأبو مريم الحنفى وسلمان بن ربيعة الباهلى وعبد الرحمن بن ربيعة وأبو قرة الكندى وعمران بن الحصين ويمكن معرفة عظمتهم وجلال شأنهم من كتب الرجال .

---

(١) فى أخبار القضاة « أن عمر استعمل زيدًا على القضاء وفرض له رزقًا » (المؤلف) .
- محمد بن وكيع : أخبار القضاة : ١ / ١٠٨ وأسد الغابة : ٢ / ٢٧٨ - ٢٧٩ (المترجم) .
(٢) أنظر أسد الغابة فى أحوال الصحابة (المؤلف) .
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة : ٤ / ٤٧٩ - ٤٨٠ (المترجم) .
- الاستيعاب للقاضى ابن عبد البر تذكرة كعب بن سور الأزدى (المؤلف) - الاستيعاب : ٢٢٨ (المترجم) .
(٣) الاستيعاب للقاضى عبد البر (المؤلف) .
- القاضى ابن عبد البر : الاستيعاب ٦١ - ٦٤ (المترجم) .

تعيين القضاة بعد امتحانهم :

بالرغم من أن القاضى كان يتبع حاكم الإقليم أو حاكم المحافظة الذين كانت لهم السلطة الكاملة فى تعيين القضاة فإن عمر – حرصًا فى الاحتياط – كان يختار هؤلاء الناس بنفسه ويرسلهم مع أن شهرة الراغبين أنفسهم كانت كافية للاختيار ، لكن عمر لم يكن يكتف بهذا بل كان يختار الرجال بعد التجربة الشخصية والامتحان العملى .

وهذا ما حدث عند تعيين القاضى شريح . اشترى عمر فرسًا من رجل بشرط القبول والاستحسان وأعطى الفرس لرجل يجربه فجرح الفرس فى أثناء الركوب وأصبح معيبًا فأراد عمر أن يرده للبائع فرفض صاحب الفرس / وحدث نزاع على هذا وعين شريح ثالثًا فحكم بأنه لو أن صاحب الفرس أذن بالركوب لأمكن رد الفرس ، وإلا فلا ، فقال عمر هذا هو الحق . وعين شريح فى ذلك الوقت قاضيًا على الكوفة [1] وقد حدث مع كعب بن سور الأزدى أيضًا مثل هذه الواقعة . ٦٦

طرق الوقاية من الرشوة :

وضع عمر كثيرًا من القيود لمنع وسائل الدخل غير المشروعة ومنها :

١ – إجراء الرواتب الكبيرة ولم يكن من الضرورى أن يكون مبلغًا مرتفعًا فقد كان راتب سلمان بن ربيعة والقاضى شريح خمسمائة درهم [2] شهريًا ، وكان هذا المبلغ كافيًا تمامًا للمعيشة فى ذلك الوقت .

٢ – قرر ألا يعين رجل قاضيًا ما لم يكن ذا حسب ومال وأصدر قرارًا إلى أبى موسى الأشعرى حاكم الكوفة كتب فيه « ربما لا يميل الغنى إلى الرشوة ، وربما لا يتأثر الرجل الثرى فى الحكم بأى ضغط أو خوف » [2] .

وإلى جانب هذه الأمور لم يكن يسمح لأى قاض بالبيع والشراء والتجارة وهذه هى القواعد التى اتبعت فى الدول المتقدمة بعد عهود من التجربة .

---

(١) كتاب الأوائل السابق ذكر القضاة . (المؤلف) – أبو هلال العسكرى : الأوائل : ٢٨٧ – ٢٨٨ (المترجم) .

(٢) فتح القدير حاشية هداية : ٣ / ٢٤٧ (المؤلف) .

– أخبار القضاة : ١ / ٢٨٥ (المترجم) .

المساواة فى العدل :

إن المساواة العامة تعد من أكبر مزايا العدل والإنصاف أى أن يكون الجميع من شريف وخسيس وغنى وفقير وملك ومتسول سواسية أمام العدل وقد اهتم عمر بهذا إلى حد أنه كثيرًا ما دخل المحكمة كخصم فى قضية من أجل التجربة والامتحان / وذات مرة حدث نزاع بينه وبين أُبى بن كعب فأقام أبى الدعوة عليه عند زيد بن ثابت وحضر عمر كمدعى عليه فبجله زيد فقال له عمر هذه أولى مظالمك ، قال هذا ثم ذهب وجلس بجوار أبى ولم يكن لدى زيد أى دليل فرفض دعوى عمر ، فأراد أبى أن يحلف عمر اليمين طبقًا للقانون إلا أن زيدًا قضى لمنزلته وطلب من أبى أن يعفى أمير المؤمنين من اليمين فتألم عمر من هذا التحيز أشد التألم وخاطب زيدًا قائلاً ما دمت لم تساو بين عمر ورجل عادى فأنت لست جديرًا بمنصب القضاء . ٦٧

وفيما يتعلق بالقضاة وأعمالهم فإن نوع القوانين التى اختارها عمر كان من نتيجتها أن القضاة عمومًا فى عهده وحتى عهد بنى أميه ظلوا منزهين عن تهم الجور والظلم وقد ذكر أبو هلال العسكرى فى كتاب « الأوائل » إن بلال بن أبى بردة هو أول قاضى عمل خلافًا للعدل وكان ذلك فى أيام بنى أمية .

عدد القضاة كان كافيًا بالنسبة لعدد السكان :

كان عدد القضاة كافيًا من حيث عدد السكان فلم تخل بلد من قاض ، ولأنه سمح لأهل المذاهب الأخرى أن يفصلوا فى قضاياهم بأنفسهم فيما بينهم لهذا لم تكن تعرض قضاياهم فى المحاكم الإسلامية إلا نادرًا ، لذا فإن وجود قاض واحد بأى حال من الأحوال فى كل مركز كان كافيًا / . ٦٨

شهادة المتخصصين فى الفن :

إن الأمور النادرة التى أوجدها عمر والتى سوف يأتى ذكرها عند بيان اجتهاداته فيما يتعلق بإدارة القضاء وقواعد الشهادة بصفة خاصة ، كان من بينها شهادة خبراء الفن ، فالأمر الذى كان يرتبط بأى فن خاص كان يؤخذ فيه الرأى للمتخصص فى ذلك الفن ، فمثلاً أنشد الحطيئة شعرًا يهجو فيه الزبرقان بن بدر وكان لا يبدو منه أنه هجاء بطريقة مباشرة ، فرفع الزبرقان القضية إلى عمر ولأن هذه القضية كانت تتعلق بالشعر

وفن الشعر والمصطلحات الشعرية وأسلوب البيان فيه يختلف عن لغة الحياة اليومية العادية ، استدعى عمر حسان بن ثابت وكان شاعرًا فحلاً وسأله وحكم برأيه ، وهكذا فى حالة الاشتباه فى النسب كان يأخذ برأى النسابين وقد جاء فى باب القذف فى « كنز العمال » كثيرًا من القضايا من هذا القبيل .

ومع أن عمر قد وضع كثيرًا من القوانين واللوائح الخاصة بالفصل فى القضايا إلا أن هذه القوانين كان لها حدود بحيث لا تحدث أى خلل فى سهولة العدل ويسره ، فالسبب المقدم لديه على جميع الأسباب هو أن يكون العدل سهلاً ورخيصًا ، أما الدول المتحضرة فى الوقت الحاضر فقد كبلت العدل والإنصاف بالقيود والأصفاد حتى صار من السهل على طالبى العدل أن يتركوا دعواهم بدلاً من أن يطلبوا العدل ، أما قوانين عمر فكانت بسيطة وسهلة إلى حد أن المرء لا يناله أدنى جهد فى الحصول على العدل .

مكان المحكمة :

كان عمر يراعى هذا الأمر بصفة خاصة ولهذا فمن المصلحة أنه لم يبن مبانى خاصة للمحكمة / بل اكتفى بالمساجد لأن الإذن العام والتعميم الذى يتضمنه مفهوم المسجد لا يمكن أن يوجد فى أى مبنى آخر ولم يكن هناك أى صعوبة فى تقديم القضايا ولم يكن يواجه القاضى أى نوع من التعقيدات ، وقد أكد عمر لجميع القضاة أنه حينما يلجأ إليهم أى رجل فقير من عامة الناس كخصم فى القضية فعليهم أن يعاملوه برفق وبوجه باش لكى لا يشعر بالخوف بتاتًا حين يقدم مظلمته . ٦٩

الإفتاء

وهناك إدارة ذات أهمية عظيمة تتعلق بالعدل وهى إدارة الإفتاء وقد أسست فى بداية الإسلام ولا مثيل لها فى أى مكان آخر غير الإسلام ، فمن بين أسس القانون الرئيسية هو الافتراض أن كل شخص يعرف القانون فمثلاً لو اقترف شخص إثمًا فلا يفيده عذره بأنه لم يكن يعرف بأن ارتكاب هذا الفعل جريمة وهذه القاعدة مسلم بها فى العالم كله وحاليًا تؤكد عليها الدول المتقدمة بقوة ولا شك أن هذه القاعدة صحيحة ، ومن العجيب أن الأقوام الأخرى لم تختر لها أى نوع من أنواع التدابير والخطط ومع أن التعليم قد انتشر وعم فى أوربا لكنه لم يستطع أن يصل إلى درجة أن يصبح كل إنسان عالمًا بالقانون ولن يستطيع أن يصل إليها ولو أن أى جاهل رغب فى معرفة أى مسألة

٧٠ فلا سبيل له لمعرفتها ، لكن فى الإسلام / كان له إدارة خاصة اسمها « إدارة الإفتاء » ومنهجها أن رجال القانون الأجلاء أى الفقهاء كانوا موجودين فى كل مكان ومن كان يريد الاستفسار عن أى مسألة كان يمكن أن يستفسر منهم وكان من واجبهم أن يوضحوا تلك المسائل بدقة متناهية ، ففى هذه الحالة يستطيع كل شخص أن يقف على مواد القانون التى يريدها فى أى وقت يشاء ولذا لا يمكن أن يعتذر بأنه لم يكن عارفًا بالقانون ، وقد ظهرت هذه الطريقة فى بداية الإسلام تلقائيًا وما زالت قائمة حتى الآن إلا أن الالتزام الذى تم العمل به فى عهد عمر لم يستمر فى العصور التالية بل لم يكن كذلك من قبل فى عهد أبى بكر .

المفتى فى عهد عمر :

إن أهم أمر فى هذه المسألة هو ألا يكون هناك إذن عام بها ، بل يعين خاصة الناس من الصالحين للإفتاء حتى لا يروج كل شخص صالحًا كان أم غير صالح الفتاوى الخاطئة ، وكان عمر يراعى هذه الخصوصية دائمًا فالناس الذين أذن لهم بالإفتاء مثل : علىّ وعثمان ومُعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وأُبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى هريرة وأبى الدرداء وغيرهم ، لم يسمح لما عداهم من الناس بالإفتاء وقد ذكر شاه ولى الله فى كتابه « إزالة الخفاء » [١] أنه فى الماضى كان الوعظ والإفتاء متوقفًا على رأى الخليفة فلم يعظ واعظ ولم يفت مفت إلا بأمر من الخليفة وفى النهاية أخذوا يفتون ويعظون دون الرجوع إلى رأى الخليفة « ويوجد فى كتب التاريخ أمثلة كثيرة لأولئك الناس الذين لم يسمح لهم بالفتوى لكنهم أفتوا ، فمنعهم عمر / وذات مرة وقعت هذه ٧١ الواقعة مع عبد الله بن مسعود [٢] وقد كان عمر حريصًا ومحتاطًا إلى درجة أنه كان دائمًا يختبر المفتين المعينين ، وسأل أبا هريرة مرارًا ما فتواك فى هذه المسألة ؟ وعندما يرد على جوابه كان يقول لو أنك رددت على هذه المسألة رد آخر لما أذنت لك بالفتوى قط فى المستقبل .

والأمر الثانى الهام بالنسبة للإفتاء هو إعلان أسماء المفتين ولم يكن هناك آنذاك

(١) شاه ولى الله الدهلوى : إزالة الخفاء : ١٣٠ (المؤلف) .

(٢) مسند الدارمى (المؤلف) وشاه ولى الله الدهلوى : إزالة الخفاء : ١٣٠ (المؤلف) .

– مسند الدارمى : ٥٩/١ – ٦٠ (المترجم) .

صحافة ولا جريدة رسمية ، بل لم يكن للإعلام العام أى وسيلة سوى الإعلان فى المجالس العامة وقد أعلنها عمر مرارًا ففى الخطبة الشهيرة التى ألقاها أمام حشد كبير من الناس فى الجابية فى سفره للشام كان فيها هذه الكلمات أيضًا : « من أراد القرآن فليأت أبيًا ، ومن أراد أن يسأل الفرائض فليأت زيدًا ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذًا » .

الشرطة والحسبة :

بقدر ما وصلنا إليه من بحث وتحقيق فى هذا الصدد فإن عمر لم يقم أى إدارة منفصلة للقضايا الجنائية ، فقد كانت بعض أنواع القضايا مثل الزنا والسرقة يحكم فيها عند القضاة أما جميع الجرائم فقد كانت مرتبطة بالشرطة وقد قامت إدارة منفصلة للشرطة فى ذلك الوقت « الأحداث » . لذا كانوا يطلقون على قائد الشرطة « صاحب الأحداث » / وعندما عين عمر على البحرين قدامة بن مظعون وأبا هريرة أعطى قدامة وظيفة تحصيل الخراج وخولت سلطات الشرطة بوضوح كامل لأبى هريرة والأعمال المتعلقة بالاحتساب مثل : الحيلولة دون غش التجار فى الوزن ، ولا يبنى شخص بيتًا فى الشارع ولا تحمل الحيوانات أثقالاً ثقيلة ولا تباع الخمر علانية وغيرها من الأمور الأخرى ، لها إدارة وقد كانت هذه الأمور تراعى بطريقة جيدة وقد عين موظفين ورؤساء فى كل مكان ولكننا لا نعرف هل قامت إدارة مستقلة للاحتساب أو أن هذه الخدمات أيضًا كانت تتعلق بصاحب الأحداث ، وفى الرواية التى وردت فى كنز العمال أن عمر عين عبد الله بن عتبة لمراقبة السوق وذكر فيها أيضًا أن اختراع عمر للسجن يتعلق بمنصب الاحتساب . ٧٢

اختراع السجن :

من اختراعات عمر فى هذه الإدارة أنه بنى السجن ولم يكن عند العرب أى فكرة عن السجن قبل هذا وهو دليل على التشديد فى العقوبات ، ففى بداية الأمر اشترى عمر دار صفوان بن أمية فى مكة المكرمة بأربعة آلاف درهم وجعلها سجنًا[١] ثم بنى السجون فى المحافظات الأخرى ، ويتضح من بيان البلاذرى أن سجن الكوفة كان مبنيًا

(١) المقريزى : خطط المقريزى : ٢ / ١٨٧ (المؤلف) .

من البوص [1] وكان المجرمين فقط يودعون فى السجن فى ذلك الوقت ، أما بعد عهد الخلافة فقد كان القاضى شريح يُعاقب المدينين بالسجن أيضًا ويرسلهم إلى السجن . / ٧٣

وقد حدث تغيير فى بعض العقوبات بعد بناء السجن فمثلاً عندما أخذ أبو محجن الثقفى مرارًا بتهمة شرب الخمر عاقبة عمر فى المرة الأخيرة بالسجن بدلاً من إقامة الحد عليه .

عقاب النفى :

إن العقاب بالنفى أيضًا من اختراع عمر وهكذا فقد عاقب أبا محجن الثقفى بهذه العقوبة ونفاه إلى جزيرة [2] بدل أن يقام عليه الحد .

بيت المال أو الخزانة

لم يكن بيت المال قبل (عمر) :

ظهرت هذه الإدارة أيضًا بجهود عمر ، وكان خراج البحرين آخر مبلغ من المال جُبى فى أيام الرسول - ﷺ - وكان مقداره ثمانمائة ألف درهم إلا أن الرسول قسم هذا المبلغ فى جلسة واحدة ، ولم يقم أبو بكر كذلك فى خلافته أى خزانة بل إن أى مال يأتى من مال الغنيمة كان يقسم فى نفس الوقت ، وهكذا كان نصيب كل شخص فى السنة الأولى عشرة دراهم ، وفى السنة الثانية عشرين درهمًا برواية كتاب الأوائل وابن سعد . ولابن سعد رواية أخرى جاء فيها أن أبا بكر قد خصص مكانًا لبيت المال لكنه ظل مغلقًا دائمًا لأن الذى كان يأتى فى ذلك الوقت كان يقسم ولم يكن يأتى دوره ليدخل فى الخزانة وعند وفاته فحص بيت المال فلم يجدوا فيه إلا درهمًا واحدًا .

فى أى سنة أقيم بيت المال :

عين عمر أبا هريرة عاملاً على البحرين فى سنة ١٥هـ تقريبًا / فأحضر معه مبلغ ٧٤

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٤٦٣ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٤٩ (المترجم) .
(٢) فتوح البلدان من ص ٤٤٨ حتى ٤٦١ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٣٦ (المترجم).
- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٠٩ (المترجم) .
- ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة : ٢ / ٤٦٠ (المترجم) .

خمسمائة ألف فى السنة كلها ، فقال عمر فى جلسة عامة لمجلس الشورى لقد جاء مال عظيم من البحرين فماذا ترون ؟ فرأى علىّ - كرم الله وجهه - أن المبلغ الذى يأتى كل سنة يقسم فى نفس السنة ولا يوضع منه شىء فى الخزانة ، وخالف عثمان رأى على ، وقال الوليد بن هشام لقد رأيت عند ملوك الشام أن لديهم إدارتين منفصلتين إى إدارة الحكومة والخزانة .

ولو كان هذا فى عصرنا الحالى فربما تجنب ذكره أصحاب المذاهب الأخرى لكن عمر استحسن هذا الرأى وأسس بيتًا للمال وأقام أول خزانة كبيرة فى دار الخلافة أى فى المدينة المنورة وكان هذه الخزانة فى حاجة إلى رجل صالح وأمين يقوم بكتابة حساباتها والإشراف عليها .

صاحب بيت المال :

عين عبد الله بن الأرقم « صاحب بيت المال » وكان صحابيًا جليلاً وقد بلغ درجة الكمال فى القراءة والكتابة ، وعين غيره من الأكفاء تحت إمرته وكان من بينهم عبدالرحمن بن عبيد القارى ومعيقب [1] وكان معيقب هذا قد نال شرف حمل خاتم الرسول ولهذا السبب كانت أمانته وتدينه مسلمًا بهما ولا مجال للشك فيهما .

وعلاوة على دار الخلافة فقد أقام بيتًا للمال فى جميع الأقاليم والمدن الهامة ومع أن الولاة هناك كانوا يتمتعون بجميع أنواع السلطات ، إلا أن إدارة بيت المال كانت مستقلة تمامًا وكان لها موظف خاص بها ، فقد كان المسئول الخاص عن الخزانة / فى الكوفة عبد الله بن مسعود وفى أصفهان خالد بن الحارث . ٧٥

مبانى بيت المال :

مع أن عمر كان فى غاية الاقتصاد والتوفير فيما يتعلق بالبناء إلا أنه أمر ببناء أبنية عظيمة وقوية لبيت المال فشيد فى أول الأمر قصرًا لبيت المال فى الكوفة وقد بناه روزية أحد معمارى المجوس المعروفين ومواد البناء التى استعملت فيه قد جاءت من خسروان

---

(١) أنظر إلى تذكرة معيقب فى كتب الرجال (المؤلف) - أسد الغابة : ٥ / ٢٤٢ وهو معيقب ابن معرضى اليمان (المترجم) .

فارس ، لكن عندما سرق عن طريق نقب فيه كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص ليصل بيت المال ومبنى المسجد لأن المسجد يظل عامرًا بصفة دائمة بسبب وجود المصلين فيه ويجتمع فيه الناس كل وقت ، وبأمر من سعد بن أبى وقاص وسع روزبة فى مبنى بيت المال حتى ضُم بالمسجد وهكذا تم الاطمئنان عليه من السرقة (١) وغيرها .

ويتضح من العصور التالية أن الجنود كانوا يقومون بحراسة الخزائن زيادة فى الاحتياط ويذكر البلاذرى أنه عندما خرج طلحة والزبير على سيدنا على وجاءوا إلى البصرة وأرادا الاستيلاء على الخزانة وجدا عليها أربعين جنديًا من السيابجة هم الذين كانوا من أسارى السند وانخرطوا فى جيش الفرس وعندما فتحت إيران فى عهد عمر أسلم هؤلاء القوم وأسكنهم أبو موسى البصرة (٢) .

وكان النظام المتبع فى الخزائن التى فى الأقاليم والمراكز هو أنهم كانوا يحتفظون هناك بقدر كاف من المال اللازم لجميع أنواع النفقات ، أما الأموال الباقية / فقد كانت ترسل فى نهاية العام إلى الخزانة العمومية أى فى بيت مال مدينة المنورة ، وكانت الأحكام المؤكدة (٣) من عمر تأتى باستمرار باسم العمال بهذا الصدد وأنه من الصعب معرفة كم كان يحتفظ من المال فى الخزائن فى كل مكان .

المال الذى يبقى فى خزانة دار الخلافة :

ونعلم من بيان المؤرخ اليعقوبى أن الرواتب والمنح التى كانت تتعلق بخزانة دار الخلافة تصل إلى ثلاثمائة مليون سنويًا كانت تدفع من خزانة دار الخلافة .

وهناك كثير من الوقائع الشائقة فى كتب التاريخ تتعلق بالاهتمام الذى كان يوليه عمر لحراسة بيت المال والمحافظة عليها ونتغاضى هنا عن تفاصيلها .

---

(١) كل هذه التفاصيل مذكورة فى تاريخ الطبرى فى بناء الكوفة (المؤلف) – الطبرى : ٤ / ٤٥ – ٤٦ (المترجم) .

(٢) فتوح البلدان صفحة ٣٧٣ – ٣٧٦ (المؤلف) – البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٦٩ (المترجم) .

(٣) كان الأمر الذى كتبه إلى عمرو بن العاص حاكم مصر فيه هذه الكلمات : « فإذا حصل إليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج إليه مما لابد منه ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله إلىّ » كنز العمال نقلاً عن ابن سعد : ١٦٣/٣ (المؤلف) .

إدارة الأعمال العامة أو المنافع العامة

لقد نشأت هذه الإدارة فى العصر الحاضر كإدارة مستقلة ولهذا السبب فليس لها أى مصطلح خاص فى اللغة العربية وكانت ترجمتها فى مصر والشام هى « المنافع العامة » وتدخل الأعمال التالية فى نطاق عمل هذه الإدارة وهى : المبانى الحكومية والأنهار والطرق والجسور والمستشفيات ، ولم يكن عمر قد أقام لها إدارة مستقلة فى عهده فقد كانت هذه الأشياء التى تتعلق بهذه الإدارة موجودة كلها بطريقة منظمة ما عدا المستشفيات .

٧٧ وقد شق عمر أنهارًا عديدة لتطوير الزراعة / وسوف نتناول هذه الأنهار باختصار عند ذكر إدارة المحاصيل ونذكر هنا الأنهار التى تختص بإدارة الزراعة .

الأنهار التى شقها عمر

نهر أبى موسى :

كان طول هذا النهر تسعة أميال وكان سبب شقه أنه عندما وفد أهل البصرة إلى عمر يومًا وكالعادة سأل عمر كل واحد منهم عن أحواله وكان من بينهم حنيف بن قيس فألقى خطبة بليغة توجد بنصها الكامل فى كتب التاريخ واشتكى من أن البصرة كلها أرض مالحة ويضطر لإحضار الماء من مسافة ستة أميال فأرسل عمر فى ذلك الوقت رسالة بهذا المضمون باسم أبى موسى الأشعرى « بأن يحتفر نهرًا لأهل البصرة » وعلى هذا شق نهر دجلة بطول تسعة أميال إلى البصرة وبسببه أصبح الماء موجودًا بكثرة فى كل بيت [١] .

نهر معقل :

نهر معقل نهر مشهور وينسب إليه هذا المثل الشهير فى اللغة العربية « إذا جاء نهر

(١) التفاصيل فى فتوح البلدان : صفحة ٣٥٦ - ٣٥٧ (المؤلف) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٥١ - ٣٥٢ (المترجم) .
- بشارة المقدسى : أحسن التقاسيم : ١١٧ - ١١٨ (المترجم) .

الله بطل نهر معقل » وشُق هذا النهر أيضًا من دجلة ، ولأن مهمة إعداده وشقه قد كلف بها معقل بن يسار وهو صحابى جليل لذا اشتهر النهر باسمه .

نهر سعد :

لقد طلب أهل الأنبار شق هذا النهر فى بداية الأمر من ملك فارس ، وعندما جاء الإسلام أبدى هؤلاء الناس رغبتهم لسعد بن أبى وقاص (حاكم الكوفة) فكلف سعد ابن عمر فباشر العمل باهتمام كبير وبعد أن وصلوا إلى مرحلة ما سد الجبل طريقه فترك العمل هناك حتى تم إنجازه فى عهد الحجاج / بعد شق الجبل ولكنه اشتهر باسم نهر سعد . ٧٨

نهر أمير المؤمنين :

كان أعظم الأنهار وأكبرها فائدة ذلك النهر الذى شق بأمر خاص من عمر والذى اشتهر باسم نهر أمير المؤمنين وبهذا العمل التقى نهر النيل ببحر القلزم وتاريخه باختصار أنه عندما وقع القحط فى جميع بلاد العرب سنة ١٨ هـ كتب عمر إلى جميع حكام الولايات أن يرسلوا إليه القمح والذرة من كل مكان فيه وفرة فتم تنفيذ هذا الأمر على الفور إلا أن الطريق البرى الذى كان بين مصر والشام كان بعيدًا شاسعًا لهذا تأخر إرسال القمح ، وبعد أن فكر عمر فى هذه المشاكل كتب إلى عمرو بن العاص (حاكم مصر) ليطلب منه الحضور إلى دار الخلافة ومعه جماعة من أهل مصر ، وعندما وصل قال له لو تصل نهر النيل بالبحر فلن يكون هناك خوف قط من القحط والغلاء فى بلاد العرب ، أما مجىء القمح عن طريق البر فإنه لا يخلو من الصعاب ، فعاد عمرو وبدأ العمل وشق نهرًا من الفسطاط (مدينة تبعد عن القاهرة بعشرة أو اثنى عشر ميلاً) حتى بحر القلزم وبهذه الطريقة اتصل نهر النيل الذى ينساب تحت الفسطاط ببحر القلزم فكانت السفن تسير فى النيل حتى تصل إلى بحر القلزم ومن هناك تصل إلى جدة وكانت ميناء للمدينة المنورة فترسوا بها وكان طول هذا النهر يبلغ تسعة وستين ميلاً تقريبًا ومن العجيب أنه تم شقه فى ستة أشهر وهكذا فى السنة الأولى وصلت ميناء المدينة المنورة عن طريق هذا النهر عشرون سفينة كبيرة كانت تحمل سبعة آلاف إردب قمح ، واستمر جريان هذا النهر زمنًا طويلاً فازدهرت عن طريقه تجارة مصر ازدهارًا سريعًا ثم امتلأ فى أماكن مختلفة منه بالطمى والتراب وذلك بعد عمر بن عبدالعزيز لعدم اكتراث العمال

٧٩ حتى انسد (طُم) تمامًا عند « ذنب التمساح » / ثم أغلقه المنصور العباسى فى سنة ١٠٥هـ لمصلحة شخصية ثم استمر بعده فى الجريان وظل جاريًا وقتًا طويلاً [١] .

ومن الأمور الغريبة والعجيبة أن عمرو بن العاص أراد أن يوصل بحر القلزم ببحر الروم وقد قرر لهذا العمل مكانًا كذلك فأراد أن يصل البحرين عن طريق حفر نهر من الفرما ذلك المكان الذى كانت فيه المسافة بين البحرين القلزم والروم سبعين ميلاً فقط ، لكن عندما علم عمر برغبته أبدى عدم رضاه وكتب إليه « لو حدث هذا فإن السفن الرومانية ستغير على سفن الحجاج وتأسرهم » [٢] ولو سمح لعمرو بن العاص لكان شرف إنشاء قناة السويس فى الحقيقة من نصيب العرب .

المبانى التى شيدها عمر :

والمبانى التى شيدها عمر – رضى الله عنه – ثلاثة أنواع .

١ - المبانى الدينية :

مثل المساجد وسوف يأتى بيانها بالتفصيل فى الإدارة الدينية ، ويكفى هنا القول إنه قد شيدت أربعة آلاف مسجد على حد قول صاحب « روضة الأحباب » .

٢ - المبانى العسكرية :

مثل القلاع والمعسكرات ومساكن الجنود وسوف يأتى ذكرها فى الاستعدادات العسكرية .

٣ - المبانى المدنية :

مثل دار الإمارة وغيرها ولا تعرف تفاصيل هذا النوع من المبانى وتقسيمها كالتالى .

---

(١) هذه التفاصيل مذكورة فى حسن المحاضرة للسيوطى ص ٩٣ – ٩٤ ، والمقريزى ، خطط المقريزى : ٧١/١ و ١٣٩/٢ – ١٤٤ . وقد جاء فى خطط المقريزى أن المنصور العباسى أغلق هذا النهر سنة ١٥٠هـ وليس سنة ١٠٥ هـ (المترجم) .

(٢) تقويم البلدان لأبى الفداء ص : ١٠٦ (المؤلف) .

أ - دار الإمارة :

حيث يقيم حكام المراكز والمحافظات وحيث توجد دواوينهم / وقد تناول البلاذرى والطبرى دار إمارة الكوفة والبصرة بقدر من التفصيل .

ب - الديوان :

حيث كانت تبقى أوراق الدواوين (الإدارة) وتدار أمور الجيش فى هذا المكان أيضًا .

ج - بيت المال :

أى الخزانة وكان هذا المبنى قويًا ومحصنًا وقد مر بنا ذكر بيت مال الكوفة عند الحديث عن بيت المال .

د - السجن :

ذكرنا فيما مضى « سجن المدينة المنورة » عند بيان إدارة الشرطة ، أما السجن الذى كان فى البصرة كان ضمن مبانى دار الإدارة [١] .

هـ - المضايف :

وقد بنيت هذه المنازل للغرباء الذين كانوا يأتون إلى المدينة لمدة يومين أو أربعة أيام فكانوا يقيمون فى تلك المنازل ويقول البلاذرى عن بناء المضيفة التى كانت فى الكوفة « أمر عمر أن يتخذ لمن يرد من الأفاق دارًا فكانوا ينزلونها » [٢] وقد شيدت مضيفة المدينة المنورة فى سنة ١٧هـ كما ذكر ابن حبان فى تذكرتها فى كتاب الثقات .

وبهذه المناسبة يجب أن نذكر أنه لا ينبغى الظن بأن هذه المبانى كانت فى غاية الفخامة والأبهة فالإسلام لا يحبذ الإسراف والبذخ ، كان الإسلام فى ذلك الوقت فى حال بساطته الأولى ، أما ما حدث من بذخ فقد حدث فى العصور التالية / وكان عمر

---

(١) فتوح البلدان : صفحة ٣٤٧ . البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٤١ - ٣٤٢ (المترجم) .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٧٧ (المترجم) .

حريصًا على ألا تزول هذه البساطة ، فضلاً عن هذا فلم يكن لصاحب بيت المال آنذاك سلطات مستقلة ، فبيت المال كان يعتبر رأس مال جميع الشعب ، ويرى الناس استخدام أموال بيت المال فى احتياجات الإنسان بدلاً من إنفاقها على الطوب والحجارة ، وقد استمرت هذه الحالة زمنًا طويلاً وكانت من نتيجتها أن انتشر السخط العام عندما أنفق الوليد بن عبد الملك مبلغًا كبيرًا من المال على مسجد دمشق الجامع وقال الناس علانية لن يصرف هذا من دراهم بيت المال ، وكانت المبانى فى عهد عمر تشيد عمومًا من الطوب اللبن والطين فكان إيواء حكومة البصرة على هذه الحالة [١] بينما كانت المبانى العسكرية منيعة القوة والتحصين .

الطـرق :

بالرغم من أن الطرق والجسور كانت ممهدة جيدًا إلا أنها لم تكن تحت إدارة الحكومة مباشرة ، والمعاهدات التى كانت تتم مع البلاد المفتوحة كانت تتضمن شرطًا وهو أن الطرق والجسور وغيرها سوف تعد بأموالهم ، وعندما فتح أبو عبيدة الشام كان هذا الأمر يدخل ضمن شروط الصلح [٢] .

الاستراحات والمبانى من مكة المكرمة حتى المدينة المنورة :

مع أن مكة كانت منذ زمن قبلة للناس إلا أن طرقها كانت مقفرة وبلا ماء ، وعندما ذهب عمر إلى مكة المكرمة عام ١٧هـ شيدت بأمره المبانى والاستراحات وآبار المياه فى كل منزل من المدينة حتى مكة ، ويذكر شاه ولى الله / فى « إزالة الخفاء » : « ومن بين هذه الأمور أنه عندما قصد مكة المكرمة عازمًا العمرة فى عام من الأعوام فإنه أمر عند عودته أن تقام النُزل والأبنية والمظلات فى المنازل الواقعة فيما بين الحرمين وأمر

---

(١) فتوح البلدان صفة ٣٤٧ . (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٤٢ (المترجم) .

(٢) كتاب الخراج صفحة ٨٠ وعلى أن عليهم إرشاد الضال وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم (المؤلف).

- القاضى أبو يوسف : الخراج : ١٣٨ (المترجم) .

وقد ذكر الطبرى الطرق والجسور كليهما فى أحداث سنة ١٦ هـ صفحة ٢٤٧٠ (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣٢/٤ (المترجم) .

كذلك بتطهير جميع الآبار التى طُمت وتصفيتها ، كما أمر بحفر آبار جديدة ففى المواضع القليلة المياه حتى يتيسر للحجاج أن يقطعوا مراحل الطريق فى سهولة ويسر » .

تعمير المدن

إن كل مدينة من المدن التى شيدت فى أيام عمر - رضى الله عنه - شيدت لحاجة ماسة لها ، وهى بالخصائص التى أدخلت عليها يمكن أن تعد صفحة من تاريخ الإسلام ومن بينها الكوفة والبصرة وقد ظلتا زمنًا مظهرًا من مظاهر الآثار الإسلامية وتأسس فيها النحو العربى وكانت هاتان المدينتان المدرسة الأصلية للنحو العربى كما أن الفقه الحنفى الذى ينتشر الآن فى جميع أنحاء الدنيا قد وضعت أصوله فى الكوفة ، وهذه الأسباب ربما يكون مناسبًا أن تذكر بالتفصيل عن حالة العمران وأساس هذه المدن .

البصرة :

ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن عمر - رضى الله عنه - لكى يحمى البلاد من الحملات الحربية لفارس والهند قد كلف عتبة بن غزوان فى سنة ١٤هـ بإقامة مدينة قريبة من ميناء أبلة حيث كانت ترسو سفن فارس والهند عن طريق خليج بحر فارس وقد أخبره عمر بنفسه بمكان الأرض وموقعها فسار إليها عتبة فى ثمانمائة رجل حتى وصلوا إلى خريبة حيث توجد مدينة البصرة الآن وكان هذا الموقع (قبل أن تبنى المدينة) ميدانًا قفرًا به حصى وحجارة محاطًا بالماء والكلأ / فكانت مناسبة تمامًا لطبيعة العرب ، ٨٣ المهم أن عتبة وضع أساسها وأقام لكل قبيلة من القبائل سورًا منفصلاً وبنى بيوتًا بسيطة من القش والبوص ، وعين عاصم بن دلف لينزل القبائل فى مواقر تناسبها وكانت المبانى الخاصة بالحكومة التى تم بناؤها فيها المسجد الجامع ومبنى إيوان الحكومة الذى كان يشتمل على السجن والدواوين وكان أكثر تميزًا ، وفى سنة ١٧هـ اندلعت النيران واحترق كثير من البيوت فأرسل سعد بن أبى وقاص حاكم الكوفة فى ذلك الوقت سفارة إلى عمر يطلب الإذن لبناء مبان قوية فوافق عمر لكنه أكد على ألا يبنى الفرد أكثر من ثلاث حجرات فى المنزل .

---

(١) الطبرى : صفحة ٢٥٢٩ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٩/٤ (المترجم) .

(٢) البلاذرى صفحة ٥٣ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٩ (المترجم) .

وتقع البصرة [١] على بعد عشرة أميال من نهر دجلة ، ولهذا أمر عمر أن يشق نهر من دجلة حتى البصرة وقد ذكرنا ما يتعلق به بقدر من التفصيل عند ذكر المنافع العامة ، وقد تطور عمران البصرة بسرعة شديدة حتى إنه فى أيام حكم زياد بن أبى سفيان / كان عدد الناس الذين كانت أسماؤهم مدونة فى السجلات العسكرية فقط ثمانين ألفًا أما عدد أولادهم فكان مائة وعشرين ألفًا .

٨٤

ويمكن لنا أن نقدر خصوبة هذه الأرض للعلم والثقافة من وضع أساس العلوم العربية فيها فأول كتاب فى علم اللغة العربية كتب فيها واسمه « العين » من تأليف الخليل بن أحمد البصرى ومن هنا كانت بداية علم العروض والموسيقى العربية كما أن سيبويه صاحب أول كتاب فى علم النحو تلقى العلم بها ، كما ولد على ترابها أئمة مجتهدون من أمثال الحسن البصرى .

الكوفة :

كانت الكوفة المدينة الثانية أكثر شهرة من البصرة عندما تم فتح المدائن وغيرها كتب سعد بن أبى وقاص رسالة إلى عمر يقول فيها إن إقامة أهل العرب هنا قد غيرت من ملامحهم تمامًا فكتب له فى الرد أن مناخ تلك الأماكن لا يوافق العرب فيجب أن تبحث عن مكان يكون مناسبًا برًا وبحرًا وعلى هذا فقد اختار سلمان وحذيفة أرض الكوفة وكانا مكلفين بمثل هذه الأعمال ، وكانت أرضها رملية وصخرية ولهذا السبب سميت الكوفة [٢] وكان هذا الموقع عاصمة قبيلة النعمان بن المنذر التى كانت تحكم

---

(١) يذكر علماء اللغة أن سبب تسمية البصرة عمومًا هو أن البصرة تطلق فى العربية على الأرض ذات الحجارة الرخوة وكان بها هذا النوع من الأرض وقد نقل صاحب معجم البلدان رأيًا لأحد حكماء المجوس وهو أقرب إلى القياس ، ففى رأيه أن هذه الكلمة كانت فى الأصل « بس راه » وهى فى الفارسية بمعنى الطرق المتعددة لأنه كان من هناك طرق كثيرة لكل اتجاه ، لهذا سماها العجم بهذا الاسم وتأكيدًا على هذا أن ملوك العرب المحيطين بها شيدوا بالقرب منها مبانى ذات أسماء فارسية فى الأصل مثل : خورنق كان فى الأصل خورانكاه (أى مكان الطعام) وسدير فى الأصل « سه در » أى الأبواب الثلاثة . (المؤلف) .

(انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان : ١ / ٤٣٠ والمسعودى : مروج الذهب : ٣٢٨/١ - ٣٢٩) (المترجم) .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٥٢٧/٢ (المترجم) .

العراق العربى فى هذا المكان وكانت مبانيهم الشهيرة مثل الخورنق والسدير وغيرها تقع حولها فى منظر جميل وبديع وكانت تقع على مسافة ميلين ونصف من نهر الفرات وكان العرب يسمون هذا المكان بـ « خد العذراء » لأنه كان به أنواع جيدة من الأزهار العربية المختلفة مثل رياض الخزامى والقيصوم والشقائق والأقحوان / . الخلاصة أنه وضع أساسها فى سنة ١٧هـ وكما كتب عمر بوضوح فقد أقيمت مبان لتوطين أربعين ألف رجل ، وباهتمام هياج بن مالك سكنت القبائل العربية المختلفة فى أحياء منفصلة أما فيما يتعلق بوضع المدينة وتخطيطها فقد جاء كتاب من عمر نفسه بأن الشوارع العامة يجب أن يكون اتساعها ٤٠x٤٠ ذراعاً ، وقد شيد مبنى المسجد الجامع على مصطبة مربعة عالية وواسعة إلى حد استيعاب أربعين ألف رجل وتركت مسافة واسعة على جميع أطرافها الأربعة . ٨٥

كانت المبانى فى البداية تشيد من القش والبوص لكن عندما حدثت واقعة اندلاع النار وافق عمر على أن تشيد المبانى من الطوب اللبن وشيدت أمام المسجد الجامع مظلة واسعة بطول مائتى ذراع أقيمت على أعمدة من الرخام التى قد جلبوها من القصور الأنوشيروانية ، ومن الجدير بالذكر فى هذه المناسبة أنه بالرغم من أنه لم يكن هناك فى الحقيقة أى وارث للعمارة الأنوشيروانية فإنه طبقًا لأصول الحكم : إن يكن لها وارث فالوارث هو الخليفة . لكن عدل عمر وإنصافه جعله يدفع ثمن الأعمدة للرعايا المجوس ، أى أن القيمة التقديرية لهذه الأعمال قد طرحت من جزيتهم ، كما بنى إيوانًا للحكومة على مسافة مائتى ذراع من المسجد وكان يشتمل على بيت المال أيضًا وشيدت مضيفة عامة ليقيم فيها المسافرون القادمون من الخارج ويتلقون الطعام من بيت المال / . ٨٦

وقد حدثت سرقة فى بيت المال بعد عدة أيام ولأن عمر تصل إليه الأخبار عن كل صغيرة وكبيرة كتب إلى سعد لكى يلحق إيوان الحكومة بالمسجد ، لذا فإن « روزبة » أحد معمارى المجوس الذى كان مهندسًا مشهورًا مكلفًا [١] بالأعمال الإنشائية قام بإضافات فى مبنى إيوان الحكومة بإتقان وإحكام حتى ألحقه بالمسجد ، وقد أرسل روزبة وغيره من البنائين إلى دار الخلافة مكافأة لهم على هذا فكرمهم عمر أيما تكريم وقرر

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٤٦ (المترجم) .

لهم راتبًا طيلة حياتهم ، وشيدت مساجد منفصلة لكل قبيلة غير المسجد الجامع ، ومن بين القبائل التى استوطن بها اثنا عشر ألف رجل من اليمن وثمانية آلاف رجل من نزار ، والقبائل التى استقرت بها أسماؤها كالتالى : سليم وثقيف وهمدان وبجيلة وتيم اللات وتغلب وبنو أسد ونخع وكندة والأزد ومزينة وتميم ومحارب وأسد وعامر وبجالة وجديلة وأخلاط وجهينة ومذحج وهوازن وغيرها من القبائل .

وقد وصلت هذه المدينة أوج عظمتها ومجدها فى عهد عمر وكان عمر يطلق عليها اسم « رأس الإسلام » وكانت قد أصبحت فى الحقيقة المركز الرئيسى لقوة العرب وقد تطور عمرانها باستمرار فى العصور التالية لكن ظلت هذه الخاصية موجودة بها وهى أن قاطنيها كانوا عمومًا من نسل العرب ، وفى سنة ٦٢٤ هـ عندما تم إحصاء للسكان كان هناك خمسون ألف منزل خاص بقبيلة ربيعة ومضر وأربعة وعشرون ألف منزل للقبائل الأخرى فضلاً عن ستة آلاف منزل خاص باليمنيين .

ومع أن التطورات والتغيرات فى العصور اللاحقة لم تبق على الآثار القديمة مع ذلك فمما يثير العجب أن آثارًا لبعض المبانى ظلت قائمة لزمن طويل / فابن بطوطة [١] الذى زار هذا المكان المقدس فى القرن الثامن الهجرى كتب فى رحلته أن إيوان الحكومة الذى بناه سعد بن أبى وقاص لا يزال أساسه قائمًا حتى اليوم . ٨٧

أما المكانة العلمية لهذه المدينة فإنها كانت مهد النحو وكان الأسود الدؤلى من قَعَّدَ قواعد النحو بها ، وتأسس بها الفقه الحنفى ، وكان يقام بها مجالس الفقه التى أقامها أبو حنيفة بالاشتراك مع القاضى أبى يوسف وغيره من الفقهاء ، وولد فيها كبار أئمة الحديث والفقه والعلوم العربية الخالدى الذكر منهم إبراهيم النخعى وحماد والإمام أبو حنيفة والإمام الشعبى [٢] .

---

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتاب اللبنانى بيروت (ب . ت) ص : ١٤٧ (المترجم) .

(٢) أخذت تفاصيل الكوفة والبصرة من الطبرى والبلاذرى ومعجم البلدان (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤/٤٠ - ٤٨ و ٤/٢٦٤ - ٢٦٧ (المترجم) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٧٤ و ٣٤١ (المترجم) .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٤/٤٩٠ - ٤٩٤ (المترجم) .

الفسطاط :

عندما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية رحل عنها اليونانيون الذين كانوا يقيمون بها بكثرة عمومًا ، وتركوا المدينة فأراد عمرو بن العاص أن يجعلها مقرًا للحكومة بعد أن رأى منازلهم الخالية فطلب الإذن من دار الخلافة وكان عمر يخاف كثيرًا من المانع المائى حتى أنه فى أثناء تعمير الكوفة والبصرة كتب إلى القادة بألا يكون هناك أى نهر فى الطريق حتى المدينة التى يستوطنون بها ، ولذلك لم يفضل عمر أن تكون الإسكندرية مقرًا للحكومة لأن نهر النيل كان يقع فى طريق الإسكندرية .

ثم غادر عمرو بن العاص الإسكندرية ووصل إلى قصر الشمع حيث كانت خيمته هناك لا تزال منصوبة منذ أن تركها خالية عندما هاجم الإسكندرية ، لذا نزل فى تلك الخيمة وأسس هناك عمرانًا جديدًا حيث أقام لكل قبيلة سوراً منفصلاً / وعين كلاً من معاوية بن حُديج وشريك بن سهمى وعمرو بن مخزم وحويل بن ناشرة لتوطين القبائل فى الأماكن التى يرونها مناسبة ، وقد ذكر المقريزى أعداد الأحياء التى كانت فى ذلك الوقت وأسماء القبائل التى كانت تقطن فيها بالتفصيل وأنه بَنى المسجد الجامع باهتمام خاص ، والرواية العامة أن ثمانين من الصحابة قد اجتمعوا ليحددوا اتجاه قبلته ومن هؤلاء الصحابة الزبير والمقداد وعبادة وأبو الدرداء وشارك معهم كبار الصحابة ، وكانت ساحة هذا المسجد خمسين ذراعًا طولاً وثلاثين عرضًا ، وكان به أبواب من ثلاث جهات أحدهم فى مواجهة دار الحكومة والمسافة بين البنائين سبعة أمتار . ٨٨

وكان عمرو بن العاص قد أمر بتشييد منزل خاص لعمر فكتب إليه عمر : وما دخلى بهذا الصنيع ؟ فأقيمت مكانه سوق ، ولأن عمران هذه المدينة كان قد بدأ بخيمة لهذا سميت بالفسطاط الذى يعنى « الخيمة » فى اللغة العربية كان تعميرها فى سنة ٢١هـ .

اتساع العمران فى الفسطاط :

ازدهرت الفسطاط ازدهارًا عظيمًا وصارت عاصمة لمصر بدلاً من الإسكندرية ، وفى عهد الأمير معاوية دون فى الدواوين أربعين ألفًا من العرب ، ويذكر المؤرخون أنه كان بها فى وقت من الأوقات ستة وثلاثون مسجدًا وثمانية آلاف طريق وألف ومائة وسبعون حمامًا وكتب المقريزى بالتفصيل عن اتساع عمرانها ووفرة متاعها فى عدة

صفحات ، وقد ظلت هذه المدينة زمنًا طويلاً عاصمة لسلاطين مصر ومركزًا للحضارة والرقى وقد وصف العلامة البشارى – الذى طاف حول العالم فى القرن الرابع الهجرى – فى كتابه عن الجغرافية هذه المدينة فقال [١] « ناسخ بغداد ، مفخرة الإسلام ، خزانة ٨٩ المغرب / ليس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعه ولا أحسن تجملاً من أهله ولا أكثر مراكب من ساحله » .

المَوْصِل :

كان هذا الموقع موجودًا قبل الإسلام لكنه كان عبارة عن حصن وحوله عدة كنائس وبيع للنصارى ، أما فى عهد عمر فقد تم عمران هذا الموقع كمدينة وقد أسسها هرثمة ابن عرفجة وأسكن فيها قبائل العرب المختلفة وبنى فيها المسجد الجامع [٢] ولهذه المدينة مكانة خاصة فعن طريقها تلتقى حدود الشرق والغرب ، وربما سميت الموصل لهذا السبب .

وذكر ياقوت الحموى « أنه من المعروف أن مدن العالم الكبيرة ثلاث : نيسابور وهى بوابة الشرق ، ودمشق بوابة الغرب ، والموصل مدخل الشرق والغرب ، فلو أراد شخص الذهاب لأى ناحية فلابد من أن يمر من هنا .

وقد تطورت هذه المدينة تطورًا عظيمًا تدريجيًا ونجد فى معجم البلدان وجغرافية البشارى وغيرها ذكر اتساعها وعظمتها بالتفصيل .

الجيزة :

مدينة صغيرة تقع على الشاطئ الغربى لنهر النيل فى قبالة الفسطاط ، وعندما أتى ٩٠ عمرو بن العاص الفسطاط بعد فتح الإسكندرية / عين قوة صغيرة من الجيش فى هذا المكان حتى لا يتقدم الروم عن طريق النهر وكان أفراد هذه القوة من قبيلة همدان وأزد وحِمْيَر وبعد بناء الفسطاط أراد أن يستدعى هؤلاء الناس لكنهم أحبوا منظر النهر فلم يرغبوا فى ترك هذا المكان ، وقدموا هذه الحجة قائلين : لقد جئنا هنا للجهاد ولا يمكن

---

(١) بشارة المقدسى : أحسن التقاسيم : ١٩٧ (المترجم) .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٣١ – ٣٣٢ (المؤلف) .

أن نترك مثل هذا الهدف السامى وننتقل إلى مكان آخر ، فأخبر عمرو بن العاص عمر بهذه التطورات فأذن لهم عمر بالبقاء لمصلحة ما مع أنه كان يضطرب من مجرد ذكر اسم النهر ، وقد أرسل لهم أمرًا بتشييد قلعة لحمايتهم وهكذا أسست القلعة فى سنة ٢١هـ واكتمل بناؤها فى سنة ٢٢ هـ ، ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا أنهم عندما بدءوا بناء القلعة قالت قبيلة همدان نحن لا نريد أن نبقى فى حماية القلعة كالجبناء فسيوفنا حصننًا فخرجت هذه القبيلة ومعها بعض القبائل الأخرى وأقاموا خيامهم فى الأرض الفضاء وظلوا بها دائمًا ، وبفضل عمر لم تخل هذه القرية الصغيرة من المكانة العلمية فولد بها كبار المحدثين وقد ورد اسم بعضهم فى « معجم البلدان » (١) .

إدارة الجيش

مع أن الدول القوية فى العالم كانت قد دالت قبل الإسلام إلا أن آثارها الباقية كانت موجودة فى عهد الإسلام نفسه ولكن النظام العسكرى بها كان غير منظم ويخالف المبادئ السياسية / .

٩١

النظام العسكرى فى الإمبراطورية الرومانية :

إن روما الكبرى التى بسطت سيطرتها فى وقت من الأوقات على العالم أجمع كانت طريقة بناء الجيش فيها على النحو التالى : كان المعروفون فى البلاد وذوو المهارة فى فن الجندية والقيادة تمنح لهم الإقطاعيات الكبيرة ويتعهدون فى المهمات الحربية بأنهم سوف يحضرون معهم عددًا معينًا من القوات وكان هؤلاء الناس منتشرين فى كل أرجاء الدولة ويحتفظون بأعداد خاصة من الجنود ولم تكن علاقة هؤلاء القوات بالدولة علاقة مباشرة ولهذا السبب كان عندما يرفع هؤلاء القادة راية العصيان - أحيانًا - كانت قواتهم تبقى معهم وتحارب الدولة واسم هذه الطريقة « النظام الإقطاعى » ويسمون القائد العسكرى « بيرون » وقد لاحت هذه الطريقة حتى إن الخاضعين للبيرون كانوا يحتفظون بهذا النوع من الإقطاع تحت رعايته وهكذا قامت سلسلة طويلة ومتصلة من الطبقات .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٢٧ (المترجم) .

النظام العسكرى فى فارس :

وكانت إيران تتبع مثل هذا النظام تقريبًا ، فالذين كانوا يسمون فى فارس بـ« مرزبان » و« دهقان » كانوا من نفس النوع من الإقطاعيين ومالكى الأرض وهذا النظام قضى على دولة الروم ، ومن المسلم به الآن أنه كان أسوأ نظام بشكل عام .

النظام العسكرى فى فرنسا :

كان الجيش فى فرنسا حتى سنة ٥١١م لا يأخذ أى راتب أو يومية وما كان ينهب من أسلاب فى الفتوح كانت تقسم عليهم بالاقتراع ، ثم حدث تطور طفيف بعد ذلك فاتبعوا نفس النظام الإقطاعى للروم واستمرت هذه الطريقة بعد الإسلام حتى سنة ٧٥١م .

أما العرب فلم يكن عند ملوك اليمن وغيرهم أى إدارة منظمة للجيش ولم يشعر العرب بحاجة إليها حتى بداية الإسلام ، ففى عهد أبى بكر طرأ عليه تغيير إلى حد أن ما بقى من الغنيمة فى السنة الأولى لخلافته قسم على جميع الناس بواقع عشرة دراهم للفرد ، وعندما دخل فى السنة الثانية وصل ذلك المبلغ من عشرة إلى عشرين ولكنه لم يحدد أى رواتب للجيش ولم يقم بأى حصر لأفراد الجيش كما لم تنشأ أى إدارة حربية ، واستمر هذا الوضع حتى أوائل خلافة عمر ، وفى سنة ١٥هـ نظم عمر هذه الإدارة ورتبها على هذا النحو وهذا مثير للعجب عند مقارنته بتلك الفترة .

النظام العسكرى عند عمر :

لقد تم بيان الأسباب المختلفة لاهتمام عمر بهذا الصدد ففى كافة الروايات أن أبا هريرة الذى عين حاكمًا للبحرين جاء إلى المدينة ومعه خمسمائة ألف درهم وأخبر عمر بذلك ، وقد كان مبلغ خمسمائة ألف درهم فى ذلك الوقت مثيرًا للغاية ، فقال عمر : خيرًا ماذا تقول ؟ فقال خمسمائة ألف درهم ، فقال عمر : هل أحصيتهم : قال أبو هريرة : نعم وقال مائة ألف خمسة مرات ، فتأكد عمر منه وعقد مجلس الشورى وسأل المشورة ، فكيف ينفق هذا القدر الهائل من الأموال ؟ فقدم علىّ وعثمان وباقى

الصحابة اقتراحات مختلفة فقال الوليد بن هشام [١] « قد كنت فى الشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانًا وجندوا جنودًا فاستحسن عمر هذا الرأى ، فنشأت لديه فكرة تدوين أسماء الجند وإعداد الديوان [٢] وفى رواية أخرى أن صاحب الرأى ذكر « سلاطين العجم » وهذه الرواية أقرب إلى القياس لأنه عندما أعدوا السجلات سموها « ديوان » [٣] وهى كلمة فارسية ، ف « دبستان » أى مدرسة و« دبير » أى كاتب / ٩٣ و« دفتر » أى سجل و« ديوان » أى إدارة كلها كلمات من مادة واحدة ومادتها المشتركة « دب » وهى كلمة بهلوية معناها الرعاية والمراقبة .

بناء جيش الدولة :

على كل حال ففى سنة ١٥ هـ أراد عمر إقامة إدارة مستقلة للجيش وكان أجدر اقتراح فى هذا الصدد هو الاقتراح الخاص بجعل الدولة كلها جيشًا وأراد أن ينجز العمل بطريقة منظمة بحيث يكون كل مسلم جنديًا فى جيش الإسلام ولكن هذا التعميم كان محالاً فى البداية لذا بدأ بقريش والأنصار أولاً وكان فى المدينة فى ذلك الوقت ثلاثة أفراد مهرة فى الأنساب ومن الحساب وهم : مخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وعقيل ابن أبى طالب وكان علم الأنساب فنًا عربيًا متوارثًا وكان هؤلاء الصحابة سجلاً لقريش والأنصار يقيد فيه اسم كل شخص ونسبه بالتفصيل فأعد هؤلاء الناس قائمة وقدموها إليه فكان فى المقدمة بنو هاشم ثم قبيلة أبى بكر ثم قبيلة عمر وأقر هؤلاء النسابون هذا الترتيب من حيث الحكم والخلافة لكن فى حالة قبول هذا النظام المقدم تصبح الخلافة وسيلة للمصالح الشخصية ، فقال عمر ليس هكذا بل ابدءوا بأقرباء رسول الله الأقرب حتى الأدنى فى القرابة / ٩٤ عن رسول الله واكتبوا بهذا الترتيب أسمائهم حتى تصلوا قبيلتى فاكتبوا اسمى ، ويجب أن نذكر هنا أن نسب سيدنا عمر هو آخر نسب من بين الخلفاء الأربعة والذى يلتقى مع رسول الله - ﷺ - المهم أنه طبقًا لهذا التوجيه تم التسجيل وأقرب الرواتب حسب ما يلى : -

---

(١) ذكر المقريزى أنه « خالد بن الوليد » وليس « الوليد بن هشام » (المترجم) .

(٢) المقريزى : ١ / ٩٢ وفتوح البلدان : ٤٤٩ (المؤلف) - فتوح البلدان : ٤٣٦ (المترجم) .

(٣) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة : ٢ / ٤٦٠ (المترجم) .

تقسيم الدرجات (المراتب)	مقدار الراتب السنوى
- من شهدوا بدرا	٥ آلاف درهم
- مهاجرو الحبشة ومن شهدوا أحدا	٤ آلاف درهم
- المهاجرون قبل فتح مكة	٣ آلاف درهم
- المسلمون فى فتح مكة	ألفا درهم
- المشاركون فى معركة اليرموك والقادسية	ألفا درهم
- أهل اليمن	٤٠٠ درهم
- المجاهدون بعد اليرموك والقادسية	٤٠٠ درهم
- من ليس لهم فضل	٢٠٠ درهم [٢]

كما أجريت الرواتب لزوجات وأطفال الناس الذين قيدت أسماؤهم فى السجلات فكانت رواتب زوجات المهاجرين والأنصار من مائتين إلى أربعمائة درهم وتقرر ألف درهم / لكل فرد من أولاد البدريين الذكور ، ومن الجدير بالذكر أن الناس الذين تقررت لهم رواتب تقررت لعبيدهم رواتب أيضًا ويمكن أن نستنتج من هذا الموقف كيف كانت منزلة العبيد فى الإسلام ؟

٩٥

ومع أن من أثبت فى الدفاتر كانوا جميعًا مرتبطين بالجيش فى الحقيقة إلا أنهم قُسموا إلى قسمين / :

٩٦

١ - المنخرطون طوال الوقت فى المهام القتالية وكأنهم بمثابة جيش نظامى .

(١) ذكر الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين » (المجلد الثانى صفحة ٣٧ طبعة مصر) : « كان فى قريش كلها أربعة أشخاص يحفظون أخبار العرب وأنسابهم وأشعارهم هم : مخرمة بن نوفل وأبو الجهم وحويطب بن عبد العزى وعقيل بن أبى طالب » . (المؤلف) .

- الجاحظ : البيان والتبيين : ٢ / ٣٢٣ - ٣٢٤ (المترجم) .

(٢) هناك روايات مختلفة عن تفاصيل الرواتب : كتاب الخراج صفحة ٢٤ والمقريزى : ١ / ٩٢ والبلاذرى : ٢٤٨ واليعقوبى : ١٧٥ والطبرى : ٢٤١١ . وقد ذكرت هذه البيانات بعد المطابقة بينها بقدر الإمكان (المؤلف) - الخراج : ٤٢ - ٤٣ (المترجم) . - فتوح البلدان : ٤٣٧ - ٤٤٢ (المترجم) اليعقوبى : ٢ / ١٣١ (المترجم) .

٢ – الذين كانوا يقيمون فى بيوتهم عادة ويمكن استدعاؤهم عند الضرورة ويطلق عليهم فى العربية اسم « المتطوعة » وفى المصطلح المعاصر يقال لهذا النوع من الجيش المتطوع Volunteer ولا شك أن هناك فرقًا إلى حد ما ، ففى الوقت الحاضر لا يتقاضى المتطوع راتبًا [(١)] .

كانت هذه هى المقدمة الأولى للإدارة العسكرية لذلك ظهر فيها شىء من عدم التنظيم كشأن كل بداية إلا أن أكبر الأخطاء التى حدثت فى هذا الصدد هو أن سجلات الرواتب العسكرية كانت تشتمل أيضًا على الرواتب السياسية وكلاهما دون فى سجل واحد . لكن بالتدريج أى فى سنة ٢١هـ نظم عمر هذه الإدارة ورتبها على نحو لم يحدث مطلقًا فى مكان ما فى ذلك العصر سوى هذا المكان ، لذا سوف نكتب عن كل نقطة مهما كانت صغيرة فى هذا المكان بتفصيل مسهب وسيتضح منها إن إقامة العرب فى بداية الحضارة لهذا القدر من الفروع للتنظيمات العسكرية وترتيبها وتنظيمها كان إلى هذا الحد وقد كان هذا الصنيع للرجل الذى لقب بالفاروق العظيم .

لقد كان التنظيم الجوهرى والأولى فى هذه الإدارة هو تقسيم الدولة إلى مناطق مختلفة من الناحية الحربية ، ففى سنة ٢٠هـ قسم عمر الدولة إلى قسمين من الناحية المدنية والعسكرية – مدنى وعسكرى – وقد مر بنا الحديث عن الحالة المدنية عند ذكر التنظيمات الديوانية .

---

(١) هناك أمر جدير بالذكر هنا هو أن كثيرًا من المحللين والنقاد يعتقدون أن الرواتب التى أجراها عمر على العرب جميعًا لها ارتباط إلى حد ما بإدارته العسكرية مع أنها كانت بهدف الرفاهية العامة ، لكن هذه الفكرة خاطئة تمامًا ، أولاً لأن المؤرخين ذكروا فى شأن هذه الواقعة أن الوليد بن هشام قال لعمر : « قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا وجندًا فأخذ بقوله » (المؤلف) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٠٩ والبلاذرى : فتوح البلدان : ٤٣٦ (المترجم) .

ثانيًا : إن من لم يؤدوا الخدمة العسكرية ولم يكن لهم خدمات عسكرية قديمة تذكر لم يقرر لهم عمر الأرزاق وبناء على هذا لم يتلق أهل مكة رواتب وقد جاء فى فتوح البلدان أن : عمر كان لا يعطى أهل مكة عطاء ولا يضرب عليهم بعثًا . (المؤلف) . (البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٤٤) (المترجم) .

ولهذا السبب عندما طلب أهل البادية من أبى عبيدة أن يقرر لهم الرواتب قال : لا أرزقكم حتى أرزق أهل الحاضرة .

ولا شك فى أن سجلات الجيش فى البداية كانت تضم كثيرًا من أنواع الناس مثل : حفظة القرآن وأصحاب الكمال فى كل فن ، لكن يتضح من الاستقراء أن الخلط الذى حدث لسبب ما قد محى بالتدريج وسيأتى بحث هذا الموضوع .

المناطق العسكرية المركزية :

أما من الناحية العسكرية فقد أقام (عمر) عدة مراكز عسكرية كبيرة وسماها « جند »[1] وهذا المصطلح قائم حتى الآن وتفصيل هذه المراكز هو أن / المدينة والكوفة ٩٧ والبصرة والموصل والفسطاط بمصر ودمشق وحمص والأردن وفلسطين هى حدود الفتوحات فى عهد عمر وقد وصلت إلى حدود بلوجستان إلا أن الدول التى يمكن أن يطلق عليها اسم الدولة رسميًا كانت هى العراق ومصر والجزيرة والشام ، وهكذا فقد أقيمت فى تلك الدول مناطق عسكرية رئيسية طبقًا لهذه المبادئ فكانت الموصل المنطقة المركزية للجزيرة ، وكان من الضرورى إقامة مناطق عسكرية رئيسية متعددة فى الشام لاتساعها لذا أقيمت أربعة مراكز رئيسية فى دمشق وفلسطين وحمص والأردن والفسطاط التى تحولت الآن إلى القاهرة كانت لها أثر بالغ على سائر مصر أما الكوفة والبصرة فهاتان المدينتان كانتا بوابتى فتوح فارس وخوزستان والشرق بأكمله .

وقد كانت تنظيمات الجيش فى تلك المناطق المركزية حسب ما يلى : -

معسكرات الجيش :

(١) كانت هناك مبان لإقامة أفراد الجيوش ، فقد شيدت الكوفة والبصرة والفسطاط تلك المدن الثلاث فى الأصل من أجل سكن الجيش وإعاشته وقد كان فى الموصل قلعة منذ أيام العجم وعدة بيع ومنازل عادية وقد شيد هرثمة بن عرفجة الأزدى (حاكم الموصل) المدينة بحيث أقام أحياء خاصة لكل قبيلة من قبائل العرب المختلفة .

تربية الخيل :

(٢) كانت الإسطبلات الضخمة فى كل مكان تضم أربعة آلاف جواد متأهبة طوال الوقت بالعدة والعتاد وكانت هذه الخيول معدة خصيصًا لهذا الغرض حتى إذا ما دعت

---

(١) لتحقيق كلمة « جند » انظر فتوح البلدان صفحة ١٣٢ . وذكر اليعقوبى فى أحداث سنة ٢٠هـ أن عمر - رضى الله عنه - قد أقام المناطق المركزية فى هذه السنة إلا أن المؤرخ المذكور لم يذكر إلا فلسطين والجزيرة والموصل وقنسرين فقط وهذا خطأ صريح (المؤلف) .

الحاجة إليها فجأة يُعد على الفور كتيبة مكونة من اثنين وثلاثين ألف فارس [١] وفى سنة ١٧هـ ثار أهل الجزيرة فجأة / فكانت هذه العملية مفتاح النصر ، وكان يهتم اهتمامًا بالغًا بتربية الخيل ورعايتها ، وقد وضع عمر نصب عينيه ترتيب المدينة المنورة وتنظيمها فأعد مرعى على بعد أربعة منازل من المدينة وعين غلامه [٢] الذى كان اسمه « هنى » لرعايتها وحراستها ، وكانت أفخاذ تلك الخيول تكون بهذه الكلمات « جيش فى سبيل الله » [٣] وأسندت هذه المهمة إلى سلمان بن ربيعة الذى بلغ ذروة الكمال فى تربية الخيل ومعرفتها حتى دخلت هذه الصفة على اسمه فكانوا ينادونه بسلمان الخيل وكانت هذه الخيول توضع فى الإسطبلات فى أيام الشتاء وظل هذا المكان معروفًا باسم « آرى » حتى القرن الرابع الهجرى ومعناه « الإسطبل » وكان العجم يطلقون على الإسطبل اسم « آخورشاه جهان » أى « إسطبل ملك الدنيا » وكانت هذه الخيول فى الربيع ترعى فى مراع نضرة قرب عاقول على ضفة نهر الفرات وكان سلمان يجتهد دائمًا كل الجهد فى تربية الخيول وكان دائمًا يجرى سباقًا للخيل مرة فى السنة . ٩٨

وقد طور أيضًا الخيول الأصلية ولم يكن العرب قبل هذا / يهتمون فى النسل بالأم فكان سلمان أول من اهتم بهذا وكان الفرس من أم غير عربية يعد غير أصيل ويحرم الناس من نصيبه حين تقسيم الغنائم [٤] . ٩٩

---

(١) فى تاريخ الطبرى صفحة ٥٠٤ « كان لعمر أربعة آلاف فرس عدة لكون أن يشتيها فى قبلة مصر الكوفة ، وبالبصرة نحو منها وقيم عليها جزء بن معاوية وفى كل مصر من الأمصار الثمانية على قدرها فإن نابتهم نائبة ركب القوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس » (المؤلف) - أيضًا الخراج : ٤٧ (المترجم) .

(٢) أعد عمر مراعى متعددة فى الجزيرة العربية لتربية الخيول والإبل والاعتناء بها ، وكان أكبر مرعى فى منطقة « زبدة » ويقع فى مركز نجد على مسافة أربعة منازل من المدينة المنورة ومساحتها عشرة أميال طولاً ومثلها عرضًا . والمكان الثانى كان فى « ضرية » على بعد سبعة منازل من مكة المكرمة وكانت مساحتها من كل جانب ستة أميال ويتربى فيها حوالى أربعين ألف ناقة والتفاصيل الكاملة لتلك المراعى توجد فى خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى طبعة مصر ص ٢٥٥ - ٢٥٦ (المؤلف) .

(٣) كنز العمال : ٢ / ٢٣١ (المؤلف) .

(٤) أنظر إلى تذكرة سلمان بن ربيعة فى كتب الرجال (المؤلف) .

أسد الغابة : ٢ / ٤١٥ - ٤١٦ (المترجم) .

وقد تولى جزء بن معاوية أمر البصرة وكان حاكمًا للأهواز .

ديوان الجند :

(٣) كانت جميع الأوراق والدواوين المتعلقة بالجيش خاصة بهذا المكان .

قمح المؤن :

(٤) كانت الغلات والحبوب التى تهيأ للمؤن تحفظ فى هذه المناطق وترسل إلى المناطق الأخرى .

معسكرات الجيش :

فضلاً عن تلك المناطق المركزية أقام عمر معسكرات للجيش بكثرة فى المناطق المناسبة والمدن الكبيرة وكان من عادة العرب الذين انتشروا فى جميع البلاد المفتوحة أنهم كلما فتحوا مدينة عينوا بها فى ذلك الوقت عددًا مناسبًا من الجند يرابطون فيها [١] ، وعندما فتح أبو عبيدة الشام عين عاملاً على كل محافظة ترابط معه قوة مناسبة لكن مع استتباب الأمن والأمان لم تكن هناك أى مدينة كبيرة أو محافظة لم تعد الترتيبات العسكرية فيها / . ١٠٠

وعندما سافر عمر إلى الشام فى عام ١٧هـ كانت حدود الدولة تلتقى بدولة العدو فى تلك المناطق أى دلوك ومنبج ورعيان وقورس وتيزين وأنطاكية وغيرها (ويقال لها فى العربية ثغور أو فروج) فقام بجولة فى كل مدينة ونظم الإدارة العسكرية المناسبة لكل منها ، أما المناطق التى كانت تقع على شاطئ البحر وتسمى البلاد الساحلية (أى عسقلان ويافا وقيسارية وأرسوف وعكا وصور وبيروت وطرطوس وصيدا وأياس واللاذقية) كانت دائمًا هدفًا لقوة الروم البحرية ولهذا جعل لها نظامًا منفصلاً واستعمل

---

(١) جاء فى فتوح البلدان صفحة ١٢٨ « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد . وفى صفحة ١٥١ » وولى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملاً وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحى المخوفة « (المؤلف) . (البلاذرى : فتوح البلدان : ١٣٤ و ١٥٥ (المترجم) .

عليها عبد الله بن قيس [١] قائدًا عامًا ، أما « بالس » التى كانت على ساحل الفرات الغربى تشارك العراق فى نفس الحدود فمع إقامة نظام الجيش هناك أضاف أمرًا آخر وهو أنه أسكن [٢] بها قومًا من العرب الشوام الذين أسلموا . وعندما توفى يزيد بن أبى سفيان فى سنة ١٩هـ أخبر أخوه معاوية عمر بأهمية تحصين سواحل الشام ، فكتب إليه فى نفس الوقت بترميم جميع الحصون وتنظيم الجيوش فيها وأن يقام الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها [٣] / . ١٠١

وقد تم فى الإسكندرية هذا النظام بحيث خصص ربع القوات التى كانت تحت قيادة عمرو بن العاص للإسكندرية والربع الآخر يقيم فى المناطق الساحلية ، ويرابط نصف الجيش المتبقى مع عمرو بن العاص نفسه فى الفسطاط ، فكانت هذه القوات تقيم فى قصور واسعة وفى كل قصر يقيم فيه عريف ومن معه ويكون قائد قبيلته ويقسم رواتبهم بمعرفته ، وكان أمام القصور أرض فضاء واسعة على هيئة فناء [٤] .

وفى سنة ١٦ هـ عندما أراد هرقل مهاجمة مصر عن طريق البحر أقام عمر معسكرات للجيش على طول السواحل وخصص عمر لهذه المناطق ربع القوات التى كانت تحت قيادة عمرو بن العاص [٥] ، وبالرغم من أن البصرة والكوفة فى العراق كانتا

---

(١) العبارة الأصلية فى تاريخ الطبرى صفحة ٢٥٢٣ « قسم عمر الأرزاق وسمى الشواتى والصوائف وسد فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها وسمى ذلك فى كل كورة واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة » . (المؤلف) (الطبرى : ٦٤/٤ - ٦٥) (المترجم) .

(٢) فى فتوح البلدان صفحة ١٥٠ : « ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قومًا من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام » (المؤلف) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ١٥٥ (المترجم) .

(٣) فى فتوح البلدان صفحة ١٢٨ « أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب إليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها » . المؤلف . (البلاذرى : فتوح البلدان : ١٣٤) (المترجم) .

(٤) فى المقريزى : ١٦٧/١ « وكان لكل عريف قصر ينزل فيه وبمن معه من أصحاب واتخذوا فيه أخايذ » المؤلف .

(٥) انظر تاريخ الطبرى صفحة ٢٥٩٤ (المؤلف) - تاريخ الطبرى : ١١١/٤ (المترجم) . والمقريزى : ١٦٧/١ .

محصنتين وكان بالكوفة خاصة أربعون ألف مقاتل يقيمون بصفة دائمة وقد نظمهم على أن يكون عشرة آلاف منهم مشتغلين بالغزوات الخارجية (١) . ومع هذا تم تعمير معسكرات العجم التى كانت موجودة من قبل من جديد لتوطيد دعائم القوة العسكرية ، وكان فى خريبة وزابوقة سبعة معسكرات صغيرة شيدت جميعًا من جديد (٢) .

وقد أقيمت معسكرات عديدة للجيش فى إقليم خوزستان مثل : نهر تيرى ومناذر وسوق الأهواز وسرق وهرمزان وسوس وبنيان وجند يسابور ومهرجا نقدق وعمرت جميع هذه المناطق بالجيوش (٣) وكان يرابط فى معسكرات الرى وأذربيجان عشرة آلاف جندى بصفة دائمة .

وقد أقيمت مئات المعسكرات فى كل مكان ولا نحتاج إلى البيان بالتفصيل ، إلا أن ما يجدر ملاحظته هنا هو لماذا اتسع الأمر إلى هذه الدرجة ؟ وما الأصول التى كانت تراعى فى اختيار المناطق العسكرية ؟ وفى الحقيقة أن قوة الإسلام العسكرية فى ذلك الوقت قد أكسبت قوة وسعة إلا أنه لم يكن لديهم عتاد فى القوات البحرية بينما كان الرومان ضليعين فى هذا الفن منذ زمن طويل ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أى خطر لثورة داخلية لأن أهل البلاد رغم اختلاف الدين كانوا يفضلون المسلمين على النصارى كثيرًا ، لكنهم كانوا يشعرون بالقلق دائمًا من حملات الروم البحرية وإلى جانب هذا فقد كانت آسيا الصغرى فى حوزة الروم ولم تصب قوتهم هناك بأى ضرر نظرًا لهذه الأسباب كان من الضرورى أن تحصن المناطق الحدودية والموانئ باستحكامات قوية .

الأسس التى أقيمت عليها معسكرات الجيش :

كان هذا السبب نفسه هو الذى أقام عمر من أجله هذا القدر من المعسكرات فى

---

(١) فى تاريخ الطبرى صفحة ٢٨٠٥ « وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين (الرى وأذربيجان) منهم عشرة آلاف فى كل سنة فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة » الطبرى : ٤ / ٤٨ - ٥٠ .

(٢) فتوح البلدان : صفحة ٣٥٠ (المؤلف) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٤٥ (المترجم) .

تلك المناطق التى تقع إما على الساحل أو على مدخل آسيا الصغرى أما وضع العراق فقد كان يختلف عن هذا لأن بها فضلاً عن الحكومة كبار أمراء الدولة الذين يعرفون « بمرزبان » / ويحاربون باستمرار من أجل بقاء إماراتهم فكانوا يخضعون بعد أن ينهزموا ١٠٣ ولا يمكن الاطمئنان على طاعتهم وخضوعهم لذا كان من الضرورى إقامة الجيش فى كل مكان من هذه البلاد حتى لا يحلم حكام الولايات بالثورة .

اتساع ديوان الجيش :

بجانب اهتمام عمر بهذا الأمر – اهتم – بأنواع أخرى من الإدارات ونظم كل إدارة إلى درجة أنها كانت تبدو كمعجزة بالنسبة لحضارة ذلك العصر كما أنه وسع فى إدارة تعبئة الجند التى قد بدأت بالأنصار والمهاجرين وقد بلغت من الاتساع مبلغًا حتى إنها شملت العرب كلهم تقريبًا وأعدت السجلات لإحصاء كل فرد من أفراد القبائل التى كانت تقيم بين المدينة وعسفان التى تقع على بعد منزلين من مكة المكرمة وأعد سجلاً لجميع قبائل البحرين آخر أقاليم العرب بل إن الجغرافيين العرب يعتبرونها من أقاليم العراق ، وهكذا أعدت سجلات بأسماء العرب المقيمين فى الكوفة والبصرة والموصل والفسطاط والجيزة وغيرها ، وأجريت المرتبات على هذه الجماعة – التى لا تحصى – على قدر درجاتهم ومع أننا لا نعرف من كتب التاريخ العدد الكلى لهم إلا أن يتضح بالأدلة أنهم كانوا على الأقل ثمانمائة ألف أو مليون رجل مسلم .

عمر يجهز جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا كل عام :

ويروى ابن سعد أن عمر كان يرسل فى الفتوحات ثلاثين ألف جندى مستجد كل عام [1] ويذكر الطبرى بالنسبة للكوفة أنه قد أسكن بها مائة ألف رجل قادرين على القتال من بينهم أربعون ألف جندى نظامى / كان من واجبهم أن يشتركوا فى حروب أذربيجان والرى بالتناوب . ١٠٤

وكان هذا النظام هو الذى جعل الرعب من العرب قائمًا فى جميع أنحاء العالم لمدة

(١) كنز العمال : ٦ / ٣٣١ ويذكر الإمام مالك فى الموطأ أن عددهم أربعون ألفًا بدلاً من ثلاثين ألفًا (المؤلف) .

– الإمام مالك : الموطأ : ٣٧٢ – ٣٧٣ (المترجم) .

طويلة وظل سيل الفتوح يتضاعف باستمرار ودب الضعف فى قوة العرب عندما حدث خلل فى هذا النظام وكان معاوية أول من غير هذا النظام ، أى أنه أوقف رواتب الأطفال الرضع كما خفض عبدالملك بن مروان أكثر منه حتى أخرج المعتصم بالله أسماء العرب من السجلات العسكرية ومنذ ذلك اليوم خرج الحكم من يد العرب .

هذه كانت جملة اعتراضية أما الآن فيجب أن نعود مرة أخرى إلى النظام العسكرى لعمر ، لقد وسع عمر من نظام سجلات الجيش حتى أدخل فيه العجم أيضًا .

كان الجيش يضم الفارسى والرومى والهندى واليهودى أيضًا :

كان يزدجرد ملك فارس قد أعد جماعة مختارة من الديالمة عددها أربعة آلاف وسماها جيش الملك أى الجيش الخاص به وقد انفصل هذا الجيش عن الفرس بعد عدة معارك من القادسية ودخل فى دائرة الإسلام فألحقهم سعد بن أبى وقاص حاكم الكوفة فى الجيش وأجرى لهم الرواتب وأسكنهم الكوفة [(١)] ، ولهذا يرد أسماؤهم فى أماكن مختلفة من كتب التاريخ فى الفتوحات الإسلامية وكان قائد مقدمة يزدجرد قائدًا مشهورًا يلقب بـ « سياه » .

وفى سنة ١٧هـ عندما اتجه يزدجرد صوب أصفهان أرسل « سياه » إلى اصطخر ومعه ثلاثمائة فارس كان من بينهم سبعون من المصارعين المعروفين / لكى يختاروا الشجعان من كل مدينة ويكونوا منهم فرقة ، وعندما حاصر أبو موسى السوس سنة ٢٠هـ أمر يزدجرد سياه أن يذهب للقاء أبى موسى ومعه هذه الكتيبة الفريدة ، وبعد فتح السوس سنة ٢٠هـ طلب سياه وجميع القادة الأمان من أبى موسى على عدة شروط ، فلم يوافق أبو موسى وأخبر عمر بحقيقة ما حدث فأرسل له عمر بأن يوافق على جميع شروطهم ولهذا أسكنوا فى البصرة وقيدت أسماؤهم جميعًا فى دفاتر الجيش وأجريت لهم الرواتب ، ورتب لستة قادة منهم ألفان وخمسمائة لكل واحد منهم وهم : سياه وخسرو وشهريار وشيرويه وشهروبيه وافرودين وقرر لمائة مقاتل ألفين وقد تم فتح تستر بتدبير سياه [(٢)] .

١٠٥

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٢٨٠ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٧٥ (المترجم) .

(٢) الطبرى : أحداث سنة ١٧ هـ ذكر فتح السوس . وفتوح البلدان من صفحة ٣٧٢ حتى ٣٧٥ (المترجم) . =

كان باذان حاكمًا لليمن من قبل أنوشيروان فأسلم كثير من الجيش الإيرانى الذى كان فى ركابه فكتب أسماؤهم أيضًا فى سجل الجيش ، ومن العجيب أن الجيش الفاروقى لم يخل من شجعان الهند « فجات » السند الذين يطلق العرب عليهم « زط » والذين كانوا فى جيش يزدجرد أسلموا بعد معركة السوس وبعد أن جندوا فى الجيش أسكنوا البصرة (١) .

وكان الجيش يحتوى كذلك على أبطال الروم واليونان وقد اشترك فى الحرب منهم خمسمائة رجل / فى فتح مصر وعندما أقام عمرو بن العاص فى الفسطاط أسكنهم فى حى خاص بهم ، ولم يخل الجيش كذلك من اليهود فقد شارك ألف رجل منهم الجيش الإسلامى فى فتح مصر (٢) . ١٠٦

الخلاصة أن عمر طور إدارة الحرب ولم يجعلها حكرًا على أى قوم أو بلد ولم يكن هناك قيد بسبب الدين والملة ، فكان الجيش المتطوع يضم آلافًا من المجوس يتلقون راتبًا مساويًا لرواتب المسلمين ، ونجد أخبارًا عن المجوس أيضًا فى الإدارة العسكرية وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل عند ذكر حقوق الأقوام الأخرى ، ويجب أن نضع فى الاعتبار أن اتساع نطاق إدارة الحرب وإلحاق جميع القوميات فيها كان من سماحة الإسلام فقط وإلا فالعرب لم يتحملوا منه أحد فى فتوحات البلاد إلا من سيوفهم :

فليس عجيبًا إن أمكن لكلب ولايتك ، الإمساك بأرنب هرمز (٣)

وكما كتبنا من قبل فى بداية التنظيم لم يكن هناك إدارة مستقلة للجيش أن أى الناس الذين كانوا يتلقون الرواتب لاعتبارات أخرى كانت أسماؤهم تسجل فى سجلات الجيش وكان هذا لحكمة ما فى ذلك الوقت ثم أراد عمر أن يرفع هذا الاستثناء أيضًا ، ففى بداية الأمر كان يراعى صفة قراءة القرآن للتفاوت فى الرواتب / ولأن مثل هؤلاء الناس لم يكن لهم أى علاقة بالأمور العسكرية لذا فصلهم عمر من هذا السجل وألحقهم بإدارة التعليم وأرسل إلى سعد هذه الكلمات : « لا تعط على القرآن أحدًا » . ١٠٧

= - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٨٩ - ٩١ . البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٣٦ - ٣٦٩ (المترجم) .

(١) فتوح البلدان : صفحة ٣٧٥ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : صفحة ٣٧٠ (المترجم) .

(٢) فى المقريزى : ٢٩٨ جميع هذه الأحوال بالتفصيل (المؤلف) .

(٣) الأصل الفارسى : كـ خرگوش هرمز رايى شگفت سگ آن ولايت تواند گرفت

الزيادة فى الرواتب :

ثم ولى عمر اهتمامه بعد هذا بزيادة المرتبات ولأنه كان يجنب الجيش تمامًا عن جميع أنواع الاشتغال بالزراعة والتجارة لذا كان من الضرورى أن يتكفل بجميع احتياجاتهم فقد أضاف من هذه الناحية زيادة كافية فى الرواتب ، فأقل شريحة مرتبات فى هذا الصدد كانت مائتين سنويًا جعلها ثلاثمائة وزاد فى مرتبات القادة من سبعة آلاف إلى عشرة آلاف وكانت الرواتب تقرر للأطفال منذ يوم الفطام فأمر آنذاك أن تقرر لهم الرواتب من يوم ولادتهم .

تنظيم المؤن :

كانت إدارة المؤن قبل ذلك على هذه الصورة أى عندما وصلت الجيوش إلى القادسية كانوا يغيرون على القرى المجاورة ويحضرون القمح والحبوب الأخرى إلا أن توفير اللحوم كان من قبل دار الخلافة أى أن عمر كان يرسلها من المدينة المنورة [١] ، ثم عدل هذا النظام فصار يؤخذ من أهل البلاد المفتوحة خمسة وعشرون منًا من الحنطة عن كل فرد مع الجزية التى تستخدم فى المؤن وكان يجبى من مصر مع الحنطة زيت الزيتون والعسل والخل كذلك والذى كان يستعمل كإدام للجند وقد كان هذا النظام متبعًا فى الجزيرة أيضًا لكن كان فيه مشقة للرعايا وفى نهاية الأمر قرر نقودًا بدلاً منه وقبل الرعايا [٢] ذلك بكل سعادة / . ١٠٨

إدارة مستقلة للتموين :

وأقام عمر بالتدريج إدارة مستقلة للتموين كان اسمها « الأهراء » [٣] وعين عمرو

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٢١٥ ، والعبارة الأصلية هى : « فإذا احتاجوا إلى العلف والطعام أخرجوا خيولاً فى البر فأغارت على أسفل الفرات وكان عمر يبعث إليهم من المدينة الغنم والجزر » (المؤلف) .

(٢) فتوح البلدان : صفحة ١٧٨ - ٢١٦ (المؤلف) .

(٣) تاريخ الطبرى : صفحة ٢٥٢٦ وانظر معنى أهراء فى لسان العرب وفتوح البلدان (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٥/٤ والبلاذرى : فتوح البلدان : ٢٠٩ ، وقد جاء فى لسان العرب : مادة هرا ، قال الأزهرى : ولا أدرى أعربى هو أم دخيل . والهرى بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام البر ونحوه ليوزعه السلطان والجمع أهراء (المعجم الوسيط : ط ٣ . جـ٢ . ص ١٠٢٣ مادة هرى (المترجم) .

ابن عتبة [١] رئيسًا لهذه الإدارة فى الشام ، والأهراء جمع هرى والهرى كلمة يونانية معناها المخزن أو المستودع لأن جميع المؤن فى مكان واحد وتقسيمه قد أخذ عن اليونان لذا بقيت الكلمة اليونانية فى الاسم أيضًا ، فكانت جميع الحبوب والقمح تجمع فى مستودع واسع وتوزع فى أول كل شهر بواقع عشرة آثار لكل جندى ، هكذا كان كل شخص يتلقى اثنى شعر « ثارًا » من زيت الزيتون ، واثنى عشر ثارًا من الخل ، ثم حدث تطور بعد هذا فكان الطعام يصل إليهم بدلاً من التموين الجاف .

الطعام والملابس والمعونة :

ويذكر المؤرخ اليعقوبى عند ذكر سفر عمر للشام أنه بالإضافة إلى الطعام والرواتب كانوا يتلقون الملابس أيضًا من دار الخلافة وسوف يأتى تفصيل ذلك عند ذكر الملابس الرسمية كما تقرر صرف البدلات ، ويقولون له فى العربية « معونة » . وكان إعداد فرس الركوب يتم باهتمام الفرسان أنفسهم ومن يكن قليل المال ولا يكفيه راتبه كان يحصل على فرس من الحكومة ، وبأمر من عمر كان هناك فى دار الخلافة ذاتها أربعة آلاف فرس موجودة فى كل وقت خاصة لهذا الغرض [٢] / . ١٠٩

طريقة تقسيم الراتب :

كانت أوقات تقسيم الراتب والمعونة مختلفة ، فالراتب كان يقسم فى بداية المحرم والمعونة فى فصل الربيع وكان يقسم إيراد الإقطاعيات الخاصة عند إدراك الغلات [٣] . أما طريقة توزيع الرواتب ، فكان لكل قبيلة عريف أى المقدم أو الرئيس والذين كانوا

---

(١) فى الطبرى عمرو بن عبسة (المترجم) .

(٢) الخراج صفحة ٢٧ (المؤلف) - أبو يوسف : الخراج : ٤٧ (المترجم) .

والعبارة الأصلية هى : « كان لعمر بن الخطاب أربعة آلاف فارس فإذا كان فى عطاء الرجل خفة أو كان محتاجًا أعطاه الفرس » (المؤلف) .

(٣) الطبرى : صفحة ٢٤٨٦ ، والعبارة الأصلية « وأمر لهم بمعاونهم فى الربيع من كل سنة وبأعطياتهم فى المحرم من كل سنة وبفيئهم عند طلوع الشعرى فى كل سنة وذلك عند إدراك الغلات » (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٤٢ (المترجم) .

قادة على الجند على الأقل عشرة جنود وكانوا يسمون بأمراء الأعشار فكانت تعطى لهم الرواتب فيسلمونها للعريف والعريف يسلمها بدوره لجنود قبيلته وكان على كل عريف أن يقسم مائة ألف درهم فكان فى الكوفة والبصرة مائة عريف يتم عن طريقهم توزيع مبلغ عشرة ملايين ويتبعون فى هذا النظام الحذر والحيطة والدقة . وعندما تجاوز أمراء الأعشار فى العراق حدودهم فى تقسيم الرواتب طلب عمر من نسابة العرب وذوى رأيهم مثل سعيد بن عمران [١] ومشعلة بن نعيم وغيرهم وعينهم للتفتيش فقرروا الرواتب والأرزاق للناس وحددوا درجاتهم مرة ثانية بعد التحقيق والتصحيح وعين رئيسًا على كل سبعة جنود بدلاً من عشرة [٢] وكان تعيين العريف كذلك من الإبداعات الفاروقية وقد تم العمل بهذه الطريقة لفترة من الوقت . ويروى البيهقى فى كنز العمال فى باب الجهاد أن « أول من دون الدواوين وعرف العرفاء عمر بن الخطاب » [٣] .

زيادة الرواتب :

١١٠ كانت الرواتب ترفع من وقتٍ لآخر حسب الأقدمية وجودة العمل / وقد قام زهرة وعصمة والضبى وغيرهم بأعمال عظيمة فى القادسية فزادت رواتبهم من ألفين إلى ألفين وخمسمائة وبالإضافة إلى المبالغ المحددة كانت تقسم عليهم الغنائم التى يستولون عليها من وقت لآخر حسب درجات الجند ولم يكن لها حد معين حتى كان نصيب كل فارس ستة آلاف فى نهاوند وتسعة آلاف فى جلولاء .

تقسيم الجيش تبعًا لاختلاف الفصول :

لقد كانت هناك القواعد الآتية للمحافظة على صحة الجيش وسلامته

(١) أولاً : حددت وجهة المعركة من حيث الصيف والشتاء فكانت الجيوش ترسل إلى البلاد الباردة فى أيام الصيف وإلى البلاد الحارة فى أيام الشتاء وأطلقوا على هذا التقسيم اسم « الشواتى والصوائف » وهذا المصطلح قائم حتى اليوم حتى إن مؤرخينا

---

(١) فى الطبرى : سعيد بن نمران (المترجم) .

(٢) هذه الأحداث مذكورة بالتفصيل فى الطبرى ص ٢٤٩٥ - ٢٤٩٦ والمقريزى : ٩٣ (المؤلف) . - الطبرى : ٤ / ٤٨ - ٤٩ (المترجم) .

(٣) الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٠٩ (المترجم) .

يعبرون عن فتوحات المناطق الغربية بكلمة صوائف فقط ، وكان عمر قد عمل بهذا النظام فى سنة ١٧هـ ويذكر الطبرى أنه « سمى الشواتى والصوائف وسمى ذلك فى كل كورة » [١]

(٢) كانت الجيوش ترسل إلى تلك المناطق فى فصل الربيع حيث يكون المناخ جيدًا وتوجد المراعى والكلأ وقد وضع هذا النظام لأول مرة فى عام ١٧هـ وذلك عند فتح المدائن حينما أفسد المناخ هناك صحة الجيش لذا كتب إلى عتبة بن غزوان ليرسل الجيوش إلى المناطق اليانعة الخضراء دائمًا عندما يحل فصل [٢] الربيع / وكان عمرو بن العاص حاكم مصر يرسل الجيوش مع مجيء فصل الربيع ويأمرهم بأن يقضوا أوقاتهم فى النزهة والصيد ويرعوا خيولهم وأن يرحلوا وخيولهم سمينة . ١١١

مراعاة المناخ :

(٣) كان المناخ المعتدل يراعى دائمًا عند بناء المعسكرات وتعمير ثكنات الجيش ويتركون الأفنية المفتوحة أمام المبانى وكانت المدن التى شيدت للجيوش مثل البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها ذات أحياء وشوارع وأزقة واسعة جدًا مراعاة للجوانب الصحية ، وكان عمر يهتم بذلك اهتمامًا كبيرًا حتى أنه قد أرسل بنفسه تحديد مساحتها واتساعها كما مر بنا تفاصيلها عند ذكر تلك المدن .

يوم الراحة فى حالة سفرهم :

(٤) عندما يكون الجيش فى حالة سفر قرر له أن يستريح كل يوم جمعة ويبقى يومًا وليلة لكى يستريح الناس ويعدوا فيها أسلحتهم وملابسهم وقد أكد أيضًا بأن يترفقوا فى سيرهم ويقطعوا كل يوم مسافة لا تتعبهم وأن ينزلوا فى أماكن تكون جميع احتياجاتهم متوفرة ولذا فإن الحكم الذى كتبه إلى سعد بن أبى وقاص والذى كان يتعلق بالتوجيهات العسكرية تناول فيه جميع تلك الجزئيات إلى جانب أمور هامة أخرى [٣] .

---

(١) الطبرى : ٤ / ٦٤ (المترجم) .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « وكتب عمر إلى سعد بن مالك وإلى عتبة بن غزوان أن يتربعا بالناس فى كل حين ربيعًا فى أطيب أراضيهم » ص ٢٤٨٦ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٤ (المترجم) .

(٣) العقد الفريد : الجزء الأول صفحة ٤٩ (المؤلف) - العقد الفريد : ١ / ٩٣ (المترجم) .

قوانين الإجازة :

كان هناك نظام خاص للإجازة ، فالجيوش التى تكلف بمهام المناطق البعيدة كانوا يحصلون على إجازة مرة أو مرتين فى السنة ، بل إنه ذات مرة سمع أشعارًا مؤثرة لامرأة فى فراق زوجها فأرسل الأوامر إلى القادة / بألا يجبروا أحدًا على البقاء فى الخارج أكثر من أربعة أشهر وأن جميع هذه التسهيلات كانت إلى الحد الذى كانت تقتضيه الضرورة وإلا فقد وضعت قيود شديدة لتجنب الترف والكسل والتساهل ، وأكد بشدة على ألا يركب الجنود الخيل بمساعدة الركاب وألا يرتدوا الملابس الناعمة ولا يتمتعوا بالجلوس تحت الشمس وألا يستحموا فى الحمامات .

١١٢

ملابس الجيش :

لا نعرف من كتب التاريخ هل قرر عمر للجيش زيًا خاصًا والذى يطلقون عليه اسم « الزى الرسمى » فالأحكام المتعلقة بالجيش فى هذا الصدد هى : ألا يرتدى الجند ملابس العجم ، لكن من المعلوم أن هذا الحكم لم يطبق لأنه فى عام ٢١هـ عندما تقررت الجزية على أهل الذمة فى مصر كانت تضم أيضًا ملابس الجيش وهى : جبة صوف طويلة وبرنس أو عمامة وسروال وخُف [١] . مع أن عمر فى بداية أمره قد منع السروال والخف بوضوح .

المترجم والمحاسب وصاحب الخزانة فى الجيش :

وقد أحدث عمر كثيرًا من الأمور الخاصة بالجيش والتى لم يكن لها وجود عند العرب مطلقًا مثل أن يكون مع كل جيش صاحب الخزانة والمحاسب والقاضى وعدد من المترجمين وأن يكون معهم علاوة على هذا عدة أطباء وجراحين ، لذا فى معركة القادسية كان عبدالرحمن بن ربيعة قاضيًا وزياد بن أبى سفيان محاسبًا وهلال الهجرى مترجمًا [٢] وقد ظهرت إدارة العدل والحساب والترجمة والطب فى الجيش منذ ذلك الحين .

---

(١) فتوح البلدان : صفحة ٢١٥ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٢١٦ (المترجم) .

(٢) الطبرى : أحداث سنة ١٤ هـ صفحة ٢٢٢٦ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٨٨ - ٤٨٩ (المترجم) .

تطور فنون الحرب :

أما بالنسبة للقوانين العسكرية (لكسب المهارات القتالية) فكل ما نعلمه أن الأوامر التى كان يرسلها عمر لقادة الجيش كان يؤكد فيها على أربعة أشياء هى : السباحة وسباق الخيل والرماية والمشى حفاة الأقدام ولا نعلم غير ذلك ولا ندرى هل يعلم الجيش أموراً أخرى أو لا . / وبالرغم من هذا ليس هناك شك فى أن فن القتال قد تطور تطورًا عظيمًا ١١٣ فى عهد عمر بالمقارنة بالعهود السابقة فقد كانت طريقة العرب فى القتال فى بداية الأمر هى أن تقف جماعة غير منظمة من الجانبين ثم يخرج للقتال واحد من كل جانب ويقف باقى الجيش صامتًا لا يحرك ساكنًا ويكون الهجوم الشامل فى النهاية ثم جرت طريقة صف الصفوف فى بداية الإسلام كما تقررت أقسام الجيش المختلفة مثل الميمنة والميسرة وغيرها ، فكانت كل جماعة تحارب من تلقاء نفسها بمعنى أن جميع الجيش لم يكن يحارب تحت إمرة قائد واحد وكان خالد بن الوليد أول من عبأ[1] الصفوف فى الحرب فى معركة اليرموك سنة ١٥هـ وكان تعداد الجيش آنذاك حوالى أربعين ألفًا قسمها إلى ستة وثلاثين صفًا تحت قيادة خالد الذى كان يقود سائر الجيش فى المعركة .

أقسام الجيش المختلفة :

كانت أقسام الجيش وفروعه فى عهد عمر كما يلى : القلب : وكان القائد يتمركز فيه . والمقدمة : وتكون أمام القلب بمسافة قصيرة . والميمنة : وتكون على يمين القلب / . والميسرة : تكون على يسار القلب . والساقة : فى المؤخرة : والطليعة : ١١٤ جزء من الجيش يقوم برصد حركات جيش العدو . والردء : وهى الكتيبة التى تكون وراء الساقة لكى لا يهجم العدو من الخلف ، والرائد : الكتيبة التى كانت تبحث عن المؤن للجيش والركبان والفرسان والراجلة والرماة .

احتفاظ كل جندى بالأشياء اللازمة معه .

وكان على كل جندى أن يحمل معه جميع الأشياء الضرورية واللازمة للقتال ، فقد

---

(١) كتب ابن خلدون فى المقدمة فصلاً مسهبًا عن طريقة الحرب عند الروم والفرس والعرب بعنوان : « فصل فى الحرب » كتب فيه « كان مروان بن الحكم أول من أقام نظام التعبئة » لكن هذا خطأ فقد ذكر الطبرى وباقى المؤرخين أن خالدًا كان أول من عبأ الصفوف (المؤلف) .

جاء فى فتح فتوح البلدان أن كثير بن شهاب أحد قادة عمر كان يلزم كل جندى بحمل هذه الأشياء الضرورية الآتية وهى : الإبرة والمسلة والخيوط (الحبال) والمقص وترس ودرع ومخلاة وغربال [١] .

أما استعمال المجانيق لمهاجمة القلاع فقد ظهر فى عهد الرسول - ﷺ - نفسه حيث استخدم فى حصار الطائف لأول مرة سنة ٨هـ ، إلا أنه تطور تطورًا كبيرًا فى عهد عمر وفتحت به القلاع الحصينة وعلى سبيل المثال فقد استخدم فى محاصرة بهرسير سنة ١٦هـ عشرون منجانيقًا ، / وكانت هناك آلة أخرى للحصاد يقولون لها دبابة وهى عبارة عن برج من الخشب فيه عدة درجات بعضها فوق بعض وتكون مثبتة على عجلات ويجلس فيها من الداخل رماة السهام وناقبو الجدر ورماة الحجارة بحيث يدفعون بها للأمام إلى أن يبلغوا أسوار القلعة ويحطموا أسوار القلاع بواسطة هذه الآلات ، وقد استعملت هذه الآلة فى حصاد بهر سير أيضًا . ١١٥

سلاح المهندسين :

كان تعبيد الطرق وشق الشوارع وإقامة الجسور أى العمل الذى يقوم به سلاح المهندسين فى الوقت الحاضر مقصورًا على أهل البلاد المفتوحة ، وعندما فتح عمرو بن العاص الفسطاط قبل المقوقس والى مصر هذا الشرط وهو أن المصريين سوف يقومون بإصلاح الطرق وإقامة الجسور فى أى وجهة يتجهها جيش الإسلام [٢] . ولهذا عندما توجه عمرو بن العاص إلى الإسكندرية للقاء الروم كان المصريون أنفسهم فى كل منزل يقيمون الجسور ويصلحون الطرق ويقيمون الأسواق . ويذكر المقريزى أن الأقباط كانوا يؤدون هذه الأعمال بكل سرور ورضا لأنهم كانوا جميعًا مفتونين بسلوك المسلمين .

الأدلاء والجواسيس :

لقد نظمت إدارة التجسس ورصد المعلومات بدقة شديدة وقد حالفهم القدر فى

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٣١٨ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٣١٤ (المترجم) .

(٢) جاء فى المقريزى : ١ / ١٦٣ « فخرج عمرو بالمسلمين وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق » (المؤلف) .

١١٦ هذا العمل حيث كان العرب يقطنون بكثرة فى العراق والشام / وأسلم منهم طائفة كبيرة ، وكان هؤلاء يعيشون فى تلك البلاد منذ وقت فلم تكن تخف عليهم خافية ، وقد استأذن هؤلاء الناس بعدم إظهار إسلامهم أمام الناس وعلى هذا وبناء على حالتهم فى الظاهر التى يعرفها الفرس والنصارى كانوا يسيرون فى جيوش العدو كما يشاءون وقد تم إنجاز أعمال عظيمة فى تكريت والقادسية واليرموك بمساعدة هؤلاء الجواسيس (١) .

أما فى الشام فإن حكام جميع المدن قد عينوا الجواسيس بأنفسهم عن رضا لينقلوا الأخبار عن استعدادات جيش قيصر وتنقلاته وقد كتب القاضى أبو سيف صاحب كتاب « الخراج » (٢) :

« فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونًا للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتحسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا » . وكان يقطن فى محافظات الأردن وفلسطين فرقة من فرق اليهود يقال لهم السامرة فعين هؤلاء الناس فى أعمال الجاسوسية والأدلاء ، وكوفئوا على ذلك بالإفراج عن أراضيهم ومنحًا لهن (٣) وهكذا أنيط بشعب الجراجمة هذه المهمة / . ١١٧ وأعفوا من الخراج .

ومن أكبر الأشياء المحيرة فى سلسلة التنظيمات العسكرية هى أنه بالرغم من وجود هذه الجيوش التى لا تحصى والتى كانت تضم أفرادًا من مختلف الدول ومختلف القبائل ولهم طبائع مختلفة ورغم انتشارها فى أماكن بعيدة جدًا حتى أن المسافة بينهم وبين دار الخلافة تصل أحيانًا إلى مئات الآلاف من الأميال ، إلا أن الجيش كله تحت قيادة عمر وسيطرته وكأنه موجود بنفسه مع الجيش فى كل مكان .

---

(١) الأزدى : تاريخ الشام ص ١٥٤ والطبرى : ص ٢٢٤٩ و ٢٤٧٥ (المؤلف) .
- الطبرى : ٤ / ٣٥ - ٣٦ (المترجم) وعبارة الأزدى هى : لما نزلت الروم منزلهم الذى نزلوا به دسسنا إليهم رجلاً من أهل البلد كانوا نصارى وحسن إسلامهم وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم ويكتموا إسلامهم ويأتوا بأخبارهم » . (المؤلف) .
(٢) الخراج صفحة ٨٠ (المؤلف) - أبو يوسف : الخراج : ١٣٩ (المترجم) .
(٣) فتوح البلدان : ١٦٢ - ١٦٣ (المترجم) .

تنظيم البريد :

وكان السبب الرئيسى لهذا سطوة عمر ورهبته ، وهناك سبب هام آخر وهو أن عمر بث من ينقلون الأخبار مع كل جيش فيرسلون له أخبارًا عن أمور الجيش باستمرار ويذكر الطبرى فى هذا الصدد فى أحد المواضع « وكانت تكون لعمر العيون فى كل جيش تكتب إلى عمر بما كان فى تلك الغزاة وبلغه الذى قال عتبة » [١] ويذكر فى مكان آخر « وكان عمر لا يخفى عليه شىء فى عمله » [٢] .

وبهذا الإجراء الذى كان يتبعه عمر تدارك بسرعة أى خطأ يصدر عن أى شخص فيعتبر ويرتدع به غيره ، ففى فتوحات فارس قال عمرو بن معد يكرب كلمة مشينة فى حق قائده فعلم بها عمر على الفور وفى نفس الوقت كتب إلى عمرو بن معد يكرب يلومه ويزجره فلم يجرؤ على فعل مثل هذا مطلقًا . وهناك مئات من الأمثلة / من هذا النوع لا يمكن حصرها . ١١٨

إدارة التعليم

طور عمر التعليم تطورًا عظيمًا ، فأقام الكتاتيب (المدارس الابتدائية) فى جميع البلاد المفتوحة التى يدرس فيها القرآن الكريم والشعر الأخلاقى وأمثال العرب ، كما عين كبار الصحابة لتعليم الفقه والحديث فى المدن الكبرى وقد قرر الرواتب للمعلمين والمدرسين أيضًا ، ولأن التعليم كان دينيًا فى الغالب لهذا سيأتى ذكره بالتفصيل فى بيان الإدارة الدينية .

الإدارة الدينية

لقد كانت المهمة الرئيسية لعمر كخليفة هى تعليم الدين وتلقينه وهذه فى الحقيقة علامة بارزة فى أعمال عمر إلا أن التعاليم الروحية للدين أى الرجوع إلى الله والاستغراق فى العبادة وصفاء القلب وقطع روابط البشرية والخضوع والخشوع كل هذه الأشياء لا يمكن أن تندرج تحت تنظيم أى إدارة مادية ومحسوسة ، لهذا لا يمكن أن

---

(١) الطبرى : صفحة ٢٢٠٨ (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٤٧٦ (المترجم) .

(٢) الطبرى : صفحة ٢٥٢٦ (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٧ (المترجم) .

نذكرها فى تفصيل نظام الحكم وسيرد ذكرها فى السيرة الذاتية لعمر ، أما نشر الإسلام وتعليم القرآن والحديث وتنفيذ الأحكام الدينية فيمكن أن تندرج تحت التنظيم وكل عمل قام به عمر فى هذا الصدد سيذكر هنا بالتفصيل / .   ١١٩

طريقة الدعوة إلى الإسلام :

كان نشر الإسلام هو أهم عمل فى أعمال هذه الإدارة ، فنشر الإسلام ليس معناه أن نجعل الناس يسلمون بقوة السيف ، وكان عمر ضد هذا الأسلوب تمامًا وكل شخص يريد العمل بهذه الآية من القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين » [١] بلا تأويل حقًا سيكون ضد هذا ، فقد قال عمر نفسه ذات مرة عندما لم يعتنق غلامه الإسلام بالرغم من النصح والترغيب قال : « لا إكراه فى الدين » [٢] فمعنى الدعوة الإسلامية هو أن يُدعى العالم كافة للإسلام بعد إقناع الناس بأصول الإسلام ومبادئه وترغيبهم فى الإسلام .

وكان عمر يؤكد على الجيوش التى يرسلها إلى كل بلد أن يرغبوا أهل ذلك البلد فى الإسلام أولاً ويفهموهم مبادئه وعقائده ، فقد كتب هذه الكلمات فى رسالة إلى سعد بن أبى وقاص فاتح إيران : « وقد كنت قد أمرتك أن تدعو ما لقيت إلى الإسلام قبل القتال » . وقد ذكر القاضى أبو يوسف أنه كان من عادة عمر إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان يعين عليهم رجلاً من أهل الفقه والعلم [٣] وعلى ما يبدو فإن الفقه والعلم كانا من الأمور الهامة لقادة الجيوش لنشر الإسلام وربما قرأتم فى فتوحات الشام والعراق كيف أن السفارات الإسلامية التى أرسلت إلى النصارى والفرس / وضحت لهم أصول الإسلام وعقائده بوضوح وجلاء .   ١٢٠

إن أعظم طريقة لنشر الإسلام هى وجود الأسوة الحسنة فى الإسلام الذى يعرض على الشعوب الأخرى فيجب أن يكون المسلم عظيمًا بحيث تميل قبول الناس نحو

---

(١) البقرة : ٢٥٦ (المترجم) .

(٢) هذه الرواية موجودة فى طبقات ابن سعد وهو كتاب موثوق به . انظر : كنز العمال طبعة حيدر آباد الدكن : ٥ / ٤٩ (المؤلف) .

(٣) كتاب الخراج صفحة : ١٢٠ (المؤلف) – أبو يوسف : الخراج : ١٩٣ (المترجم) .

الإسلام تلقائيًا . وانتشر الإسلام انتشارًا واسعًا فى عهد عمر ومن أهم أسباب انتشاره تربيته وتوجيهه حيث جعل جميع المسلمين نموذجًا حقيقيًا للإسلام . فكان الناس فى الدولة التى تذهب إليها الجيوش الإسلامية يتحرقون شوقًا لرؤيتهم ، لأن استيلاء فئة قليلة من أهل البادية على العالم أمر لا يخلو من التعجب والحيرة ، وهكذا عندما يتسنى لهم رؤية هؤلاء الناس (أى المسلمين) كانوا يرون كل مسلم صورة للصدق والبساطة والطهارة والحماس والإخلاص وهذه الشيم هى التى كانت تجذب قلوب الناس تلقائيًا فيتغلغل الإسلام ويرسخ فى نفوسهم وإنكم قد قرأتم فى أحداث الشام كيف أن جورج سفير الروم عندما ذهب إلى جيش أبى عبيدة تأثر تأثرًا بالغًا وانفصل عن أسرته وقومه فجأة وأسلم وهكذا « شطا » الذى كان أكبر رؤساء الحكومة المصرية شغفًا بالإسلام بعد أن سمع سيرة المسلمين وأسلم فى نهاية الأمر مع ألفين من أصحابه [١] / . ١٢١

أسباب نشر الإسلام :

إن إعجاز الفتوحات الإسلامية هو أن أكبر الدول وأقواها قد تزلزلت أقدامها ولم تقو على الوقوف أمام جماعة من البدو وقد أنشئوا قوى هذا الفكر وألقاه فى روع غير المسلمين أن هناك تأييدًا سماويًا لهؤلاء البدو المسلمين فعندما أرسل يزدجرد ملك فارس وفدًا إلى خاقان الصين بغرض المساندة والعون ، سأل الخاقان عن سيرة الجيش الإسلامى وبعدها سمع أخباره قال « لا فائدة من قتال هؤلاء القوم » . وفى معركة فارس عندما فر أحد القادة المشاهير وأسره قائد الجيش وأراد عقابه على الهرب حطم حجرًا كبيرًا بالسهم وقال : مثل هذا السهم أيضًا لا يؤثر فى أولئك الناس فالله معهم ولا فائدة من قتالهم [٢] ، ويقول جد أبو رجاء الفارسى « إننى حضرت معركة القادسية وكنت مجوسيًا فى ذلك الوقت وعندما بدأ العرب الرماية ورأينا سهامهم قلنا إنها « كالمغازل » لكن مغازلهم تلك قضت على دولتنا » وعند الحملة على مصر كتب أسقف الإسكندرية إلى الأقباط « لقد والت دولة الروم فانضموا إلى المسلمين الآن » [٣] .

---

(١) جاء فى تاريخ الطبرى : ١ / ٢٢٦ « فخرج شطا مع ألفين من أصحابه ولحق بالمسلمين وقد كان قبل ذلك يحب الخير ويميل إلى ما يسمعه فى سيرة أهل الإسلام » (المؤلف) .

(٢) الطبرى : أحداث معركة فارس (المؤلف) .

(٣) المقريزى : خطط المقريزى : ١ / ٢٨٩ وفتوح البلدان : ٢٦٠ (المترجم) .

علاوة على ذلك هناك أسباب أخرى تسببت فى نشر الإسلام فالقبائل العربية التى تقطن فى الشام والعراق وأصبحوا نصارى / كانوا يميلون بالفطرة إلى النبى العربى لا إلى أى أمة أخرى ، ولذلك دخلوا حظيرة الإسلام بمرور الوقت ولهذا السبب كان المسلمين الجدد فى ذلك العهد من العرب أكثر من القوميات الأخرى ، وكان إسلام بعض كبار رجال الدين أحد الأسباب ، فمثلاً عندما فتحت دمشق وأسلم أسقف اسمه أردكون على يد خالد بن الوليد [١] وربما كان إسلام أحد أئمة الدين جعل أتباعه يرغبون فى الإسلام . ١٢٢

وقد أسلم من الناس لهذه الأسباب المختلفة وللأسف فإن مؤرخينا لم يذكروا الحدث تحت عنوان مستقل فى أى مكان ولهذا لا نستطيع أن نخبركم بعددهم ولهذا نذكره هنا بقدر ما عرفنا من التذاكر (ضمن الأحداث الأخرى) .

من أسلموا فى عهد عمر :

عندما تم فتح جلولاء أسلم كبار الأمراء والحكام برغبتهم ومن بينهم مشاهير ذوو سلطة ونفوذ مثل : جميل بن بصبهرى وبسطام بن نرسى ورفيل وفيروز [٢] وبإسلام هؤلاء الأمراء انتشر الإسلام فى رعاياهم تلقائيًا .

وبعد معركة القادسية أسلم أربعة آلاف رجل من الديلم الذين دربهم خسرو برويز وكانوا يعرفون بكتيبة الحرس الملكى أسلمت هذه الكتيبة [٣] كلها / . ١٢٣

وكان على مقدمة جيش يزدجرد قائد مشهور اسمه سياه ، وعندما توجه يزدجرد إلى أصفهان استدعى سياه وأرسله إلى اصطخر مع ثلاثمائة من كبار رجال الدولة والمحاربين وأمره أيضًا أن يختار فى الطريق جنودًا أشداء من كل مدينة ويصطحبهم معه ، وعندما وصل الجيش الإسلامى إلى تستر كان « سياه » وقواده مقيمين فى تلك الأنحاء ، وذات يوم جمع سائر رفاقه وقال : « لقد كنا نقول من قبل إن هؤلاء العرب

---

(١) معجم البلدان ذكر قنطرة سنان (المؤلف) - ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٤ / ٤٠٦ (المترجم) .

(٢) فتوح البلدان صفحة ٢٦٥ (المؤلف) .

(٣) فتوح البلدان صفحة ٢٨٠ (المؤلف) .

سوف يتغلبون على دولتنا والآن يتحقق صدق هذا يومًا بعد يوم لذا من الأفضل أن نقبل الإسلام بأنفسنا ولهذا أسلموا جميعًا فى ذلك الوقت [١] وكان يطلق على هؤلاء الناس الأساورة وفى الكوفة نهر معروف باسم نهر الأساورة وبإسلامهم أسلم كذلك السيابجة والزط والأندغار وكان هؤلاء الأقوام الثلاثة فى الأصل من سكان السند ووقعوا فى الأسر فى عهد خسرو برويز وألحقهم بالجيش .

وقد انتشر الإسلام سريعًا فى مصر أيضًا ، وعندما كان سكان بعض قرى مصر يحاربون المسلمين قام عمرو بن العاص بأسرهم واسترقاقهم وباعهم فانتشروا بين العرب جميعًا ، فأعادهم عمر من كل مكان بعتاب شديد اللهجة وأرسلهم إلى مصر وكتب له أن لهم الخيرة إما أن يدخلوا الإسلام وإما أن يبقوا على دينهم ، وكان من بينهم سكان قرية بلهيب / فأسلموا جميعًا برغبتهم [٢] . وعندما تقدمت الجيوش الإسلامية بعد فتح دمياط انتشر الإسلام فى كل مكان من بقارة وورادة حتى عسقلان فى حدود الشام [٣] .

١٢٤

مدينة « شطا » كانت من إحدى مدن مصر الشهيرة التى تشتهر بالثياب وكان حاكمها يميل إلى الإسلام منذ البداية بعد أن سمع سيرة المسلمين ولهذا عندما وصل الجيش الإسلامى إلى دمياط خرج من شطا بألفين من أصحابه ولحق بالمسلمين وأسلم [٤] .

والفسطاط التى بناها عمرو بن العاص التى كان مكانها القاهرة الآن كانت العاصمة وبها ثلاثة أحياء كبيرة أسكن بها المسلمين الجدد بكثرة ، فشيد الحى الأول باسم « بنونبة » الذين كانوا أسرة يونانية أسلمت وفى فتح مصر كان الجيش الإسلامى يضم مائة رجل من هذه الأسرة ، والحى الثانى كان باسم « بنو الأزرق » وكانت هذه أيضًا أسرة يونانية وكانت كثيرة العدد لدرجة أنه قد اشترك فى فتح مصر نحو أربعمائة

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٢٧٤ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٦٦ (المترجم) .

(٢) تاريخ المقرزى : ١ / ١٦٦ (المؤلف) .

(٣) فى المقريزى : ١ / ١٨٤ « ولما فتح المسلمون الفرما بعدما افتتحوا دمياط وتنيس ساروا إلى البقارة فأسلم من بها وساروا منها إلى الواردة فدخل أهلها فى الإسلام وما حولها إلى عسقلان » (المؤلف) .

(٤) المقريزى : ١ / ٢٢٦ (المؤلف) .

مقاتل من هذه الأسرة ، أما الحى الثالث فقد شيد باسم « روبيل » وكان سكانه يقطنون من قبل فى اليرموك وقيسارة / وجاءوا مع عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن أسلموا ١٢٥ وكانت هذه أكبر أسرة يهودية وشارك ألف من هذه الأسرة فى فتح مصر [١] .

وكان فى الفسطاط حى آخر خاص بتوطين المسلمين الجدد من المجوس ولهذا فإن هذا الحى كان يسمى حى البارسيين وكان هؤلاء الناس فى الأصل من جيش باذان الذى كان عاملاً على اليمن من قبل أنوشيروان وعندما وصلت أقدام الإسلام إلى الشام أسلم هؤلاء الناس وجاءوا إلى مصر مع عمرو بن العاص .

ويتضح كذلك من الأماكن المتفرقة الأخرى أن الإسلام انتشر بسرعة فى كل مكان ، وقد كتب البلاذرى عند ذكر « بالس » أن أبا عبيدة قد أسكن بها أولئك العرب الذين كانوا يسكنون فى الشام وأسلموا [٢] . ويذكر الأزدى عند وصف معركة اليرموك أنه عندما « حلت جيوش الروم باليرموك فإن من كان يرسل عينًا كانوا من سكان نفس المنطقة وكانوا مسلمين وقد قيل لهؤلاء الناس ألا يظهروا إسلامهم حتى لا يرتاب فيهم الروم » . ويذكر الطبرى فى أحداث سنة ١٤هـ أنه كان فى هذه المعركة كثير من العجم الذين ساعدوا المسلمين أسلم بعضهم قبل المعركة وبعضهم بعدها [٣] .

ويتضح بجلاء من هذه الأحداث أن الإسلام انتشر سريعًا فى عهد عمر لا بالسيف ولكن ببركته وكرمه فبعد نشر الإسلام أى الحفاظ على الأمور التى يدور حولها محور الإسلام ونشرها وترويجها يأتى ترويج الأسس الدينية ومبادئ الدين فكان حفظ القرآن وتعليمه أول أمر مهم فى هذا الصدد والجهود التى قام بها عمر قد ذكرها شاه ولى الله وصدق فى قوله حيث يقول : « كل من يقرأ القرآن اليوم من طوائف المسلمين يدين إلى الفاروق » .

جهود عمر فى جمع القرآن وترتيبه :

من المسلم به أن القرآن الكريم هو أصل أصول الإسلام وعلى هذا لا يمكن أن

---

(١) المقريزى : ١ / ٥٦٠ (المؤلف) .
(٢) البلاذرى : صفحة ١٥٠ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ١٥٥ (المترجم) .
(٣) الطبرى : صفحة ٢٢٦١ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٥٢٥/٣ - ٥٣٠ (المترجم) .

ننكر أن الذى تم فى جمع للقرآن الكريم وترتيبه وكتابة نسخه الصحيحة وحفظها وترويج تعاليمه فى جميع البلدان وكل ما تم فى هذا الصدد قد تم بتوجيه عمر واهتمامه وتفصيل ذلك أن القرآن الكريم لم يرتب فى عهد رسول الله - ﷺ - فكانت هناك أجزاء متفرقة منه عند بعض الصحابة وبعضه كان مكتوبًا على العظام والبعض على سعف النخيل والبعض الآخر على ألواح الحجر ولم يكن هناك من الناس من يحفظه حفظًا كاملاً فكان الرجل قد حفظ سورة ولم يحفظ سورة أخرى وفى عهد أبى بكر عندما قامت المعركة مع مسيلمة الكذاب واستشهد مئات الصحابة وكان من بينهم كثير من حفظة القرآن ذهب عمر إلى أبى بكر وقال له « إن القرآن سيضيع هكذا لو مات حفظة القرآن / لهذا يجب ١٢٧ التفكير فى جمعه وترتيبه من الآن » فقال أبو بكر « كيف أقوم بعمل لم يقم به رسول الله - ﷺ » فشرح له عمر مرارًا أهمية هذا العمل حتى وافق أبو بكر على رأيه وكان زيد بن ثابت أكثر الصحابة الذين قاموا بمهمة كتابة الوحى فطلبه وكلفه بهذا العمل بأن يقوم بجمع سور القرآن وآياته من كل مكان وأعلن عمر على الملأ « فليأت عندى من تعلم أى جزء من أجزاء القرآن عن رسول الله وروعى فى هذا الأمر أن الشخص الذى كان يقدم أى آية يجب أن يشهد عليها رجلان آخران وهما يشهدان بأنهما رأيا هذه الآية مكتوبة فى عهد رسول الله - ﷺ - وهكذا جمعت السور كلها . وكلف عددًا من الناس لكى يكتب القرآن كله كاملاً فى مجموعة واحدة تحت إشرافهم فكان سعيد بن العاص يملى وزيد يكتب وأمر المشرفين على هذا العمل بأنه لو ظهر اختلاف فى نطق أو هجاء أى كلمة أن يطابقوها مع لهجة قبيلة « مضر » لأن القرآن الكريم قد نزل بلغة مضر [(١)] .

وفى ذلك الحين كان هناك عدة أمور يجب مراعاتها للحفاظ على القرآن وصحته ، الأمر الأول هو التوسع فى نشر تعليمه بأن يتولى مئات وآلاف من الرجال حفظ القرآن حتى لا يبقى خطر التغيير والتحريف ، والأمر الثانى هو الحرص والاهتمام الشديد فى ضبط الكلمات مع إعرابها ، والأمر الثالث هو أن تنشر نسخ كثيرة بعد النسخ فى الدولة وقد أدى عمر هذه الأمور الثلاثة على أكمل وجه ولا يمكن أن يأتى بأحسن منها .

---

(١) كنز العمال : ١ / ٢٧٩ (المؤلف) - جلال الدين السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن : ١/ ١٣٦ (المترجم) .

تنظيم تعليم القرآن الكريم :

لقد أجرى عمر تدريس القرآن الكريم فى كل مكان من البلاد المفتوحة فبعد أن عين القارئ والمعلم أجرى لهم الرواتب وهذا العمل يعد أيضًا من أوليات عمر وهو أنه حدد مرتبات المعلمين (١) ولم تكن الرواتب ضئيلة بالمقارنة بتلك الأيام .

كتاتيب القرآن :

فعلى سبيل المثال كانت رواتب المعلمين الذين يعلمون الأطفال الصغار فى كتاتيب المدينة المنورة خمسة عشر درهمًا ، وأقام نظام التعليم الإلزامى لتعليم القرآن الكريم لبدو البادية ، لذا عين رجلاً اسمه أبو سفيان ومعه عدة رجال يتجول بين القبائل ويمتحن كل فرد ويعاقب من لم يحفظ أى جزء من القرآن الكريم (٢) .

تعليم الكتابة :

كانت الكتابة تُعلم أيضًا فى هذه الكتاتيب وأرسل الأوامر إلى جميع المراكز بشكل عام ليعلموا الأطفال الكتابة والفروسية ، وقد روى على لسان أبى عامر سليم وهو من رواة الحديث » جئت المدينة بعد أن وقعت أسيرًا فى طفولتى وألحقت هناك بالكُتاب / ١٢٩ وعندما كان المعلم يملى علىّ حرف « ميم » ولم أستطع أن أكتبه بطريقة سليمة كان يقول لى أكتبه مستديرًا كعيون البقرة (٣) .

إرسال الصحابة القراء لتعليم القرآن الكريم فى المناطق النائية :

كان هناك خمسة من كبار الصحابة الذين قد حفظوا القرآن الكريم كاملاً فى عهد

---

(١) فى سيرة العمرين لابن الجوزى « أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا يرزقان المؤدبين والأئمة والمعلمين » . (المؤلف) .

(٢) الأغانى : ٥٨/١٦ والإصابة فى تمييز الصحابة ذكر عمر بن الخطاب : ٢ / ٤٥٨ - ٤٧٢ (المترجم) .

(٣) معجم البلدان : كلمة « حاضر » تنسب هذه الرواية فى المعجم لعهد أبى بكر إلا أن صاحب المعجم نفسه يعترض عليها بأن هذه المناطق لم تفتح حتى ذلك الوقت (المؤلف) .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٢ / ٢٠٦ - ٢٠٧ (المترجم) .

رسول الله هم : معاذ بن جبل وعُبادة بن الصامت وأُبى بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء ، وكان أبى بن كعب سيد القراء ، وقد أثنى عليه الرسول - ﷺ - بنفسه فى هذا الباب . واستدعاهم عمر جميعًا وقال لهم إن مسلمى الشام بحاجة إليكم فاذهبوا هناك وعلموهم القرآن . وكان أبو أيوب شيخًا وأبى بن كعب مريضًا فلم يستطيعا ووافق الصحابة الثلاثة الباقون بسرور ورضا وأوصاهم عمر بأن يتوجهوا إلى حمص أولاً ويقيموا هناك عدة أيام وعندما ينتشر التعليم هناك عليهم أن يتركوا أحدهم أما من بقيا فذهب أحدهما إلى دمشق والآخر إلى فلسطين ، وقد ظل أبو الدرداء مقيمًا فى دمشق
١٣٠ وعاش حتى آخر خلافة عثمان وتوفى معاذ بن جبل فى طاعون عمواس [(١)] / .

طريقة تعليم القرآن :

وكانت طريقة تعليم أبى الدرداء كما ذكر العلاّمة الذهبى فى طبقات القراء أنه كان يجلس فى المسجد الجامع بعد صلاة الصبح والناس يلتفون حول القارئ فى جماعة ويقسمهم أبو الدرداء فى جماعات منفصلة تحتوى كل منها على عشرة رجال ويعين على كل جماعة قارئًا ليعلمهم وهو يمشى بينهم منصتًا إلى قراءتهم ، وعندما يحفظ الطالب القرآن كاملاً كان أبو الدرداء يختاره ليتتلمذ عليه ، وذات يوم أحصاهم أبو الدرداء فوجد أنه كان يحضر فى مجلس علمه مائة وستة عشر طالبًا .

وسائل نشر القرآن :

وبجانب هذه التدابير لنشر القرآن الكريم اتخذ عمر كثيرًا من الوسائل الأخرى منها أنه أمر الناس أن يتعلموا جميعًا السور الهامة مثل : البقرة والنساء والمائدة والحج والنور لأنه مذكور بها الأحكام والفرائض [(٢)] . وكتب إلى عماله أن يجروا الرواتب للناس الذين يتعلمون القرآن [(٣)] (وقد ألغى هذا الحكم بعد ذلك عندما لم يبق أى حاجة إليه) وكانت من الأوامر الهامة التى كان يرسلها إلى الجيش أن يتعلموا قراءة القرآن ، ويطلب من العمال دفتر قراء القرآن من آن لآخر ، ونتيجة لهذه الإجراءات كان يقرأ القرآن

(١) التفاصيل فى كنز العمال : ١ / ٢٨١ والرواية الأصلية فى طبقات ابن سعد (المؤلف) .
(٢) كنز العمال : ١ / ٢٢٤ (المؤلف) .
(٣) كنز العمال : ١ / ٢١٧ (المؤلف)

عدد لا يحصى من المسلمين وقد وصل عدد الحفاظ من مئات إلى آلاف وعندما أرسل إلى قادة الجيش أن يرسلوا إليه حفظة القرآن الكريم لكى / يبعثهم لتعليم القرآن فى كل مكان رد عليه سعد بأنه يوجد فى جيشى فقط ثلاثمائة حافظ [١] . ١٣١

وسائل صحة الإعراب :

وبالنسبة للأمر الثانى أن النطق السليم والإعراب الصحيح اهتم به أيضًا اهتمامًا بالغًا وكان هذا فى الحقيقة فى مقدمة الأمور ، فعندما رتب القرآن كان تدوينه بدون إعراب لذا لم يكن من المفيد نشر القرآن الكريم فقط إذا لم يراع الإعراب والنطق السليم وقد اتبع عمر فى هذا الصدد طرقًا مختلفة .

كان أولها أنه كان يرسل الأوامر المتشددة بأن يعلم القرآن الكريم بالإعراب الصحيح وصحة أداء الألفاظ وكلماته الخاصة فى هذا الباب حسب رواية ابن الأنبارى هى : « تعلموا إعراب القرآن كما تعلمون حفظه » . وجاء فى مسند الدارمى : « تعلموا الفرائض واللحن والسنن كما تعلمون القرآن » .

تعليم الأدب والعلوم العربية :

والأمر الثانى هو ضرورة تعليم العلوم العربية والأدب فقد جعله إجباريًا مع تعليم القرآن لكى يستطيع الناس أن يفرقوا بأنفسهم صحيح الإعراب من خطئه .

ثالثًا : أمر بألا يدرس أحد القرآن الكريم وهو لا يعلم دقائق اللغة [٢] .

ويأتى الحديث فى المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم ، فمع أن عمر بذل جهودًا كبيرة فى نشر الحديث إلا أنه كان يراعى الحيطة والحذر وهذا أكبر دليل على دقة فهمه فإنه كان لا يأذن للناس برواية الحديث بشكل عام ما عدا الخاصة من الصحابة / . ١٣٢

تعليم الحديث :

يذكر شاه ولى الله : « كذا بعث الفاروق الأعظم : عبد الله بن مسعود مع جمع إلى

---

(١) كنز العمال : ١ / ٢١٧ (المؤلف) .

(٢) كنز العمال : ١ / ٢٢٨ (المؤلف)

الكوفة وأرسل معقل بن يسار وعبد الله بن مغفل وعمران بن حصين إلى البصرة ، كما أوفد عبادة بن الصامت وأبا الدرداء إلى الشام ثم بعث إلى معاوية بن أبى سفيان الذى كان أميرًا على الشام تحذيرًا فحواه : ألا يتغاضى عن أوامره [1] .

والحقيقة أن الأصول والمبادئ التى أرساها عمر فيما يتعلق برواية الحديث تعد من أكبر مآثر فهمه الدقيق ولكن لا مجال هنا لتفصيلها ، وعندما يأتى ذكر كماله وفضله فى سيرته الذاتية فسوف نسهب فيه .

الفقه :

وتأتى مرتبة الفقه بعد الحديث ولما كان الإنسان لا يستخدم المسائل الفقهية كل يوم لذا نشرها عمر لدرجة أنه من المستحيل نشرها وإشاعتها فى الوقت الحاضر بالرغم من وجود كثير من الوسائل الحديثة وكانت الطرق التى اتبعها لنشر المسائل الفقهية كما يلى : -

نشر المسائل الفقهية :

(١) كان يعلم بنفسه الأحكام الدينية بقدر ما تواتيه الفرصة ويسنح له الوقت ، وفى الخطبة التى يلقيها يوم الجمعة كان يوضح فيها جميع الأحكام والمسائل الملحة ، وكان فى خطبة الحج يبين أحكام الحج ومناسكه وجاء فى موطأ الإمام محمد أن عمر ألقى خطبة فى عرفات وعلمهم جميع أمور الحج [2] وأنه بين جميع أصول الإسلام ومبادئه الجوهرية فى الخطب المؤثرة التى ألقاها فى رحلته إلى الشام وبيت المقدس . / لأن فى مثل هذه المناسبات تحضر جماعات كثيرة من الناس فيمكن إعلان تلك المسائل فيهم بصورة لا يمكن الإعلان عنها بأى طريقة أخرى ويرجع الفقهاء فى كثير من المسائل الفقهية إلى الخطبة الشهيرة التى ألقاها فى الجابية بدمشق .

١٣٣

(٢) كان يرسل الحكام والمسائل الدينية إلى القادة والعمال من حين لآخر ، فمثلاً فى مسائل تحديد أوقات الصلوات الخمس التى يختلف المجتهدون فى تحديدها حتى يومنا

---

(١) إزالة الخفاء : ٦/٢ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ١٦٦ (المترجم) .

(٢) موطأ الإمام محمد صفحة ١٢٩ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ٦٣ (المترجم) .

هذا ، فإنه أرسل إلى جميع عماله وصية مفصلة وقد نقل الإمام مالك عبارتها بعينها فى كتابه الموطأ وفيما يتعلق بهذه المسألة فإن الكتاب الذى أرسله لأبى موسى الأشعرى نقله أيضًا الإمام مالك بحذافيره ، وبالنسبة للجمع بين صلاتين فقد أرسل كتابًا إلى البلاد المفتوحة أخبرهم فيه بأنه غير جائز .

وفى سنة ١٤هـ عندما أقام صلاة التراويح جماعة فى المسجد النبوى كتب إلى حكام جميع الأقاليم بأن تقام مثل هذه الصلاة فى كل مكان ، وهكذا كتب جميع الأحكام المتعلقة بالزكاة بالتفصيل وأرسلها إلى أبى موسى الأشعرى وباقى قادة الجيش وكان عنوان هذا الكتاب كما نقله شاه ولى الله عن الإمام مالك « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب الصدق الخ » وقد ذكرنا من قبل الرسالة التى أرسلت إلى أبى موسى الأشعرى والمتعلقة بالقضاء والشهادة ، وفضلاً عن المسائل المهمة فقد كان يكتب كذلك جزئيات المسائل الفقهية ويرسلها إلى العمال . / وكتب ذات مرة إلى أبى عبيد يقول : « إننى ١٣٤ علمت أن المسلمات يذهبن إلى الحمامات ويستحممن سافرات أمام النصرانيات ، إلا أنه لا يجوز للمرأة المسلمة أن تسفر عن نفسها أمام أى امرأة من دين آخر » وأرسل رسالة إلى جميع العمال فيما يتعلق بالصوم فحواها :

« لا تكونوا من المسوفين لفطركـم » وذكر زيد بن وهب أنه جاءنا كتاب من عمر بأن « المرأة لا تصوم تطوعًا إلا بإذن زوجها » وروى أبو دايل أن عمر كتب إلينا أن « الأهلة بعضها أكبر من بعض » . وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل .

الإجماع فى المسائل الفقهية :

إن الأمر الجدير بالاهتمام هو أن الأوامر التى كان يصدرها عمر كانت بمثابة القانون الملكى لذا كان يتوخى فيها الحذر دائمًا وأن تكون هذه المسائل إجماعية ومتفقًا عليها فقد كان هناك كثير من المسائل التى اختلف فيها الصحابة فكان يعرضها على جميع الصحابة قبل أن يفصل فيها ، فمثلاً بالنسبة لعقاب السارق يذكر القاضى أبو يوسف « أن عمر استشار فى السارق فأجمعوا . الخ » (١) . وعندما ظهر خلاف على غسل الجنابة طلب جميع المهاجرين والأنصار وعرض هذه القضية وطلب فيها رأى الجميع

(١) الكتاب المذكور : ١٠٦ (المؤلف) – القاضى أبو يوسف : الخراج : ١٧٤ (المترجم) .

فأدلى الناس بآراء مختلفة فقال حينذاك « أنتم أصحاب بدر وقد اختلفتم فمن بعدكم أشد اختلافًا » / وعندما بحثت مسألة الأزواج المطهرات أصدر حكمه بعد مشورتهم [١] وكان هناك خلاف شديد على عدد التكبيرات فى صلاة الجنازة فجمع عمر الصحابة واتفقوا بعد التمحيص على أمر واحد وهو التكبيرات الأربع .

(٣) كان عمر يراعى فى تعيين عمال الأقاليم والقادة أن يكونوا علماء وفقهاء ، وقد أعلن هذا فى كثير من المواقف المختلفة وذات مرة خطب فى جمع كبير وقال « إنى أشهدكم على أمراء الأنصار أنى لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس فى دينهم » [٢] ولم يكن هذا الالتزام مقصورًا على الحكام المدنيين بل كان يراعى كذلك بالنسبة للقادة العسكريين ، وكتب القاضى أبو يوسف : « إن عمر بن الخطاب كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان بعث عليهم رجلاً من أهل الفقه والعلم » . وبسبب هذه الحكمة نجد فى عهد عمر بين عماله وقادته من أمثال أبى عبيدة وسلمان الفارسى وأبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل الذين كانوا يتميزون بالعلم والفضل إلى جانب كفاءتهم العسكرية والمدنية ويذكر أسماءهم فى كثير من الأحاديث والفقه .

تنظيم تعليم الفقه :

(٤) عين المعلمين والفقهاء فى جميع البلاد المحروسة ليعلموا الناس الأمور الدينية مع أن المؤرخين لم يكتبوا عن هذا الأمر تحت أى عنوان خاص ولهذا / السبب لا يمكن معرفة العدد الصحيح لهؤلاء المعلمين ونستطيع أن نقدر من أقواله المتفرقة أنه كان يكلف عدة فقهاء فى كل مدينة للقيام بهذا العمل وقد كتب صاحب أسد الغابة فى سيرة عبد الله بن مغفل على سبيل المثال أنه « من بين العشرة الذين بعثهم عمر إلى البصرة يفقهون الناس » [٣] ويكتب العلاّمة الذهبى فى طبقات الحفاظ عن عمران بن الحسين وهو من كبار الصحابة وكان ممن بعثهم عمر بن الخطاب إلى أهل البصرة ليفقههم . وجاء فى طبقات الحفاظ عن عبدالرحمن بن غنم أن عمر كان قد بعثه إلى الشام ليفقههم

---

(١) إزالة الخفاء : ٨٨ (المؤلف) .

(٢) كتاب الخراج : ٦٧ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٨ (المترجم) .

(٣) العبارة الأصلية هى : « كان أحد العشرة الذين بعثهم عمر إلى البصرة يفقهون الناس » (المؤلف) . - أسد الغابة : ٣ / ٣٩٨ - ٣٩٩ (المترجم) .

وذكر صاحب أسد الغابة فى سيرته أيضًا أن هذا الشخص هو الذى فَقَّهَ جميع التابعين فى الشام . وكتب فى عبادة بن الصامت أنه عندما فتحت الشام بعثه عمر هو ومعاذ بن جبل وأبا الدرداء إلى الشام لكى يعلموا الناس القرآن الكريم ويفقهوهم ، وفيما يتعلق بحبان بن جبلة ذكر جلال الدين الأسيوطى فى « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة »[١] أن عمر أسند إليه تعليم الفقه فى مصر .

وكان من طريقة درس هؤلاء الفقهاء أنهم كانوا يجلسون فى جانب من جوانب صحن المسجد / ويجتمع إليهم طلاب العلم متحلقين بأعداد كبيرة فيسألون عن المسائل ١٣٧ الفقهية فيجيبونهم ويقول أبو مسلم الخولانى : دخلت المسجد فى حمص فرأيت ثلاثين من كبار الصحابة يجلسون هناك ويتحدثون فى القضايا والمسائل ، ولكن عندما كانوا يشكّون فى أى مسألة كانوا يرجعون إلى شاب فسأل الناس عن اسم هذا الشاب فعرفت أنه معاذ بن جبل[٢] . ويقول الليث بن سعد عندما كان أبو الدرداء يأتى المسجد كان الناس يحتشدون حوله كما يحتشد حول الملك ويستفسر هؤلاء الناس جميعًا عن المسائل الفقهية[٣] .

رواتب الفقهاء :

يتضح من بيان ابن الجوزى أن عمر كان يجرى الأرزاق لهؤلاء الفقهاء والحقيقة أنه لا يمكن إقامة مثل هذه السلسلة المنظمة المرتبة للتعليم بدون رواتب .

سمو منزلة معلمى الفقه :

وما يجدر ذكره خاصة أن الناس الذين وقع عليهم اختيار عمر لتعليم الفقه مثل : معاذ بن جبل وأبى الدرداء وعبادة بن الصامت وعبد الرحمن بن غنم وعمران بن حصين وعبد الله بن مغفل كانوا نخبة من جميع المسلمين ولكى نتأكد من صحة (هذا الرأى) وصدقه يجب علينا قراءة سيرة هؤلاء الناس فى أسد الغابة والإصابة وغيرها .

---

(١) جلال الدين السيوطى : حسن المحاضرة : ١١٢ (المترجم) .

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ : ذكر معاذ بن جبل (المؤلف) .

(٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ : ذكر أبى الدرداء (المؤلف) .

لم يكن كل شخص مجازًا لتعليم الفقه :

وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة هو أن عمر كان يحتاط كثيرًا فى هذا الشأن فلا يأذن لكل شخص بتعليم المسائل (الفقهية) وكان يتم بصفة خاصة تعليم تلك المسائل الفقهية التى اتفقت عليها آراء الصحابة / أو التى يتفق عليها بعد أن تعرض على جماعة الصحابة وقد ذكر شاه ولى الله تفاصيلها بوضوح وننقل فى هذا المكان فقراتها المتفرقة التى تتعلق ببحثنا .

١٣٨

« ومع هذا فإنه لم يكن هناك مدعاة للمخالفة بعد أن يعزم الخليفة على أى شىء ، فكانوا لا يتصرفون ارتجالاً فى كافة الأمور فلم يكن فى إمكانهم أن يقضوا أمرًا دون استطلاع رأى الخليفة ولهذا السبب نفسه لم يحدث فى هذا العصر أى نوع من الخلاف فى المذاهب أو تشتت فى الآراء » ، فقد كان الجميع متفقين ومجتمعين على مذهب واحد وعندما انتهت تمامًا خلافة الخاصة وأعقبها خلافة العامة شغل العلماء فى كل بلد بالانتفاع فإذا بابن عباس يصدر فتوى فى المدينة وإذا بعائشة الصديقة وعبد الله بن عمر يشتغلان برواية الحديث فى المدينة بينما يقضى أبو هريرة جل أوقاته فى الإكثار من رواية الحديث وعلى الإجمال فقد ظهرت فى هذه الأيام اختلافات فى الفتاوى فلم يكن أحد من أولئك يطلع على رأى الآخرين أو حتى إذا تم له الاطلاع عليه لم تتم مناقشته ، وأما إذا جرت تلك المباحثة أو المناظرة فلم يتيسر إزاحة الشبهة والابتعاد عن أسباب الاختلاف للوصول إلى الاتفاق وإذا تتبعت رواية علماء الصحابة الذين رحلوا عنا قبل انتهاء ولاية الخاصة لوجدتها قليلة ، أما الفريق الذى قام بالرواية بعد أيام ولاية الخاصة مع أنهم جميعًا صحابة عدول وروايتهم موثوق بها وينبغى العمل بها بموجب ما يثبت عنهم من رواية صادقة فقد وجد الفرق شاسعًا بين ما وجد من حديث وفقه فى عهد الفاروق وما حدث بعده كالفرق بين السماء والأرض » [1] .

التنظيم العملى :

جميع الأمور التى سبق ذكرها تتعلق بالجوانب العلمية ، أما النواحى العملية فقد أولى عمر اهتمامه بها أيضًا وأقام جميع أقسام التنظيمات الهامة فعين فى كل قرية ومدينة

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ١٤٠ (المؤلف) .

إمامًا ومؤذنًا وصرف رواتبهم من بيت المال . وقد كتب العلامة ابن الجوزى فى سيرة العمرين « أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا يرزقان المؤذنين والأئمة » ويتضح من موطأ الإمام محمد أنه قد عين رجالاً بصفة خاصة لتسوية الصفوف [١] . ويعين الناس فى أيام الحج لينقل الحجيج من العقبة إلى مِنى [٢] . لأن أكثر الحجاج كانوا يقفون بالعقبة لجهلهم مع أن القيام بها لا يعد من مناسك الحج .

قيادة قافلة الحجيج :

لقد حج عمر فى خلافته عشر مرات متصلة لذا كان هو نفسه أمير للحجاج دائمًا وكان يقوم على خدمة الحجيج بنفسه .

تعمير المساجد :

شيد عمر مساجد كثيرة فى جميع البلاد المفتوحة فقد كتب إلى أبى موسى الأشعرى حاكم البصرة بأن يشيد فى البصرة مسجدًا جامعًا وأن يبنى لكل قبيلة مسجدًا منفصلاً وأرسل إلى سعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص أيضًا أحكامًا مثلها وكتب إلى جميع عمال الشام أن يُبنى فى كل مدينة مسجد وهذه المساجد مشهورة حتى الآن بالجوامع العمرية [٣] مع أن مبانيها الأصلية غير قائمة الآن ، وقد نال المؤلف شرف أداء الصلاة فى أحد الجوامع العمرية فى بيروت / ويقول المحدث جمال الدين فى « روضة الأحباب » ١٣٩ لقد شيد أربعة آلاف مسجد فى عهد عمر ، ومع أن هذا العدد الخاص غير مقطوع به ، لكن لا شك أن عدد المساجد الفاروقية كانت لا تقل عن عدة آلاف مسجد .

توسيع الحرم الشريف :

لقد وسع عمر الحرم الشريف وقام بتجميله وبيان هذا الأمر بالتفصيل هو أن سعة الحرم الشريف ومبانيه بدأت تضيق بسبب انتشار الإسلام يومًا بعد يوم لذا فى سنة ١٧هـ

---

(١) موطأ الإمام محمد صفحة ٨٦ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ٥٦ (المترجم) .

(٢) موطأ الإمام محمد صفحة ٢٢٩ (المؤلف) .

(٣) تاريخ المقريزى : ٢ / ٢٤٦ (المؤلف) .

اشترى المنازل المحيطة بالحرم وضم أرضها إلى صحن الحرم ولم يكن هناك أى جدار يحيط بالحرم حتى ذلك الوقت ولم تتميز حدوده عن حدود المنازل العامة ، فأقام عمر للمسجد جدارًا وكانت المصابيح تشعل وتوضع عليه فى الليل[1] . وكانت الكعبة تكسى دائمًا فكانت تغلف بالأنطاع فى الجاهلية فكساها عمر القباطى وهو نوع من القماش الفاخر [2] يصنع فى مصر . ولأن هناك كثيرًا من الأحكام الشرعية كانت متعلقة بحدود الحرم وتعرف بأنصاب الحرم لهذا حدد عمر حدود الحرم فكان أحد الجوانب ثلاثين ميلاً والجانب الثانى سبعة أميال والجانب الثالث تسعة أميال أقيمت كلها بالحجارة . وقد قام بتجديده باهتمام وحيطة شديدة فى سنة ١٧هـ ، وقد أسند عمر هذا العمل لكل من مخرمة بن نوفل وأزهر بن عوف وحُويطب بن عبدالعزى وسعيد بن يربوع وكانوا من الصحابة الذين يعرفون حدود الحرم معرفة تامة فوضعوا الحجارة بدقة متناهية / . ١٤١

توسيع المسجد النبوى وترميمه :

لقد قام عمر بتوسيع المسجد النبوى وتجميله لأن المبنى الذى شيد فى عهد الرسول كان مناسبًا لذلك العهد لكن المدينة أخذت تتطور يومًا بعد يوم وبدأت أعداد المصلين تتضاعف ففى سنة ١٧هـ أراد عمر توسيعه فأخذ جميع البيوت المحيطة به بعد أن دفع ثمنها وقد رفض العباس بيع بيته وكان عمر قد أعطاه تعويضًا كافيًا فلم يرض العباس بأى شكل من الأشكال وفى نهاية الأمر تظلم لدى أبى بن كعب فأصدر أبى حكمه بأنه ليس لعمر حق فى الشراء عنوة ، وعندئذ قال العباس « أعطيها الآن لعامة المسلمين بلا ثمن » ثم هدم البيوت الباقية - بعد أن ترك بيوت أزواج النبى المطهرات - ووسع المسجد النبوى ، فكان الطول السابق مائة ذراع فجعله مائة وأربعين ذراعًا ، وأضاف إلى العِرض عشرين ذراعًا ، لكنه لم يتكلف فى المبانى فبقيت الأساسات والأعمدة وغيرها من الخشب ، كما كانت فى عهد رسول الله - ﷺ - وقد بنى عمر مصطبة فى

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى : ١٥٤ (المؤلف) - الماوردى : الأحكام السلطانية : ١٤٥ (المترجم) . - فتوح البلدان صفحة ٤٦ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٥٨ (المترجم) .

(٢) فتوح البلدان صفحة ٤٧ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٥٩ (المترجم) .

أحد الأركان عند تجديده للمسجد وقال للناس إن كل من يريد منكم أن يتكلم أو يلقى الشعر فهذا هو مكانه [1] .

إضاءة المسجد وفرشه بالبسط :

لم يكن بالمسجد قبل عمر أى اهتمام خاص بالإضاءة فكانت بداية الإضاءة فى عهد عمر حيث أشعل تميم الدارى [2] المصابيح فى المسجد بإذن منه واهتم عمر بالبخور والعطور فى المسجد وكانت بداية هذا الأمر عندما جاءت حزمة من نبات العود فى مال الغنيمة ذات مرة / وأراد عمر تقسيمها على المسلمين لكنها لم تكن كافية فأمر أن تصرف للمسجد ليستفيد منها المسلمون كافة ، وسلمها للمؤذن فكان يحرقها فى المجمرة كل جمعة ويمر أمام المصلين ليبخر ثيابهم [3] . وكان عمر أول من فرش البسط لكن لم تكن فرشًا غالية أو ثمينة بل طبق فيها بساطة الإسلام فكانت البسط من الحصير والغاية منها ألا تلوث ثياب المصلين بالأتربة والغبار . ١٤٢

ترتيبات متفرقة :

لقد ذكرنا فيما سبق تنظيم الإدارات الكبرى المتعلقة بالحكم لكن بالإضافة إليها هناك كثير من الجزئيات التى لا يمكن أن نقيم لها عناوين منفصلة لذا فمن المناسب جدًا ذكرها فى مكان واحد ، فمن بين تلك الجزئيات إقامة المكاتب وترتيب المستندات وتحديد التقويم ، ولم تكن هذه الأمور موجودة قبل عمر فقد كانوا فى الجاهلية يحسبون السنين بالأحداث العامة ، ففى وقت من الأوقات كانت السنوات تحصى بوفاة كعب ابن لؤى ، ثم بعام الفيل أى السنة التى حمل فيها أبرهة الأشرم على الكعبة ، ثم عام الفجار وسنوات مختلفة أخرى ، إلا أن عمر أقام تقويمًا ما زال معمولاً به حتى اليوم/ . ١٤٣

تحديد السنة الهجرية :

وكانت بدايتها فى سنة ١٦هـ عندما قدم إلى عمر صك مكتوب عليه كلمة شعبان

---

(١) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى : ١٣٢ - ١٣٣ (طبعة مصر) .
(٢) أبو هلال العسكرى : الأوائل : ١٨٥ أيضًا القاضى عبد البر : الاستيعاب (المترجم) .
(٣) خلاصة الوفا ص ١٧٤ (المؤلف) .

فقط فقال عمر كيف نعلم أن المقصود منه هو شهر شعبان الماضى أو الحالى؟ فعقد مجلس الشورى فى ذلك الوقت وحضره جميع الصحابة وتم عرض هذه المسألة فرأى أكثرهم تقليد الفرس ، ولما استدعى هرمزان وكان ملك خوزستان وأسلم وأقام فى المدينة ، قال : إننا لنا تقويم نسميه « ماه روز » تذكر فيه كل من الأيام والشهور وبعد ذلك بحثوا كيفية تحديد بداية السنة فرأى الإمام على - كرم الله وجهه - أن تبدأ بالهجرة النبوية واتفق الجميع على هذا ، وكان الرسول قد هاجر فى ربيع الأول وانصرم من السنة شهران وثمانية أيام ولهذا كان يجب أن يبدأ التقويم بربيع الأول [1] ولكن لأن السنة عند العرب كانت تبدأ بالمحرم لهذا جعلوا السنة بعد انقضاء ثمانية وستين يومًا من بداية السنة [2] .

وبالرغم من أن القراءة والكتابة كانت رائجة عند العرب منذ القدم ، وعندما ظهر الإسلام كان فى قبيلة قريش سبعة عشر رجلاً يعرفون القراءة والكتابة لكن لم يكن لدى الناس عمومًا نصيب من معرفة كتابة الحساب حتى إنه عندما فتحت أبلة فى سنة ١٤هـ لم يكن فى الجيش كله رجل يعرف الحساب ويستطيع أن يقسم أموال الغنائم بطريقة سليمة لجأ الناس إلى فتى فى الرابعة عشر من عمره وهو زياد بن أبى سفيان / وقرروا له راتبًا قدره درهمان يوميًا [3] مكافأة له ، فهذا كان حالهم فى البداية حتى تم إعداد جميع أنواع المستندات والخرائط بالتفصيل والدقة الشديدة تحت إشراف عمر .   ١٤٤

أنواع الدفاتر المختلفة :

وكان إحصاء أصحاب الرواتب من أصعب المشكلات وأعقدها والذين يعرفون بأهل العطاء ، وكانت تحتوى أيضًا على جميع أقسام الجيش وكان عددهم يتجاوز الآلاف وكانت الجماعات المختلفة تتلقى الرواتب حسب المراتب المختلفة ، مثل البطولة والشجاعة والشرف والخدمات السابقة مع مراعاة الفرق بين القبائل ، وكان لكل قبيلة سجل مستقل وترتيب هذه السجلات أيضًا يقوم على أسباب ووجهوه مختلفة ، وقد عين

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف : ٢٩٠ (المترجم) .
(٢) المقريزى : ١ / ٢٨٤ (المؤلف) .
(٣) الطبرى صفحة ٢٣٨٨ (المؤلف) .
الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٩٧ (المترجم) .

عمر رجالاً ذوى جدارة لضبط الحساب فى هذه الإدارة مثل عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم فى دار الخلافة ، والمغيرة بن شعبة فى البصرة وعبد الله بن خلف فى الكوفة .

دفتر الخراج :

أما جميع دفاتر الخراج كما ذكرنا آنفًا فقد بقيت باللغات الفارسية والشامية والقبطية لأن هذا الفن لم يتطور تطورًا يذكر عند العرب لكى تنقل هذه الدفاتر إلى اللغة العربية .

حساب مستندات بيت المال :

كان حساب بيت المال يرتب بدقة فائقة بالأنعام التى تأتى من الصدقة والزكاة كانت تتعلق ببيت المال وكانت سجلاتها تعد بدقة شديدة فتكتب أوصاف الحيوانات وألوانها وعمرها وكان عمر يكتبها بيده فى بعض الأحيان [١] / . ١٤٥

مستندات نفقات الحرب :

كان عمر يطلب من القادة دائمًا حساب مال الغنيمة ونفقات الحرب ، حتى إن أول سبب فى عزل خالد أنه لم يكن يتحمل مسئولية إرسال أوراق الحسابات [٢] وفى فتح جلولاء الذى تم فى عام ١٦هـ أخذ زياد بن أبى سفيان مستندات الحساب وحضر إلى المدينة وقدمها لعمر للنظر فيها [٣] .

مستندات التعداد السكانى :

وتم إجراء تعداد للسكان فى كل منطقة بهدف تحديد الجزية والزكاة وكانت مستنداته تحفظ باهتمام بالغ وقد ذكر الطبرى والمقريزى كلاهما بالتفصيل عملية التعداد السكانى فى مصر والعراق .

---

(١) الطبرى : صفحة ٢٧٣٦ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى ٢٠١/٤(المترجم) .

(٢) الأمانة فى أحوال الصحابة تذكرة خالد بن الوليد (المؤلف) - الإصابة فى تمييز الصحابة : ٤١٤/١ (المترجم) .

(٣) الطبرى : صفحة ٢٤٦٥ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٢٩/٤ (المترجم) .

وكانت قد أعدت قوائم للصفات الخاصة والمتميزة ، فقد أرسل أمرًا إلى سعد بن أبى وقاص ليعد فهرسًا بمن يستطيعون قراءة القرآن وطلب منه قائمة الشعراء أيضًا وسوف يأتى ذكره فى مكان آخر .

وقد كانت المعاهدات المكتوبة بين الأفراد أو الأمم فى البلاد المفتوحة توضع فى صندوق بسرية تامة وتظل تحت الرعاية الخاصة لعمر [1] .

طريقة كتابة المستندات :

ومن الضرورى أن نذكر هنا طريقة كتابة الحساب فى ذلك الوقت ، فالحساب كان يكتب على ورق مستطيل ثم يطوى بنفس طريقة دفاتر حساب التجار عندنا ، أما طريقة السجل والقيد فى الدفتر فقد اخترعها خالد البرمكى وزير السفاح فى أيام خلافته / .

١٤٦

العُملة (النقود) :

أما بالنسبة للعملة فقد كتب أن عامة المؤرخين يذكرون أن عبدالملك بن مروان كان أول من أصدر العملة عند العرب إلا أنه يثبت من كتابة المقريزى أن عمر الفاروق قد أوجدها أيضًا لذا نذكرها فى هذا المكان الترجمة الحرفية لعبارة المقريزى :

عندما صار أمير المؤمنين عمر خليفة وفتح الله على يديه العراق والشام ومصر لم يتدخل أى تدخل فى أمور النقود بل إنه أبقى العملات القديمة التى كانت تصدر على حالها ، وفى سنة ١٨هـ عندما جاءت الوفود من المناطق المختلفة ، جاءت وفود البصرة كذلك وفيها الأحنف بن قيس فذكر الأحنف احتياجات سكان البصرة فأرسل عمر معقل بن يسار بناء على طلبهم فاحتفر نهرًا فى البصرة اسمه نهر معقل وهو النهر الذى قيل فيه هذه الفقرة المشهورة « إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » وقد رتب فى ذلك الوقت الأمر بهذه الصورة بحيث قرر لكل فرد جريبًا من الغلة ودرهمين شهريًا وأصدر عمر عملته الدرهم فى ذلك الوقت فكانت تشبه نقود أنوشيروان مع فرق بسيط فكان على

(١) المقريزى : ٢٩٥/١ (المترجم) .

عملات عمر « الحمد لله » وعلى بعضها « محمد رسول الله » وكان يكتب على بعضها « لا إله إلا الله » وفى نهاية عهد عمر كان مجموع وزن عشرة دراهم يعادل ستة مثاقيل [1] .

هذه الرواية خاصة بالمقريزى لكن من المسلم به عمومًا أن عمر قد أجرى ترميمًا وإصلاحًا / للعملات وقد كتب العلامة الماوردى فى الأحكام السلطانية : « إنه كان فى إيران ثلاثة أنواع من الدراهم هى : البغلى وهو ثمانية دوانق ، والطبرى أربعة دوانق ، والمغربى ثلاثة دوانق ، فأمر عمر بخلط كل من البغلى والطـبرى لأنهما كانا أكثر رواجًا ثم جعل من نصفهما الدرهم الإسلامى ولهذا أصبح الدرهم الإسلامى ستة دوانق [2] . ١٤٧

حقوق الرعايا الذميين [3]

إذا قارنت الحقوق التى منحها عمر للرعايا الذميين بالحقوق التى منحتها الدول الأخرى فى ذلك الزمان ظهر البون شاسعًا بين المقارنتين ، فقد كانت حقوق الشعوب الخاضعة فى الدولتين المجاورتين لدولة عمر أى فارس والروم أسوأ من حقوق العبيد ، وبالرغم أن نصارى الشام كانوا على دين الروم إلا أنهم لم يكن لهم الحق فى تملك أى جزء من أراضيهم المغتصبة ، بل كانوا يعتبرون أيضًا نوعًا من الممتلكات تنقل مع انتقال الأرض وكان المالك الحالى يحصل على نفس الامتيازات الملكية التى كانت للمالك السابق ، أما اليهود فقد كانوا فى أسوأ حالة فلم يكونوا مؤهلين على أن يطلق عليهم اسم « رعايا » لأن الرعايا تنعم ببعض الحقوق أما هم فقد كانوا محرومين من مجرد اسم « الحق » أيضًا ، أما النصارى الذين كانوا فى فارس فإن حالتهم كانت تستحق العطف / . ١٤٨

وعندما أخضع عمر تلك الممالك تغير هذا الوضع مرة واحدة ، ومنحت الحقوق

---

(١) انظر كتاب النقود الإسلامية للمقريزى ص : ٤ - ٥ (طبعة مطبعة الجوائب ١٢٩٨هـ) المؤلف .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى صفحة ١٤٧ (المؤلف) .

- الماوردى : الأحكام السلطانية : ١٣٨ (المترجم) .

(٣) المقصود بالذميين هم الأقوام غير المسلمة التى تسكن فى دار الإسلام (المؤلف) .

لهم وكأنهم ليسوا رعايا بل ظهر بينهم نوع من العلاقة التى تحدث بين المتعاهدين المتكافئين ، وننقل فى هذا الموضع المعاهدات التى كتبت فى أثناء فتح البلاد المختلفة تصديقًا لذلك ، وفضلاً عن هذا فسوف تسنح الفرصة لمقارنة هذا الأمر وهو أن أوربا بالرغم من ادعاء الحضارة لم تمنح مثل هذه النوع من الحقوق مطلقًا فى مكان ما إلا لمواطنيها .

ويجب ملاحظة أن المعاهدات التى تنقل من كتب التاريخ بعضها مفصل والبعض الآخر مجمل وإعادة الشروط المفصلة مرارًا يبعث على التطويل الممل لهذا كان يشار فى أكثر المعاهدات إلى معاهدة مفصلة وفيما يلى معاهدة بيت المقدس التى كتبت كلماتها فى حضور عمر - رضى الله عنه .

معاهدة بيت المقدس :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم / ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المداين وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥هـ[1] / .

١٤٩

١٥٠

وتؤكد هذه المعاهدة بوضوح على أن يحفظ للنصارى دينهم وأموالهم وأنفسهم بكل

---

(١) انظر تاريخ أبى جعفر الطبرى . فتح بيت المقدس (المؤلف) .

- الطبرى : تاريخ الطبرى : ٣ / ٦٠٩ (المترجم) .

الطرق ومن البديهى أن الحقوق التى يحصل عليها أى شعب تتعلق بتلك الأمور الثلاثة ، وبالنسبة للكنائس والبيع فقد ذكر ألا تهدم ولا ينتقص من مبانيها شىء ولا ينقص من أسوارها ، أما الحرية الدينية فقد ذكر مرة ثانية أن « لا يكرهوا على دينهم » وكان النصارى يعتقدون أن اليهود صلبوا عيسى ثم قتلوه وقد وقعت هذه الواقعة خاصة فى بيت المقدس ، وبالرغم من أنه كانت هناك حرب بين المسلمين واليونانيين وكانوا فى الحقيقة العدو الأصلى للمسلمين ، مع ذلك تميزوا بأنهم « إن أرادوا البقاء فى بيت المقدس فليبقوا ومن أراد الخروج فليخرج وسيحصل على الأمان فى كلا الحالتين ولن يتعرض لمعابدهم وكنائسهم وأكثر من هذا فإن نصارى بيت المقدس لو أرادوا أن يخرجوا من وطنهم ويرحلوا مع الروم فلن يتعرض لهم أحد ، بل تحفظ جميع كنائسهم وأملاكهم التى فى بيت المقدس . فهل يمكن أن يعامل أى قوم من البلاد المفتوحة معاملة عادلة أفضل من هذه ؟

ومن الأمور الهامة أيضًا أن عمر قد ساوى بين أموال أهل الذمة وأزواجهم وأموال المسلمين وأرواحهم ، فعندما يقتل المسلم ذميًا كان عمر يقتل المسلم فى قصاصه فورًا . وقد روى الإمام الشافعى أن رجلاً من قبيلة بكر بن وائل قتل نصرانيًا من الحيرة فأمر عمر أن يسلم القاتل إلى ورثة المقتول / فسُلم إلى وريث الرجل المقتول واسمه حنين فقتله [1] . فهل يمكن أن يكون هناك أكثر من المحافظة على حقوقهم الخاصة بالمال والأملاك بحيث تبقى ما فى أيديهم من أراض على حالها كما كانت فى حوزتهم قبل الفتح ؟ ولم يجر للمسلمين شراء تلك الأراضى وقد ذكرنا هذا البحث بالتفصيل عند بيان خراج الدولة .

١٥١

التفكير فى أهل الذمة عند إدارة الخراج :

والخراج الذى قرر عليهم كان بسيطًا وغير مجحف ، ومع هذا كان عمر يضع فى اعتباره دائمًا ألا يتشدد عليهم فى أى مكان ، ولم تفارقه هذه الفكرة حتى آخر أيام حياته ، وكان من عادته كل عام عندما يأتى خراج العراق أن يخرج إليه عشرة من أهل البصرة وعشرة من أهل الكوفة ويستشهدهم عمر أربع شهادات بالله أنه من طيب ،

---

(١) الدراية فى تخريج الهداية (طبعة دهلى) ٣٦٠ (المؤلف) .

ما فيه ظلم لمسلم ولا معاهد [١] وقبل أن يصاب بثلاثة أو أربعة أيام استدعى مسئولى إدارة المساحة والأراضى وتحدث إليهم فيما يتعلق بتحديد الخراج وكان يسألهم مرارًا هل شددتم فى وضع الخراج ؟ [٢] .

الأخذ برأى أهل الذمة فى وضع ترتيبات الدولة :

إن من أعظم الحقوق التى ينالها الرعايا هى أن يكون لهم نصيب فى تنظيمات الدولة ، فكان عمر دائمًا يأخذ رأى أهل الذمة فى الترتيبات التى تتعلق بهم ولم يكن ١٥٢ يقدم على أى عمل دون استفتاء ، فعندما نظم إدارة العراق استدعى رؤساء / العجم إلى المدينة واستفسر عن حالة الخراج ، كما أنه أخذ رأى المقوقس فى كثير من الأمور عندما نظم إدارة مصر [٣] .

ولم تكن الحقوق الخاصة بمال الذميين وممتلكاتهم حقوقًا شفوية فحسب بل واظب عليها بحزم شديد ، فقد اشتكى أحد الفلاحين فى الشام أن أفراد الجيش قد أفسدوا زراعته فعوضه عمر بعشرة آلاف درهم من بيت المال [٤] . وكان عمر يرسل الأوامر المغلظة إلى حكام المراكز يؤكد فيها بألا يُحملوا الذميين مالا يطيقون وكان يؤكد هذا الأمر مشافهة أيضًا ، وروى القاضى أبو يوسف فى « كتاب الخراج » فى باب الجزية أنه عندما عاد عمر من الشام على قوم قد أقاموا فى الشمس ويصب على رءوسهم الزيت فقال للناس ما بال هؤلاء ؟ فقالوا هؤلاء الناس لم يؤدوا الجزية لهذا يعاقبون فسأل عمر ما عذرهم بعدم الدفع ؟ قالوا : يقولون لا نجد . قال : فدعوهم لا تكلفوهم ما لا يطيقون فقد سمعت رسول الله يقول : « لا تعذبوا الناس فإن من عذب الناس فى الدنيا عذبه الله يوم القيامة » [٥] .

---

(١) الخراج : ٦٥ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٤ (المترجم) .

(٢) كتاب الخراج : ٢١ يقول القاضى أبو يوسف : « قال شهدت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بثلاثة أو أربع واقفًا على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف يقول لهما لعلكما حملتما ما لا تطيق » (المؤلف) . - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ٨٤ (المترجم) .

(٣) المقريزى : ٧٤/١ (المؤلف) .

(٤) الخراج : ٦٨ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٩ (المترجم) .

(٥) القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٢٥ (المترجم) .

الوفاء بشرط الذميين :

والأمر الذى أرسله عمر إلى أبى عبيدة بعد فتح الشام كان يحتوى على هذه / ١٥٣ الكلمات : « وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها ووف لهم بشروطهم التى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم » (١) .

وعندما حان أجل عمر قال فى وصية مفصلة لمن يكون خليفة بعده ، وقد نقل هذه الوصية الإمام البخارى وأبو بكر البيهقى والجاحظ وكثير من المؤرخين وفقرتها الأخيرة هى : « أوصيه بذمة الله وذمة رسول الله أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل ورائهم وألا يكلفوا فوق طاقتهم » (٢) .

فهل هناك أكثر من هذا ؟ فعمر حتى فى وقت استشهاده لم ينس أهل الذمة .

سب نصرانى النبى أمام غرفة (غرفة بن الحارث الكندى) وهو صحابى جليل ، فصفع النصرانى على وجهه فاشتكاه النصرانى عند عمرو بن العاص فاستدعى غرفة وآخذه فقص عليه غرفة الواقعة ، قال عمرو لقد أعطينا الذميين الأمان ، قال غرفة : « معاذ الله لم يسمح لهم بأن يسبوا النبى - ﷺ - علنا ، لقد أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم وإن أرادهم عدو قاتلنا دونهم / وألا نحملهم ما لا يطيقون » ١٥٤ قال عمرو صدقت (٣) . وندرك من هذه الواقعة إلى أى مدى كان يعتنى بحفظ حقوق الذميين .

حرية الأمور الدينية :

نال الذميون الحرية الكاملة فى الأمور الدينية فكانوا يؤدون جميع الشعائر الدينية فكانوا يدقون الناقوس علانية ، ويظهرون الصلبان ، ويقيمون الاحتفالات ، كما اعترف بالامتيازات الدينية التى حصل عليها قساوستهم . ففى مصر أخذ بنيامين بطريرك الإسكندرية يتخبط هنا وهناك ثلاثة عشر سنة خوفًا من الرومان ، وعندما فتح

---

(١) كتاب الخراج : ٨٢ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٤١ (المترجم) .
(٢) صحيح البخارى : ص ١٨٧ (طبعة ميرتحه) المؤلف .
(٣) أسد الغابة تذكرة غرفة (المؤلف) .
- ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة : ٤ / ٣٣٧ - ٣٣٨ (المترجم) .

عمرو بن العاص مصر أرسل إليه رسالة الأمان فرجع غاية فى السرور وكان كرسى البطريرك من نصيبه مرة ثانية . وقد كتب المقريزى فى كتابه « المجلد الأول صفحة : ٤٩٢ » هذه الكلمات الواقعة بكامل تفاصيلها وكان يذكر فى المعاهدات بجانب الأمور الأخرى الالتزام بحق الحرية الدينية ، لذا فإننا ننقل فى هذا المكان الكلمات الأصلية لبعض المعاهدات وهذه الكلمات فى الكتاب الذى كتبه حذيفة بن اليمان لأهل ماه دينار : « لا يغيرون على ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم » .

وكتبت هذه المعاهدة فى أثناء فتح جرجان : -

« لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وملكهم وشرائعهم ولا يغير من شىء من ذلك » [1] وقد صرح فى معاهدة أذربيجان / « الأمان على أنفسهم وأموالهم وملكهم وشرائعهم » [2] وكانت هذه الكلمات فى معاهدة موقان « الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم » . ١٥٥

وقد بذل عمر جهودًا جبارة لنشر الإسلام وكان هذا فرضًا يفرضه عليه منصب الخلافة وغاية ذلك كانت ميسرة عن طريق الوعظ والنصح ولكنه كان يبدى رأيه دائمًا بألا يجبر رجل على قبول الدين ، فقد كان يحث غلامه النصرانى « استيق » دائمًا ويرغبه فى قبول الإسلام لكن عندما رفض قال : « لا إكراه فى الدين » [3] .

المساواة بين المسلمين والذميين :

والحقيقة أن النتيجة التى يمكن أن نستنبطها من تلك الأحداث هى أن عمر كان لا يميز بين المسلمين والذميين أى تمييز فى الحقوق المدنية ، فلو أن مسلمًا قتل ذميًا كان يقتص منه ويقتل على الفور ، وإن عنف مسلم ذميًا بكلام شديد كان يستوجب العقاب ، وكان لا يؤخذ الذميين أى نوع من الخراج عدا العشور والجزية ، فى مقابل ذلك تؤخذ الزكاة من المسلمين وكان مقدارها أكثر من الجزية والعشور إلى جانب هذا

---

(١) الطبرى صفحة ٢٦٥٨ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ : ١٥٢ (المترجم) .

(٢) الطبرى صفحة ٢٦٦٢ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٥٥ (المترجم) .

(٣) كنز العمال نقلاً عن طبقات ابن سعد : ٥ / ٤٩ (المؤلف) .

فقد كانت العشور تجبى من المسلمين إلا أن عائدها كان قليلاً بالمقارنة بالذميين وكان الذمى مساويًا للمسلم فى الرواتب التى يتلقاها المتطوعون من بيت المال وهم مستقرون فى بيوتهم والذميين أيضًا كانوا يشاركونهم هذا الأمر ، ويمكننا فى الحقيقة أن نمثل فى هذا البحث بمثال واحد فقط / وأعظم شىء فى هذا الباب كان هذا القانون وهو أن المسلم الذى يصبح معوقًا أو ضعيفًا ولا يستطيع أن يحصل على رزقه من العمل والكدح كان يقرر له راتبًا من بيت المال وكان هذا العرف معمولاً به مع الذميين أيضًا بكرم أعظم ، وقد طبقت هذه الأصول فى البداية فى عهد أبى بكر ولهذا فإن المعاهدة التى كتبها خالد بن الوليد فى فتح الحيرة كان فيها هذه الكلمات : ١٥٦

« جعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت المال وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم » [١] .

واستمرت هذه الأصول أيضًا فى عهد عمر حتى إنه استند فى هذا القانون على آية من القرآن الكريم أى أنه كتب لخازن بيت المال هذه الآية القرآنية : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [٢] وكان المقصود بكلمة فقراء هم المسلمون ومن كلمة مساكين هم أهل الكتاب واليهود والنصارى وتفصيل هذه الواقعة أن عمر رأى ذات مرة شيخًا مسنًا يستجدى فسأله / لماذا تتسول ؟ قال : لقد وضع علىّ جزية ولا أستطيع أن أؤديها فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله وأعطاه بعض المال وبعث إلى خازن بيت المال لكى يقرر منحة للمحتاجين أمثاله من بيت المال وذكر فى هذه الواقعة الآية المذكورة سابقًا وقال : والله ما أنصفناه ، لقد أكلنا شبيبته وخذلناه عند الهرم [٣] . ١٥٧

احترام الذميين :

لقد كان هناك حرص على كرامة الذميين وعزتهم بالقدر الذى كان لشرف المسلمين

---

(١) كتاب الخراج : ٨٥ : (المؤلف) – أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٤٤ (المترجم) .

(٢) سورة التوبة : آية ٦٠ (المترجم) .

(٣) كتاب الخراج : ٧٢ (المؤلف) – أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٢٦ (المترجم) .

واحترامهم وكان من غير المستحب استعمال أى كلمة من كلمات التحقير من شأنهم ، وكان عمر بن سعد حاكم حمص لا يدانيه أحد فى الزهد والتقوى وترك مشاغل الدنيا ، وذات مرة قال لأحد الذميين « أخزاك الله ، فندم على هذا أشد الندم حتى إنه جاء إلى عمر وقدم استقالته من الخدمة وقال : لقد صدر منى هذا الفعل بسبب الوظيفة [١] .

التعامل مع الذميين فى حالة المؤامرات والثورات :

وهناك أمر خاص جدير بالملاحظة وهو أنه لو قام الذميون بثورة أو مؤامرة مع هذا كان يراعى معهم امتيازات وإعفاءات فالحكومات الحديثة (فى أيامنا) تدعى التحضر والتقدم تعتنى برعاياها رعاية تامة مادام لم تبدر من جانبهم أية شبهات سياسية وإلا تتبدل كل هذه الرحمة فجأة إلى القهر والبطش فينتقمون منهم انتقامًا داميًا وحشيًا يتفوقون فيه على الشعوب المتوحشة / وعلى عكس هذا فإن قدم عمر لم تتزحزح عن جادة العدل فى أية حالة قيد أنملة ، لقد كانت هناك مدينة على آخر حدود الشام يقال لها عربسوس وتلتقى حدودها بآسيا الصغرى وقد فتحت هذه المدينة عندما فتحت الشام ، وعقدت معاهدة للصلح وكان الناس هناك كانوا يتآمرون فى الخفاء ويخبرون الروم بأخبارنا وكان عمير بن سعد حاكمًا لها فأخبر عمر بذلك ، فكان الانتقام الذى انتقمه منهم عمر لخستهم ولؤمهم هو أنه كتب إلى سعد بأن يحصى كل ما لديهم من أملاك وأراضى وماشية وأمتعة وأن يدفع لهم ضعف أثمانها ويأمرهم بالرحيل عن ديارهم فإن لم يوافقوا أرجأهم سنة وبعد ذلك يقوم بنفيهم ، وإلا لم يكفوا عن فتنهم ودسائسهم نفذ فيهم هذا الحكم [٢] . فهل يمكن أن نرى مثيلاً لهذا الصفح والعفو والتسامح عند حكومة ما فى الوقت الحاضر ؟

١٥٨

إن أكبر دليل على التسامح والرعاية التى نالها الذميون هو أنهم كانوا أنفسهم يتعاونون ويساعدون المسلمين فى كل مناسبة فى مواجهة حكوماتهم التى تشاركهم فى الدين وكان الذميون هم الذين يوصلون المؤن للمسلمين ويقومون بالتسويق فى المعسكر ، كما أنهم كانوا يمهدون الطرق ويبنون الجسور بأنفسهم وعلاوة على هذا

---

(١) أنظر كتاب : إزالة الخفاء صفحة : ٢٠٣ (المؤلف) .

(٢) فتوح البلدان صفحة : ١٥٧ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ١٦١ - ١٦٢ (المترجم) .

كانوا يتجسسون ويوصلون الأخبار أى أنهم كانوا يمدون المسلمين بجميع أسرار العدو مع أن هذا العدو كان على دينهم سواء كان العدو نصرانيًا أو مجوسيًا ، ويمكن تقدير الإخلاص الذى أبداه الذميون لحسن سلوك المسلمين / مما يلى : ففى الوقت الذى حدثت فيه موقعة اليرموك وخرج المسلمون من مدينة حمص أمسك اليهود التوراة بأيديهم وقالوا : لن يأتى الروم هنا مطلقًا مادمنا احياء . وقال النصارى بحسرة بالغة : والله إنكم لأحب إلينا من الروم .　١٥٩

وفى النهاية يجب علينا أن نطلعكم على حقيقة تلك الأحداث التى بسببها نشأت هذه الفكرة الخاطئة لدى الناس أو يمكن أن تنشأ وهى أن عمر أو الإسلام ذاته سلكوا سلوكًا ظالمًا مع الذميين .

بيان للمعارضين :

ويمكن أن نوضح للمعارضين لهذا الأمر أن الحكم الذى أصدره عمر فى حق الذميين والخاص بالمظهر والملابس وغيرها وكان حتى لا يتشبهوا بالمسلمين بأى شكل وأن يلبسوا الزنار فى الخصر وأن يلبسوا القلانس الطويلة وألا يشدوا السروج على الخيول ولا يبنوا أماكن جديدة للعبادة وألا يبيعوا الخمر والخنزير ولا يدقوا النواقيس ولا يظهروا الصلبان وألا يعمد بنو تغلب أولادهم ، بل أكثر من هذا فإن عمر لم يترك يهوديًا أو نصرانيًا بين التجمعات العربية الكبيرة ، وأجلى كبار العائلات القديمة التى كانت تقطن فى بلاد العرب منذ مئات السنين .

لا شك أن هذه الاعتراضات جديرة بالاهتمام وسوف نستعين بقدر من التفصيل فى الرد عليها لأن دهرًا طويلاً من التعصب والتقليد قد ألقى بكثير من الحجب على وجه الحقيقة ، صحيح أن عمر كان يمنع تشبه غير المسلمين بالمسلمين ومحاكاة المسلمين لكن كان الهدف من هذا فحسب هو إبراز السمات والملامح القومية . والأمر الذى يحتاج للبحث والتحقيق فى أمر الملابس هو أن / ذلك اللباس الذى ألزمه به عمر الذميين هل كان نفس لباس الذميين القديم ؟ أو أن عمر قد اقترح لباسًا جديدًا علامة على تحقيرهم ؟ إن من يقرأ تاريخ العجم القديم يستطيع أن يتأكد أن اللباس المذكور هو الزى القديم للعجم ، فعلى الرغم من أن الرواة أضافوا إلى معاهدة عمر المذكور فى « كنز العمال » وغيره إضافات متفاوتة ، مع ذلك فهناك إقرار من جانب الذميين فى قولهم　١٦٠

« نحن لن نرتدى الزى الفلانى » وفى نفس المكان تذكر هذه الكلمات « وأن نلزم زينا حيث ما كنا » [1] ويتضح فى هذا الرأى أن الزى الذى كان عمر قد أمر به كان الزى القديم للعجم .

وقد أخطأ جُل فقهائنا بالنسبة للزنار الذى ذكر فى كتاب عمر فقد تصوروا أنه يساوى سمك الإصبع وكان هذا نوعًا من الخيط ، وأن الهدف منه تحقير الذميين ، إلا أن هذا خطأ شنيع ، فمعنى الزنار هو الحزام وهذه الكلمة ما زالت تستخدم حتى الآن بهذا المعنى ويقولون للحزام فى العربية « منطقة » ومن هذه الناحية فالزنار والمنطقة كلمتان مترادفتان وترادف هاتين الكلمتين ثابت من كتب الحديث ، وهناك رواية منقولة عن البيهقى وغيره فى كنز العمال [2] أن عمر أرسل هذا الأمر الكتابى إلى قادة الجيش « وتلزموهم المناطق يعنى الزنانير » . ويطلق على هذه الكلمة اسم « كستيج » أيضًا فقد ورد فى الجامع الصغير وغيره كستيج بدلاً من زنار وهذه الكلمة أعجمية فى الغالب ، على كل حال فإن أهل العجم كانوا يتمنطقون منذ القدم وقد قال المسعودى فى كتابه « التنبيه والإشراف » [3] « إننى قد ذكرت / سبب هذه العادة القديمة للعجم فى كتاب ١٦١ « مروج الذهب » وهناك دليل قطعى آخر على أن هذا الزى كان الزى القديم للذميين وأن هذا هو الزى المشابه للزى الذى قرره الخليفة المنصور لبلاطه وكانت القلانس الطويلة مصنوعة من القصب هى نفس قلنسوات العجم ، ولا تزال نماذجها موجودة حتى الآن على رءوس المجوس ، وكان الزى البلاطى هذا يشتمل على الحزام وهو نفسه الزنار أو المنطقة أو الكستيج وهذا كله أيضًا من وضع العجم قديمًا وقد يذكر جميع المؤرخين العرب فيما يتعلق بزى المنصور المقترح أنه كان تقليدًا للعجم ، والآن يستطيع كل شخص أن يدرك الزى الذى قرره عمر للذميين لو أنه كان زيًا جديدًا لتحقيرهم لما قرره الخليفة المنصور لنفسه ولأهل بلاطه .

بحث فى موضوع الصليب والناقوس :

لا شك أن منع بناء أماكن عبادة جديدة وبيع الخمر وإظهار الصليب ودق الناقوس والتعميد هو تدخل دينى ، لكننى أكشف اللثام عن هذا السر بشجاعة فهذه الأحكام

---

(١) كنز العمال : ٢ / ٣٠٢ (المؤلف) . (٢) كنز العمال : ٢ / ٣٢٠ (المؤلف) .

(٣) المسعودى : التنبيه والإشراف : ١٠٧ (طبعة ليدن) (المترجم) .

التى أصدرها أبو بكر وعمر بجميع قيودها كانت ملائمة تمامًا آنذاك ، إلا أن مؤرخى العصور التالية تركوا ذكر تلك القيود ولهذا السبب انتشر هذا الخطأ فى كل الدنيا .

أما الكلمات التى كانت فى المعاهدات بالنسبة للصليب كان فيها هذا الشرط « ولا يرفعوا فى نادى أهل الإسلام صليبًا » [1] وورد هذا فيما يتعلق بالناقوس « يضربوا نواقيسهم فى أى ساعة شاءوا من ليل أو نهار / إلا فى أوقات الصلاة » [2] وجاء بالنسبة للخنزير « ولا يخرجوا خنزيرًا من منازلهم إلى أفنية المسلمين » . ١٦٢

عدم السماح بالتعميد :

وبعد هذه الشروط لا يبقى هناك شك لدى أحد فى أن منع رفع الصليب ودق الناقوس لم يكن منعًا عامًا بل كان هذا المنع فى حالات خاصة ، وفى تلك الحالات لا يمكن أن نقول إن ذلك المنع ضد العدل ، والأمر الجدير بالملاحظة هو عدم تعميد أولاد بنى تغلب ليصبحوا نصارى ، إن من عادة النصارى أنهم يعمدون أولادهم قبل البلوغ وكأن هذا الأمر للوقاية من اعتناق أولادهم أى دين آخر فى المستقبل ، وهذا الأمر بعينه مثل اختتان الأطفال عند المسلمين ، ولا شك أن عمر لم يكن له أى حق فى منع هذا التقليد بشكل عام ، لكن سؤالاً جديدًا كان يطرح فى ذلك الوقت وهو لو أن شخصًا ما أسلم فى أسرة نصرانية ثم مات وترك أولادًا غير بالغين فماذا يكون حالهم ؟ فعلى أى دين ينشأ أولاده ؟ فهل سيعتبرون مسلمين أو أن أفراد أسرتهم الذين بقوا على النصرانية سينالون هذا الحق ويعمدون ليصبحوا نصارى .

لقد قرر عمر هذا الأمر لهذه الحالة الخاصة حتى لا تعمدهم الأسرة ولكى لا يصيروا نصارى وهذا الحكم قرين للعدل لأنه مادام أبوه كان مسلمًا فإن أولاده غير البالغين يعتبرون مسلمين فى الظاهر ، وقد أورد الطبرى / واقعة بنى تغلب فذكر هذه الكلمات ضمن شروط الصلح « على ألا ينصروا وليدًا ممن أسلم آباؤهم » [3] وذكر هذه الكلمات فى موضع آخر « ألا ينصروا أولادهم إذا أسلم آباؤهم » [4] . ١٦٣

---

(١) كتاب الخراج : ٨٠ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٣٨ (المترجم) .
(٢) الطبرى : ٢٤٨٢ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٤٠ (المترجم) .
(٣) الطبرى : ٢٥١٠ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٥٦ (المترجم) .
(٤) الطبرى : ٢٥٠٩ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٥٥ (المترجم) .

وربما يعترض على هذا بأنه لماذا تشدد عمر فى المعاهدة بمجرد افتراض حدوثها ؟ والرد على هذا هو أنها لم تكن حالة افتراضية ، بل إن كثيرًا من أهل بنى تغلب قد اعتنقوا الإسلام لذلك كان من الضرورى ذكر هذا نظرًا لوضعهم الخاص ، بل إن الطبرى صرح بوضوح أن الناس الذين أسلموا فى تغلب كانوا هم الذين قدموا شروط هذه المعاهدة .

وبعد هذا التفصيل - يستطيع كل إنسان أن ينصف فى هذه المشكلة وهو أنه لو صدر أمر للنصارى بعدم إحضار الخنزير والصليب فى مجالس المسلمين وألا يدقوا الناقوس فى أوقات الصلاة وألا يقوموا بتعميد أولاد المسلمين الجدد وذلك منعًا للإخلال بالأمن العام فهل يستطيع أحد أن يعتبر هذا الأمر من التعصب الدينى ؟ ولكن مما يزيدنا أسفًا أن مؤرخينا القدماء لم يذكروا شروط تلك الأحكام وخصائصها بل إن فى القدماء من تميل طبائعهم إلى التعصب فكانوا يتركون فى رواياتهم تلك السمات مع أن هذه الأخطاء كانت تسبب نتائج خطيرة لأنها كانت بسيطة فى الظاهر فلم يلتفت إليها ابن الأثير وغيره من المؤرخين ، وقد انتشرت هذه الأغلاط إلى هذه الدرجة التى زخرت بها اللغة العربية ، وقد قبل الفقهاء / هذه الروايات الخاطئة بلا تحفظ وببساطة ١٦٤ واستخرجوا منها المسائل الفقهية لأن معرفتهم بالتاريخ كانت ضئيلة وغير كافية .

قضية إجلاء النصارى :

إن حقيقة قضية إجلاء اليهود والنصارى هى أن اليهود لم يكونوا أصفياء من ناحية المسلمين فى أى عصر من العصور ، وعندما تم فتح خيبر قيل ستخرجون من هنا فى الوقت المناسب ، ثم ازدادت دسائسهم فى عهد عمر فذات مرة دفعوا عبد الله بن عمر من الشرفة فجرحت يداه من جراء هذه الدفعة ، فاضطر عمر أن يقف فى جمع عام وبين لهم فتنهم ثم طردهم [١] من بلاد العرب وهذه الحادثة مذكورة بشىء من التفصيل فى كتاب الشروط فى صحيح البخارى .

وكان نصارى نجران يقطنون فى اليمن وأطرافها ولم يتعرض لهم ، لكنهم حين

(١) فتوح البلدان للبلاذرى : ٢٥ وكتاب الخراج : ٢٩ (المؤلف) .

- البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٦ وكتاب الخراج : ٥١ (المترجم) .

بدءوا الاستعداد للمعركة فى صمت وخفاء وجمعوا كثيرًا من الخيل والسلاح أمر عمر بإجلائهم من اليمن إلى العراق لهذا السبب فقط [(١)] المهم أنه من الثابت قطعيًا بجميع الشواهد التاريخية أن النصارى واليهود قد تم إجلاؤهم لمتطلبات سياسية لذا فإن هذا الأمر لا يمكن أن يكون جديرًا بالاعتراض بأى حال من الأحوال ، أما الأمر الجدير بالملاحظة فى هذا الصدد فهو أنهم قد نالوا الرعاية فى هذه الحالة أيضًا فعندما أخرج يهود فدك أرسل عمر رجلاً مطلعًا لكى يقدر قيمة أراضيهم وحدائقهم / وعندما حددت القيمة دفعها عمر لهم من بيت المال [(٢)] كما أعطى ليهود الحجاز ثمن أرضهم [(٣)] .

١٦٥

وعندما خرج نصارى نجران من بلاد العرب وأسكنهم فى العراق والشام عاملهم عمر معاملة كريمة وكتب الشروط الآتية فى وثيقة الأمان التى أعطاها لهم : -

« حينما يذهب هؤلاء الناس فى العراق والشام فعلى الحكام هناك أن يعطوهم الأرض للإقامة والزراعة ، وعلى المسلم أن يساعدهم عندما يشكون إليه ، ولا تؤخذ منهم الجزية لمدة أربعة وعشرين شهرًا » .

وقد وقع كبار الصحابة على هذه المعاهدة للتأكيد والتدقيق وقد أورد القاضى أبو يوسف هذه المعاهدة كاملة فى كتاب الخراج [(٤)] .

فهل يمكن أن يكون هناك رعاية واهتمام أكثر من هذا مع جماعة يوجد دليل على تمردها وتآمرها وتبقى الآن قضية الجزية وإننى قد كتبت رسالة مستقلة فى هذا الموضوع وقد طبعت ونشرت بلغات ثلاث (العربية والإنجليزية والأردية) إلا أنه من الضرورى تناولها بطريقة مختصرة .

بحث فى الجزية

لقد كشف النقاب عن موضوع الجزية وهدفها فى بداية الإسلام وهى « ثمن

(١) كتاب الخراج : ٤٢ (المؤلف) - أبو يوسف : كتاب الخراج : ٧٤ (المترجم) .
(٢) فتوح البلدان : ٢٩ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٢ (المترجم) .
(٣) فتوح البلدان : ٢٩ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٢ (المترجم) .
(٤) الكتاب المذكور ص : ٤١ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ٧٣ (المترجم) .

للحماية » إلا أن هذه المسألة قد اتضحت معالمها فى عهد عمر حتى إنه لم يبق أى لبس فى
١٦٦ هذا الموضوع / .

أولاً : قسم عمر الجزية إلى شرائح مختلفة مثل أنوشيروان وكأنه يوضح بهذه الطريقة أنها ليست شيئًا جديدًا بل هى نفسها العوائد الأنوشيروانية فضلاً عن هذا فقد بين هذا الأمر بطريقة عملية من حين لآخر بأنها ليست إلا عوضًا عن الحماية . ولقد قرأتم فى الجزء الأول من هذا الكتاب أنه عندما انسحبت الجيوش الإسلامية من المناطق الغربية للشام بسبب نشوب معركة اليرموك الطاحنة ، وتأكد لهم أنهم لا يستطيعون تحمل مسئولية حماية سكان المدن التى أخذوا منها الجزية أى حمص ودمشق لذا أعادوا إليهم المبلغ الذى جبى منهم فى صورة الجزية كاملاً وقالوا لهم بصراحة إننا فى هذا الوقت لا نستطيع أن نتحمل مسئولية حماية أرواحكم وأموالكم ولهذا السبب ليس لنا الحق فى هذا الوقت فى أخذ الجزية . ومما يؤكد ذلك تأكيدًا قطعيًا هو أن عمر أعفى الناس الذين استخدموا لبعض الوقت فى أى فرع من فروع الجيش من الجزية مع بقائهم على دينهم وقد كتب عمر بنفسه لقادة الجيش فى العراق سنة ١٧هـ أن « يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة ويرفعوا عنهم الجزية » [١] . حتى إنه لو شارك أى قوم أو جماعة المسلمين لمرة واحدة كانت الجزية ترفع عنهم لعام واحد . وعندما تم فتح
١٦٧ أذربيجان فى سنة ٢٢ هـ كتب هذا العهد لأهل المدينة / « ومن حشر منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة » .

وفى نفس السنة عقدت معاهدة مع شهربراز حاكم أرمينية وكانت تتضمن هذه الكلمات :

« وعلى أهل أرمينية أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحًا على أن توضع الجزاء » [٢] وتم فتح جرجان فى نفس السنة وكتبت هذه العبارة فى الوثيقة « إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونة عوضًا عن جزائه » [٣] .

(١) الطبرى صفحة ٢٤٩٧ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٤٩ (المترجم) .

(٢) الطبرى : صفحة ٢٦٦٥ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ١٥٧ (المترجم) .

(٣) الطبرى : المرجع السابق : ٤ / ١٥٢ (المترجم) .

ويبدو بوضوح من عرض أقوال عمر ومن المعاهدات ومن طريقة العمل ما موضوع الجزية وعلى أى أساس قررت ؟

أما جهة صرف الجزية فقد كانت خاصة بالنفقات العسكرية أى أن هذه المبالغ تصرف فى الطعام والملابس واحتياجات الجيش الأخرى ، ولهذا عندما قرر عمر الجزية فإنها كانت تمثل الحبوب والبقول أيضًا ولقد كان مقدار الجزية لكل فرد فى مصر فى البداية أربعة دنانير فكان دينارين نقدًا وبدلاً من الباقى يؤخذ القمح وزيت الزيتون والعسل والخل / وكان هذا هو طعام أفراد الجيش ، وعندما أصبح تنظيم المؤن مستقلاً ١٦٨ قدر المبلغ الكلى للجزية نقدًا وعندئذ جُبى أربعة دنانير بدلاً من دينارين [١] .

الحد من انتشار الرق

مع أن عمر لم يقض على الرق وربما لو أراد فعل هذا فإنه كان لا يستطيع ، لكن ليس فى هذا شك أنه قلل من انتشاره بمختلف الطرق وما بقى منه لم يكن رقًا بالمعنى المعروف ، فالرق لم يعد رقًّا بل أخوة ومساواة . أما بين العرب فقد قضى عليه تمامًا منذ البداية واهتم به لدرجة أن أول عمل قام به عندما أمسك بزمام الخلافة هو أنه حرر جميع العبيد والجوارى من القبائل المرتدة والذين دخلوا فى الرق فى عهد أبى بكر ورسخ هذه المبادئ وهى ألا يكون العربى عبداً لأحد وعلى حد قوله « لا يسترق عربى » [٢] مع أن كثيرًا من المجتهدين والأئمة لم يسلموا بمبدئه هذا ، يقول الإمام أحمد بن حنبل « لا أذهب إلى قول عمر ليس على عربى ملك » [٣] وليس هذا المكان لبحث هذه المسألة بل الهدف هو توضيح حكم عمر فيما يتعلق بالعرب .

أما بالنسبة للأجناس الأخرى فلم نستطع أن نقيم أى قاعدة عامة فعندما كانت تفتح أى دولة / كان أفراد الجيش يصرون دائمًا على أن يعطى لهم جميع الرعايا عبيدًا مع ١٦٩ دولتهم ، وكما ذكرنا من قبل فى تقسيم الدولة أن عمر قد عقد ألسنة الناس باستدلال القرآن فى أمور كثيرة ، إلا أن مثل هذا الاستدلال لم يكن موجودًا بالنسبة للرق ولهذا لم

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٢١٦ (المؤلف) .

(٢) كنز العمال : ٢ / ٣١٢ (وهذا القول منقول عن رواية الإمام الشافعى) (المؤلف) .

(٣) ابن تيمية : منتقى الأخبار (المؤلف) .

يستطع معارضة جميع أفراد الجيش إلا أنه قلل عملياً من الرق إلى هذا الحد فبقدر اتساع رفعة الدول التى فتحت فى عهده وبلغت مساحتها عدة آلاف ميل يعيش فيها آلاف الناس إلا أن العبودية - كما هو معروف - كانت محدودة وفى مناطق معدودة ولم يسترق فيها إلا الذين اشتركوا فى المعركة ، وكانت العراق ومصر دولتين مستقلتين ، فلم يسترق أحد بالرغم من إصرار الجيش ، وعندما حارب أهل بعض قرى مصر المسلمين واسترقوا وأرسلوا السبى إلى بلاد العرب جمعهم عمر من جميع الأماكن ثم أعادهم إلى مصر وقال لا يجوز سبيهم . وقد ذكر المقريزى اسم تلك القرى وتناول هذه الواقعة بالتفصيل [١] .

ولقد حارب النصارى فى بصرى وفحل وطبرية ودمشق وحمص وحماة وعسقلان وأنطاكية وغيرها من مدن الشام بشراسة ومع ذلك لا نعرف فيها عن الرق إلا قليلاً وربما كانت قيسارية أحد الأماكن فى الشام التى استرق فيها أسرى الحرب . وقد كتب فى معاهدة الصلح فى فارس وخوزستان وكرمان والجزيرة هذه الكلمات « لا يُتعرض لأموال الناس وأرواحهم » وكان فى معاهدة صامغان وجندى سابور وشيراز وغيرها كلمات أكثر وضوحًا « لا يسبوا » / . ١٧٠

وبالرغم من أن الجيش سبى أسرى الحرب فى مناذر إلا أن عمر أمر بأن يحرروا ويضع عليهم الخراج والجزية [٢] ، وأرسل هذا الأمر إلى أبى موسى الأشعرى بألا يسىء إلى فلاح أو حرفى [٣] .

وقد قلل عمر من انتشار الرق بطريقة أخرى عندما أرسى مبدأ عدم جواز بيع أولاد الجوارى أو شرائهم فلم تبق جارية نتيجة لهذا ، وكان عمر أول من أرسى هذا العرف [٤] وكان هذا النوع من الجوارى يباع ويشترى قبل ذلك بصفة دائمة ، وعندما تناول المؤرخون والمحدثون أوليات عمر ذكروا فيها هذه القاعدة . وكانت هناك طريقة

---

(١) المقريزى : ١ / ١٦٦ (المؤلف) .

(٢) فتوح البلدان صفحة ٣٧٧ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٣٧١ (المترجم) .

(٣) كنز العمال : ٢ / ٣١٢ (المؤلف) .

(٤) أخطأ شبلى فى هذا الأمر عندما نسب مبدأ عدم بيع أولاد الجوارى لعمر لأن هذا العرف حكم نبوى أمر به الرسول - ﷺ - (المترجم .

أخرى لعتق الرقيق تسمى « المكاتبة » أى أن العبد يكتب تعهدًا « بأننى سوف أؤدى هذا القدر من الدراهم فى هذه الفترة » وعندما يدفع المبلغ المحدد يتحرر تمامًا وهذه القاعدة نفسها مذكورة فى القرآن « فكاتبوهم إن علمتهم فيهم خيرًا »[1] إلا أن الفقهاء لم يقرروا هذا الأمر وجوبيًا أى أنه من حق السيد أن يقبل المعاهدة أو لا يقبلها ، إلا أن عمر قد جعل هذا الحكم وجوبيًا ، وفى صحيح البخارى أن « سيرين » غلام سيدنا أنس طلب المكاتبة فرفض أنس فذهب سيرين إلى عمر فضرب عمر أنسًا بالدرة وقدم له الآية السابقة سندًا لها فاضطر أنس للقبول فى النهاية / .

١٧١

قصة شهربانو :

من الضرورى فى هذه المناسبة ذكر قصة شهربانو التى ذاع صيتها بطريقة خاطئة فمن المعروف بوجه عام أنه عندما تم فتح فارس أُسرت بنات يزدجرد ملك فارس وجيء بهن إلى المدينة ، فأمر عمر ببيعهن فى السوق كعامة الجوارى فنهاه الإمام علىّ عن هذا الأمر وقال لا يجوز مثل هذا السلوك مع الأسرة الملكية فلتقُد رقبة هؤلاء البنات ثم يُعطوا لأحد الأشخاص ليرعاهن ويؤخذ منه أعلى ثمن لهن فأخذهن علىّ - كرم الله وجهه - نفسه فى كنفه وأعطى للإمام الحسين واحدة ولمحمد بن أبى بكر واحدة ، ولعبد الله بن عمر واحدة ، وقد كتب الزمخشرى هذه القصة الخاصة فى كتاب « ربيع الأبرار » ولم يكن له أدنى دراية بفن التاريخ ، وقد نقل ابن خلكان هذه الرواية عنه فى سيرة الإمام زين العابدين لكن هذا مجرد خطأ ، أولاً فيما عدا الزمخشرى لم يذكر الطبرى وابن الأثير واليعقوبى والبلاذرى وابن قتيبة هذه القصة ، كما أن مكانة الزمخشرى فى فن التاريخ معروفة بالإضافة إلى أنها ضد الحقائق التاريخية ، ففى عهد عمر لم يسيطر أحد مطلقًا من المسلمين على يزدجرد والأسرة الملكية ، ففى معركة المداين خرج يزدجرد وجميع أهله وأولاده من العاصمة الملكية حتى وصل إلى حلوان وعندما هجم المسلمون على حلوان هرب إلى أصفهان ثم ظل هائمًا على وجهه بهم فى كرمان وغيرها حتى وصل إلى مرو ومات سنة ٣٠هـ فى خلافة عثمان ولو أُسر أولاده لكانوا أسروا فى ذلك الوقت ، وأشك فى أن الزمخشرى كان يعرف هذا أم لا ؟ أى فى أى عهد قتل يزدجرد ؟

---

(١) النور : ٣٣ (المترجم) .

علاوة على هذا ففى تاريخ وقوع هذه القصة كان عمر الإمام الحسين اثنى عشرة سنة / لهذا فإن هذا الأمر مستبعد تمامًا لأن الإمام الحسين ولد فى السنة الخامسة للهجرة وتم فتح فارس سنة ١٧هـ فكيف يمنحه على هذه الأعطية وهو لم يبلغ الحلم ؟ فضلاً عن أن قيمة أولاد الملوك ستكون باهظة وكان الإمام على يعيش حياة فقر وزهد . ولا يمكن أن نقبل صحة هذه القصة لأى سبب من الأسباب ويثبت من الوقائع المسلم بها فى تاريخ عمر أن سلوكه وتعامله فيها كان بمقتضى التحضر والإنسانية المتبع حتى الآن فى جميع الدول المتحضرة .

١٧٢

معاملة أسرى الحرب من الأسرة الملكية :

لما حمل عمرو بن العاص على مصر حمل أولاً على بلبيس وتم للمسلمين النصر بعد معركة شرسة أسر فيها ثلاثة آلاف نصرانى وكانت ابنة المقوقس ملك مصر واسمها أرمانوس تقيم هناك مصادفة فتم أسرها ، فأرسلها عمرو بن العاص إلى المقوقس مكرمة معززة وأرسل لها أحد قواده واسمه قيس بن أبى العاص السهمى لكى يوصلها بأمان [١] .

الاهتمام بجميع العبيد :

كانت هذه المآثر الخالدة لعمر لمنع الرق والعبودية ، أما الذين استرقوا فقد نالوا من الرعاية بحيث وصلوا إلى درجة المساواة مع الأحرار ولعلكم قرأتم عند بيان التنظيمات العسكرية أنه عندما قرر الرواتب لمجاهدى بدر وغيرهم قرر أيضًا رواتب مماثلة لعبيدهم ، وقد روعيت هذه الأصول بعد ذلك فى جميع الأعمال والأمور وأنه كان دائم السؤال عن عمال الأقاليم وعن أعمالهم وبجانب هذا التساؤل كان يسأل عن معاملتهم مع العبيد ، ولهذا لو أنه علم أن عامله لا يذهب ليعود العبيد كان / يعزله لهذا الجرم فقط [٢] . وكان يستدعى كثيرًا من العبيد ويأكل الطعام معهم ويقول للحاضرين لعن الله أولئك الذين يكرهون الأكل مع العبيد وكتب إلى قادة الجيش بأنه لو أعطى أى عبد (من عبيدكم) الأمان لأى قوم عدّ هذا أمانًا من جميع المسلمين ويلتزم الجيش به وكتب

١٧٣

(١) المقريزى : ١/١٨٤ (المؤلف) .

(٢) الطبرى : صفحة ٢٧٧٥ (المؤلف) – الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤/٢٢٦ (المترجم) .

هذه الكلمات لأحد القادة : « إن عبد المسلمين من المسلمين وذمته من ذمتهم يجوز أمانه » (١) .

عدم التفريق بين العبيد وذويهم :

كان الأمر الذى يؤلم العبيد أشد إيلامًا هو أن يفرق بينهم وبين أهلهم وأقاربهم ، كأن يُفرق بين الأب وولده ويفرق بين الأم وابنتها ، ومن يكتب فى هذه الأيام فى مساوئ العبودية يعرض هذه الوقائع فى صور تثير الأحزان ، لقد قرر عمر هذه القاعدة وهى عدم التفريق بين العبد وأقاربه أى لا يجوز أن يكون الابن ملكًا لرجل ويبقى الأب فى عبودية رجل آخر فكان الذى يبيع الأب والابن والأخ والأخت والأم والابنة كان يبيعهم معًا والذين يبقون فى الرق يبقون معًا وأوامره فى هذه الصدد مذكورة فى «كنز العمال» نقلاً عن مستدرك الحاكم والبيهقى ومصنَّف ابن أبى شَيبة وغيرهم وهى : « لا يفرق بين أخوين إذا بيعا ، ولا تفرقوا بين الأم وولدها ، ولا يفرق بين السبايا وأولادهن » . وقد جمع عمر جميع المهاجرين والأنصار واستدل على هذا بهذه الآية من القرآن ﴿ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢) وقال هل / يكون قطع الرحم أكثر من هذا ؟ ١٧٤ وقد ذكر الحاكم والبيهقى هذه الواقعة بالتفصيل (٣) .

وعندما وجه عمر السمط بن الأسود أحد القادة لحرب الشام وكلفه ابنه شرحبيل بأمر ما فى الكوفة اشتكى مسمط لعمر وقال إنك لا تفرق السبى عن أقاربه فلماذا فرقت بينى وبين ولدى وأرسلته بعيدًا عنى (٤) .

أصحاب الكمال من العبيد :

كان من نتيجة المنزلة التى حددها عمر للعبيد وتقديمه للعرب نماذجها أن ظهر من

---

(١) كتاب الخراج : ١٢٦ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج ك ٢٠٥ (المترجم) .
(٢) سورة محمد : ٢٢ (المترجم) .
(٣) كنز العمال : ٢/٢٢٦ (المؤلف) .
(٤) فتوح البلدان صفحة ١٣٨ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ١٤٣ (المترجم) .

بينهم كبار أصحاب الفضل والكمال فكانت الدولة كلها تكرمهم وتحترمهم ، منهم عِكرمة الذى يُعد من أئمة الحديث وأذن له عبد الله بن عباس بالفتوى ، ونافع وكان أستاذًا لمالك ، ويطلق المحدثون على سلسلة روايته اسم « سلسلة الذهب » فقد كانا هذان العالمان عبدين تربيا فى ذلك العهد .

وقد ذكر ابن خلكان فى سيرة الإمام زين العابدين أن الناس فى المدينة المنورة كانوا يحقرون الجوارى وأبناء الجوارى لكن عندما وصل قاسم حفيد أبى بكر وسالم حفيد عمر والإمام زين العابدين لسن الرشد وذاع صيت علمهم وفضلهم بين أهل المدينة كلها ، تغيرت أفكارهم وارتفع شأن العبيد والجوارى ، إلا أن السبب الحقيقى لاحترامهم وتوقيرهم كان فى رأينا هو سلوك عمر .

فلا شك أن علم سالم وقاسم وفضلهما (إننى أظن أن ذكر الإمام زين العابدين فى هذه السلسلة فيه شىء من سوء الأدب) / قد أثرا فى هذه القضية ، لكن لو لم يجعل عمر هذه المنزلة لأمهات الأولاد لما سنحت لهؤلاء الفرصة لتحصيل العلم والكمال . ١٧٥

ومع كل هذا ينبغى أن نذكر فى هذا المكان أن عمر لم يأت بشىء جديد - لا قدر الله - ولم يكن له الحق فى ذلك إذ أن تقليص العبودية ومبدأ المساواة كانا هدف مؤسس الإسلام - ﷺ - وكل ما فعله عمر هو تنفيذ هذا الهدف ، وقد ذكر الإمام البخارى فى كتاب المفرد أفعال الرسول وأقواله التى تتعلق بالعبيد وفيها تأكيد كاف لهذه القضية .

السياسة والتدبير ، العدل والإنصاف :

توسعت دائرة الخلافة الفاروقية إلى أرجاء بعيدة فى هذا العالم الواسع فاحتوت فى دائرتها على بلاد مختلفة وأديان متعددة وجنسيات متباينة ، إلا أن الأمن والأمان والسكينة والاطمئنان قد خيم على كل جوانبها هنا وهناك ، ولقد كان فى هذا العالم أصحاب الجاه والجلال وكان لا يستطيع أحد أن يقف فى وجه حكمهم ، إلا أنهم قد نالوا ذلك الأمر بسياستهم التى كانت مبادئها تقلب قانون العدل رأسًا على عقب مرة واحدة فإن حدث شىء من التمرد ألقى القبض على جميع الأسرة لجرم أحد أفرادها ويستخدم القياس فى تأكيد الوقائع بدلاً من اليقين وأن يعاقب بعقوبات وحشية وتخرب المدن بالحرق وهذه المبادئ لا تقتصر على العصور القديمة فحسب بل لا تزال أوربا تستخدم نفس هذه الأساليب بالرغم من هذا القدر من التمدن والتحضر / . ١٧٦

الفرق بين سياسة عمر وبين عامة الملوك :

أما فى خلافة عمر كان من غير الممكن التجاوز عن العدل قيد أنملة ، لقد أجلى أهل عربسوس لنقضهم العهد مرارًا إلا أنه أعد قائمة مفصلة بجميع أملاكهم وأموالهم وأمتعتهم وأدى لهم ضعف قيمة كل شيء منها ، وقد أعد نصارى نجران العدة للاستقلال والتمرد وأعدوا لذلك أربعين ألف رجل فأخرجهم عمر من بلاد العرب وأسكنهم فى البلدان الأخرى ودفع لهم قيمة ممتلكاتهم وكتب إلى عماله أن يهيئوا لهم سبل راحتهم حيثما مروا ، وعندما كانوا يختارون الإقامة فى مكان ما لا يؤخذ منهم جزية لمدة أربعة وعشرين شهرًا [١] .

مشكلات عمر :

وربما تظن أن عمر قد تأتى له ذلك بسبب الرعايا الذين كان يغلب عليهم عنصر الانقياد والطاعة لذا لم يضطر لاستخدام السياسة الجبرية إلا أن هذه الفكرة خاطئة لأن عمر قد واجه فى الحقيقة مشكلات من كلا النوعين ، فالشعوب الأخرى الذين دخلوا فى طاعته مجوسًا أو نصارى كانوا يتمتعون بلقب المملكة ولهذا كان من الصعب أن يصبحوا رعايا ، أما بالنسبة للوضع الداخلى فقد كان فى بلاد العرب كثير من المدعين الذين كانوا ينظرون إلى خلافة عمر بعين الحقد ، فكان هناك جماعة « المؤلفة قلوبهم » الذين كانوا يدعون أحقية بنى هاشم أو بنى أمية فى الحكم وليس عمر ، وكان عمرو بن العاص حاكم مصر وذات مرة ضاق به عمر بشأن خراجه فقال عمرو بن العاص فى تحسر « حكمة الله عندما كان أبى يرتدى فى الجاهلية قباء مزركشة / كان الخطاب (والد ١٧٧ عمر) يدور وقد وضع على رأسه حزمة حطب أما اليوم فإن هذا الخطاب يأمرنى » وكان بنو هاشم دائمًا ينظرون بعين التعجب إذ كيف يستولى على الخلافة تيمى وعدوى [٢] وكانوا يتشاورون علانية فى عهد أبى بكر لنقض الخلافة ، ويذكر شاه ولى الله الدهلوى فى إزالة الخفاء : « اجتمع الزبير وجمع من بنى هاشم فى منزل فاطمة وكانوا يتشاورون فى موضوع رفض الخلافة » [٣] .

---

(١) لقد ذكرنا هذه الأحداث من قبل عند بيان حقوق الذميين وأشرنا هناك إلى الكتب التى رجعنا إليها (المؤلف) .

(٢) إشارة إلى أبى بكر وعمر وكان الأول من قبيلة تيم والثانى من بنى عدى (المترجم) .

(٣) إزالة الخفاء : ٢٩/٢ (المؤلف) .

ومع أن سطوة عمر قد أخضعت ادعاء بنى هاشم إلا أنها لم تقض عليه تمامًا ، فضلاً عن هذا فقد كانت الحرية والتمرد مذاقًا فطريًا لدى العرب ، ولهذا لم يخضعوا مطلقًا لحكم أى حاكم ، ولو أن عمر محا هذه الحرية والتمرد مثل معاوية وأسس حكومة غاشمة لما كان هناك سبب للدهشة والتعجب ، لكنه لم يكن يريد قط أن يمحو صفات العرب هذه بل كان يزيد من صقلها ، لقد نقده الناس أكثر من مرة بحرية وبوقاحة أمام جمع غفير لكنه كان يتحمل هذا النقد بصدر رحب ، فعندما ذهب إلى الشام جمع الناس وأخذ يشرح لهم براءته من عزل خالد فنهض عندئذ رجل وقال : [(١)] « والله ما عدلت يا عمر لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله وأغمدت سيفًا سله رسول الله ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم » . وبعد أن سمع عمر كل هذا لم يقل شيئًا أكثر من هذا : « لقد أخذتك الحمية فى الدفاع عن أخيك » / وبالرغم من كل هذا فقد بلغت سطوته وهيبته إلى درجة أنه عزل خالدًا فى الوقت الذى كان الناس فى العراق والشام يرددون اسمه ، فلم ينبس أحد ببنت شفة حتى خالد نفسه لم يراود قلبه أى شىء . أن عظمة معاوية وعمرو بن العاص وشوكتهما لا تحتاج إلى وصف إلا أنهما كانا يرتعدان من مجرد ذكر اسم عمر ، لقد ضرب عبد الله بن عمرو بن العاص رجلاً بلا سبب فأمر عمر المضروب أن يجلده بيده أمام عمرو بن العاص وشاهد الأب والابن كلاهما يعتبران بالمنظر ، وعندما استدعى سعدًا فاتح إيران ليرد على شكوى عادية حضر ولم يستطع أن يعتذر .

١٧٨

وبإمكان كل محقق أن يقدر تلك الأحداث الكمال الذى ناله عمر فى فن السياسة والتخطيط والتى لا يمكن أن نجد لها مثيلاً فى سيرة أى حاكم أو رجل مدبر .

لقد كانت أهم سمات حكمه أن الملك والشحاذ ، والشريف والرذيل ، والقريب والغريب ، كلهم سواسية أمام قانون الحكم .

خصائص حكم عمر :

إن جبلة بن الأيهم الغسانى الذى كان أميرًا لبلاد الشام بل كان ملكها ، أسلم وفى

---

(١) أسد الغابة : تذكرة أحمد بن حفص المخزومى . (المؤلف) .

- أسد الغابة : ١ / ٦٦ (المترجم) .

أثناء طوافه بالكعبة جاء طرف ردائه تحت أقدام أحد الأشخاص فلطمه جبلة على وجهه فرد عليه بالمثل فتميز جبلة غيظًا وجاء إلى عمر وبعد أن استمع عمر إلى شكواه قال : لقت نلت جزاء ما فعلت ، فاندهش كثيرًا وقال : لو تقدم أحد من هذا النوع من الناس أمامى بوقاحة لاستحق القتل . فقال عمر : كان هكذا فى الجاهلية ، لكن الإسلام ساوى بين الوضيع والشريف ، فقال جبلة : « لو أن الإسلام / دينًا بمثل ما قلت لا يميز بين الشريف والوضيع فإننى مرتد عنه » وبناء على هذا رحل إلى القسطنطينية خفية إلا أن عمر لم يشأ أن يغير قانون العدل من أجله .

١٧٩

وذات مرة طلب عمر جميع عماله فى موسم الحج ووقف فى حشد من الناس وقال : من كانت له شكوى من هؤلاء الناس فليتقدم وكان يحضر هذا الجمع كبار العمال والحكام ومن بينهم عمرو بن العاص فقام رجل وقال : إن العامل فلانًا ضربنى مائة سوط بدون وجه حق . فقال عمر : قم فاستقد منه . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين : إنك تشق على عمالك بهذا السلوك ، قال عمر : هذا أمر لابد منه ثم توجه ناحية الشاكى وقال : استقد . وفى النهاية أرضى عمرو الشاكى فأخذ مائتى دينار وتنازل عن دعواه [١] .

وذات مرة حضر سادة قريش للقائه ، وكان يوجد بينهم بالصدفة كل من صهيب وبلال وعمار وكان أكثرهم عبيدًا محررين ويعدون رجالاً عادين من الناحية الدنيوية ، فاستدعاهم أولاً وظل سادة قريش ينتظرون فى الخارج وكان أبو سفيان سيد قريش كلها فى الجاهلية فشق عليه هذا الأمر بشدة وقال لرفاقه « هذا من قدرة الله أن يؤذن لهؤلاء العبيد للمثول ونحن جلوس ننتظر فى الخارج » ومع أن تبرم أبى سفيان وحسرته كان يتناسب وطبيعة رفاقه فقد كان من بينهم رجال محبون للحق فقال أحدهم : أيها الأخوة ، صدق والله لا ينبغى أن نلوم عمر بل نلوم أنفسنا ، لقد دعانا الإسلام كلنا بصوت واحد ولكن الذين تأخروا بسوء أعمالهم يستحقون اليوم التأخير أيضًا [٢] / .

١٨٠

عندما قررت الرواتب للصحابة وجميع قبائل العرب بعد القادسية بدا هناك مجال

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٦ (المؤلف) .

- القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٦ (المترجم) .

(٢) أسد الغابة تذكرة سهيل بن عمرو (المؤلف) . أسد الغابة : ٢ / ٤٨٠ (المترجم) .

كبير للمنافسة والحسد وكان سادة قريش وأفراد القبائل الكبيرة الذين تعودوا التميز والتكريم فى كل مكان ينظرون بمزاعم كبيرة ويتخيلون أن تراعى مكانتهم ودرجاتهم فى تحديد الرواتب وأنهم سوف يرون أسماءهم فى مقدمة القائمة إلا أن عمر بدد جميع أوهامهم ومحا جميع مزايا الغنى والجاه والقوة والشهرة والتميز ولم يعتن إلا بصفة واحدة فقط ألا وهى صفة الإسلام وحدد الرواتب المتفاوتة طبقًا لهذا الاعتبار ، فمن أسلموا فى البداية أو الذين أظهروا بطولات فى الجهاد أو كان لهم منزلة خاصة عند الرسول - ﷺ - رجحهم على الآخرين أما الذين كانوا يتساوون فى خصائصهم هذه فإن الرواتب التى قررت لهم كانت متساوية حتى لم يكن هناك فرق بين السيد والعبد مع أنه لم يكن هناك عند العرب جماعة أسوأ وأذل من العبيد ، وفى هذه المناسبة عندما قرر راتبًا لأسامة ابن زيد أكبر من راتب ابنه عبد الله اعتذر وقال إن أسامة ليس أفضل منى فى أى مجال ، فقال عمر : « نعم لكن أسامة أحب إلى رسول الله منك » [١] .

لقد كان من عادة العرب أنهم كانوا ينادون بقبائلهم فخرًا وزهوًا فى الحروب ، ولمحو هذا التفاخر كتب عمر إلى قادة الجيش « أن أنزلوا بمن يفعل ذلك أشد العقاب » . وذات مرة صاح رجل من قبيلة ضبة فى المعركة وقال : « يا آل ضبة » . وعلم عمر فأوقف عنه راتبه طوال العام ويوجد فى كتب التاريخ كثير من الأحداث الأخرى من هذا القبيل [٢] / . ١٨١

مبادئ المساواة :

وكان عمر بناء على مبادئ المساواة هذه لا يحب أى نوع من التميز لأى شخص فعندما بنى عمرو بن العاص منبرًا لمسجد مصر الجامع كتب إليه يقول : « هل تحب أن تجلس أنت فى أعلى والمسلمون فى أسفل » وكان يرسل الأوامر المشددة إلى العمال دائمًا بألا يتميزوا ولا يظهروا أنفسهم .

وذات مرة حدث نزاع بينه وبين أُبى بن كعب فاشتكاه إلى زيد بن ثابت ، فمثل

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٤٥٦ (المؤلف) .

- البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٤٣ (المترجم) .

(٢) كنز العمال : ٣ / ١٦٧ (المؤلف) .

عمر أمامه فأخلى له مكانًا احترامًا له فقال عمر : هذا أول ظلمك فى هذه الشكوى وبعد أن قال هذا جلس بجانب خصمه . لقد كان هذا هو السر الذى جعل أسلوب حياته بسيطًا ومتواضعًا فما كان يستطيع أحد أن يعرفه بأى علامة سواء كان فى السوق أو فى المنزل ، فى الخلوة أو فى الجلوة ، فى السفر أو فى الحضر ، لقد كان رُسل كسرى وقيصر يأتون إلى المسجد النبوى ويبحثون عن ملك ملوك الإسلام مع أن الملك كان موجودًا مرتديًا الملابس المرقعة وجالسًا فى أحد الأركان ، لقد كان عماله يكتبون له الرسائل بألقاب مساوية كالتى كان يكتبها فى رسائله للعمال .

ومع أن خاصة الناس الذين يدعون السمو والعظمة يستاءون وتتكدر قلوبهم بسبب مبادئ العدل هذه ، ولما كان هذا الأمر فى طبيعة العرب الأصلية لذا ترك أثرًا طيبًا على الدولة كلها وشغف بهذه المبادئ جميع العرب فى أيام قليلة ولهذا فإن الخواص الذين كانوا يعرفون الحق / اعترفوا بهذه القيم يومًا بعد يوم ، أما الأنانيون فلم يتجرءوا على إبداء آرائهم ضد الميول العامة . ١٨٢

وكان أكبر فوائد تنفيذ هذه المبادئ هو كسر قوة التفاخر الزائفة والحسد التى جعلت القبائل العربية تتحارب فيما بينها والتى صارت بسببها جميع بلاد العرب ميدانًا للقتال .

كيف تم اختيار لقب أمير المؤمنين :

من الضرورى أن نذكر هنا لماذا اختار عمر لنفسه لقب أمير المؤمنين المفخم بالرغم من مبادئ المساواة وفى الحقيقة أن هذا اللقب لم يكن أمرًا يستحق الفخر فى ذلك العصر بل كان ينم عن الوظيفة والمنصب فقط ، فقد كان قواد الجيوش يسمون باسم « الأمير » وكان الكفار يدعون النبى - ﷺ - بأمير مكة ، وبدأ الناس فى العراق ينادون سعد بن أبى وقاص بأمير المؤمنين [١] .

ولم يكن عمر يفكر حتى فى هذا اللقب ، ففى بداية خلافته أتى إلى المدينة ذات مرة كل من لُبيد بن ربيعة وعدى بن حاتم وأراد المثول أمام عمر ، وحسب العادة المتبعة أخبرا عمر بمجيئهما ، ولما كانت كلمة أمير المؤمنين تتردد على لسانهما بسبب بقائهما فى

(١) مقدمة ابن خلدون فصل : فى اللقب أمير المؤمنين (المؤلف) .

- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ٢ / ٦٣٨ (المترجم) .

الكوفة ، قالا فى أثناء إعلانهما عن نفسيهما ، أخبروا أمير المؤمنين بمجيئنا ، فأخبره عمرو بن العاص واستخدم هذا اللقب ، فسأل عمر عن سبب هذا اللقب فقص عليه الواقعة فاستحسن عمر هذا اللقب واشتهر به منذ ذلك التاريخ [١] ومن الممكن فى هذه
١٨٣ / المناسبة أن يظن ضيقوا الأفق أن عمر لو لم يكن يرغب فى أى نوع من أنواع التمتع والتكريم فلماذا قبل الخلافة ؟ وكان من مقتضى الإخلاص ألا يلمس مائدة النعمة هذه بيده - إلا أن هذه الفكرة ليست إلا فكرة عامة فكان من الممكن بدون أدنى شك إذا نفض يده من الخلافة فمن الشخص الذى يستطيع أن يمسك بزمامها ؟ وكان عمر يعرف معرفة قاطعة أن هذا الحمل الثقيل لا يمكن أن يتحمله شخص آخر سواه ، فهل كان يقتضى صدقه وأمانته فى مثل هذا الوقت أن يتنحى عن الخلافة عمدًا بحجة سوء ظن الناس به ؟ ولو فعل ذلك فماذا يقول لله ؟ فقد قال أول يوم فى خطبته : « لولا رجائى أن أكون خير لكم وأقواكم عليكم وأشدكم اضطلاعًا بما ينوب من مهم أمركم ما توليت ذلك منكم » [٢] .

وأكثر وضوحًا من هذه الكلمات تلك التى رواها الإمام محمد فى الموطأ :

« لو علمت أن أحدًا أقوى على هذا الأمر منى لكان أن أقدم فيضرب عنقى أهون علىَّ » .

انظروا إلى كلمات عمر هذه وأمعنوا النظر فيها ، فهل حاد حرف منها عن الصحة والصدق ؟

السياسة :

لقد كان عمر عليمًا كل العلم بمبادئ السياسة وكانت هذه من مزاياه التى يتميز بها عن بقية الصحابة الآخرين ، لقد قسم الدول التى دخلت فى دائرة الخلافة إلى ثلاثة
١٨٤ أقسام رئيسية / هى : بلاد العرب وإيران ومصر والشام واتخذ لكل منها تدبيرات واحتياطات مختلفة تتناسب ووضع كل دولة . وكان المرازبة والدهاقين فى العراق وإيران منذ زمن وكان لهم السلطة والقوة بعد الفتح الإسلامى أيضًا لذا قرر لهم الرواتب

---

(١) البخارى : أدب المفرد (طبعة مطبعة آره) صفحة ١٨٤ (المترجم) .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى (المؤلف) .

السياسية فخضعوا بها تمامًا . كما قرر رواتب مناسبة لأمراء العراق ومن بينهم ابن النخيرجان وبسطام بن نرسى ورفيل وخالد وجميل بينما لم يترك الروم فى مصر والشام صاحب أملاك من بين السكان الأصليين فلم يكن هناك أى خطر من قبلهم فإنهم كانوا يريدون حكومة عادلة بدلاً من حكم الروم فرعاهم عمر بمعاملة حسنة حتى قالوا مرارًا : « إن المسلمين أحب إلينا من الروم » إن سلوك عمر مع الشعوب الأخرى كان يتسم عمومًا بالكرم الزائد كما مر بنا بحثه فى حقوق الذميين لكى يتضح بعد التفحص أنه بذل اهتمامًا خاصًا برعايا الشام ، ففى مصر كان المقوقس نائبًا للحاكم من قبل الروم فسلك معه سلوكًا طيبًا منذ البداية حتى إنه أخلص له فى طاعته ولهذا السبب خضع له جميع الرعايا المصريين أيضًا ، ولم يكتف بهذه الأمور حتى إنه أخلص له فى طاعته ولهذا السبب خضع له جميع الرعايا المصريين أيضًا ، ولم يكتف بهذه الأمور فحسب بل إنه وطن القبائل العربية فى جميع المناطق الحربية وأقام المعسكرات فكان يصل تأثيرها إلى آلاف الأميال حتى لم يجرؤ أى فرد على التمرد ، أما الكوفة والبصرة التى أصبحت مركزًا لقوة العرب فقد شيدت لهذا الغرض وأقيمت معسكرات الجيش على جميع سواحل مصر والشام لهذه الضرورة / . ١٨٥

أما فى بلاد العرب فقد قام عمر بترتيبات سياسية خاصة ، فأجلى اليهود والنصارى من الجزيرة العربية تمامًا وكان يغير القادة الكبار فى الدولة بصفة دائمة فما من حاكم عين إلا وظل يتنقل فى مختلف الأقاليم إلا عمرو بن العاص . ويعزل من بين الحكام الذى يكون منه خطر التمرد ، ولم يترك أصحاب الفكر الثاقب والنفوذ القوى يفارقون دار الخلافة ، وذات مرة طلب هؤلاء الناس الإذن للخروج للجهاد ، فقال جمعتم كثيرًا من الثروة ثم قال : « لا تخرجوا فتتسللوا يمينًا وشمالاً »[١] فقال له عبد الرحمن بن عوف لم تمنعنا من الجهاد ؟ فقال : لأن أسكت عنك فلا أجيبك خير لك من أن أجيبك »[٢] ولم يعط أحد من قبيلته منصبًا فى الدولة قط ، إلا النعمان بن عدى فقد عينه حاكم إقليم

---

(١) تاريخ اليعقوبى صفحة ١٨١ (المؤلف) .

- تاريخ اليعقوبى : ١٣٥/٢ والعبارة الصحيحة هى « لا تخرجوا فتتسللوا بالناس يمينًا وشمالاً » (المترجم) .

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ١٣٥/٢ (المترجم) .

ثم عزله لسبب وجيه . ولم يسند أى منصب فى الدولة لبنى هاشم مراعاة لهذه المصلحة .

وكان فى العرب آنذاك ثلاثة أشخاص معروفين بالدهاء والحنكة : الأمير معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ولم يكن بمستطاع أن يحصل على أحد من بين العرب مثل هؤلاء الناس للقيام بمهام الدولة لذا أعطى لهم عمر المناصب الهامة فى الدولة وكان يضع فى اعتباره ألا يدبروا أمورًا بحيث لا يخرجون عن نطاق سيطرته ، وبعد وفاته لم يستطع أحد أن يخضعهم ولهذا فإن الفتن التى / ثارت فى عهد عثمان وعلىّ كان مبعثها هؤلاء الثلاثة . ١٨٦

إن السياسة والتدبير ضرورة واجبة للحكم والملك ، إلا أن الميزة التى تميز بها عمر عن العالم أجمع فى هذا الباب هو أن الأعمال التى يقوم بها الملوك الآخرون بمقتضى السياسة اسمها الحقيقى الخداع والمكر والكذب والرياء والنفاق ولا يقتصر ذلك على الملوك فحسب بل إن كبار الحكام لا يبرءون من هذه الشائبة أما عمر فلم يكذب فى أى إجراء ولم يضع أى نقاب على أى خطة ، فالأمر الذى كان يفعله ، يفعله علانية ويطلع الناس بوضوح على أهميته ، فعندما عزل خالد أرسل الأوامر إلى جميع المراكز يقول فيها : « إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه » (١) .

وأبدى هذه الفكرة كذلك فى أثناء عزل المثنى وقال : « لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما » (٢) وقد بين لعبد الله بن عباس بوضوح تام سبب عدم إسناد مناصب فى الدولة لبنى هاشم وسوف يأتى تفصيله فى مكان آخر مناسب .

لقد كان حسن سياسة عمر من أعظم مآثره وكانت أكبر الأسباب لنجاح خلافته أنه استعمل فى آلة الحكم والإدارة أجزاء غاية فى الدقة / ومن المسلم به عمومًا أن صفة المعرفة التى كانت تتوفر فى عمر جعلته ذا خبرة وصلة بجميع الناس المؤهلين فى بلاد العرب وكان واقفًا على مؤهلاتهم المختلفة فيسند إليهم الوظائف التى تتناسب وكفاءاتهم ١٨٧

---

(١) الطبرى : ٢٥٢٨ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٨ (المترجم) .

(٢) الطبرى : ٢٣٩٣ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٦٠١/٣ (المترجم) .

وكان بين العرب أربعة رجال لا مثيل لهم فى السياسة والتدبير هم : معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن سمية فأسند إليهم مناصب الدولة الكبرى وفى الحقيقة إنه لم يكن أى شخص آخر يستطيع أن يسيطر على الشام ومصر والكوفة سوى هؤلاء الاشخاص .

واختار عمر للمهمات الحربية عياض بن غنم وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد والنعمان بن مقرن وغيرهم ، وبالرغم من أن عمرو بن معد يكرب وطلحة بن خالد لم يكن لهما مثيل فى الفروسية والمصارعة لكنهما كانا لا يستطيعان قيادة الجيش ولهذا أصدر حكمًا خاصًا بهما بألا تسند إليهما قيادة أى جناح من أجنحة الجيش ، وكان زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم لا نظير لهما فى الكتابة والإنشاء فعينهما فى ديوان الإنشاء ، وكان القاضى شريح وكعب بن سور وسلمان بن ربيعة وعبد الله بن مسعود بارعين فى الحكم فى القضايا فأسند إليهم منصب القضاء . المهم أن أى رجل عينه فى عمل ما كأنه قد خُلق له . وقد اعترف بذلك المؤرخون الأجانب ويقول مؤرخ غربى مشهور : « كان عمر يراعى الدقة فى اختيار القادة والحكام بلا محسوبية وبعد أن نتجاوز عن المغيرة وعمار نجد أن تعيين البقية كان مناسبًا وفى محله تمامًا » .

العدل والإنصاف بلا تحيز :

إن من أعظم الأشياء التى جعلت حكمه مقبولاً لدى الجميع والذى بسببه كان العرب يحتملون أحكامه الصارمة أيضًا هو عدله وإنصافه الذى كان لا ينحاز أبدًا لا يفرق بين عدو وصديق ومن الممكن أن يكون من بين الناس من لا يرضون عن هذا الأمر وهو أنه / كان فى عقاب الجرائم لا يلتفت إلى عظمة أى مجرم أو إلى مكانته ، لكن ١٨٨ عندما رأى هؤلاء الناس أنه يسلك هذا السلوك مع أهله وأولاده وأقاربه كانوا يتحلون بالصبر ، فعندما شرب ابنه أبو شحمة الخمر جلده بنفسه ثمانين جلدة حتى مات من جراء ذلك [1] ، وعندما اتهم قدامة بن مظعون بهذا الجرم وكان شيخًا مسنًا وصحابيًا جليلاً ضربه علانية ثمانين درة .

---

(١) لقد صاغ الفقهاء والوعاظ قصة أبى شحمة صياغات مختلفة لكن الصحيح أن عمر قد عاقبه العقاب الشرعى ومات بسببه (انظر معارف ابن قتيبة : ذكر أولاد عمر) (المؤلف) .

- ابن قتيبة : معارف ابن قتيبة : ١٨٤ - ١٨٥ (المترجم) .

الوقوف على نظم الممالك القديمة وأحوالها :

لقد كان أعظم مبدأ فى سياسة عمر أنه كان يطلع على نظام الحكم فى الممالك القديمة وقواعدهم وكان يختار منها ما يجدها مناسبة فنجده فى الخراج والعشور والديوان والمؤن وأوراق الحساب وجميع هذه التنظيمات قد عمل فيها بالقواعد والأصول القديمة المتبعة فى الشام وإيران إلا أنه أصلح أى نقص وجده فيها ، فعندما أراد أن ينظم العراق أرسل الأوامر باسم حذيفة وعثمان « أن أرسلا إلى اثنين من كبار دهاقين العراق » فأتياه فى صحبة مترجم فاستفسر منهما عن طريقة تحديد الخراج لدى ملوك العجم [(١)] . ومع أن الجزية ترتبط ظاهريًا بالناحية الدينية إلا أنه راعى فى تشخيصها نفس الأصول والقواعد التى أقامها أنوشيروان فى حكومته ، وعندما ذكر الطبرى موضوعات تنظيمات أنوشيروان وخاصة الجزية . قال : « وهى الوضائع التى اقتدى بها عمر بن الخطاب / حين افتتح بلاد الفرس » . ١٨٩

وقد كتب العلاّمة ابن مسكويه فى هذا الموضوع أكثر وضوحًا من ذلك وكان ابن مسكويه طبيبًا وفيلسوفًا معاصرًا للشيخ أبى على سينا وصنوا له وقد ألف كتابًا فى التاريخ اسمه « تجارب الأمم » [(٢)] ذكر فيه عند الحديث عن تنظيمات عمر للدولة : « وكان عمر يكثر الخلوة بقوم من الفرس يقرءون عليه سياسات الملوك ولا سيما ملوك العجم والفضلاء وسيما أنوشيروان فإنه كان معجبًا بها كثير الاقتداء بها » .

ويصدق بيان ابن مسكويه ما كتبه المؤرخون عمومًا بأنه عندما أسلم هرمزان حاكم فارس ضمه عمر إلى خاصة رجال حاشيته وكان يتشاور معه كثيرًا فيما يتعلق بأمور تنظيم الدولة .

كتبة الأخبار والحوادث لمعرفة أحوال الدولة :

كان عمر يبذل جهدًا عظيمًا حتى لا يخفى عنه أى حدث فى الدولة فعين فى كل إدارات الدولة الذين كانوا يكتبون الأخبار والحوادث وهكذا كانت تصل إليه فى طريقهم كل صغيرة

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٢١ (المؤلف) - أبو يوسف : كتاب الخراج : ٣٨ (المترجم) .
(٢) هذا الكتاب موجود فى مكتبة مسجد آيا صوفيا بالقسطنطينية وقد نقلت هذا من هذه النسخة (المؤلف) .

وكبيرة فى الدولة . يقول الإمام الطبرى : « وكان عمر لا يخفى عليه شىء فى عمله كُتب إليه من العراق بخروج من خرج من الشام بجائزة ومن أجيز فيها » [1] / . ١٩٠

وفى إحدى معارك العراق لم يعط قائد الجيش عمرو بن معد يكرب نصيبًا مضاعفًا ، فسأل عمرو بن معد يكرب عن سبب ذلك . فقال له إن فرسك ليس أصيلاً ولهذا نقص نصيبه وكان عمرو مغرورًا بقوته فقال : نعم الخسيس يستطيع أن يعرف الخسيس وعلم عمر على الفور فعنف عمرًا تعنيفًا شديدًا فلم يتجرأ بمثل هذه الوقاحة بعد ذلك . كان النعمان بن عدى حاكمًا لميسان وعندما استساغ طعم العزة والجاه كتب إلى زوجته رسالة فيها هذا البيت :

لعل أمير المؤمنين يسوءه   تناد منا بالجوسق المتهدم

فعلم عمر بهذا الأمر فورًا وعزله وكتب : نعم لقد ساءنى هذا [2] . كان حذيفة ابن اليمان من كبار الصحابة وكان يعلم كثيرًا من الأسرار الخفية ، وكان أيام النبوة صاحب سر الرسول - ﷺ - ولهذا السبب كان يسمى « صاحب السر » فسأله عمر ذات يوم « أفى عمالى أحد من المنافقين » قال : بعد هذه الواقعة فعرفت من هذا أنه قد عرفه بنفسه » [3] ونتيجة لهذه الدقة واليقظة كان جميع العمال والقادة لا يستطيعون أن يقيموا أى أمر / دون مشورته . يقول الطبرى : « وكانوا لا يدعون شيئًا ولا يأتونه إلا وآمره فيه » [4] . ١٩١

فكرة بيت المال :

كان عمر يعتنى كثيرًا بأمر بيت المال أى الخزانة فلم يغب عن علمه أى مبلغ من الأموال ، وتكدست النذور منذ فترة طويلة فى الكعبة فيما يتعلق بها : « لقد هممت ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته » [5] .

---

(١) الطبرى صفحة ٢٥٢٦ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٦٧ (المترجم) .
(٢) أسد الغابة ذكر النعمان بن عدى (المؤلف) - أسد الغابة : ٣٣٥/٥ - ٣٣٦ (المترجم) .
(٣) أسد الغابة ذكر حذيفة بن اليمان (المؤلف) - أسد الغابة : ١ / ٤٦٨ (المترجم) .
(٤) الطبرى : ٢٤٨٧ (المؤلف) - الطبرى : تاريخ الطبرى : ٤ / ٤٤ (المترجم) .
(٥) صحيح البخارى : باب كسوة الكعبة (المؤلف) .
- صحيح البخارى : ٢/ ١٨٣ (المترجم) .

لقد جاء مال الغنيمة ذات مرة وعلمت به السيدة حفصة ابنة عمر وزوجة رسول الله - ﷺ - فأتت عمر وقالت : « يا أمير المؤمنين أعطنى حقى فيه فأنا من ذوى القربى » . فقال عمر : « إن حقك من مالى الخاص لكن هذا مال الغنيمة ، أتريدين أن تخدعى أباك » فنهضت المسكينة وهى تشعر بالخجل [1] . وكانت هناك مراسم صداقة مع قيصر بعد فتح الشام واستمرت المراسلة ، وذات مرة أرسلت أم كلثوم (زوجة عمر) عدة قوارير من العطر إلى زوجة قيصر على سبيل الهدية ، فدرت عليها وأرسلت لها القوارير مملوءة بالجواهر ، وعندما علم عمر بهذا قال : مع أن العطر كان لك لكن الرسول الذى ذهب به كان عاملاً لدينا يتقاضى نفقاته من بيت المال ، فأخذ الجواهر وأدخلها بيت المال / ودفع لها شيئًا على سبيل التعويض . ١٩٢

ومرض عمر ذات مرة فاقترح عليه الناس التداوى بالعسل وكان العسل موجودًا فى بيت المال ولا يمكن أن يأخذه بلا إذن فذهب إلى المسجد النبوى وقال « لو تأذنوا لى أن آخذ قليلاً من العسل من بيت المال » [2] ويتضح من طلب الإذن على هذا الإجراء أنه يبين للناس أن الخليفة ليس له أدنى حق للتصرف فى شىء من بيت المال .

كان عمر يعيش على التجارة قبل الخلافة ، وكان لا يمكن له أن يبقى على هذه المهنة فى ظل مشاغل الخلافة فجمع الصحابة وبيّن لهم حاجته وقال : كم أستطيع أن آخذ من المال من بيت المال لنفقاتى فرأى الناس آراء مختلفة إلا الإمام علىّ فقد بقى صامتًا ، فنظر إليه عمر فقال : مقدار عادى من الطعام واللباس فقط ، وبناء على هذا صرف له ولأولاده ولأزواجه الملابس والطعام من بيت المال [3] . وبالنسبة للرواتب العسكرية عندما قررت الرواتب للبدريين (الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر) قررت له كذلك مع غيره من الناس خمسة آلاف درهم سنويًا وهذا هو المبلغ الذى كان يتلقاه الفاروق الأعظم طوال العام من بين ملايين الدراهم من الدخل .

وسوف تقرءون فيما بعد فى سيرته الاجتماعية أنه كثيرًا ما كان يرتدى الملابس الممزقة ، وينام على الأرض ولا يطهى دقيق القمح فى بيته شهورًا ، فلم يكن سبب ذلك

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (المؤلف) - مسند الإمام أحمد : ٢٠٩/١ (المترجم) .
(٢) كنز العمال : ٦ / ٣٥٤ (المؤلف) .
(٣) تاريخ الطبرى : أحداث سنة ١٥ هـ (المؤلف) - تاريخ الطبرى : ٦١٦/٣ (المترجم)

التنسك والرهبانية ، بل لأنه فى الحقيقة لم يكن له نصيب من إيراد الدولة أكثر من هذا وعندما يأتيه أحيانًا مبلغ كبير من المال كان ينفقه بكرم وسخاء ، وعندما تزوج أم كلثوم / عقد لها مهرًا قدره أربعون ألف درهم وذلك لحسبها وقرابتها للأسرة النبوية وأداه لها فى ذلك الوقت . ١٩٣

ومن أهم الأسباب التى جعلت عمر لا يسند وظيفة فى الدولة لبنى هاشم أنه كان يخشى أنه لما كان بنو هاشم يعتبرون نصيبهم خمس الغنيمة حقًا شرعيًا لهم وكان يثق فى أنهم سوف يأخذون نصيبهم من الخمس بالرغم من ثرائهم مع أن نفقات الخمس فى رأى عمر كانت ترتبط برأى إمام ذلك الوقت وسوف يأتى بحث ذلك بالتفصيل فيما بعد . وكان قد أبدى سوء ظنه هذا تجاه بنى هاشم عندما مات عامل حمص فرأى أن يستعمل ابن عباس لكنه لم يكن يأمن جانبه فاستدعاه وقال له : « فى نفسى منك شئ » قال كيف؟ قال : « إنى خشيت عليك أن تأتى على الفئ الذى هو آت » [1] .

ولم يكن هذا سوء ظن فحسب ، بل حدث هذا ففى خلافة علىّ عين عبد الله عاملاً فأخذ مبالغ كبيرة من بيت المال ، وعندما آخذه علىّ كتب له : أنا لم آخذ حقى كاملاً حتى الآن ، ويجب أن نضع فى الاعتبار أن الدقة والتوفير الذى كان عمر يتبعهما بالنسبة لبيت المال هما من أكبر أسباب نجاح خلافة الفاروق ، فالثورات التى قام بها الناس فى آخر خلافة عثمان كان أكبر أسبابها السلوك السخى الذى اتبعه عثمان فيما يتعلق ببيت المال . أى أنه أعطى أقاربه مبالغ كبيرة جدًا استنادًا على آية « ذوى القربى » / . ١٩٤

تأدية جميع الأعمال فى أوقاتها :

من الأمور العجيبة أنه على الرغم من أنه كان يواجه أعمالاً ومهامًا لا حصر لها ، إلا أن الجيوش المنتشرة على بعد آلاف الأميال من دار الخلافة كانت كل حركة من حركاتها تتوقف على إشارته . وقد قرأتم فيما سبق ذكره عن أفرع تنظيمات الحكومة المختلفة ، وتنظيم الفقه والإفتاء فإنه كان يعد عملاً عظيمًا ومستقلاً عن أعماله الشخصية ومع هذا كله فكل عمل كان يقوم به لا يؤثر على عمل آخر قط ، فقد وقعت

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٤ و ٦٥ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١١٣ (المترجم) .

معركة نهاوند الضارية التى تكاتفت فيها إيران كلها ، وفى نفس الوقت جاءه من يشكو سعد بن أبى وقاص حاكم الكوفة فقال عمر : مع أن الوقت ضيق لكن لا يمكن إيقاف التحقيق مع سعد ولهذا جرت عملية تنظيم الجيوش وإرسالها إلى الكوفة ، ومن ناحية أخرى كانت التحقيقات جارية مع سعد بكل جدية . وعندما أراد أهل الجزيرة أن يلتقوا بالقيصر والهجوم على الشام برفقته أرسل عمر الجيوش بسرعة من جميع المراكز التى سدت جميع طرق الجزيرة ومداخلها وهكذا لم يستطع أهل الجزيرة أن يصلوا إلى القيصر .

كان زياد بن حدير عاملاً على تحصيل عشور العراق ، فقيم فرسًا لنصرانى بعشرين ألفًا ثم طلب العشور (الضريبة) عليه فقال النصرانى أعطنى الفرس وخذ منى تسعة عشر ألفًا فمر النصرانى مرة ثانية من حدوده فطلب منه عائدًا (ضريبة) مرة أخرى ، فذهب إلى مكة واشتكى لعمر فقال له عمر كفيت !! ورجع النصرانى إلى زياد بن حدير وكان واثقًا من نفسه أنه سيدفع ألفًا أخرى ويسترد الفرس ولكنه وجد كتاب عمر قد سبق إليه : « لا تأخذ صدقة على شىء مرتين فى العام » ووقعت هذه الحادثة لنصرانى آخر فوصل عند عمر فى نفس الوقت الذى كان يخطب فى الحرم / فقدم شكواه إليه وهو فى هذه الحالة . قال : لا يؤخذ العشر مرة ثانية وظل النصرانى مقيمًا فى مكة عدة أيام ثم ذهب إلى عمر ذات يوم وقال له : أنا ذلك الشيخ النصرانى الذى كلمتك فى الضريبة فقال عمر : نعم وأنا الشيخ الحنفى قد قضيت حاجتك . وعندما سأل النصرانى علم بأن عمر كان قد أرسل أمره إلى زياد فى اليوم الأول (١) .

١٩٥

الرفاهية العامة :

اهتم عمر اهتمامًا كبيرًا بألا يبتلى شخص فى الدولة بالفقر والجوع وأصدر أمرًا وكان ينفذ دائمًا وهو أن تصرف لكل مشلول وعاطل ومقعد وغيرهم فى الدولة رواتب جميعًا من بيت المال . وكان هناك المسجلون فى ديوان الجند أكثر من سبعمائة ألف رجل يتلقون الطعام وهم فى بيوتهم وفى بداية الأمر نظم الأمور بحيث أمر أن يطبخ جريب

(١) هاتان الروايتان مأخوذتان من كتاب الخراج صفحة ٧٨ - ٧٩ (المؤلف) .

- القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٣٥ - ١٣٦ (المترجم) .

من الدقيق [1] وبعد الطهى استدعى ثلاثين رجلاً لإطعامهم ثم طبخ هذه الكمية فى العشاء وأطعم بها هذا العدد من الناس ، ومن ثم قدر هذه الكمية لوجبتين وعلى هذا الأساس قال : إن جريبين من الدقيق يكفيان لطعام الفرد طوال الشهر ، ثم أمر أن تصرف هذه الكمية من الدقيق لكل فرد وصعد على المنبر للإعلان العام وأمسك المكيال بيده وقال : لقد قررت هذه الكمية من الطعام للناس وسيحاسب الله الفرد الذى ينقصها ، فى إحدى الروايات أنه أمسك المكيال بيده وقال هذه الكلمات : « إنى قد فرضت لكل نفس مسلمة فى كل شهر مدئ حنطة وقسطى خل » / فقال رجل وللعبد ، قال : نعم وللعبد [2] . ١٩٦

رواتب للفقراء والمساكين :

لقد أمر أن تصرف الرواتب للفقراء والمساكين من بيت المال بدون تحديد أى دين (كما ذكرنا آنفًا فى حقوق الذميين) فقد كتب عمر إلى عامل بيت المال أن المقصود بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ ﴾ [3] المساكين هم أهل الكتاب والفقراء هم المسلمون .

دور الضيافة :

وشيد دورًا للضيافة فى معظم المدن حيث يجد المسافرون الطعام من بيت المال كما ذكرنا دار ضيافة الكوفة عند ذكر بناء الكوفة ، وكان فى المدينة المنورة مطبخ عام يذهب إليه معظم الأحيان ويشرف بنفسه على إطعام الطعام .

اللقطاء :

وبالنسبة للقطاء الذين تركتهم أمهاتهم على قارعة الطريق فقد فرض عام ١٨هـ أن

(١) الجريب : حوالى ٢٥ كيلو جرام تقريبًا (المترجم) .
(٢) هذه التفاصيل كاملة فى فتوح البلدان صفحة ٤٦٠ وهذه الرواية مذكورة فى جميع كتب التاريخ مع اختلافات طفيفة (المؤلف) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٤٧ (المترجم) .
(٣) التوبة : ٦٠ (المترجم) .

ترتب نفقاتهم حيثما وجدوا ورضاعتهم من بيت المال وقد قرر لنفقاتهم أولاً مائة درهم فى السنة ثم زاد المبلغ من سنة لأخرى (١) .

تربية اليتامى :

كان عمر يولى اهتمامًا بالغًا بتربية اليتامى ، ولو كانت لهم أملاك يحفظها لهم بكل عناية وكثيرًا ما كان ينميها لهم عن طريق التجارة ، وقال ذات مرة للحكم بن أبى العاص إن مال اليتامى الموجود عندى يتناقص بسبب إخراج الزكاة ، فأدخله فى التجارة ورد المكسب الذى يعود منها ، لذا سلمه مبلغ عشرة آلاف فأخذ ينميه حتى وصل إلى مائة ألف / .   ١٩٧

مواجهة القحط :

عندما أصاب العرب القحط فى عام ١٨هـ أبدى عمر - رضى الله عنه - نشاطًا دؤوبًا فصرف أولاً جميع ما كان من أموال وغلال من بيت المال ، ثم كتب إلى جميع عمال الأقاليم لكى يرسلوا القمح من كل مكان ، فأرسل له أبو عبيدة أربعة آلاف بعير محملة بالغلال وبعث إليه عمرو بن العاص عشرين سفينة عن طريق البحر الأحمر كل واحد منها تحمل ثلاثين ألف أردب قمحًا وذهب عمر بنفسه إلى الميناء لمراقبة تلك السفن وكان اسم الميناء « جار » على مسافة ثلاثة منازل من المدينة وقد بنى صومعتين كبيرتين فى الميناء وأمر زيد بن ثابت أن يعد تقريرًا مفصلاً عن الأماكن المصابة بالقحط ، فأعد سجلاً بالاسم ومقدار القمح ووزع لكل فرد صكًا يتطابق مع ما يتلقاه من قمح كل يوم والصك كان مختومًا بخاتم عمر ، (٢) فضلاً عن هذا كان قد أمر بذبح عشرين ناقة كل يوم تحت إشرافه وكان يعد الطعام ويطعمه للمتضررين من القحط .

---

(١) البلاذرى : صفحة ٤٥٢ واليعقوبى : ٢ : ٧١ (المؤلف) .

- البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٣٨ واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ١٣١/٢ (المترجم) .

(٢) هذه التفاصيل فى كتاب اليعقوبى صفحة ١٧٧ . وفى الفقرة الأخيرة : « ثم أمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمر أن يكتب لهم صكاكًا من قراطيس ثم يختم أسافلها فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك » . (المؤلف) .

آراء عمر فيما يتعلق بالرفاهية العامة :

وهذا الأمر جدير بالذكر فى هذا المكان بصفة خاصة وهو أنه بالرغم من أن عمر كان يهتم بتنمية الدولة إلى حد كبير ، إلا أن كرمه هذا لم يكن نوعًا من الكرم الآسيوى الذى يولد الكسل وحياة الدعة ، إن سخاء ملوك آسيا وأمرائها يذكر عمومًا بتبجيل شديد إلا أن الناس لا يفكرون فى هذا الأمر وهو أنه يثبت من ناحية فضل الملك ولكنه من ناحية أخرى يثبت فقر الشعب واستجداءه وجعله عالة على المَن والجود ، كان هذا هو الكرم الآسيوى الذى ظل فى شعبنا اليوم / مثل هؤلاء آلاف مؤلفة من الناس الذين لا يريدون بذل أى جهد ويقضون أوقاتهم على العطايا والمنح . ١٩٨

لكن عمر لم يكن يجهل هذا الأمر ، فكان يبذل قصارى جهده حتى لا تنبت فى الناس بذرة الكسل والأكل بالمجان ، فالرواتب والأطعمة التى كانت تصرف للناس كانت فقط لأولئك الذين ينتظر منهم الخدمة العسكرية يومًا ما ، أو الذين قدموا أى خدمة هامة سابقًا ، أو الذين لا يستطيعون كسب معاشهم بأنفسهم بسبب الضعف والمرض وما عدا ذلك فإنه لم يجز لأحد أى نوع من أنواع الكرم .

كتب ابن الجوزى فى « سيرة العمرين » أنه ذات مرة جاء سائل إلى عمر فرأى عمر أن كيسه مملوء بالدقيق فسلبه إياه ووضعه أمام البعير وقال : « الآن أطلب ما تطلب » . وكتب الماوردى فى « الأحكام السلطانية » : « وكانت مهمة المحتسب تنبيه القادرين على كسب عيشهم وتأديبهم ومع هذا يأخذون الصدقات » ثم استدل الماوردى فى سنده بصنيع عمر وكتب : « وقد فعل عمر مثل ذلك بقوم من أهل الصدقة » [١] .

وكان من عادته عندما يرى رجلاً مرفهًا فى الظاهر أن يسأل : أليس لديه أى حرفة ؟ وعندما يقول الناس « لا » يقول : هذا الرجل سقط من نظرى ومن قوله إن « مكسبة فيها دناءة خير من مسألة الناس » وكثيرًا ما تتاح فرصة الأكل المجانى للصوفية وللعلماء ، ولم يكن الصوفية قد ظهروا حتى عهده لكنه كان يخاطب العلماء علانية ويقول : « لا تكونوا عيالاً على المسلمين » [٢] / . ١٩٩

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٣٥ (طبعة مصر) (المؤلف) .

– الماوردى : الأحكام السلطانية : ٢١٥ (المترجم) .

(٢) سيرة العمرية لابن الجوزى (المؤلف) .

الاهتمام بالجزئيات :

وهناك أمر عجيب فى تاريخ عمر وهو بالرغم من أنه كان يواجه دائمًا الأمور الهامة إلا أنه كان يؤدى الأعمال الصغيرة بنفسه أيضًا ، ولا يضيق لها وقته ومن بينها الأعمال التى لم تكن تناسب عظمة الخلافة لكنه لم يشعر بالعار فى أى عمل ، فالرواتب التى كانت تصرف للموظفين كان كثيرًا ما يذهب ليقسمها عليهم بنفسه . لقد كانت « قديد » و« عسفان » على مسافة عدة منازل من المدينة ويقطن فيهما قبيلة خزاعة فكان يذهب بنفسه إلى هذين المكانين حاملاً ديوان الأرزاق وعندما يروه يخرج الجميع صغيرًا وكبيرًا من المنازل ويأتون إليه فيوزعها عليهم بيده [1] وكثيرًا ما كان يذهب إلى دار الصدقة ويقف عند كل جمل يحصى أسنانه ويدون أوصافه .

وقد كتب المحب الطبرى نقلاً عن أبى حذيفة أنه « كان من عادته أن يذهب إلى بيوت المجاهدين ويقول للنساء أتردن أى شىء من السوق أحمله إليكن ؟ وكن يبعثن الجوارى معه فيشترى الحاجيات ويسلمها لهن ، ويأتيه الرسول من أرض المعركة يحمل رسائل الجند فيوصلها إلى منازلهم بنفسه ويخبرهم أن الرسول سيعود فى التاريخ الفلانى فاكتبوا الرسائل لكى يرسلها فى حينها ، بل كان يعد لهم الورق والقلم والدواة ، ومن لم يكن فى بيته أحد يعرف الكتابة كان يجلس بنفسه عند الباب ويكتب ما يمليه عليه صاحب البيت » / .

٢٠٠

وسائل معرفة شكاوى الرعايا :

لقد كان جل اهتمام عمر ألا تكون هناك عقبة فى طريق وصول أى شكوى من الرعايا إليه ، وكان من عادته بعد كل صلاة أن يجلس فى صحن المسجد ويتحدث مع كل من يريد أن يتحدث معه ، وإن لم يكن هناك أحد فإنه ينتظر قليلاً ثم ينهض [2] ويعسّ فى الليل ويستفسر عن أحوال المسافرين فى السفر ويستفسر من الرسل الحكوميين الذين كانوا يأتون إليه من المراكز الخارجية عن كل شىء .

---

(١) فتوح البلدان صفحة ٤٥٢ (المؤلف) .
- البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٣٨ (المترجم) .
(٢) كنز العمال : ٢ / ٣٢٠ (المؤلف) .

السفارة :

كانت أهم وسيلة لمعرفة أحوال الرعية هى مجيء السفارات من جميع السفارات من جميع المراكز كل عام فتعرض جميع الأمور الهامة المرتبطة بتلك الأماكن ويطلق على هذه السفارة اسم الوفد وكانت هذه العادة من عادات العرب القديمة لكن عمر استخدمها فى عصره كما تستخدم الدول الجمهورية فى العصر الحاضر عضوًا نائبًا عن الرعايا ، ويوجد فى العقد الفريد وغيره ذكر هذه السفارات التى كانت تأتى من مختلف المراكز فى عهد عمر وما كانت تقدمه من موضوعات محلية .

السفر إلى الشام والتعهد بالرعية :

مع هذا لم يكن مطمئنًا إلى جميع تلك الأمور ويقول دائمًا : إن العمال لا يهتمون بالرعايا ولا يستطيع الناس كلهم أن يصلوا إلىّ وبناء على هذا أراد أن يزور الشام والجزيرة والكوفة والبصرة وأن يقيم فى كل مكان شهرين ولكن الموت لم يمهله الفرصة ، مع ذلك عندما سافر إلى الشام فى المرة الثانية أقام فى كل إقليم وسمع شكاوى الناس وحكم فيها بالعدل ، وقد حدث فى هذا السفر واقعة معبرة ، فعند عودته إلى دار الخلافة ، رأى خيمة فى الطريق فنزل من على فرسه واقترب من الخيمة فبدت له سيدة عجوز فسألها هل تعرفين شيئًا عن عمر ؟ قالت : « نعم ذهب إلى الشام / قاتله الله ، لم أتلق منه حبة حتى اليوم » . قال عمر : وكيف يستطيع عمر معرفة أحوال هذا المكان النائى ؟ قالت : إذا كان لا يعلم حالة الرعية فلماذا يتولى الخلافة ؟ فتأثر تأثرًا شديدًا وانتابته نوبة من البكاء . ٢٠١

ونقل هنا فى هذا المكان حكايات وروايات متعددة ربما نستطيع أن نقدر منها إلى أى مدى كانت جهوده ونصائحه لراحة الرعية والاعتناء بهم .

كانت إحدى القوافل تتجه إلى المدينة المنورة فنزلت خارج المدينة فتقدم بنفسه للعناية بها والمحافظة عليها وكان يتجول ليحرسها فانبعث صوت بكاء من أحد الجوانب فتوجه إليه فرأى طفلاً رضيعًا يبكى فى حجر أمه فأمر الأم أن تسلى طفلها ، وبعد فترة قصيرة مر من هناك فوجد الطفل يبكى فتملكه الغيظ وقال أنت أم عديمة الرحمة ، قالت إنك لا تعرف الحقيقة فلماذا تضايقنى ؟ إن عمر أمر بألا يصرف للطفل راتب من بيت المال ما دام لم يفطم ، وقد فطمته ، ولهذا السبب يبكى ، فرق عمر وقال لنفسه

واأسفاه يا عمر كم طفلاً قتلت ؟ وفى نفس اليوم أمر المنادى بأنه قد تقرر صرف الرواتب للأطفال منذ اليوم الذين يولدون فيه .

ويذكر أسلم (غلام عمر) أن عمر خرج ليتجول ذات مرة فوصل إلى « صرار » على بعد ثلاثة أميال من المدينة فرأى امرأة / تنضج شيئًا وحولها طفلان أو ثلاثة يبكون فذهب عندها وسألها عن حقيقة الأمر فقالت : لا أجد طعامًا للأطفال منذ عدة أيام ، فوضعت الماء فى القدر وتركته على النار لأسليهم فنهض عمر فى نفس الوقت وعاد إلى المدينة فأخذ من بيت المال دقيقًا ولحمًا وسمنًا وتمرًا وقال لأسلم ضعها على ظهرى ، فقال أسلم أنا ذاهب لها ، قال نعم : لكنك لن تحمل أثقالى يوم القيامة .

٢٠٢

وحمل جميع الأشياء بنفسه ووضعها أمام المرأة وعجن الدقيق ووضع القدر على النار وأخذ عمر ينفخ فى الموقد حتى أعد الطعام وأكل الأطفال حتى شبعوا وبدءوا يقفزون ويلعبون وكان عمر ينظر إليهم بسعادة غامرة ، وقالت المرأة : جزاك الله خيرًا وحقيقى أنك جدير أن تكون أمير المؤمنين لا عمر » .

وذات مرة كان يتجول فى الليل فرأى بدويًا جالسًا على الأرض خارج خيمته فذهب عنده وجلس وبدءا يتجاذبان أطراف الحديث ، وفجأة انبعث صوت عويل من الخيمة فسأل عمر مَن يبكى ؟ قال : زوجتى وهى فى حالة مخاض ، فأتى عمر بيته واصطحب معه أم كلثوم (زوجة عمر) واستأذن البدوى لتدخل أم كلثوم الخيمة ، وبعد قليل ولدت طفلاً فنادت أم كلثوم على عمر وقالت : يا أمير المؤمنين بارك لصاحبك وعندما سمع البدوى كلمة أمير المؤمنين اعتدل فى جلسته فقال عمر « لا عليك » هلم إلىّ بالغد لأفرض راتبًا للطفل .

وذكر عبد الرحمن بن عوف أنه ذات مرة جاء عمر إلى بيتى / فقلت لماذا تجشمت السير بنفسك ولماذا لم تطلبنى . قال : « لقد علمت الآن أن قافلة نزلت بأطراف المدينة وسوف يكون الناس متعبين منهكين فتعال نحرسها أنا وأنت وذهبا كلاهما وظلا يحرسانها طوال الليل .

٢٠٣

وفى السنة التى حدث فيها قحط فى بلاد العرب كان عمر فى حالة يرثى لها ، فلم يأكل أى شىء لذيذ كاللحم والسمن والسمك طوال فترة القحط ، وكان يتضرع إلى الله ويدعو بخضوع ويقول : « اللهم لا تهلك أمة محمد بما جنته يداى » . ويقول غلامه

أسلم : « لقد ظل عمر أيام القحط فى تفكير دائم حتى خشى عليه إنه إذا لم ينته القحط لكان قد هلك من هذا الحزن والغم » [1] .

ولقد ذكرنا آنفًا ما قام به عمر من ترتيبات فى القحط ، وقد جاءه بدوى ذات مرة وأنشد هذه الأبيات :

يا عمر الخير خير الجنة　　أُكسى بُنياتى وأمهنه

أقسم بالله لتفعلنه

قال عمر وإن لم أفعل بكلامك فماذا يكون ؟ قال البدوى :

تكون فى حالى لتسألنه　　الواقف المسئول يبهتنه / ٢٠٤

فبكى عمر حتى تبللت لحيته وقال للغلام أعطه قميصى هذا فليس عندى الآن أى شىء سواه [2] .

وكان يتجول ذات مرة فى الليل فوجد امرأة تجلس فى حجرتها وتتغنى بهذا البيت :-

تطاول الليل وأزور جانبه　　وليس إلى جنبى خليل أُلاعبه

وكان زوج هذه المرأة قد خرج إلى الجهاد فكانت تنشد هذه الأبيات المؤثرة فى فراقه وهى جالسة فى شرفتها ، فاضطرب عمر اضطرابًا شديدًا وقال : لقد ظلمت نساء العرب ظلمًا شديدًا وجاء إلى حفصة وسألها كم يوم يمكن للمرأة أن تقضيها بدون زوجها ؟ قالت : أربعة أشهر ، وفى الصباح أرسل الأوامر لكل مكان بعدم بقاء أى جندى خارج بيته أكثر من أربعة أشهر .

كان سعيد بن يربوع صحابيًا جليلاً ذهب بصره ، فقال له عمر لماذا لا تأتى الجمعة : قال : ليس عندى من يدلنى على الطريق ، فعين له عمر رجلاً يصاحبه بصفة دائمة [3] .

---

(١) جميع هذه الروايات فى كنز العمال : ٦ / ٣٤٣ نقلاً عن مراجع موثوقة (المؤلف)

(٢) سيرة العمرين (المؤلف) .

(٣) أسد الغابة تذكرة سعيد بن يربوع (المؤلف) - أسد الغابة : ٢ / ٤٠١ (المترجم) .

ورأى قومًا يأكلون الطعام وبينهم من يأكل بيده اليسرى فذهب عنده وقال : كُل
٢٠٥ بيدك اليمنى فقال لقد بترت يدى فى غزوة مؤتة / فتأثر عمر وبكى وجلس بجواره
وأخذ يقول واأسفاه من يوضئك ؟ ومن يغسل شعرك ؟ ومن يلبسك ؟ ثم عين له
خادمًا وأعد له بنفسه كافة لوازمه .

الإمامة والاجتهاد

منصب الإمامة فى الحقيقة جزء من ألوان النبوة ، وطبيعة الإمام تقترب فى الواقع
من طبيعة الرسول . ويقول شاه ولى الله : « هناك جماعة بين الأمة جبل جوهر طبائعهم
قريب من جوهر طبيعة الأنبياء ، وهذه الطائفة فى أصل فطرتهم خلفاء الأنبياء فى
الأمة »[1] .

فمع أن الأحكام والعقائد الدينية بسيطة وواضح فى الظاهر لأن الإيمان بالله خالق
الكون والاعتراف بكمال صفاته والإيقان بالثواب والعقاب والزهد والعبادة ومحاسن
الأخلاق وجميع هذه الأشياء كلها هى الأحكام والمبادئ الأصلية للدين وهى جميعًا أمور
بسيطة وواضحة فى الظاهر لكنها من الغموض والإبهام إلى هذا الحد بحيث لو لم
تستخدم ببعد نظر وفطنة لتغيرت حقيقتها تمامًا وهذا هو السبب فى أن هذه المسائل مع
أنها مشتركة تقريبًا فى جميع الأديان ، فقد وقعت فيها أخطاء متفاوتة وقد جاء الإسلام
لمحو هذه الأخطاء وقد استرعى انتباهه إليها باهتمام ولكن الطبائع العامة لا تكون فطنة
لذا فإن معظم الناس فى كل عصر يبتعدون عن أصل الحقيقة ، ولذا تبقى أهمية الأئمة
٢٠٦ والمجددين لكى لا تختفى هذه الأسرار وراء الحجب / فعلى سبيل المثال لقد محا الإسلام
بذور الشرك بعزم وقوة ، لكن لو تمعن النظر فستعرف إلى أى مدى يوجد أثر للشرك
الخفى فى تعامل العوام بالنسبة للقبور والأضرحة من جانب ، وطريقة الخواص فيها
حتى الآن أثر خفى للشرك والكلمات المنمقة لتحصيل البركة والاستفادة من القبور التى
ألقت عليها الحجب .

---

(١) إزالة الخفاء : ١ / ٩ (المؤلف) .

مسألة القضاء والقدر :

فهم عمر حقيقة هذه المسائل الحساسة الدقيقة المشتبه فيها ثم عرضها على الناس بكل شجاعة وهذا الأمر قلما يوجد له مثيل فى عصر الصحابة .

إن قضية القضاء والقدر من أكبر القضايا الحساسة فى العلوم الدينية وقد وقع كبار أئمة الدين فى أخطاء فى هذه المسائل حتى حدث لبس واشتباه فيها لدى بعض كبار الصحابة ، فعندما سافر عمر إلى الشام فى طاعون عمواس ووصل إلى « سرغ » علم أن الوباء قد اشتد بها وهم عمر بالعودة فقال أبو عبيدة وهو غاضب مؤمنًا لأن كل ما يحدث بقضاء الله : « أفرارًا من قدر الله » فحل عمر هذه المسألة الحساسة بكلمات بليغة مختصرة [١] وقال : « نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله » .

ومن قواعد الإسلام تعظيم شعائر الله وبناء على هذا أمر باحترام الكعبة والحجر الأسود وغيرها . ولكن صورتهما تتشابه إلى حد ما مع عبادة الأصنام وهذا هو السبب الذى قامت عليه عبادة الأصنام بهذه الطريقة تدريجيًا فى جميع الأديان فنهى عمر الناس فى مواقع مختلفة عن الوقوع فى هذا الخطأ فوقف ذات مرة أمام الحجر الأسود وقال علانية / « إنى أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع » . ٢٠٧

تعظيم شعائر الله :

إن عمل عمر هذا كان يختلف عن الذوق العام ونستطيع أن نقدر مما رواه كثير من المحدثين عندما ينقلون هذه المقولة عن عمر أنهم أضافوا عليها هذه الرواية أيضًا وهى أن الإمام علىّ سخر منه آنذاك وأكد أن الحجر الأسود يمكن أن يصيب الناس بالضرر أو الفائدة جميعًا لأنه سوف يشهد يوم القيامة فى حق الناس [٢] إلا أن هذه الإضافة مجرد خطأ وتزييف كما صرح نقاد فن الحديث .

بايع الرسول - ﷺ - المسلمين على الجهاد ذات مرة تحت شجرة ، لذا اعتبرت

---

(١) هذه الواقعة موجودة بالتفصيل فى صحيح مسلم ، باب الطاعون (المؤلف) .

- صحيح مسلم : ٧ / ٢٩ - ٣٠ (المترجم) .

(٢) أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد : ١ / ٢٥٧ وصحيح البخارى : ١٨٥/٢ (المترجم) .

هذه الشجرة شجرة مباركة وبدأ الناس يأتون لزيارتها وعندما رأى عمر ذلك استأصلها من الجذر [١] . قدم مرة من الحج وفى الطريق مسجد صلى فيه النبى - ﷺ - فى أحد المرات ولهذا السبب تدافع الناس نحوه فخاطب عمر الناس قائلاً : لقد هلك أهل الكتاب بسبب هذه الأمور حين اتخذوا أماكن ذكرى أنبيائهم أماكن لعبادتهم [٢] .

إلى أى مدى ترتبط أفعال النبى وأقواله بوظيفة النبوة :

يخطئ الناس عمومًا فيما يتعلق بحقيقة النبوة ولم تصحح هذه الفكرة فى عهد الإسلام ، فالكثيرون منهم يعتقدون أن كل أفعال النبى وأقواله تكون من قبل الله - تعالى - وبعضهم أكثر شجاعة فيستثنى منها الأمور الاجتماعية فقط ، لكن الحقيقة هى أن الحكم التى يتلقاه النبى بحكم منصب النبوة - لا شك فيه - أنه من قبل الله ، أما الأمور الباقية فتكون حسب مقتضى الحال والضرورة / فإنها ليست أمورًا دينية ولا تشريعية ، وقد وضح عمر هذه المسألة وضوحًا تامًا لم يوضحه أحد (قبله) ، وقد استدل الإمام الشافعى فى كتبه بما يتعلق بمسائل تحديد الخراج والجزية وبيع وشراء أم الولد وغيرها بأحاديث لا أساس لها ، وانتقد الإمام الشافعى عمر بشجاعة وعلانية عندما وجد منهجه فى هذه المسائل يختلف عن تلك الأحاديث ولكن الإمام الشافعى قد غض النظر عن هذه النقطة وهى أن هذه الأمور لا ترتبط بالنبوة لذا فقد أذن الشارع - عليه السلام - بنفسه لكل فرد بالاجتهاد فى كل المسائل كما سيأتى تفصيل هذا البحث .

٢٠٨

إن أكبر قاعدة وضعها عمر فى أحكام الشريعة هى أن جميع الأحكام الشرعية قائمة على أساس العقل .

وهناك رأيان منذ البداية يتعلقان بالأحكام الدينية ، أحدهما ليس للعقل دخل فيها ، والثانى جميع أحكامه مبنية على المبادئ والقواعد العقلية ، فالطريقة الثانية هى محور علم أسرار الدين وأساسه ، وهذا العلم مع أنه أصبح الآن فنًا مستقلاً وكتاب شاه ولى الله المشهور « حجة الله البالغة » خاص بهذا الفن - إلا أن قليلاً من الناس فى كل

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ٩١ . وقد ذكر العلامة الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية هذه الواقعة عند ذكر بيعة الرضوان وذكر أن ابن سعد روى هذه الواقعة بسند صحيح فى الطبقات (المؤلف) .

(٢) إزالة الخفاء : ٢ / ٩١ (المؤلف) .

عصر كانوا يسلمون بهذه الأصول ومرجع هذا إلى أن هذا الفن الدقيق كان خارجًا عن طاعة الطبائع العامة ، وثانيًا أن الشغف الدينى والولع به من شأنه قبول أى أمر بدون جدال ونقاش بدون أى تدخل للعقل والرأى .

أسس علم أسرار الدين :

٢٠٩ كان عمر من أنصار الرأى الثانى وهو أول شخص / أسس علم أسرار الدين وقد كتب شاه ولى الله فى « حجة الله البالغة » أن عمر وعلىّ وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس والسيدة عائشة قد بحثوا هذا العلم وأظهروا علله [١] .

ومن بين الناس الذين ذكرهم شاه ولى الله كان عبد الله بن عباس وكان عمره ثلاث عشرة سنة عند وفاة الرسول - ﷺ - ولم يزد عمر الإمام علىّ عند بعثة رسول الله عن عشر أو إحدى عشر سنة ، وكان سن زيد بن ثابت عند هجرة الرسول أحد عشر عامًا ، والعمر الكلى للسيدة عائشة حين وفاة الرسول ثمانية عشر عامًا ، ويثبت من هذا أن جميع هؤلاء الصحابة كانوا من المطورين لهذا العلم إلا أن عمر قد نال قصب السبق فى هذا المضمار .

لقد كان عمر يسبر الغور دائمًا فى أسباب أحكام الشريعة ، ولو بدت أمامه أى مسألة خلافًا للعقل من وجهة نظره كان يسأل عنها رسول الله - ﷺ - فصلاة القصر التى أمر بها فى السفر كانت بناء على أن الطرق لم تكن آمنة فى بداية الإسلام وكان يواجه الخوف من جانب الكفار دائمًا ففى القرآن نفسه إشارة لها : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [٢] .

لكن حكم القصر بقى كذلك بعد أن صارت الطرق آمنة ، فاندهش عمر لهذا وسأل رسول الله لماذا يقصر الآن فى السفر ؟ قال الرسول : « هذه مكافأة من الله » [٣] / . ٢١٠

كان الرمل من أركان الحج وقت الطواف حيث كان المطوفون يجرون ببطء فى

---

(١) حجة الله البالغة : ٦٠ (المؤلف) .

(٢) سورة النساء : ١٠١ (المترجم) .

(٣) صحيح مسلم : أحاديث صلاة السفر . ٢ / ١٤٣ (المترجم) .

الدورات الثلاث الأولى وكانت بدايته عندما جاء الرسول من المدينة إلى مكة فأشاع الكفار إن المسلمين صاروا ضعافًا لدرجة أنهم لا يستطيعون الطواف حول الكعبة ، فأمر الرسول بالرمل [(١)] بعد أن سمع هذا الكلام واستمر العمل به من بعده حتى اعتبرها الأئمة الأربعة سنة مؤكدة للحج ، لكن عمر قال بوضوح « ما لنا وللرمل إنما كنا رأينا به المشركين وقد أهلكهم الله » [(٢)] . لقد كان عمر كما ذكر شاه ولى الله يريد ترك الرمل لكنه أبقى عليه بعد أن اعتبره ذكرى للرسول ، كما أن عبد الله بن عباس الذى نشأ تحت تربية عمر عندما قيل له إن الناس يعتبرون الرمل سُنة . قال : أخطئوا فى فهمهم [(٣)] .

لقد شرح عمر كثيرًا من مسائل الفقه لدرجة أنه يمكن أن يعد منها رسالة مستقلة وقد تجلت هذه الصفة بوضوح فى جميع المسائل بأنها كانت طبقًا للمصالح العقلية ويثبت من هذا بداهة أن عمر كان أستاذًا ماهرًا فى هذا العلم أى (علم أسرار الدين) .

المحافظة على الأسرار الإسلامية وتنميتها :

إن أعظم مآثر عمر من حيث منصب الإمامة هو أن الأخلاق الحميدة والنفيسة التى علمها الرسول للدنيا والتى كانت الهدف الأصلى لبعثته / كما قال بنفسه : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » قد احتفظت بها الأمة بفضل عمر ، كما تأثرت بها الشعوب الأخرى التى دخلت الإسلام . ٢١١

لقد كان عمر نفسه صورة مجسمة للأخلاق الإسلامية ، فقد كانت قلوب الناس تتأثر تلقائيًا من إخلاصه وانقطاعه إلى الله وتجنبه متع الدنيا وحفظ اللسان والإيمان والصدق وكان كل من يصاحبه يصاغ فى هذا القالب إلى حد كبير ، يقول سور بن مخرمة : لقد كنا نجلس مع عمر لنتعلم التقوى والورع وقد بدأ المسعودى سيرة عمر بهذه الجملة : « إن الصفات التى كانت فيه قد تغلغلت بين قادته وعماله ثم ذكر أسماء سلمان الفارسى وأبى عبيدة وسعيد بن عامر وأوصافهم على سبيل المثال .

---

(١) صحيح مسلم (المؤلف) - صحيح مسلم : ٤ / ٦٤ (المترجم) .

(٢) صحيح البخارى : (المؤلف) - صحيح البخارى : باب الرمل : ٢ / ١٨٥ (المترجم) .

(٣) إزالة الخفاء : ٢ / ١٩٥ (المؤلف) .

القضاء على الغرور والفخر :

إن الأخلاق الذميمة التى ظل أثرها بين العرب من الجاهلية مثل : التفاخر بالأنساب وتحقير الناس والهجاء والعشق والغرام وشرب الخمر وحب الصهباء قام عمر باستئصال جميع هذه الأخلاق السيئة ومحا تمامًا الأشياء التى تؤدى إلى التفاخر والتعالى ، وكان العرب ينادون بأسماء قبائلهم فى المعارك فقضى عمر على ذلك أيضًا ، وألغى جميع الفروق التى كانت تميز بين السادة والعبيد وعندما رفض صفوان بن أمية أن يجلس للطعام مع العبيد عندما دعاه هو ولفيفًا من سادة القوم فقال له غاضبًا : فلم سب الله الذين ينظرون إلى العبيد بعين التحقير .

وذهب مرة جمع غفير من الناس للقاء أُبَى بن كعب وكان صحابيًا جليلاً ، وعندما / نهض من المجلس اصطحبه الناس ومشوا معه احترامًا له ، وكان عمر يمر بالصدقة من هناك فرأى هذه الحالة فضرب أبيًا بدرته فاندهش كثيرًا وقال خيرًا ، ماذا تفعل ؟ قال : « أو ما ترى فتنة للمتبوع ومذلة للتابع » ؟ ٢١٢

منع الهجاء :

كان الشعر وسيلة للهجاء وكان الشعراء ينظمون الهجاء فى كل مكان ولأن الشعر قد نال رواجًا واسعًا بين العرب لذا كان الهجاء أيضًا ينتشر سريعًا فيسبب هذا الهجاء مئات النقائص ، فعد عمر الهجاء جريمة ولها عقاب محدد ولهذا يُعد هذا الأمر من أوليات عمر ، وكان الحطيئة شاعرًا مشهورًا آنذاك وبلغ الكمال فى هذا الفن مثل الشاعر « سودا » (٢) – فى الشعر الأردى – فاستدعاه عمر وسجنه فى السجن ثم أطلق سراحه بشرط ألا يهجو أحدًا قط (٣) . وفى أيام الرسول بدأت قريش تهجو المسلمين

---

(١) مسند الدارمى (المؤلف) مسند الدارمى : ١ / ٣٢ (المترجم) .

(٢) سودا : مرزا رفيع (١١٢٥هـ – ١٧١٣ م – ١١٩٥هـ / ١٧٨١م) من أساتذة الشعر الأردى خاصة فى مجال القصيدة ومن أكبر شعراء مدرسة دلهى وقد تتلمذ على يد سليمان قلى خان داود ثم على يد شاه حاتم وعاش ومات فى لكناو (مصطفى خان شيفته : گلش بى خار ص ٢٤٤ ومحمد حسين أزاد : آب حياته ص ١٠٧) (المترجم) .

(٣) أسد الغابة ترجمة الزبرقان (المؤلف) – أسد الغابة : الزبرقان بن بدر : ٢ / ٢٤٧ – ٢٤٨ (المترجم) .

والرسول نفسه بعد أن عجزت عن الحيل الأخرى ، فأذن الرسول لحسان أن يرد الصاع بالصاع وكانت هذه الأشعار متداولة بعد اعتناق قريش للإسلام فأمر عمر فى عهد خلافته ألا تنشد هذه الأشعار لأنه يتجدد بها الأحقاد والآلام القديمة [(١)] .

منع العشق :

كان الشعر أكبر وسيلة للعشق والهوى أيضًا ، وكان الشعراء ينظمون كثيرًا أشعارًا ماجنة خليعة يصرحون فيها بأسماء من يحبون ، وكانت هذه الأشعار / تتردد على ألسنة الناس لملاءمتها للذوق العام وبسبب هذه الأشعار تتخذ التهتك والخلاعة مكانًا فى أنفسهم فأمر عمر أمرًا قاطعًا بألا يتغزل الشعراء بالنساء ، وقد كتب صاحب « أسد الغابة » هذه الكلمات فى ترجمة حميد بن ثور : « تقدم عمر بن الخطاب إلى الشعراء ألا يشبب أحد بامرأة إلا وجلده » .

٢١٣

منع شرب الخمر :

شدد عمر كثيرًا من عقاب شارب الخمر الذى كان مقررًا من قبل ، فكان شارب الخمر يجلد أربعين جلدة فزادها من أربعين إلى ثمانين جلدة .

ونتيجة لهذه الأمور ومع كثرة الأموال فى هذا العصر واتساع الفتوحات وتوافر جميع أسباب الراحة ووسائل الترفيه ، لم يبتل الناس مع هذا بالترف والرفاهية فاستمرت الحياة المقدسة التى وضع أسسها الرسول - ﷺ .

ترسيخ كلمة الحق والحرية :

إن الاعتزاز بالنفس والإباء هما المنبع الأصلى لنضج الأخلاق وقوتها ولهذا اهتم بهما عمر وهذه هى الميزة التى لا توجد فى تاريخ أى خليفة من الخلفاء فى التاريخ ، أما فى حكم بنى أمية فقد ظهر العداء للحرية حتى إن عبد الملك أمر بألا يعترض أى فرد على أحكامه ، أما عثمان وعلىّ فإنهما لم يتعرضا للحرية البتة ، لكنهما لم يستطيعا أن يمنعا أخطارها التى بسببها نال عثمان الشهادة وتجشم علىّ مشقة معركة الجمل

---

(١) الأغانى تذكرة حسان بن ثابت (المؤلف) - أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى : ٤ / ١٣٥ - ١٣٦ (المترجم) .

وصفين ، أما عمر فكان على العكس من هذا فإنه مع إقامة الحرية بكل معانيها لم يسمح أن يسرى الضعف فى قوة الحكومة ويعتريها النقص / . ٢١٤

وقد أشار فى الرسائل والخطب فى مناسبات مختلفة إلى أن كل فرد يولد حرًا من بطن أمه ولا يمكن لفرد مهما كان وضيعًا أن يعيش بذل أمام أحد ، وعندما ضرب ابن عمرو بن العاص المكرم قبطيًا بلا وجه حق جعل القبطى نفسه يعاقبه بيده أمام الجميع وقال مخاطبًا عمرو بن العاص وابنه :

« مُذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا » .

لقد كان أكثر الرجال تكريمًا بين العرب يلقب بالسيد فى قبيلته ويخاطبه الناس الأدنى منه بهذه الكلمات : « جعلنى الله فداءك » و « بأبى وأمى » ولأن هذه الكلمات يفوح منها رائحة العبودية والمذلة أعرب عمر عن سخطه وعدم رضاه عنها فى مواقع مختلفة ، قال له شخص « جعلنى الله فداءك » قال : « إذن يُهنيك الله » فقد شجع عمر بطريقته هذه الناس على قدر كبير من الصراحة والحرية ونستطيع أن نقدرها تقديرًا صحيحًا من الأحداث التالية :

صعد عمر ذات مرة على المنبر وقال : « ما تفعلون لو ملت إلى الدنيا ؟ » / فقام رجل وسحب السيف من غمده وقال : أطيح برأسك . فزجره ليختبره وقال : أتقول لى هذا الكلام ؟ قال : نعم ، فقال عمر : « الحمد لله أن مثل هؤلاء الناس موجودون بيننا كى يقومونى إذا اعوججت » . ٢١٥

لقد تزوج أكثر الصحابة بعد فتح العراق من نصرانيات فكتب عمر إلى حذيفة بن اليمان وقال إنى لا أرى هذا ؟ فكتب له فى الرد هل هذا الحكم هو رأيك الشخصى أو حكم شرعى ؟ فكتب إليه عمر إنه رأيى ، فأرسل له حذيفة يقول : لا يجب علينا أن نلتزم برأيك الشخصى ولهذا تزوج كثير من الناس رغم اعتراض عمر .

وذكر اليعقوبى أن عمر عقد ذات مرة مزادًا علنيًا لأموال وأمتعة تخص العمال وأدخل نصفه إلى بيت المال ، فقال له أحد العمال بصراحة وكان اسمه أبو بكرة « إذا كان هذا المال لله وجب إدخاله كله إلى بيت المال ولو كان لنا فأى حق لك حتى تأخذ منه ؟ » .

لقد كان لتعليم عمر وتربيته أثر على كل عضو فى الأمة الإسلامية حتى أصبح

صورة للاستغناء وحب الحق والحرية والجرأة والتواضع والحلم والسعادة والطهارة . فلو رأيت رسمًا لمحافل ذلك الوقت كما رسمها التاريخ لظهرت هذه الملامح بوضوح فى وجه كل شخص .

كيفية اجتهاد المحدث والفقيه من حيث الاجتهاد فى الحديث والفقه :

حقًا إن علم الحديث والفقه كليهما من وضعه وإعداده ، لقد كان هناك محدثون وفقهاء آخرون / من الصحابة إلاّ أن عددهم لم يتجاوز العشرين أما بداية علم الحديث والفقه فقد كانت على يد عمر وكان أول من أرسى قواعد هذا الفن وأصوله . ٢١٦

تفحص الأحاديث :

كان أول عمل قام به عمر بصدد الأحاديث هو أنه أولى اهتمامه بفحص الروايات وتصحيحها ، فلم يكن هناك اهتمام باستقصاء الأحاديث فى عهد رسول الله وكلما كانت تظهر قضية كان يُسئل عنها الرسول نفسه ، لذا لم يكن هناك أى من الصحابة يحفظ الأحاديث المتعلقة بجميع أبواب الفقه كلها ، أما فى عهد أبى بكر فقد مسته الحاجة إلى الأحاديث كثيرًا فكان يستفسر كثيرًا من الصحابة كلما دعته الحاجة . وهكذا مهد السبيل إلى البحث والاستقراء فى الأحاديث ، وفى عهد عمر ظهرت أحداث كثيرة نتيجة للتوسع فى الفتوحات وكثرة المسلمين الجدد فأظهرت مئات المسائل والقضايا الجديدة لذا فإنه قام بتفحص الأحاديث بطريقة جيدة وبإمعان لكى تقرر فى هذه المسائل طبقًا لأقوال الرسول - ﷺ - وكان عندما ينظر مسألة جديدة كان عمر كثيرًا ما يعلن فى جمع عام فيه معظم الصحابة قائلاً : هل من أحد يعرف حديثًا يتعلق بهذه المسألة ؟ وكثير من المسائل المذكورة بالتفصيل فى كتب الحديث مثل تكبيرة الجنازة وغسل الجنابة وجزية المجوس وغيرها ، وقد استقصى الأحاديث النبوية المتعلقة بها بعد أن استفسر عنها عمر من جميع الصحابة .

---

(١) كنز العمال : ٦ / ٣٥٥ (المؤلف) .

نشر الأحاديث :

تزداد الأحاديث قوة حسب نشرها فتصبح سندًا للمتأخرين لهذا اختار عمر كثيرًا من الخطط والتدابير لنشرها وترويجها ، / وهى : - ٢١٧

١ - كان يرسل الأحاديث النبوية إلى حكام المراكز بعد أن ينقلها بحذافيرها وبهذه الطريقة تنتشر الأحداث بين عامة الناس وهذه الأحاديث كثيرًا ما كانت تتعلق بالمسائل والأحكام .

٢ - أرسل علماء من الصحابة الذين كانوا يعدون من أركان فن الحديث إلى مختلف البلاد لتعليم الحديث . ويكتب شاه ولى الله « ولهذا بعث الفاروق الأعظم : عبد الله بن مسعود مع جمع إلى الكوفة وأرسل معقل بن يسار وعبد الله بن مغفل وعمران بن حصين إلى البصرة ، كما أوفد عبادة بن الصامت وأبا الدرداء إلى الشام . ثم بعث إلى معاوية بن أبى سفيان الذى كان أميرًا على الشام تحذيرًا بليغًا فحواه ألا يتغاضى عن أوامره »[١] .

نكتة حساسة :

وهنا نكتة حساسة جديرة بالاهتمام فى هذا المكان هى أن عمر اهتم اهتمامًا كبيرًا بنشر الحديث ، لكنه روى بنفسه أحاديث قليلة فلم تزد الأحاديث المرفوعة المروية عنه برواية صحيحة عن سبعين حديثًا ، وهذه الفكرة صحيحة فى الظاهر لكن هناك سوء فهم فى الواقع ، وإن هذه الأصول مسلم بها لدى المحدثين وهى أن الصحابى إذا ذكر مسألة ما لم يكن لرأيه واجتهاده دخل فيها ، ولم يذكر اسم الرسول - ﷺ - يكون معنى هذا أنه سمعها عن رسول الله ، وأن هذه الأصول مطابقة تمامًا للعقل فى الواقع ، فعلى سبيل المثال أرسل عمر إلى جميع الممالك « أن الزكاة أشياء معينة بنصاب محدد » فهل هناك مجال للشك بأن عمر نفسه هو المشرع ؟ وأنه يُصدر الأحكام من جانبه فمن المؤكد لا محالة أن الرسول قد أصدر / هذه الأحكام المتعلقة بالزكاة أما الفرصة الباقية لهذا الاحتمال هى أن عمر لم يفهم المعنى الصحيح للحديث - ولهذا فمن الممكن أن الرسول ٢١٨

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ٦ (المؤلف) .

لم يقرر هذا المقدار بهذه الكمية بل إن عمر اعتبره فرضًا طبقًا لفهمه - لكن هذا الاحتمال يظل قائمًا أيضًا فى الأحاديث التى لم يذكر الصحابى فيها اسم الرسول علانية .

وبناء على هذه الأصول فإن عمر قد بين فى خطبته وتوجيهاته المكتوبة وأوامره المسائل الجوهرية التى تتعلق بالزكاة والحج والصوم والصلاة وغيرها وهى فى الحقيقة أوامر الرسول - ﷺ - وإن لم يذكر اسم الرسول - ﷺ .

يقول شاه ولى الله : سابعًا إنه يورد مضامين الأحاديث فى خطبه حتى تستمد أصول الأحاديث قدرًا من القوة والصحة من خلال مفهوم الخليفة ، أما الصحابة الذين لم يكونوا يتعمقون فى مفهوم الحديث فإنهم كانوا مقيدين على الدوام بالأحاديث المتفق عليها ، فلم يصح عن أبى بكر الصديق إلا ستة أحاديث ولم يصح عن الفاروق إلا ما يقارب سبعين حديثًا ، فهم لا يفهمون ولا يدركون أن الفاروق عمر قد أحكم جميع علوم الحديث قاطبة ونشرها » (1) .

فرق المراتب فى الأحاديث :

إن ما قام به عمر فيما يتعلق بتفحص الحديث والبحث عنه ونشره وترويجه كانت أعمالاً مهمة بدايتها فردية إلا أن العمل الأصلى العظيم الذى يعد من فضائله فى هذا الباب هو شىء آخر أيضًا خاص به - فالرغبة والميل العام لدى المسلمين تجاه الأحاديث فى ذلك الوقت كان السبب الأكبر فى نشر الأحاديث تلقائيًا ، إلا أن فرق المراتب والدقائق فى الفهم التى أوجدها عمر فيه لم تقع عليها عين أحد ، لقد اعتنى أول ما اعتنى بهذا الأمر وهو أن كل الأحاديث تكون جديرة بالاهتمام / لأنه مع أن كل قول وفعل للرسول هو الكنز المنشود للمتدينين إلا أن الظاهر هو « الأهم فالأهم » . وبناء على هذا فإن عمر بذل جل اهتمامه فى رواية ونشر تلك الأحاديث التى يستنبط منها مسائل الأخلاق أو المعاملات أو العبادات ولم يكن يهتم كثيرًا برواية الأحاديث التى كانت تخرج عن نطاق تلك الموضوعات وهذه نقطة هامة راعاها وهى ألا تختلط أقوال الرسول وأفعاله التى تتعلق بمهمة الرسالة بالتى لها صفة البشرية . يقول شاه ولى الله :

٢١٩

(1) إزالة الخفاء : ٢ / ٦ (المؤلف) .

« ثبت بالدراسة أننا علمنا أن الفاروق كان يبذل قصارى جهده لاختيار الأحاديث الصحيحة المتعلقة بنشر الشرائع وتفقيه المسلمين من غيرها من الأحاديث الأخرى ، لهذا كان مقلاً فى رواية الأحـــاديث التى تتعلق بصفات الرســول - ﷺ - وأحاديث السنن الزائدة فى العادات لسببين : أولهما أن تلك ليست من العلوم التى لها صفة التكليفية والتشريعية إذ أنه من المحتمل أنه عندما يهتم بروايتها اهتمامًا كاملاً ينجم حدوث الخلط والاشتباه فى بعض الأشياء المتعلقة بالسنن الفرعية » (١) .

وكان عمر لا يهتم أبدًا برواية تلك الأحاديث التى نقلت فيها الأدعية بكلمات خاصة مع أنها كم هائل من الأحاديث فى روايات كثير من الصحابة والسبب كما ذكره شاه ولى الله « أن عمر كان يعرف هذا الأمر وهو أن قبول الدعاء أو عدم قبوله لا يتوقف على الكلمات بل على التضرع والإخلاص » (٢) .

إن أكبر عمل قام به عمر فى هذا العلم هو اختراع فن الجرح والتعديل وتحقيق الأحاديث ونقدها / . ٢٢٠

تحقيق الرواية :

توجد هذه الحالة فى العصر الحاضر بل منذ زمن بعيد وهى أن ما ينسب للرسول ينال قبولاً وانتشارًا حتى ولو كان غير صحيح وبناء على هذا اندست المزخرفات اليهودية (الإسرائيليات) فى مجموعة الأحاديث النبوية فلم يفعل المحدثون إلا أن وضعوا قيود الجرح والتعديل لمنع انتشارها ، لكن عندما يثبت لديهم عدل الراوى فإنهم كانوا يجدون البحث فى أمر الحديث ، ومع هذا رسخوا هذه الفكرة عمومًا فى القرن الأول وهى عدم احتمال الضعف فى الرواية ، إلا أن عمر كان عليمًا بهذه النقطة وهى أن الأمور المتعلقة بالخصائص البشرية لا يمكن استثناؤها فى أى زمن ولهذا فإنه كان يراعى جميع تلك الاحتمالات فى تحقيق الأحاديث التى جاء بها المحدثون فى العصور التالية ، لقد جاءه أبو موسى الأشعرى مرة وقال للاستئذان ثلاث مرات « السلام عليكم أبو موسى حضر » وكان عمر فى ذلك الوقت منهمكًا فى عمل ما ولهذا لم يعره

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ١٤١ (المؤلف) .

(٢) إزالة الخفاء : ٢ / ١٤١ (المؤلف) .

التفاتًا وعندما انتهى من العمل قال أين أبو موسى ؟ فجاء فقال : لماذا رجعت ؟ قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول إذا طلبت الإذن ثلاث مرات ولم يؤذن لك فارجع ، قال عمر : أقم الدليل على هذه الرواية وإلا أنزلت بك العقاب فذهب أبو موسى عند الصحابة وشرح لهم حقيقة الأمر ، فجاء أبو سعيد وشهد أننى سمعت هذا الحديث من رسول الله وقال أبى بن كعب يا عمر إنك تريد أن تعذب أصحاب رسول الله ؟ فقال : سمعت رواية / وأردت تأكيدها [١] . ٢٢١

وهناك مسألة مختلف فيها فى الفقه وهى أن المرأة التى تطلق طلقة بائنة هل تحصل على النفقة والمسكن حتى انقضاء فترة عدتها أو لا ؟ ففى القرآن الكريم ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ [٢] فيثبت من هذه الآية أنه يجب أن تحصل على المسكن وأن النفقة شىء ضرورى ولازم للمسكن . كانت فاطمة بنت قيس صحابية جليلة طلقها زوجها طلقة بائنة فأتت رسول الله تسأل هل لى حق النفقة أو لم ؟ فقال لها الرسول : لا . بناء على وصفها . فقصت فاطمة هذه الرواية أمام عمر فقال عمر : « لا نترك كتاب الله بقول امرأة لا ندرى لعلها حفظت أو نسيت » .

وعندما ظهرت مسألة السقط تشاور عمر مع الصحابة فروى المغيرة حديثًا يتعلق بها فقال عمر لو كنت صادقًا أشهد عليه ، فقبله عمر عندما شهد محمد بن مسلمة بذلك ، وكذلك فى قضية العباس عندما قدم حديثًا فطلب عمر منه شهادة للتأكد من الحديث وعندما شهد كثير من الناس قال له عمر ما ظننت فيك سوءًا ولكننى أردت الاطمئنان إلى الحديث [٣] / . ٢٢٢

منع كثرة الرواية :

لأن عمر كان واثقًا من أن الرواية يحدث فيها الزيادة أو النقص لذا شدد الاحتياطات فى صدد الرواية بدرجة لا يمكن للناس فى الوقت الحاضر أن يثقوا فيها إلا

---

(١) هذه الواقعة مذكورة بالتفصيل بطرق متعددة فى صحيح مسلم باب الاستئذان (المؤلف) .
- صحيح مسلم : ٦ / ١٧٩ - ١٨٠ (المترجم) .
(٢) الطلاق : ٦ (المترجم) .
(٣) هاتان الروايتان مذكورتان فى تذكرة الحفاظ فى سيرة عمر (المؤلف)

بصعوبة ولهذا فلن أكتب فى هذا المكان شيئًا من عندى بل أنقل ما كتبه كبار المحدثين وسوف أترجمه ترجمة حرفية ، فالعلامة الذهبى الذى لم يأت محدث بعده أفضل منه وكان شيخ شيوخ ابن حجر والسخاوى يكتب فى تذكرة الحفاظ عن سيرة عمر ما يلى : « وقد كان عمر من وجله يخطئ الصاحب على رسول الله ، يأمرهم أن يقلوا الرواية عن نبيهم ولئلا يتشاغل بالأحاديث عن حفظ القرآن ، عن قرظة بن كعب قال : لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر وقال : أتدرون لما شيعتكم قالوا : نعم . مكرمة لنا . قال ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله - ﷺ - وأنا شريككم فلما قدم قرظة قالوا / حدثنا ، فقال نهانا عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة قلت له كنت تحدث فى زمان عمر هكذا فقلت لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمحفته إن عمر قد حبس ثلاثة ابن سعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصارى فقال : لقد أكثرتم الحديث عن رسول الله - ﷺ » . ٢٢٣

وقد جاء فى مسند الدارمى بعد نقل رواية قرظة بن كعب « كان هدف عمر أن تقل الروايات الخاصة بالغزوات ، ولم يكن يقصد بها الفرائض والسنن ويذكر شاه ولى الله بعد أن نقل رواية الدارمى هذه أنه فى رأيى أن الأحاديث المقصودة هى أحاديث شمائل الرسول وصفاته لأنه لا يتعلق بها أى غرض شرعى ولم يؤخذ الحذر فى رواية تلك الأحاديث بحفظها وضبطها [1] .

وفى رأينا لا داعى لتلك التأويلات لأن هدف عمر ذاته يتضح من تصريحه ، فالمؤرخ البلاذرى الذى كان محدثًا روى فى أنساب الأشراف أن عمر عندما كان الناس يسألونه عن مسألة فإنه يقول : / « لولا أنى أكره أن أزيد فى الحديث أو أنقص لحدثتكم به » . ٢٢٤

وقد روى المؤرخ المذكور هذه الرواية بسند متصل ورواته هم : محمد بن مسعد وعبد الحميد بن عبد الرحمن الحمانى والنعمان بن ثابت (أى الإمام أبو حنيفة) وموسى بن طلحة وأبو الحويتكة ، فالهلع الذى كان يعترى عمر يجب أن يكون كذلك بالنسبة

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ١٤١ (المؤلف) .

للآخرين ، وتؤكد هذه الفكرة هذا الأمر أن عبد الله بن مسعود الذى تأدب تأدبًا خاصًا على يد عمر فى الموضوعات العلمية كتب عنه المحدثون أنه : « يشدد فى الرواية ويزجر تلامذته عن التهاون فى ضبط الألفاظ »(١) .

وذكر المحدثون عنه أيضًا أنه كان يروى الحديث بقلة حتى إنه كان يمضى عليه العام ولا يقول . « قال رسول الله »(٢) فالحذر الذى كان يأخذه عمر فى رواية الحديث كان كبار الصحابة قبله يفعلونه . وقد كتب الذهبى فى تذكرة الحفاظ فى سيرة أبى بكر أن أبا بكر كان أول من أخذ حذره فى باب الأحاديث ، وروى الذهبى عن حاكم أن أبا بكر كان قد دون خمسمائة حديث لكنه أحرقها بالنار بعد ذلك وقال من الممكن أن أعد أحدًا ثقة ورويت عنه وهو ليس ثقة فى الحقيقة لكن كان هناك فرق بين حذر عمر وحذر باقى الصحابة / فالصحابة كانوا يراعون فقط كون الراوى ثقة أو عدم ثقة ، أما عمر فإنه بجانب اهتمامه كان يهتم بإدراك الراوى لحقيقة الحدث إدراكًا كاملاً أولاً وبناء على هذا آخذت السيدة عائشة أبا هريرة كثيرًا فى كثرة رواياته وإلا ما حدث جدال فى عدل أبى هريرة .

٢٢٥

إن احتياطات عمر وقيوده وضبطه للأمور قد نتجت عن الإقلال فى رواية الأحاديث ولكن كل ما روى منها كان بعيدًا عن جميع أنواع الاحتمالات ، وبالرغم من أن الأحاديث انتشرت كثيرًا بعده لكن لم تبق لها تلك المكانة القوية من الثقة والاعتماد ، ولقد صدق شاه ولى الله حينما كتب أن « الصحابة كلهم عدول ورواياتهم موثوق بها وينبغى العمل بها عندما يثبت بالرواية الصادقة ، أما الفرق فيما بين ما وجد من حديث وفقه فى عهد الفاروق وما حدث بعده فهو كالفرق بين السماء والأرض »(٣) .

الصحابة قليلو الرواية :

إن ما بدر من عمر فى احتياطه وحذره فيما يتعلق بالأحاديث مع أنه لم يرج رواجًا عامًا ولم يتأثر الصحابة المحققون به إلا أنه عرف عن عبد الله بن مسعود عن مسند

(١) تذكرة الحفاظ : تذكرة عبد الله بن مسعود (المؤلف) .

(٢) تذكرة الحفاظ : ١ / ٤ (المترجم) .

(٣) إزالة الخفاء : ١٤١ (المؤلف) .

الدارمى وغيره أن لون وجهه كان يتغير فى أثناء رواية الأحاديث ، وعندما كان يذكر كلمات الرسول كان يقول إن الرسول قد قال هذه الكلمات أو كما قال ، أو قريبًا منها أو مثلها ، وكان أبو الدرداء وأنس يفعلان مثل ذلك وكلاهما من كبار الصحابة ، ويذكر الإمام / الشعبى أننى بقيت طوال العام مع عبد الله بن عمر وسمعت عنه فى هذه ٢٢٦ المدة حديثًا واحدًا فقط ويروى ثابت بن قطبة الأنصارى أن عبد الله بن عمر كان يروى حديثين فقط طوال الشهر ، وعلى حد قول صائب بن يزيد إننى ذهبت مع سعد بن أبى وقاص من مكة إلى المدينة وعدت لكنه لم يرو عنه حديثًا واحدًا فى هذه الفترة ، وجميع هذه الوقائع والروايات مروية بسند متصل فى صحيح الدارمى [١] .

والمبادئ والأصول السالفة التى أرساها عمر يمكن بيانها مجملة كالتالى : -

١ - يجب أن تكون الرواية باللفظ (حرفيًا) .

٢ - كون الراوى ثقة فقط لا يكفى لصدق الرواية .

٣ - خبر الواحد يحتاج إلى شهادة تؤيده ويسمى هذا فى اصطلاح المحدثين « التابع والشاهد » .

٤ - الخبر الواحد ليس جديرًا بالحجة دائمًا .

٥ - إن مراعاة خصوصيات المكان والمناسبة شرط من شروط الاعتبار فى الرواية .

علم الفقه :

إن فن الفقه كله من ترتيب عمر وإعداده ، وقد اعترف جميع الصحابة بأفضليته وجدارته فيما يتعلق بهذا الفن ، جاء فى مسند الدارمى أن حذيفة بن اليمان قال إن الإفتاء مهمة الشخص الذى يكون إمامًا يعرف الناسخ والمنسوخ فى القرآن فسأل الناس / ومن يكون هذا ، قال حذيفة : عمر بن الخطاب . وعلى حد قول عبد الله بن ٢٢٧ مسعود لو وضع علم العرب جميعًا فى كفة وعلم عمر فى كفة لرجحت كفة عمر [٢] .

---

(١) مسند الدارمى مطبعة نظامى كانبور ص ٤٥ - ٤٨ (المؤلف) - مسند الدارمى : ١ / ٨٤ (المترجم) .

(٢) الاستيعاب للقاضى عبد البر وإزالة الخفاء : ٢ / ١٨٥ (المؤلف) .

- القاضى عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : ٣٧٠ - ٣٧٣ (المترجم) .

وكتب العلامة أبو اسحق الشيرازى الذى كان مدرسًا كبيرًا فى المدرسة النظامية كتابًا فى سيرة الفقهاء ذكر فيه أن « فى سيرة عمر كثيرًا من أقوال الصحابة والتابعية وذكر فى النهاية : « لولا خوف الإطالة لذكرت من فقهه ما يتحير فيه كل فاضل » .

عمر مرجع لكل سلسلة الفقه :

وما كتبه العلامة المذكور سوف نذكره - فيما بعد - بقدر من التفصيل أما هنا فيجب أن نذكر أولاً أن سلسلة الفقه الموجودة اليوم فى الإسلام كان مرجعها الأعلى ذات عمر المباركة والأماكن التى تعد مراكز للفقه فى البلدان الإسلامية هى : مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام وسبب هذا أن كبار شيوخ الفقه ومؤسسى هذا الفن كانوا من سكان هذه البلاد ، فعلى سبيل المثال كان شيخ مكة عبد الله بن عباس ، وزيد ابن ثابت وعبد الله بن عمر كانا من شيوخ المدينة المنورة ، وعلى بن أبى طالب وعبد الله ابن مسعود وأبى موسى الأشعرى كانوا من شيوخ الكوفة ، وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل كانا من شيوخ الشام . وقد استفاد أكثرهم من صحبة عمر (عدا الإمام على) وبصفة خاصة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود فقد صنعوا على عينه . وعلى حد قول عبد الله بن مسعود / « أعرف أن الجلوس مع عمر ساعة أفضل من عبادة عام » [1] . وكان عبد الله بن عباس قد تربى فى كنف عمر حتى كان الناس يحسدونه على هذا ، ويروى عبد الله بن عباس نفسه فى صحيح البخارى [2] أن عمر كان يجلسه مع شيوخ بدر فاعترض بعض الصحابة لصغر سنة ولأن أقرانه من أولادهم لا يشاركونه هذا الشرف فرد عليهم عمر بأنهم يدركون علمه وفضله .

٢٢٨

ويقول المحدث عبد البر فى الاستيعاب « كان عمر يحب ابن عباس ويقربه » وما من مسألة تعرض فى مجلس عمر إلا ويرغب عبد الله بن عباس فى الإجابة عليها لكنه يتردد بسبب حداثة سنه وكان عمر يقوى من عزيمته ويقول : « إن العلم لا يرتهن بصغر السن أو كبره » ولو حاول أى شخص أن يوفق بين اجتهادات عبد الله بن عباس وقضايا

---

(١) استيعاب القاضى عبد البر : (المؤلف) - القاضى عبد البر : الاستيعاب : ٣٧٠ - ٣٧٣ (المترجم) . أيضًا : إزالة الخفاء : ١ / ١٣٩ (المؤلف) .

(٢) صحيح البخارى : ٦١٥ (المطبعة الأحمدية ميرته) (المؤلف) -

- صحيح البخارى : ٦ / ٢٢٠ - ٢٢١ (المترجم) .

عمر ، فسوف يتضح جيدًا التوافق بينهما كالتوافق بين الأستاذ والتلميذ ، أما عبد الله ابن عمر (ابنه) وزيد بن ثابت فقد قضى كلاهما سنوات طويلة فى صحبة عمر يكتبان له ، ويذكر الإمام الشعبى أن عمر قد استفاد من التعاون بين عبد الله بن مسعود وزيد ابن ثابت ولهذا السبب كانت مسائلهما تتشابه فيما بينهما [1] .

أئمة الفقه الستة من الصحابة :

يذكر المحدثون بوجه عام أن علم الفقه ينحصر فى ستة رجال من أصحاب رسول الله - ﷺ - وهم : عمر وعلىّ وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى . وقد كتب الإمام محمد فى كتاب الآثار أن « ستة من أصحاب النبى - ﷺ - يتذكرون الفقه بينهم هم على بن أبى طالب وأبى بن كعب وأبو موسى على حده وعمر وزيد وابن مسعود » وعلى حد قول صفوان بن سليم : « لم يكن يفتى فى زمن النبى - ﷺ - غير عمر وعلىّ ومعاذ وأبى موسى » [2] وهذا قول الإمام الشعبى : « كان العلم يؤخذ عن ستة من الصحابة » [3] .

وبالرغم من أن هذا التحديد يبدو مستبعدًا فى الظاهر لأنه كون أربعة أو ستة مفتيين بين آلاف الصحابة خلافًا للقياس والمنطق ولكن الحقيقة هى أن كثيرًا من المسائل الفقهية التى يستند فيها إلى حديث صحيح وواضح وصريح ولا يوجد حديث آخر يعارضه فإنه يكفى معرفة الأحاديث فى هذه المسائل ، وعلى عكس هذا فهناك كثير من القضايا التى ليس فيها حكم صريح فى الحديث بل يستخرج الحكم / عن طريق قواعد الاستنباط أو لها حكم صريح ولكن يوجد أحاديث أخرى معارضة لها ، فمن الواجب استخدام الاجتهاد والاستنباط فى مثل هذه الحالات وهذا هو حقيقة الفقه ، فقد كان هناك كثير من كبار الصحابة الذين كانوا يفتون فيما يتعلق بالنوع الأول من المسائل ويطلق عليهم اسم المفتى ويصل عددهم إلى عشرين ، إلا أن الحكم فى قضايا النوع الثانى كان مهمة أولئك الذين أسسوا هذا الفن وكانوا أئمة له وكانوا هم الستة الكبار الذين مر ذكرهم

٢٣٠

(١) فتح المغيث صفحة ٣٨١ (المؤلف) .

(٢) تذكرة الحفاظ للعلامة الذهبى ذكر أبو موسى الأشعرى (المؤلف) .

(٣) فتح المغيث صفحة ٣٨١ (المؤلف) .

فيما مضى . ويقول شاه ولى الله عندما يذكر اسم الصحابة الأربعة أى عمر وعلىّ وابن عباس : « وأما غير هؤلاء الأربعة فكانوا يروون دلالة ولكن ما كانوا يميزون الركن والشرط من الآداب والسنن ولم يكن لهم قول عند تعارض الأخبار وتقابل الدلائل إلا قليلاً كابن عمر وعائشة وزيد بن ثابت »[1] .

على كل حال فإن الصحابة المجتهدين كانوا لا يزيدون عن ستة صحابة وحقيقة الأمر أن الذين كانوا يجلسون مع علىّ لم يكونوا حجة فى علم الحديث وروايته فقد ورد فى مقدمة صحيح مسلم أن « الرواة الذين يروون عن الإمام علىّ لا يعتد بهم فيما عدا رفاق عبد الله بن مسعود » . أما معاذ بن جبل فقد أرسله عمر بنفسه إلى الشام للرواية والتعليم ، لكنه توفى سنة ١٨هـ ولهذا كما ذكر شاه ولى الله / أنه « لم يبق كثير من حديثه » وكان عبد الله بن مسعود وأبو موسى من خاصة تلاميذ عمر ، وكان زيد بن ثابت فى البداية مقلدًا لعمر ، يقول شاه ولى الله : « وزيد بن ثابت كثيرًا ما يتبعه فى المسائل »[1] . ويتضح من هذه الأحداث أن الناس الذين اشتهروا بالفقه من الصحابة قد تأدبوا جميعًا على يد عمر ، وكان اجتهاد عمر فى المسائل الفقهية اجتهادًا لم يسبقه أحد لأنه قد جعل الفقه نصب عينيه منذ بداية الإسلام وعندما كان يلقى أى غموض فى القضايا الفقهية المذكورة ومخالفتها ظاهرًا للقرآن كان يستفسر عنها الرسول نفسه ، ولا يكف أو يهدأ حتى يطمئن اطمئنانًا كاملاً ، ولم يكن هذا الأمر يتأتى لباقى الصحابة لأنه لم يكن فيهم أى شخص يدانيه أو يتجرأ على المثول بين يدى رسول الله ويتحدث ويسمع منه ، ففى مسألة الكلالة وهى إحدى القضايا الحساسة التى يوجد فيها اختلاف كثير سأل عمر عنها الرسول مرارًا حتى تضايق منه وقال ألا يكفيك الآية الأخيرة لسورة النساء[2] .

٢٣١

---

(١) حجة الله البالغة : ١٣٧ (المؤلف) .

إزالة الخفاء : ٢ / ٨١ (المؤلف) .

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ٨٣ (المؤلف) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (المؤلف) – الإمام أحمد بن حنبل : المسند : ١ / ٢٣٦ (المترجم) .

تدوين القضايا المعقدة :

كان عمر يدون القضايا والمسائل المعقدة على هيئة مذكرات ويمعن النظر فيها مرارًا ويدون الرأى الذى يطرأ عليها ويتعلق بها من وقت لآخر وكان يغير فيه ويثبت بالتفكير والنظر فقد دون رأيه فى ميراث العمة وأخيرًا محاه ، وقد ذكر الإمام محمد ذلك فى الموطأ[1] .

٢٣٢

وقد نقل القسطلانى فى شرح البخارى عن مرجع موثوق به أن عمر قد أثبت مائة رأى مختلف فيها فيما يتعلق بميراث الجد ، وظل يجتهد ويحاول فى بعض القضايا / ولم يستطع أن يبدى رأيًا قاطعًا فيها حتى لحظة وفاته . وقد ورد فى مسند الدارمى أنه دون رأيه بميراث الجد لكنه طلبها عندما اقترب أجله وطمسها وقال : « احكموا فيها بأنفسكم » وهذه الرواية مذكورة أيضًا فى الكتاب بأنه عندما جرح عمر استدعى الصحابة وقال : قد كنت قطعت رأيًا فى ميراث الجد فاقبلوه إن أحببتم ، فقال : عثمان لو يقبل رأيك فهذا أفضل ؟ ولكن لو يقبل الناس رأى أبى بكر فإنه كان ذا بصيرة عظيمة » وكان كثيرًا ما يقول : ليت رسول الله كان قد دون أى وثيقة تتعلق بثلاث مسائل : الكلالة وميراث الجد وبعض أنواع الربا ، أما التفكير الذى يراوده فى القضايا المهمة ربما يكفى المثال التالى لتقدير اهتمامه بها لقد ذكر الله - تعالى - فى بيان الورثة نوعًا من أنواعها باسم الكلالة ولما لم يكن هنالك تعريف مذكور للكلالة بالتفصيل فى القرآن الكريم لذا حدث خلاف بين الصحابة بالنسبة للورثة الذين يدخلون فى الكلالة ، وقد سأل عمر الرسول نفسه عدة مرات ولكنه لم يقتنع بذلك فكتب مذكرة وأعطاها للسيدة حفصة للاستفسار من الرسول ثم أنه فى عـهد خلافته جمع جميع الصحابة وعرض عليهم هذه المسألة لكنه لم يطمئن اطـمئنانًا كافيًا بهذه المحاولات كلها . فكان يقول : لو أن الرسـول أخبرنى عن حقـيقة هذه الأشياء الثلاثة لكان بالنسبة لى خيرًا من الدنيا وما فيها . وقد نقل المحدث عماد الدين بن كثير فى تفسيره للقرآن موضوعات : الخلافة والكلالة والربا ورجع فى بيان جميع تلك الأحداث إلى الأحاديث الصحيحة .

---

(١) موطأ الإمام محمد صفحة ٣١٦ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ٢٥٢ (المترجم) .

ظهور قضايا جديدة بسبب اتساع الفتوحات :

كانت قد ظهرت قضايا جديدة بسبب ازدياد الفتوحات وكانت الحضارة والمدنية فى تطور مستمر يومًا بعد يوم / وبالرغم من أنه كان هناك دائمًا قاض ومفت من كبار الصحابة ، مع هذا كان هؤلاء الصحابة يعجزون فى حل كثير من القضايا ويرجعون إلى الخلافة وبناء على هذا اضطرت الحاجة عمر للتفكير وإمعان النظر فى كثير من المسائل المعقدة غير المنصوص عليها وفتاويه مذكورة بكثرة فى جميع الكتب ويتعلق معظم هذه الفتاوى بالمسائل التى كانت تأتيه من البلاد المختلفة ليفتى فيها وذكرت هذه الفتاوى فى كتاب ابن أبى شيبة وغيره كما ذكرت أسماء الذين استفتوا فيها مثل : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبى موسى الأشعرى وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة وغيرهم . ٢٣٣

تقرير القضايا بمشورة الصحابة :

بالرغم من أن عمر نفسه كان فقيهًا كبيرًا ويمكن أن يكفى رأيه بمفرده للفتوى إلا أنه مع ذلك كان يتوخى الحذر ويعرض أكثر القضايا فى مجلس الصحابة عمومًا فيبحثونها بحرية ودقة فى البيان . وقد كتب العلامة البلاذرى فى كتاب أنساب الأشراف أن عمر كان لا يفصل فى مسألة لم يتم الفصل فيها من قبل بدون أخذ رأى الصحابة ويقول شاه ولى الله فى حجة الله البالغة : « كان من سيرة عمر أنه كان يشاور الصحابة ويناظرهم حتى تنكشف الغمة ويأتيه الثلج فصارت معظم قضاياه وفتاواه متبعة فى مشارق الأرض ومغاربها » .

إن عدد القضايا التى فصل فيها عمر بعد أن قدمها إلى جماعة الصحابة ليس بقليل وتجدها / بكامل تفاصيلها فى كتب الأحاديث والآثار النبوية فمثلاً روى البيهقى أنه كان هناك اختلاف بين الصحابة على طريقة خاصة للتطهر من الجنابة (وصرح البيهقى بها كذلك) فأمر عمر أن يجمع المهاجرون والأنصار وقدمت تلك المسألة فى المجلس واتفق جميع الصحابة على رأى واحد وخالفهم علىّ ومعاذ فقال عمر : لما أنتم أصحاب بدر مختلفون فى الرأى فماذا يكون الحال بعدكم ؟ وخلاصة القول أنه ترك الفصل فى القضية لأزواج النبى المطهرات وحينما فصلن فيها نفذ عمر حكمهن . وهكذا كان هناك خلاف شديد بين الصحابة بخصوص عدد تكبيرات الجنازة فعقد عمر مجلس الصحابة ٢٣٤

وقرر فيه البحث عما كان عليه النبى فى آخر مرة ، وقد ثبت من هذا البحث أن صلاة الجنازة الأخيرة التى صلاها الرسول كان قد كبر فيها أربع تكبيرات . وهناك كثير من القضايا لكن لا يتسع هذا المكان لتفصيلها .

عدد موضوعات عمر الفقهية :

إن عدد المسائل الفقهية المروية بروايات صحيحة عن عمر يصل عددها إلى عدة آلاف من بينها ألف قضية تقريبًا تعد من أهم قضايا الفقه وقد قلده الأئمة الأربعة فى تلك القضايا ، ويكتب شاه ولى الله : « إن المجتهدين من متبعى ومقلدى المذهب الفاروقى فى أهم قضايا الفقه كانوا يرجعون إليه فى نحو ألف مسألة تقريبًا » (١) وهذه المسائل منقولة فى مصنَّف ابن أبى شيبة وغيره وبمساعدته كتب شاه ولى الله رسالة مستقلة فى الفقه الفاروقى وألحقها بكتابه « إزالة الخفاء » .

أصول الفقه :

هذا البحث الذى قدمناه يتبع تدوين المسائل ، إلا أن الأثر الخالد لعمر فيما يتعلق بفن الفقه / شىء آخر فهو لم يدون الجزئيات فحسب ، بل أقر قواعد أصول تفريع واستنباط المسائل التى تعرف اليوم باسم « أصول الفقه » .

٢٣٥

كانت المرحلة الأولى هى تحديد الأفعال والأعمال المنقولة كلها عن الرسول ، وهل يمكن أن تكون كلية مأخذًا للمسائل أو أن هناك فرقًا بينها ، وقد كتب شاه ولى الله بحثًا مفيدًا فى هذا الموضوع فى كتابه « حجة الله البالغة » خلاصة أن الأفعال والأقوال التى تروى عن الرسول تنقسم إلى قسمين : القسم الأول الذى يرتبط بمنصب النبوة وقد قال الله – تعالى – فيها ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٢) والثانى هى تلك الأعمال والأقوال التى لا تتعلق بمنصب الرسالة فقد قال الرسول بنفسه فيها « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

---

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ٨٤ (المؤلف) .

(٢) الحشر : آيه ٧ (المترجم) .

ثم يذكر شاه ولى الله بعد هذا أن كل ما قاله الرسول فيما يتعلق بالطب أو الأفعال التى صدرت عادة عن الرسول - ﷺ - أو صدرت منه بالصدفة لا بالقصد أو الأمور التى ذكرها الرسول طبقًا لمزاعم العرب مثل « حديث أم زرع » و« حديث خرافة » ، أو الأمور التى اختارها النبى طبقًا لأى مصلحة خاصة مثل هجوم الجيش وغيرها كثير من هذا النوع من الأحكام فهى جميعًا تدخل فى نطاق القسم الثانى [1] / .

٢٣٦

إن الفرق فى مراتب الحديث الذى أخبرنا به شاه ولى الله والذى لا يمكن أن ينكره أى صاحب نظر فقد كان عمر هو الذى اخترع هذا التميز فى مراتب الحديث ولعلكم قرأتم كثيرًا عنه فى كتب السير والحديث فقد أبدى عمر رأيًا مخالفًا للرسول فى أكثر من مناسبة عندما أراد عمل شىء ما أو أمر بأمر ما . ففى صحيح البخارى - على سبيل المثال - عندما أراد النبى الصلاة على جنازة عبد الله بن أبى قال عمر : « أتصلى على جنازة هذا المنافق » ؟ وفى قضية أسرى بدر كان رأيه مخالفًا تمامًا لاقتراح الرسول ، وفى صلح الحديبية جاء إلى الرسول وقال له لماذا نعطى الدنية فى ديننا ؟

وإنكم تستطيعون بأنفسكم أن تقدروا أن عمر كان يعتبر هذه الأمور منفصلة عن منصب النبوة لأنه لو كان يعلم أن هذه الأمور تتعلق بمنصب الرسالة ويتدخل فيها لما اعتبرناه زعيمًا بل مارقًا عن دائرة الإسلام ، وبسبب أصول فرق المراتب هذه فإنه كثيرًا ما عمل بآرائه فى أمور عديدة لا تتعلق بالدين ، فمثلاً كانت أمهات الأولاد أى الجوارى اللاتى يولد لهن أولاد تباع وتشترى فى عهد أبى بكر باستمرار حتى منع عمر بيعهن وشرائهن تمامًا . لقد قرر الرسول فى تبوك جزية مقدارها دينار لكل فرد ، فجاء وقرر نسبًا مختلفة باختلاف البلاد ، وفى عهد الرسول لم يقرر حد للشراب فقرر عمر ثمانين جلدة .

ويبدو من تلك القضايا أن أقوال الرسول وأفعاله كلها لو كانت تشريعًا لما كان هناك مجال لعمر لكى يغير فيها ، ولو أراد فعل هذا - لا قدر الله - فإن جماعة / الصحابة لا يمكن أن تحتمل جلوسه على كرسى الخلافة لحظة واحدة .

٢٣٧

لقد ترك الفرق بين مراتب الحديث أثرًا بالغًا على المسائل الفقهية ، وكان سبب

---

(١) حجة الله البالغة : ١٣٣ (المؤلف) .

جرأة عمر فى فرق المراتب أنه عندما تدخل فى أحكام عديدة للرسول لم يظهر سخطه عليها بل إنه أخذ برأى عمر فى قضايا متعددة ، وفى بعض المناسبات نزل عليه الوحى الإلهى مؤيدًا لرأى عمر ، فالوحى الذى نزل فى أسرى بدر وحجاب أزواج النبى وصلاة الجنازة على المنافق وجميع تلك المسائل نزل موافقًا لرأى عمر ، لأنه فى الأمور التى لم تكن أوامر الرسول فيها نابعة من منصب الرسالة كانت الفرصة سانحة فيها لوضع قوانين جديدة من الناحية الزمنية حسب الأوضاع المعاصرة ، وعلى هذا فقد وضع عمر فى المعاملات كثيرًا من القواعد الجديدة طبقًا للأوضاع فى أيامه ومتطلبات العصر والتى توجد اليوم بكثرة فى الفقه الحنفى . وخلافًا لهذا فإن الإمام الشافعى يجعل ترتيب الجيش وتعيين الشعار وتحديد العوائد وغيرها من الأشياء المتعلقة بها تشريعية لأقوال الرسول ، ويقول بالنسبة لأفعال عمر : إنه لا أساس لفعل أحد وقوله أمام فعل الرسول وقوله .

البحث فى حجية خبر الآحاد :

والمرحلة الثانية بعد هذا البحث هى مرحلة « خبر الآحاد » (أى الحديث الذى لا يزيد راويه عن واحد) [1] وحجيته / أن كثيرًا من الأئمة أنزل هذا القسم من الأحاديث مكانة جليلة بالحد الذى يمكن أن يغلب على النصوص القرآنية بمعنى أنه يمكن تخصيص عام القرآن بخبر الآحاد ، بل يمكن أن ينسخ حكم القرآن به وهذا هو مذهب الإمام الشافعى ، وفى رأى عمر أنه لا يمكن أن يصبح خبر الآحاد حجة فى كل مناسبة وبناء على هذا فإن عمر لم يجعل روايات عمار بن ياسر وأبى موسى الأشعرى والمغيرة بن شعبة وأبى بن كعب حجة فى مسائل إذن الزيارات وإسقاط الجنين وشراء منزل العباس بن عبد المطلب والتيمم من الجنابة حتى وجد شهادات مؤكدة أخرى فى هذا الصدد وقد وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى تذكرة الحفاظ وبناء على هذا فإنه لا يجيز التخصيص ونسخ أحكام القرآن الكريم بخبر الآحاد ، فعندما روت فاطمة بنت قيس حديثًا للرسول بروايتها فيما يتعلق بنفقة المطلقة وسكنها قال لا يمكن أن يتغير

٢٣٨

(١) طبقًا لأصول الحديث فإن الحديث الذى لا يزيد راويه عن واحد لكن يقل عن حد الشهرة والتواتر يدخل هو أيضًا فى زمرة خبر الآحاد ولم يكن لهذا الاصطلاح وجود حتى عهد عمر (المؤلف) .

حكم القرآن الكريم برواية امرأة لأن ذلك الحكم فى رأى عمر كان مخالفًا لنص القرآن الكريم .

ويستدل الإمام الشافعى وأنصاره بأن عمر نفسه قبل أخبار الآحاد فى كثير من الأحداث ، لكن الإمام الشافعى لا يعلم أنه ليس هناك فرق فى أصول عمر عنها وكان مذهب عمر هو أنه ليس كل خبر آحاد جديرًا بالحجية ، وليس كل خبر آحاد غير جدير بأن يكون حجة ، إن الفرق فى كلا الحالتين ظاهر ، فهناك أمور كثيرة من الأحداث يكفى فيها شهادة شخص واحد كما يعمل عليها كل فرد فى الأعمال اليومية ، ولكنها فى بعض الأحيان تكون هناك أمور هامة وحساسة لا يمكن أن يكفى فيها شهادة فرد / ٢٣٩ أو فردين ويظل الاحتمال الخطأ فى كيفية فهم الواقعة أو كلمات الرواية ، المهم أن حالة كل راو ومكانة كل واقعة يختلفان لذا لا يمكن تحديد أى قاعدة عامة ، ولا شك أن عمر قد استدل بأخبار الآحاد فى مناسبات كثيرة لكنه عمل خلافًا لها فى مواقع أخرى متعددة ويتضح من أسلوب عمله هذا أنه كان يراعى خصوصية الحالات فى أخبار الآحاد ، وهناك اختلاف شديد فى الرأى بين المحدثين والفقهاء بخصوص أخبار الآحاد وقد ظهرت فيه بحوث طويلة ، وقد اطلعت على هذه البحوث بقدر الإمكان فوجدت أن الدقة فى الفهم والوصول إلى المعنى كما يوجدان فى مذهب عمر لا مثيل لهما فى أى مكان ومن الضرورى التنبيه فى هذا المقام على أن القواعد التى كان يتبعها عمر فى قبول أو عدم قبول خبر الآحاد كانت قائمة فقط على إحقاق الحق ولم يكن الهدف منها اتباع الهوى مثل مستنيرى هذا الزمان ، فالحديث الذى يريدون يعتبرونه صحيحًا والذى لا يريدونه يعتبرونه خطأ .

لا تقارن فعال الأبرار بأعمالك
وإن تشابهت فى الكتابة لفظة شير وشير [1]

القياس :

إن توسيع نطاق الفقه وكفايته بجميع متطلباته يعتمد على القياس ومن الواضح أن جميع الجزئيات ليست مذكورة فى القرآن والأحاديث ولهذا من الضرورى أن يستخدم

---

(١) هذا البيت لجلال الدين الرومى وقد ورد فى المثنوى قصة « طوطى وبقال » ، والمقصود بكلمتى شير وشير فى نهاية المصرع الثانى « الأسد والحليب » (المترجم) .

القياس الشرعى للفصل فى تلك الجزئيات وبهذه الضرورة فإن الأئمة الأربعة : الإمام أبا حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل جميعًا يعترفون بالقياس وكان القياس مصدرًا رئيسًا فى قضاياهم ولكن أول من وضع الأساس للقياس كان عمر .

وهناك اعتقاد سائد لدى عامة الناس أن معاذ بن جبل كان مخترع القياس ويستدل هؤلاء الناس بهذا / عندما أرسل الرسول معاذ بن جبل إلى اليمن سأله ماذا ستفعل فى أى مشكلة تواجهك قال سوف أحلها بالقرآن وإذا لم تكن هذه الحالة مذكورة فى القرآن والحديث أجتهد رأيى »[١] . ٢٤٠

إلا أنه لا يمكن أن يستدل بهذه الرواية على القياس ، فالاجتهاد لا ينحصر بالقياس ، فابن حزم وداود الظاهرى وغيرهم لا يعترفون بالقياس أصلاً مع أنهم بلغوا مرتبة الاجتهاد وكانوا يجتهدون فى المسائل الشرعية ، وقد روى فى مسند الدارمى بسند أنه كان من عادة أبى بكر عندما تواجهه أى مسألة أن يرجع إلى القرآن الكريم وإذا لم تكن الحالة مذكورة فى القرآن يرد عليها بالحديث وإذا لم تكن فى الحديث كذلك كان يجمع كبار الصحابة ويحكم طبقًا للأمر الذى يقرر باتفاق آرائهم[٢] .

ويثبت من هذا أيضًا أنه حتى عهد أبى بكر كان يتوسل بالقرآن الكريم والحديث والإجماع فى الرد على المسائل ولم يكن هناك وجود للقياس .

والرسالة التى أرسلها عمر إلى أبى موسى الأشعرى والتى تتعلق بالقضاء أرشده فيها إلى القياس بوضوح كما فى هذه الكلمات : « الفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عند ذلك »[٣] / . ٢٤١

---

(١) هذا الحديث فى مسند الدارمى (مطبعة نظامى) صفحة ٣٤ (المؤلف) .
- مسند الدارمى : ١ / ٦٠ (المترجم) .
(٢) مسند الدارمى صفحة ٣٢ (المؤلف) - مسند الدارمى : ١ / ٥٨ (المترجم) .
(٣) هذه الرواية مذكورة عن الدارقطنى ، انظر إزالة الخفاء : ٨٦ (المؤلف) .
- أيضًا : ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ٢ / ٦٢٨ (المترجم) .
- و : ابن عبد ربه : العقد الفريد : ١ / ٦٣ (المترجم) .
- و : الجاحظ : البيان والتبيين : ٢ / ٢٤ (المترجم) .

وقد ورد هذا التعريف للقياس فى كتب أصول الفقه « تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لعلة متحدة » فعلى سبيل المثال قال الرسول - ﷺ - بعد أن ذكر القمح والشعير وغيرها إن الربا هو أن يؤخذ بدل مقدار مقداران ، فالقياس المعمول به فى هذه المسألة أن النبى - ﷺ - ذكر عدة أشياء خاصة يجرى فيها الحكم إلا أن هذا الحكم يطبق فى جميع تلك الأشياء التى لها مقدار ونوع معين ، فمثلاً لو أن شخصًا أعطى لآخر جصًا زنة كيلو جرام ثم استرده منه زائدًا ربع كيلو أو أخذ الكيلو الواحد لكنه بنوع أكثر جودة من الأول كان هذا ربا .

فهناك شرطان فى رأى الأصوليين للقياس هما : الأول ألا تكون المسألة التى تحقق بالقياس منصوصًا عليها أى لا يوجد أى حكم خاص بها . والثانى أن يكون هناك علة مشتركة بين المقيس والمقيس عليه ، وفى كتاب عمر توجد إشارة بل تصريح بهذين الشرطين ، فقد وضح الشرط الأول بهذه الكلمات : « مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة » ويظهر الشرط الثانى من الكلمات الآتية : « واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور » .

وفيما عدا تلك القواعد الهامة فقد قرر عمر كثيرًا من القواعد لتفريغ المسائل واستنباط الأحكام وهى أساس علم أصول الفقه لدينا الآن ، لكن يجب فهم هذه النقطة قبل تفصيلها .

هذا أمر مسلم به أن الإمام أبا حنيفة ومالكًا وغيرهما يختلفان كثيرًا فى آرائهما فى المسائل الفقهية ، وسبب هذا الاختلاف فى الرأى فى بعض الأحيان هو أن أحدهما كان يجد حديثًا صحيحًا فى بعض المسائل والآخر لا يجد ، لكن سبب هذا الاختلاف عمومًا هو أن أصول الاستنباط كانت تختلف لديهما من واحد لآخر ، وقد جاء فى كتاب أصول الفقه تلك الأصول المختلف فيها بالتفصيل لكن يجب / ألا نفهم من هذا أن هؤلاء الأئمة قد بينوا تلك الأصول صراحة . ٢٤٢

أصول استنباط الأحكام :

لا غرو أن الإمام الشافعى كتب رسالة وضح فيها عددًا من أصوله لكن الإمام أبا حنيفة والإمام مالكًا وغيرهما لم يذكر أحد منهما قاعدة واحدة صريحة بل إن هؤلاء الفقهاء كانوا يستنبطون مسائلهم ولم تكن كما ثبت مبنية على نفس الأصول . فمثلاً

استدل أحد الأئمة بهذه الآيـــة من القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ [1] على عدم وجوب قراءة الفاتحة على المأموم خلف الإمام ، وعندما قال أحد ما إن هذه الآية قد نزلت فى حق الخطبة أجاب بأن هذه الآية نزلت فى أمر معين ولكن الحكم هنا عام ويتضح جيدًا من هذا أنه كان يؤمن بهذه الأصول حيث « العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب » أى أن التخصص فى السبب لا يؤثر على تعميم الحكم .

إن الأحكام المنسوبة للإمام أبى حنيفة وغيره فى أصول الفقه قد استنبطت بهذه الطريقة ، لأن هذه الأحكام غير مأثورة عن هؤلاء الأئمة صراحة فى مكان ما .

أما دعوانا بالنسبة لعمر بأنه أسس قواعد استنباط المسائل فإنها قائمة على هذا الأساس فكثرة من المسائل التى فصل فيها قد فصل بعد المناقشة والمناظرة مع جماعة الصحابة وبتقصى الخطب التى ألقاها فى تلك المناسبات يظهر كثير من هذه الأصول ، وكثيرًا ما كان يوجد فى المسائل روايات متناقضة أو عدة مآخذ للاستدلال ، لهذا تحتم عليه ترجيح أحد الطرفين وأن الحكم ينسخ الآخر وأن حكمًا يجب أن يكون عامًا والآخر مؤقتًا وخاصًا وأن الحكم يكون مطلقًا وهكذا أقيمت أصول النسخ والتطبيق والتخصيص وغيرها من الأصول / وحينما كان يخطب للفتوى فى أى مسألة كانت خطبه كثيرًا ما تتضمن أصلاً من هذه الأصول فمثلاً قال رجل ائذن لى بقطع يد غلامى لأنه سرق مرآة زوجتى ، وكان ثمنها ستين درهمًا ، قال : لأنه عبدك وسرق شيئًا لك لا تقطع يده على هذا [2] ، ومن هذا الموقف يمكن استنباط هذه الأصول ، وهى أنه من الضرورى ألا يكون للسارق أى حق فى المال المسروق ، وعلى هذا الأساس أطلق عمر سراح الرجل الذى سرق شيئًا من بيت المال . ومرة كان فى سفر ونزل بالقرب من بحيرة وكان معه عمرو بن العاص فسأله الناس « ألا تشرب الضوارى من هذا الماء ؟ فمنع عمر الناس وقال : لا تخبر [3] » لقد أثبت من هذا قاعدتين الأولى هى أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، والثانية لو أن الحالة الظاهرة صحيحة فلسنا مكلفين بالبحث

٢٤٣

---

(١) الأعراف : ٢٠٤ (المترجم) .

(٢) موطأ الإمام مالك (المؤلف) - موطأ الإمام مالك : ٧٢٧ (المترجم) .

(٣) موطأ الإمام محمد صفحة ٦٦ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ٤٢ (المترجم) .

والتدقيق عنه . وعندما غابت الشمس فى رمضان بسبب سحابة انخدع عمر وأفطر وبعد فترة قصيرة أشرقت الشمس فتردد الناس فقال عمر : « الخطب يسير وقد اجتهدنا » [1] . أى المسألة ليست مهمة إلى هذه الدرجة فإننا قد اجتهدنا فى الأمر والأمثلة على هذا كثيرة يستطيع أن يتلمسها فى كتب أصول الفقه من أرادها » .

عدد مسائل عمر الفقهية :

٢٤٤ إن المسائل التى ذكرها عمر قد اتفق فى كثير منها مع رأى الصحابة / وقد قلده الأئمة المجتهدون ، وطبقًا لاستقراء شاه ولى الله فإنه أخبرنا أن عدد هذا النوع من الفقه يصل إلى ألف مسألة تقريبًا ، كما أن هناك كثيرًا من المسائل التى اختلف الصحابة فيها معه ، فهل كان الصحابة على حق فى بعض المسائل التى اختلفوا فيها مع عمر ، ويتضح منها أن الصحابة كانوا أكثر صحة من اجتهاد عمر فى تلك المسائل مثل تيمم الجنابة ومنع تمتع الحج والطلقات الثلاث وغيرها ، لكن أكثر المسائل وخصوصًا تلك المسائل التى احتدم فيها النزاع والتى تدخل فى نطاق التمدن وشئون الدولة انبنى اجتهاد عمر فيها على المعرفة ودقة النظر وهذه هى المسائل التى يظهر منها كمال اجتهاده ، وذكر بعضًا منها فى هذا المكان .

كانت مسألة الخمس من أشد المعارك ضراوة ، ففى القرآن الكريم هذه الآية : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [2] ويتضح من هذه الآية أن أقارب رسول الله لهم نصيب فى الخمس ، وعلى هذا فقد كان عبد الله بن عباس الذى كان يسمى بين الصحابة « ببحر العلم » كان يستدل بقوة على الخمس لأقارب الرسول بهذه الآية ، ومع أن الإمام عليًا لم يعط بنى هاشم حقهم فى الخمس لحكمة ما لكنه كان يعتقد أن الخمس من حق بنى

٢٤٥ هاشم [3] / .

(١) موطأ الإمام محمد صفحة ١٨٤ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ١٢٨ (المترجم) .

(٢) الأنفال : ٤١ (المترجم) .

(٣) كتاب الخراج رواية محمد بن اسحق صفحة ١١ (المؤلف) .

- أبو يوسف : كتاب الخراج : ٢٠ (المترجم) .

ولم يكن هذا رأى عبد الله بن عباس والإمام على فقط ، بل إن جميع أهل البيت كانوا قد اتفقوا فى هذه المسألة حتى الإمام الشافعى وهو من الأئمة المجتهدين يؤمن بهذه المسألة واستدل عليها بكل قوة فى كتبه .

ويقول الناس إن عمر لم يعترف مطلقًا بأحقية أقرباء الرسول بالخمس [١] ولهذا كان لا يعطى أهل البيت حقهم منه ، وكان أبو حنيفة من بين الأئمة المجتهدين الذى لم يعترف بالخمس لذوى القربى ، وكان رأيه أن حق ذوى قربى الرسول - ﷺ - قد انقضى بانقضاء نصيب الرسول والآن يجب ملاحظة هذا الأمر بدقة وهو أنه كيف استخرج الحكم من القرآن ؟ وكيف كان منهج رسول الله - ﷺ - فى هذا الصدد .

يثبت فقط من عبارة القرآن الكريم أن جهة صرف الخمس لخمس مجموعات جملة ، لكن لم يتضح من هذه الآية أن التقسيم فرض لكل مجموعة فردًا فردًا ، فعندما ذكرت جهة صرف الزكاة فى القرآن الكريم نزلت هذه الكلمات بعينها : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [٢] فقد تقررت مصارف الزكاة فيها لثمان فئات هم : الفقراء والمساكين والعاملون على الزكاة ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمون والمجاهدون والمسافرون ، فهؤلاء الذين يجب أن تؤدى الزكاة إليهم وليس من الضرورى أن تجتمع الفئات الثمانى بأى صورة . ولو فرضنا أن الفئات الثمانى اجتمعت ففى هذه الحالة يجب مراعاة شدة حاجة إحداها إلى الزكاة أكثر من غيرها والآخذ فى النظر الجماعة التى لا تحتاج قط ، وعلى هذا تعطى فئة أكثر وأخرى أقل ولا تعطى لفئة قط / . ٢٤٦

أما قاعدة « التزام ما لا يلزم » فكانت من اختراع الإمام الشافعى وهى أن المبلغ يقسم بالتساوى على ثمان وتقسم على المجموعات الثمانى بدون أى تفاوت فى المبلغ أو الكمية سواء أكانت فى حاجة إليها أم ليست فى حاجة إليها . وهكذا فإن صرف الخمس الذى أخبرنا به الله - تعالى - يفهم منه أن الخمس لا يعطى لأحد سوى هؤلاء الناس وليس معناه أن يقسم الخمس بالتساوى بين الفرق الخمس المذكورة ، والآن عليكم أن تنظروا كيف كان تعامل رسول الله ؟ ويتضح من استقراء الروايات والأحاديث ما يلى :

---

(١) كنز العمال : ٤ / ٣٢٨ - ٣٣١ (المترجم) .

(٢) التوبة : ٦٠ (المترجم) .

(١) كان الرسول يعطى بنى هاشم وبنى عبد المطلب نصيبهم فقط من بين ذوى القربى مع أن بنى نوفل وبنى عبد شمس يدخلون ضمن ذوى القربى أيضًا ولكنه لم يعطهم شيئًا بالرغم من أنهم قد طلبوا منه وقد ذكر العلامة ابن القيم هذه الواقعة بالتفصيل فى « زاد المعاد » نقلاً عن كتب الحديث [(١)] .

(٢) إن النصيب الذى كان يعطيه لبنى هاشم وبنى عبد المطلب لم يكن يعطيه لهم بالتساوى وقد كتب العلامة ابن القيم فى زاد المعاد : « ولكن لم يقسمه بينهم على السواء بين أغنيائهم وفقرائهم ولا كان يقسمه قسمة الميراث . بل كان يصرفه فيهم بحسب المصلحة والحاجة فيزوج منهم أعزبهم ويقضى منه عن غارمهم ويعطى منه فقيرهم كفايته » [(٢)] / . ٢٤٧

ويتضح من هذه الأحداث أولاً أنه ليس هناك « تعميم » فى كلمة ذوى القربى وإلا كان الرسول أعطى لبنى نوفل وبنى عبد شمس حقهم أيضًا ، لأن هؤلاء الناس كانوا من أقرباء الرسول . ثانيًا لم يكن جميع أفراد بنى هاشم وبنى عبد المطلب يتساوون فى العطاء .

لقد أبقى عمر على حق بنى هاشم وبنى عبد المطلب فى الخمس كما هو ثابت من الروايات الصحيحة ، لكنه خالفهم فى أمرين : الأول هو أنه كان لا يعتبر أن الخمس كاملاً من حق ذوى القربى ، والثانى أن التقسيم كان يتم متفاوتًا تبعًا للمصلحة والحاجة ويعتبر هذا من حق خليفة الوقت ، وعلى العكس من هذا كان عبد الله بن عباس وغيره يزعمون أن الخمس كاملاً حق خاص لذوى القربى وليس لأحد حق التصرف فى أى شىء منه . وقد نقل كل من القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج والنّسائى فى صحيحه هذا القول لعبد الله بن عباس : « عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيِّمنا ونقضى منه عن مغرمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا » [(٣)] .

---

(١) زاد المعاد : ٢ / ١٦١ (المؤلف) .

(٢) زاد المعاد : ٣ / ١٦١ (المؤلف) .

(٣) كتاب الخراج صفحة ١١ (المؤلف) .

- أبو يوسف : كتاب الخراج : ٢٠ (المترجم) .

وتتفق الروايات الأخرى مع هذا أيضًا إلا فى رواية واحدة فقط للكلبى « أن أبا بكر وعمر قد أسقطا حق ذوى القربى مطلقًا » ، إلا أن الكلبى ضعيف الرواية ولهذا لم يعتد بروايته / ويتضح جليًا بعد تطبيق فحوى القرآن الكريم ومنهج رسول الله أن الذى قام به عمر كان مطابقًا تمامًا للقرآن والحديث فلم يستطع الإمام الشافعى وغيره تقديم أى دليل على أن الرسول كان يعطى الخمس كاملاً بصفة دائمة ، ولا يمكن أن يثبت هذا التحديد والتعيين تمامًا من القرآن ، أما الحق غير المحدد لباقى ذوى القربى ، فلم ينكره عمر مطلقًا ، والآن انظر إلى هذه القضية من حيث القواعد العقلية أى تحديد نصيب من الخمس للرسول ولأقارب الرسول على أى قواعد وأسس كان مبينًا ؟ ٢٤٨

والأمر بديهى أن الرسول بسبب انشغاله فى أعمال الرسالة وتبليغها لم يكن يستطيع أن يشغل نفسه فى البحث عن الرزق ، لهذا كان من اللازم أن يخصص له أى جزء من دخل الدولة ولم يكن هناك إيرادات فى ذلك الوقت سوى الفىء والأنفال ، ولهذا قرر له الله - تعالى - نصيبًا منها وقد ورد ذكره فى آيات مختلفة من القرآن ومثله كمثل ما يقرر للملك من نفقات شخصية خالصة وكان حق ذوى القربى قد قرر بناء على ذلك لأن هؤلاء الناس قد وقفوا إلى جانب الرسول منذ بداية الإسلام فكانوا مكرهين أكثر من كفار مكة ، وكان من بينهم جميع بنى هاشم والذين لم يسلموا بعد ، وعندما اضطر النبى - ﷺ - أن يأوى إلى شعب جبل خارج مكة خرج معه بنو هاشم كلهم .

وبناء على هذا فإن الذى تقرر للرسول ولذوى القربى كان لحاجة وقتية ومن حيث المصلحة ، أما تحديد الخمس لأقربائه حتى يوم القيامة فيتلقون هذا المبلغ باستمرار حتى لو كانوا أغنياء وازداد نسلهم / فهذه القاعدة تخالف أصول التمدن ، ولا يستطيع أن يؤمن أحد بأن المؤسس الحقيقى للشريعة سيشرع هذا القانون لكى يتلقى جميع أولاده مبلغًا محددًا من المال حتى يوم القيامة ، ولو قام أى مؤسس للشريعة بمثل هذا العمل فأى فرق بينه وبين الكهنة المستبدين ، كما أن الإمام عليًا وعبد الله به عباس الذين كانا يريدان الخمس لا يمكن أن يكون هذا هدفهما مطلقًا وأن يكون هذا نصيبهما حتى يوم القيامة ، بل إنهما كانا يريدانه للناس الذين بقوا على الحياة بعد النبى - ﷺ . ٢٤٩

مسألة الفىء :

وهناك مسألة هامة أخرى هى مسألة الفىء الأرض أو الأملاك التى فتحها

المسلمون وكانت هذه المسألة شائكة إلى هذا الحد حتى إنه لم يفصل فيها فصلاً نهائيًا وقاطعًا منذ عهد الصحابة حتى الآن وتعد قضية حديقة فدك فرعًا من فروع هذه المسألة المهمة .

وهناك لَبس شديد فى هذا البحث بسبب تقارب المعنى بين الفىء والكلمات الأخرى مثل : النعل والغنيمة والسلب ، فلم يفرق الناس بين الفىء وبين هذه الكلمات وسوف نتناول ذلك فى هذا البحث مفصلاً فى الحقيقة إنه كان من عادة العرب قبل الإسلام أن ما يحصلون عليه فى نصر المعركة كان يقسم على جميع المحاربين بالتساوى وكان سيد القبيلة يتلقى أكثر من الآخرين أى الربع ، وعندما بعث الرسول بقيت كثير من العادات والتقاليد القديمة كما هى وبقيت هذه القاعدة قائمة أيضًا مع تغيير طفيف فى شكلها ، ولهذا كل ما كان يأتى بعد نصر الحرب يقسم على الفاتحين ، ولأن هذه الطريقة كان معمولاً بها منذ القدم وظلت قائمة كذلك فى عهد رسول الله اعتقد الناس أن مال الغنيمة حق ذاتى للفاتحين ويمكن لهم أن يطلبوه فى أى حال من الأحوال حتى نشب عليه نزاع ذات مرة بعد النصر فى معركة بدر ، أخذت طائفة من الناس تتعقب الكفار وذهبوا بعيدًا / وظلت طائفة من الناس فى خدمة الرسول وعندما ٢٥٠ عاد المتعقبون زعموا أن الغنيمة من حقنا لأننا جئنا لقتال العدو ، فقال الآخرون كنا نحمى رسول الله – ﷺ – لذا نستحق أكثر وعلى هذا نزلت هذه الآية : [(١)] ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [(٢)]

فقضت هذه الآية على تلك الأصول القديمة وهى أن جميع مال الغنيمة حق خاص للمحاربين وليس للقائد سلطة التصرف فيه ، لكن لم يوضح فى هذه الآية كيفية صرف الغنيمة فنزلت هذه الآية : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [(٣)] . فكان الحكم فى هذه الآية أن يقسم مال الغنيمة إلى خمسة أقسام أربعة منها تقسم على المجاهدين والجزء الخاص وهو الخمس يأتى ضمن نفقات الرسول وذوى القربى والمساكين لكن جميع هذه الأحكام كانت تتعلق بالمال والبضائع ولم تقرر أى قاعدة أو حكم للأرض والأملاك ، وفى غزوة بنى النضير

(١) زاد المعاد لابن القيم : ١٥٨/٢ وهذه الرواية مذكورة أيضًا فى كتب الحديث .

(٢) الأنفال : ١ (المترجم) .

(٣) الأنفال : ٤١ (المترجم) .

التى وقعت سنة ٥هـ نزلت هذه الآية فى صورة الحشر / : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [1] . ٢٥١

ونستخرج من هذه الآية هذا الأمر « أن الأرض التى تفتح لا تقسم بل يحتفظ بها على هيئة وقف ويتمتع بمنافعها جميع المسلمين الموجودين والذين سيأتون من بعدهم وهذه هى حقيقة النفل والغنيمة والفيء وقد وقع الناس فى أخطاء فى الأحكام بهذا الصدد ، أولها أن الناس قد اعتبروا الغنيمة والفيء شيئًا واحدًا وهذا رأى الإمام الشافعى من بين الأئمة المجتهدين ، وطبقًا لمذهبه فإن الأرض المفتوحة يجب تقسيمها على المجاهدين ، فعندما فتحت الشام والعراق طلب الناس من عمر أن يقسم عليهم أراضى البلدان المفتوحة وأصر عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح على هذا إصرارًا شديدًا ، لكن عمر لم يوافق واجتمع كثير من الناس كما ذكرت من قبل فى إدارة التحصيل وظلوا يتباحثون عدة أيام وفى النهاية استدل عمر بالآية المذكورة سابقًا وقرأ هذه الكلمات من الآية : « والذين جاءوا من بعدهم » ثم قال : « فكانت هذه عامة لمن جاء من بعدهم فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعًا فكيف نقسمه لهؤلاء وندع / من يخلف بعدهم » . ٢٥٢

وقد استدل الإمام الشافعى وأتباعه على أن الرسول قد قسم أرض خيبر على المجاهدين لكنهم لا يعلمون أن الأماكن كثيرة قد فتحت بعد خيبر واستولى عليها المسلمون بعد وفاة الرسول فهل قسم النبى – ﷺ – الأرض المفتوحة فى أى مكان ؟

مسألة فدك :

كانت قضية بستان [2] فدك ضمن هذه القضايا التى احتدم حولها النقاش ردحًا من

---

(١) الحشر : ٧-١٠ (المترجم) .

(*) كتاب الخراج صفحة ١٥ (المؤلف) – أبو يوسف : كتاب الخراج : ٢٧ (المترجم) .

(٢) استعمل شبلى كلمة « بستان » مع فدك ولم يرد هذا فى كتاب الفقه (المترجم) . ولهذا فإننى أذكرها كما جاءت فى الأصل .

الزمن ، فترى إحدى الفرق أن هذا البستان كان من أملاك الرسول الخاصة لأنه لم يغزه وأن الناس هناك قد سلموه بأنفسهم للرسول ولهذا السبب يدخل تحت هذه الآية ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] .

ولما كان هذا ملكًا خاصًا للرسول لذا وجب أن يطبق فيه القاعدة العامة للوراثة التى وردت فى القرآن الكريم ويستحقه ورثة الرسول إلا أن عمر حرم منه آل النبى على الرغم من أن الإمام عليًا طلبه ، ومع أن هذه المسألة قد زادت تعقيدًا بسبب آراء الفرقتين إلا أن هذا الأمر بسيط للغاية فى الحقيقة ، والآن بعد أن أصبحت أصول ٢٥٣ سياسة المدن أكثر وضوحًا وقريبة من فهم عامة الناس / أصبحت هذه المسألة غير جديرة بأن تطرح على بساط البحث ، فالأصل أن المال الذى يكون فى حوزة نبى أو إمام أو ملك ينقسم قسمين : الأول : ملك خاص له وليس لمنصب النبوة والإمامة والملكية أى دخل فى تحصيله ، فمثلاً كان الملك داود يكسب رزقه من صناعة الدروع ، أو أن « عالم كَير » (إمبراطور مغولى) كان يعيش على نسخ القرآن وكان هذا الدخل دخله الشخصى وله فيه سلطة مطلقة . والثانى ملك الحكومة مثل البلدان المملوكة لداود والتى ورثها سليمان عنه .

ولا تطبق الورثة فى النوع الثانى بل تؤول للشخص الذى يخلف النبى أو الإمام أو الملك فيكون مالكها ومتولى أمرها وهذا أمر بديهى وموافق تمامًا لمتطلبات العصر ، فمثلاً بعد السلطان عبد الرحيم لا تقسم بلاده المملوكة أو أملاكه الخالصة على ابنته وأخيه وأمه وأخته وغيرهم بل يستولى عليها من يجلس على العرش ، وهذه القاعدة مسلم بها دائمًا فى كل فرقة من فرق المسلمين من الناحية الدينية ، فعلى سبيل المثال فإن من عد بستان فدك من حق الأئمة الاثنى عشر الواحد تلو الآخر ، فإنهم أيضًا لا يطبقون فيها قواعد الوراثة ، فعلى سبيل المثال لو كان الإمام علىّ مالكًا لها فى عهده كان يجب أن يطبق عليها قانون الوراثة بعد وفاته ويأخذ كل من الحسين والعباس ومحمد ابن الحنفية وزينب نصيبه لأنهم كانوا ورثة الإمام علىّ ويأخذوا عائدها بل إنها آلت إلى ملكية الإمام الحسن – عليه السلام – لأنه كان خليفة الإمام على من حيث الإمامة .

(١) الحشر : ٦ (المترجم) .

المهم أن هذه القاعدة عامة ومسلم بها وهى أن الأملاك التى يتم الحصول عليها بمنصب النبوة أو الإمامة / أو الملكية لا تكون ملكًا خاصًا ، والآن يجب ملاحظة هذا فقط وهو كيف تم الحصول على بستان فدك ؟ وحقيقة أمره أنه عندما فتح الرسول خيبر أرسل محيصة بن مسعود إلى أهل فدك ليدعوهم إلى الإسلام وكانت فدك فى حوزة اليهود وحاكمها يهودى اسمه يوشع بن نون ، فأرسل اليهود رسالة صلح وقبلوا أن يعطوا نصف الأرض مقابل الصلح (١) . ومنذ ذلك الوقت دخل هذا البستان فى حظيرة الإسلام . ٢٥٤

والآن يستطيع كل شخص أن يدرك كيف يمكن أن تكون مثل هذه الأملاك ملكًا خاصًا للرسول وقد نشأ هذا الزعم بالملكية الخاصة لفدك بناء على أنها لم تفتح بواسطة الجيش ، ومصداقًا لهذه الآية : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ (٢) لكن هل البلاد التى يتم الاستيلاء عليها عن طريق الصلح تقرر ملكًا خاصًا للملك أو الإمام ؟ لقد تم الاستيلاء على مناطق العرب الأخرى بنفس الطريقة ولم يتم غزوها فهل اعتبرها أحد ملكًا خاصًا للرسول ؟ لا شك أن هذا الأمر يحتاج إلى تفكير ، فلماذا لم يكن هذا النوع من التفكير مطلقًا بالنسبة للأماكن المفتوحة الأخرى وأى خصوصية كانت لفدك ؟ والتى نشأ بسببها سوء فهم ، والحقيقة أن الأراضى المفتوحة الأخرى ظلت علانية وقفًا عامًا لكن فدك قد خصصها الرسول لنفقاته ومن هنا سنحت الفرصة لظهور هذه الفكرة وهى أنها ملك خاص للرسول والذى أكد هذه الفكرة أكثر أنه لم يكن هناك هجوم على فدك ولم يكن للناس الآخرين أى حق عليها ، إلا أن هذا التصور تصور خاطئ فى الأصل فلا شك أن الرسول قد خص / فدك لنفقاته الشخصية ، ولكن كيف خصها ؟ هناك روايات مفصلة فى هذا الصدد : « فكان نصف فدك خالصًا لرسول الله - ﷺ - وكان يصرف ما يأتيه منها إلى أبناء السبيل » (٣) . وفى رواية أخرى : « إن فدك كانت للنبى - ﷺ - كان ينفق منها ويأكل ويعود على فقراء بنى هاشم ويزوج أيمهم » (٤) وقد ذكر البخارى وغيره بوضوح أن الرسول كان يأخذ منها مصاريفه السنوية ويعطى الباقى للمصالح العامة للمسلمين . ٢٥٥

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى : ذكر فدك (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٢ - ٤٣ (المترجم) .

(٢) الحشر : ٦ (المترجم) .

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٩ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٢ (المترجم) .

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣١ (المؤلف) . البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٥ (المترجم) .

ويتضح من هذه الروايات أن فدك كانت ملكًا للنبوة مثلها فى هذا مثل أى ملك خاص للسلاطين وبالرغم من خصوصيتها للنبى - ﷺ - فإنها لا تعدو عن كونها وقفًا .

والآن نرى أن عمر كان يعرف أيضًا هذه الأصول وبناء على ذلك لم يطبق الوراثة على فدك وأن هذه الجزئيات قد ظهرت بعد وقوع الأمر ، وقد خطب عمر فى أثناء فتح الشام والعراق فى حشد من الصحابة واستدل فى خطبته بهذه الآية من القرآن الكريم ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ ﴾ . الخ / وقال بوضوح إن الأماكن المفتوحة ليست ملكًا خاصًا لأحد بل وقفًا عامًا كما مر هذا البحث عند ذكر الفىء ، ولا شك أنه يمكن أن يذهب به الظن أن الآية التى قبل هذه الآية يثبت منها تملك الرسول الخاص لفدك وغيرها وأن عمر نفسه قد قرر هذا المعنى والآية هى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ ولهذا بعد أن قرأ عمر هذه الآية قال : « فكانت خالصة لرسول الله - ﷺ - » وهذه الواقعة مذكورة بالتفصيل فى صحيح البخارى فى « باب الخمس وباب المغازى وباب الميراث » .

٢٥٦

وليس فى هذا شك أن عمر كان يعتبر فدكًا وغيرها ملكًا خاصًا للرسول بناء على هذه الآية ، لكن هذا النوع من الملكية لا يكون ملكية شخصية فهى كما تُعطى أى أرض لنفقات السلاطين ولا يطبق فيها القاعدة العامة للميراث ، بل إن الشخص الذى يحكم خلفًا له هو وحده الذى يستطيع أن يتمتع به فقط ، إن الدليل الحاسم لفكرة عمر هذه هى أنه عندما قال إن فدك خالصة لرسول الله بناء على الآية المذكورة آنفًا ، قال معها هذه الكلمات كما هو مذكور فى صحيح البخارى [١] فى باب الخمس وباب المغازى .

٢٥٧

« فكان رسول الله ينفق على أهله نفقة / سنتهم من المال ثم يأخذ ما بقى فيجعله مجعل مال الله فعمل رسول الله بذلك حياته ثم توفى الله نبيه - ﷺ - فقال أبو بكر أنا ولى رسول الله فقبضها أبو بكر فعمل فيها بما عمل رسول الله ثم توفى الله أبا بكر فكنت أنا ولى أبى بكر فقبضتها سنتين من إمارتى أعمل فيها بما عمل رسول الله - ﷺ - وبما عمل فيها أبو بكر » .

---

(١) صحيح البخارى : ٨ / ١٨٥ - ١٨٦ (المترجم) .

يتضح جليًا من هذه الخطبة أن عمر على الرغم من أنه كان يعتبر فدكًا خالصة له ، مع ذلك لم يعتبرها أملاكًا شخصية للرسول (كالمعمول به فى الوراثة) ولهذا السبب قرر أن الذى يستحق ملكيتها هو خليفة رسول الله وعلى هذا الأساس ذكر سبب استيلاء أبى بكر عليها .

كان عمر قد ألقى هذه الخطبة عندما جاءه الإمام على والعباس يطالبانه بفدك فقال : لا يمكن أن أنفذ فيها حكم الوراثة .

ونتيجة هذا كانت فدك وغيرها فى رأى عمر خالصة لرسول الله وكانت وقفًا ، لذا فى أثناء فتح العراق قرأ عمر هذه الآية التى يتضح منها أنها خالصة للرسول ، وبعد أن قرأها قال هذه الكلمات : « فهذه عامة فى القرى كلها » أى أن الحكم فى هذه الآية / ٢٥٨ غير محدد بتلك الأماكن فقط (فدك وغيرها) ويسرى على جميع القرى .

والحقيقة أن وجود اتجاهين فى مسألة فدك كان سببًا فى سوء الفهم هذا وقد بين ابن القيم فى زاد الميعاد هذا الأمر بطريقة لطيفة للغاية يقول [1] : فهو ملك يخالف حكم غيره من المالكين . وهذا النوع من الأموال هو القسم الذى وقع بعده فيه من النزاع وما وقع إلى اليوم . ولولا إشكال أمره عليهم لما طلبت فاطمة بنت رسول الله – ﷺ – ميراثها من تركته وظنت أنه يورث عنه ما كان ملكًا له كسائر المالكين وخفى عليها – رضى الله عنها – حقيقة الملك الذى ليس مما يورث عنه » .

ويمكن لكم أن تقدروا من هذه الأحداث كيف حكم عمر فى تلك المسائل التى ظل الخلاف حولها محتدمًا منذ البداية وحتى الآن والتى اشتبه فيها كبار الصحابة ، وهذا الحكم من ناحية صحيح من حيث القرآن والحديث ، ومن ناحية أخرى مطابق لأصول الحكم ونظام التمدن والحضارة .

* * *

---

(١) زاد المعاد : ٢ / ١٦٣ (المؤلف) .

مع أن بداية التربية الروحية عند العرب قد بدأت بالإسلام ، لكن قبل الإسلام كان يوجد فى العرب كثير من تلك الصفات التى كانت كأوسمة الشرف والتى يستطيع أن يفاخر بها كل / قوم فى كل زمان . ومع أن هذه الأوصاف كانت تتوافر فى سائر القوم بنسب متفاوتة إلا أن بعض الأشخاص كانوا يتميزون أكثر من غيرهم بها وهم الذين كانوا ينالون منصب رئاسة القوم (القبيلة) ومن بين تلك الأوصاف الفصاحة والبلاغة والشعر وقوة الخاطبة والأنساب والفروسية والشجاعة والحرية وهى الأوصاف الهامة التى تراعى فى الرئاسة والقيادة ، وقد منح الله – تعالى – عمر حظًا وافرًا من هذه الأوصاف . ٢٥٩

لقد كانت مَلَكة الخطابة هبة من الله وقد شُحذت هذه الموهبة تمامًا فى معارك عكاظ (الأدبية) وبسبب هذه المهارة أسندت إليه قريش مهمة السفارة وكانت خاصة بأولئك الناس الذين كانوا يتميزون بفصاحة اللسان ، ففى عباراته العادية كان يوجد أثر للفن والبراعة ، والفقرات الموزونة كانت تخرج من فيه حسب المتوقع كانت تتسم بروح البلاغة ، فعندما رأى عمرو بن معد يكرب لأول مرة تعجب وقال « الله خالقنا وخالقه واحد » (وكان رجل قوى البنيان) ومعنى هذا القول أن هناك تفاوتًا فى جسم عمرو وجسمه إلى هذا الحد بحيث لا يبدوا أنهما من إبداع خالق واحد .

قوة الخطابة :

فى حادثة الوباء عندما اعترض عليه أبو عبيدة بأنه يهرب من القضاء الإلهى رد عليه ردًا بليغًا وقال : « نعم أفر من قَدَر الله إلى قَدَر الله » .

ونستطيع أن نقرر من الخطب التى خطبها فى المناسبات المختلفة الموجودة حتى اليوم قوة بيانه وتناسق كلامه ، فالخطبة التى ألقاها عند امساكه بزمام أمور الخلافة كانت فقرتها الأولى / : – ٢٦٠

« اللهم إنى غليظ فلينى ، اللهم إنى ضعيف فقونى ، ألا وإن العرب جمل أنف وقد أعطيت خطامه ألا وإنى حامله على المحجة » .

وفى اليوم الثانى أو الثالث من توليه الخلافة عندما جمع الناس لإعداد جيش لغزو العراق كانوا يترددون من مجرد ذكر اسم إيران ، وبصفة خاصة عندما استدعى خالدًا

من هناك فكان لخطبة عمر القوية فى هذه المناسبة تأثير فهب المثنى الشيبانى أحد الأبطال المعروفين واقفًا واشتعلت نار الحماس بين جموع الحاضرين ، وفى رحلة الشام تجمع فى الجابية أناس من كل شعب ودين وشاركهم أسقف النصارى واشترك معهم جمع من أقوام مختلفة وأديان متباينة فبين لهم مختلف الموضوعات والمعانى وأظهر التعاليم الأخلاقية للمسلمين ووضح حقيقة الإسلام للأمم الأخرى والغرض من الحرب والصلح والاعتذار أمام الجيش عن عزل خالد وقد أدى جميع هذه الأغراض بنجاح حتى ظلت فقرات متفرقة من خطبه تتردد على ألسنة الناس لفترة من الوقت واستنبط الفقهاء منها المسائل الفقهية وأبدع الأدباء الأمثلة لقواعد الفصاحة والبلاغة واستخدمها الكتاب فى موضوعات التصوف والأخلاق .

وحج عمر سنة ٢٣ هـ وكانت هذه حجته الأخيرة ، وأسر أحدهم لصاحبه أنه سوف يبايع طلحة فور موت عمر ، وكان عمر قد جاء إلى منى وحدثت هذه الواقعة هناك وعلم بها عمر فاستشاط غضبًا ، وقال : لأخطبن الليلة فى هذا الأمر / فقال ٢٦١ عبدالرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين فى مجمع الحج يجتمع كل صالح وطالح ولو أنك خطبت هنا فلن يفهم أكثر الناس ما ينبغى فهمه ولن يطيعوا ، فسر إلى المدينة واخطب فى جمع من الخواص فهؤلاء الناس يمكن أن يفهموا جميع جوانب الموضوع ، فوافقه عمر على هذا الرأى وأتى المدينة فى آخر ذى الحجة ، وفى يوم الجمعة جاء الناس إلى المسجد فى البداية متلهفين ثم تجمعوا وكان عبد الله بن عباس أكثرهم اشتياقًا ولهفة ولهذا ذهب وجلس بالقرب من المنبر وقال مخاطبًا سعيد بن زيد : سيخطب عمر اليوم خطبة لم يخطب مثلها قط ، فقال سعيد متعجبًا : هل هناك شىء جديد لم يذكره من قبل ؟ المهم أن الآذان انتهى وخطب عمر وقد وردت الخطبة والواقعة كاملتين فى صحيح البخارى [1] وذكر فى الخطبة حادثة سقيفة بنى ساعدة وآراء الأنصار ورد أبى بكر وكيف تمت البيعة وحقيقة الخلافة وقد ألقى هذه الخطبة بقوة ورصانة فائقة ، وبعد أن فرغ من خطبته وقر فى أذهان الحاضرين أن ما حدث قبل كان يجب أن يحدث بنفس الطريقة ولم يكن ممكنًا أن يتم بطريقة أخرى .

---

(١) صحيح البخارى المجلد الثانى (المطبعة الأحمدية فى ميرتھ) ص ١٠٠٩ (المؤلف) .
- صحيح البخارى : ٨ / ٢٠٨ - ٢١٠ (المترجم) .

وكانت ترجمة خطبته تتم جنبًا إلى جنب فى الاجتماعات التى كانت تشارك فيها الأمم الأخرى مثل الخطبة التى خطبها فى الجابية بدمشق فقد كان المترجم يترجمها إلى جواره [1] .

ومع أنه كان يخطب خطبًا موزونة من البديهة إلا أن الخطب التى كان يلقيها فى الأزمات كان يستعد لها ، فقد قال هو نفسه فى واقعة سقيفة بنى ساعدة « إننى ذهبت إليها وأنا على أهبة الاستعداد » / .   ٢٦٢

وعندما أصبح عثمان خليفة صعد على المنبر ليخطب فتلعثم مرة واحدة ولم يسعفه لسانه فاعتذر فى ذلك الوقت وقال : إن أبا بكر وعمر كانا متأهبين للخطبة وسوف أفعل كما فعلا فى المرة القادمة .

كان لا يجيد خطبة النكاح :

مع أن عمر كان يستطيع أن يخطب فى كل موضوع لكنه كما ذكر بنفسه « أنا لا أجيد خطبة النكاح » ، سأل الناس عبد الله بن المقفع أديب الدولة العباسية المشهور عن سبب عجز عمر [2] فقال : فى خطبة النكاح تتساوى مكانة كل شخص من الحاضرين فلا يكون الخطيب فى وضع متميز ، وعلى العكس من هذا ففى الخطب العامة بين الناس عندما يصعد الخطيب إلى المنبر ، يبدو أن جميع الناس من أتباعه ولهذا السبب تقوى الخطبة وتسمو تلقائيًا » لكن سبب عجزه فى رأيى يرجع إلى أن موضوع الحديث ضيق ومحدود فى خطبة الزواج فيكرر كل مرة كلامًا عاديًا عدة مرات .

الخطب السياسية :

هذا الأمر جدير بالاهتمام والملاحظة فقد كانت الموضوعات التى خطب فيها الناس قبل عمر تجرى فى الموعظة والفخر ووصف الأحداث الطبيعية وبيان السعادة

---

(١) إزالة الخفاء : ٢ / ١٣٥ (المؤلف) .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ طبعة مصر صفحة ٥٠ والعبارة الأصلية هى : سأل ابن المقفع عن قول عمر « ما يتصعد لى كلام كما تتصعد لى خطبة النكاح » قال : ما أعرف إلا أن يكون قرب الوجوه من الوجوه ونظر الحداق من قرب أجواف الحداق ولأنه إذا كان جالسًا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء فإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية » - البيان والتبيين : ١ / ١١٧ (المترجم) .

والحزن لكنهم لم يستطيعوا الخطبة فى أمور الدولة المتشعبة . فكان عمر أول من خطب فى الأمور السياسية ومع هذا كان يستطيع أن يتحدث فى تلك الخطب بطريقة كانت تبدو فى الظاهر كأنها أمور عادية إلا أنه كثيرًا ما يفرع عنها أمورًا عديدة / . ٢٦٣

الشروط اللازمة للخطابة :

لقد كانت العناصر اللازمة للخطابة فى ملكة الخطابة والأمور الهامة الأخرى تتوافر كلها فى عمر ، فقد كان صوته عاليًا ومهيبًا ، وقامته عالية ، فعندما كان يقف على الأرض كان يبدو كأنه يقف على المنبر ، ولعله من المناسب فى هذا المكان أن ننقل بعض خطبه وهذه الخطبة وجهها إلى العمال فى إحدى المناسبات وهذه كلماتها : -

« إننى لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث - أن يؤخذ بالحق ويعطى بالحق ويمنع من الباطل ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على خده الآخر حتى يذعن للحق ، يا أيها الناس إن الله قد عظم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة أربابًا » ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم » [(١)] وفيما يلى مقتطفات من خطبة أخرى : -

« فأنتم ستخلفون فى الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم فلا تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمتين - أمة مستعبدة للإسلام وأهله يتجزءون ، عليهم المؤنة ولكن المنفعة وأمة ينظرون وقائع الله وسطواته فى كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعبًا قد دهمتهم جنود الله ونزلت بساحتهم مع رفاهة العيش واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور . الخ » [(٢)] / . ٢٦٤

---

(١) كتاب الخراج صفحة ٦٧ (المؤلف)

- أبو يوسف : الخراج : ١١٧ - ١١٨ (المترجم) وقد جاءت فى رواية أبى يوسف « الخد الآخر » بدلاً « خده الآخر » و « أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا » بدلاً من « أن تتخذوا الملائكة أربابًا » و« صفات ثلاث » بدلاً من « خلال ثلاث » .

(٢) إزالة الخفاء نقلاً عن تاريخ الطبرى ، وقد وردت فى الرواية كلمة « يجزون » بدلاً من « يتجزءون » و« تنظر » بدلاً من « ينظرون » و« رفاغة » بدلاً من « رفاهة » . انظر تاريخ الطبرى : ٤ / ٢١٧ (المترجم) .

قوة الأسلوب :

كان عمر ينهى خطبه بهذه الكلمات : « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ولا تجعلنى من الغافلين » [١] .

وقد بلغ عمر درجة الكمال أيضًا فى الكتابة والإنشاء إلى جانب قوة الخطابة ، فأحكامه ورسائله وقوانينه وتوقيعاته وجميع أنواع الرسائل موجودة حتى الآن وأن كل ما كتبه فى موضوع لا مثيل له فى ذلك الموضوع وننقل هنا بعض رسائله وهذه الرسالة لأبى موسى الأشعرى :

« أما بعد فإن للناس نفرة عن سلطانهم فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ، كن من مال الله على حذر وخف الفساق واجعلهم يدًا يدًا ورجلاً رجلاً وإذا كانت بين القوم ثائرة يالفان يالفلان فإنما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله ويكون دعوتهم إلى الإسلام » [٢] . وفى خطاب آخر لأبى موسى : -

« أما بعد فإن القوة فى العمل ألا تؤخروا عمل اليوم للغد ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال فلم تدروا أيها تأخذون فأضعتم » [٣] .

وعندما عين عمرو بن العاص حاكمًا على مصر وبعثه فأبطأ فى إرسال الخراج فكتب له عمر يستعجله فماطل عمرو بن العاص ، فاستشاط عمر غضبًا / وأرسل إليه خطاب تهديد ووعيد فرد عليه عمرو بن العاص بحرية وشجاعة فائقة ، وقد نقل المقريزى هذه الخطابات فى تاريخ مصر كما هى ويمكن تقدير قوة أسلوب عمر بالاطلاع عليها ، وهذه بعض فقرات من تلك الرسائل : - ٢٦٥

« وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء اتخذوك كهفًا

---

(١) العقد الفريد خطب عمر (المؤلف) - ابن عبد ربه : العقد الفريد : ٤ / ١٣٢ (المترجم) .

(٢) جاء فى النص الأصلى : « احذر » بدلاً من « فأعوذ بالله » و« من مال الله علىّ » زائدة على النص ، و« أخف » بدلاً من « خف » وسقطت كلمة « فنادوا » بعد ثائرة و « من » بعد « نجوى » . (المترجم) .

(٣) الطبرى : ٤ / ٢١٣ (المترجم) .

(٤) المقريزى : ١ / ١٤٣ - ١٤٤ وعبارة « عما أسألك فيه » زائدة (المترجم) .

وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء ، إنى عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخروج وكتابك إلىّ بثنيات الطرق عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدُرر » .

تذوق الشعر :

مع أن شهرته بالنسبة للشعر والشعراء كانت قليلة بوجه عام ، ولا شك فى أنه كان نادرًا ما ينظم الشعر إلا أنه كان ذواقة له ولا يمكن أن يهمل هذا الجانب من تاريخ حياته فقد حفظ كثيرًا من أشعار شعراء العرب المعروفين وكانت له آراء خاصة فى شعر جميع الشعراء ويعترف مؤرخو الأدب عمومًا أنه لم يكن فى عصره ناقد للشعر أفضل منه فالعلاّمة ابن رشيق يقول فى كتابة العمدة – ويوجد نسخة خطية منه عندى – « وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة » [1] .

٢٦٦ وقد كتب الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين / : « كان عمر بن الخطاب أعلم الناس بالشعر [2] . كان النجاشى شاعرًا هجا قبيلة تميم بن مقبل فاشتكاه هؤلاء الناس إلى عمر فجعل عمر حسان بن ثابت الشاعر المعروف حكمًا وعمل بما حكم به حسان ، ولما كانت هذه الواقعة تحتمل سوء الفهم بأن عمر كان لا يفهم الشعر لذا فإن مؤرخى الأدب عندما ذكروا هذه الواقعة يذكرون أن هذا كان من سياسة عمر لأنه لم يكن يريد أن يتدخل بين شعراء الهجاء وإلا فمن كان هناك يستطيع أن يفهم دقائق الشعر أفضل منه [3] .

ومع أن عمر كان عالمًا بشعر الشعزاء المشاهير جميعًا لكنه اختار من بينهم ثلاثة هم : امرؤ القيس وزهير والنابغة وكان يميل أكثر إلى شعر زهير ويقول إنه « أشعر الشعراء » وهذه المسألة أى من هو أشعر الشعراء ؟ لم تقرر حتى الآن فى رأى مؤرخى

---

(١) كتاب العمدة ذكر أشعار الخلفاء (المؤلف) – ابن رشيق : العمدة : ١ / ٣٣ (المترجم) .

(٢) كتاب البيان والتبيين طبعة مصر صفحة ٩٧ (المؤلف) .

– الجاحظ : البيان والتبيين : ١ / ٢٣٩ (المترجم) .

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ صفحة ٩٧ وكتاب العمدة باب تعرض الشعراء (المؤلف) .

– الجاحظ : البيان والتبيين : ١ / ٢٤٠ وابن رشيق : العمدة : ٧٦/١ (المترجم) .

الأدب إلا أن الجميع قد اتفقوا على أن الأفضلية محدودة بهؤلاء الثلاثة ، وكان عمر يرى أن زهيرًا يفوقهم جميعًا وكان هذا نفس رأى جرير وصاحب عبد الله بن عباس مرة عمر فى إحدى الغزوات فقال عمر لعبد الله بن عباس أنشدنى لأشعر الشعراء / . قال عبد الله بن عباس ومن هو ؟ قال فسأله عن سبب تفضيله فرد عمر قائلاً : - لأنه لا يتبع حوشى الكلام ولا يعاظل من المنطق ولا يقول إلا ما يعرف ولا يمتدح الرجل إلا بما فيه » [١] وأنشد هذه الأبيات تأكيدًا لما قاله : ٢٦٧

إذا ابتدرت قيس بن غيلان غاية　　من المجد من يسبق إليها يسود
ولوكان حمد يخلد للناس لم تمت　　ولكن حمد الناس ليس بمخلد [٢]

والخصائص التى أخبرنا بها نقاد الفن بعد دراسة جميع أشعار زهير هى « أن شعره بسيط وسهل وبالرغم من أنه كان شاعرًا جاهليًا فإن لغته واضحة وسهلة حتى يبدو وكأنه شاعر إسلامى إلى جانب أنه لا يبالغ مبالغة بلا مناسبة وقد وصف عمر هذه المميزات بكلام موجز جدًا » .

كان هرم بن سنان ممدوح زهير من سادة العرب ، وبالصدفة أدرك أولاد كل من زهير وهرم عهد عمر وجاءوا إلى بلاطه ، فقال لابن هرم أنشدنى ما قال زهير فى أبيك : فأنشده . فقال عمر : لقد كان يقول فيكم فيحسن فقال : كنا نعطيه فيجزل فقال عمر : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم » [٣] / وقال لابنة زهير كيف حال الخلع التى أعطاها هرم لأبيك قالت بليت ، قال لكن الخلعة التى أعطاها أبوك لهرم لا يستطيع أن يبليها الدهر » [٤] . ٢٦٨

مدح النابغة :

واعترف عمر بالنابغة بعد زهير وقد حفظ معظم أشعاره ويذكر الإمام الشعبى أنه خاطب الناس مرة قائلاً : من أفضل الشعراء ؟ قالوا من يعرف أكثر منك ؟ قال هذا البيت لمن ؟

---

(١) العمدة : ٩٨/١ (المترجم) .　　(٢) الطبرى : ٤ / ٢٢٢ (المترجم) .
(٣) العمدة : ١ / ٨١ (المترجم) .
(٤) الأغانى : تذكرة زهير (المؤلف) - الأغانى : ١٠ / ٢٨٩ - ٢٩١ (المترجم) .

ألا سليمان إذ قال الإله له   قم فى البرية فاحددها عن الفند

قال الناس للنابغة ثم سأل وعن هذا البيت ؟

أتيتك عاريًا خلقًا ثيابى   على خوف تظن بى الظنونا

قال الناس للنابغة ومن قائل هذا البيت ؟

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

قال الناس للنابغة . قال : إن هذا الرجل أشعر العرب [1] .

رأيه فى امرئ القيس :

ومع ذلك فإنه لم ينكر أستاذية امرؤ القيس واختراعه للمعانى . سأل عمر ذات مرة عبد الله بن عباس عن رأيه فى الشعراء ، فقال هذه الكلمات عن امرؤ القيس : « سابقهم خسف لهم عين الشعر وافتقر عن معان عور أصح بصر » .

ونلاحظ من هذه الفقرة الأخيرة أن امرؤ القيس كان يمينًا وكان اليمنيون يعدون أقل درجة فى البلاغة / والفصاحة وهذا هو ما كتبه ابن رشيق فى شرح قول عمر هذا [2] .

٢٦٩

وقد بلغ تذوقه الشعرى إلى درجة أنه كان يستمع إلى الشعر فيتذوقه جيدًا ثم يقرؤه مرارًا ، وكان يسمع أشعار زهير فجاء هذا البيت :

وإن الحق مقطعة ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء [3]

فأعجبه حسن التقسيم كثيرًا وأخذ يردد هذا البيت مرارًا لفترة من الوقت وفى مرة أخرى كان يسمع القصيدة اللامية لعبد الله بن الطيب وبعد أن سمع هذا البيت :

---

(١) الأغانى تذكرة النابغة (المؤلف) - الأغانى : ١١ / ٤ (المترجم) .

(٢) كتاب العمدة باب المشاهير من الشعراء (المؤلف) - العمدة : ١ / ٩٤ (المترجم) .

(٣) العمدة / ١ / ٥٥ ويروى المصرع الثانى هكذا « أداء أو نفار أو جلاء » (المترجم) .

والمرء ساع لأمر ليس يدركه　　　والعيش شح وإشفاق وتأميل

فتاق إليه وأخذ يردد المصرع الثانى وهكذا عندما سمع قصيدة أبى القيس بن الأسلت فإنه ظل يردد بعض أبياتها فترة [١] .

حفظ الشعر :

مع أن عمر كان بسبب انشغاله فى أمور الخلافة الهامة لا يجد فرصة للاهتمام بمثل هذه الموضوعات إلا أنه كان يحفظ مئات الأبيات والتذوق الشعرى كان من طبعه ، ويذكر مؤرخو الأدب أن مدى حفظه للشعر قد بلغ حد أنه عندما كان يحكم فى أى قضية ينشد بيتًا من الشعر .

وكان عمر يفضل الأشعار التى تحتوى على معانى الإباء والحرية وشرف النفس والحمية والغيرة وبناء على هذا أرسل الأوامر إلى أمراء الأجناد وعمال المراكز ليهتم الناس بحفظ الشعر وأرسل هذا الأمر إلى أبى موسى الأشعرى : / ٢٧٠

« مر من قبلك يتعلم الشعر فإنه يدل على معانى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب » .

إدخال الشعر فى التعليم :

كانت هذه كلماته التى أرسلها إلى جميع الأقاليم : - [٢]

« علموا أولادكم العوم والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » .

ومن الأمور الجديرة بالمعرفة فى هذه المناسبة هى أن عمر قد أزال كثيرًا من عيوب الشعر فقد كان من عادة العرب آنذاك أن الشعراء كانوا يذكرون أسماء النساء المحصنات علانية فى أشعارهم ويشيرون فيها إلى حبهم فقضى عمر على هذه العادة تمامًا وقرر لها عقابًا صارمًا كما قرر عقابًا للهجاء وسجن الحطيئة شاعر الهجاء المشهور بهذا الذنب .

---

(١) نقلت جميع هذه الروايات من كتاب الجاحظ البيان والتبيين صفحة ٩٧ و٩٨ (المؤلف) .
- الجاحظ : البيان والتبيين : ١ / ٢٣٩ - ٢٤٠ وروى المصرع الأول من البيت الأول هكذا :
« والمرء ساع لشىء ليس يدركه » أيضًا . ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١ / ٢٦ (المترجم) .
(٢) إزالة الخفاء : ١٩٣ (المؤلف) .

كانت قبيلة بنى العجلان قبيلة عظيمة الشأن فهجاها أحد الشعراء فاشتكوه لعمر .
قال عمر : وما الشعر الذى قاله : فأنشده هذا البيت : -

إذ الله عـادى أهـل لـؤم ورقـة
فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

قال عمر ليس هجاء إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب / فأنشده بيتًا آخر : - ٢٧١

قبيلتهم لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

قال عمر : ليت آل الخطاب كذلك ، مع أن الشاعر ذكر هذه الصفات لأنها كانت تدل على الضعف عند العرب .

ولا يـردون الـمـاء عـشـيـة إذا صدر الوارد عن كل منهل

وقد قال الشاعر هذا البيت أيضًا لأنه من كان يفعل ذلك عند العرب يكون ضعيفًا ولا مروءة عنده ، ولكن عندما سمع عمر هذا البيت قال : ذلك أقل للسكاك (الزحام) فأنشدوه هذا البيت الأخير : -

وما سـمـى الـعـجـلان إلا لـقـولـهـم
خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : « سيد القوم خادمهم » [1]

علم الأنساب :

علم الأنساب يعنى حفظ أسماء القبائل وأنسابهم وكان عمر قد ورث هذا العلم منذ عدة أجيال فأبوه الخطاب كان نسابًا معروفًا وكان عمر يرجع إليه كثيرًا فيما يتعلق بهذا العلم ، وكان نفيل أبو الخطاب أيضًا مشهورًا فى هذا الفن وقد ذكرت هذه الأحداث فى بداية سيرة عمر .

وبالنسبة للقراءة والكتابة فقد تعلمها قبل الإسلام كما ذكرت فى أول الكتاب / . ٢٧٢

(١) العمدة : ٥٢/١ وفى رواية أخرى « خير القوم خادمهم » (المترجم) .

إلمامه باللغة العبرية :

يتضح من الدلائل أنه قد تعلم اللغة العبرية أيضًا بعد أن وصل إلى المدينة ، ويثبت من الرواية أن التوراة لم تكن قد ترجمت إلى اللغة العربية حتى ذلك الوقت ، وعندما كانوا يستخدمون التوراة فى أمر من الأمور فى عهد الرسول كانوا يرجعون إلى النسخة العبرية ولأن المسلمين كانوا لا يعرفون اللغة العبرية لهذا كانوا يسمعونها بعد أن يقرأها يهودى ويترجمها إلى العربية ، ويروى عن أبى هريرة فى صحيح البخارى قوله : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام » [1] .

وجاء فى مسند الدارمى أن عمر ذهب للرسول – ﷺ – ذات مرة ومعه نسخة من التوراة وبدأ فى القراءة فكان يقرأ ويتغير وجه الرسول [2] . ونقيس من هذا أن عمر كان قد تعلم هذا القدر من اللغة العبرية والذى مكنه من قراءة التوراة بنفسه .

ويثبت من الرواية الصحيحة أن عمر كان كثيرًا ما كان يشترك مع اليهود فى اليوم الذى كانوا يتدارسون فيه التوراة ، وعلى حد قوله : كنت أذهب عند اليهود فى يوم درسهم حتى كان اليهود يقولون أنت أعز إلينا من أهل ديننا ، لأنك تأتى عندنا [3] / . ٢٧٣

ذكاؤه وفطنته :

استخدم عمر ذكاؤه وفطنته فى هذا الصدد أيضًا ، أى أنه بقدر ما كان على علم بكتب اليهود بقدر ما كان ينفر من قصصهم وأساطيرهم السخيفة وتوجد روايات كثيرة جدًا على أنه عندما حصل المسلمون على مؤلفات اليهود فى العراق والشام منع عمر الناس من قراءتها منعًا ، ومع أنه يمكن لنا تقدير ذكائه وفطنته تقديرًا صحيحًا من اجتهاداته الفقهية التى مر ذكرها فى مقدرته العلمية إلا أن أموره فى الحياة العادية كذلك كانت لا تخلو من الذكاء والفطنة ولهذا نذكر عدة أمثلة على سبيل المثال :

---

(١) صحيح البخارى : صفحة ١٠٩٤ (المطبعة الأحمدية) .

(٢) مسند الدارمى (طبعة كانبور) صفحة ٦٢ (المؤلف) – مسند الدارمى : ١ / ١١٥ – ١١٦ (المترجم) .

(٣) كنز العمال : برواية البيهقى : ١ / ٢٣٣ (المؤلف) .

عندما عين عمّار بن ياسر حاكمًا على الكوفة لم يمر عام إلا وشكاه الناس للخلافة بأنه ليس رجل دولة وسياسة ، فاستدعاه عمر وقال : لقد كنت أعلم هذا الأمر بنفسى ولكنى تخيلت أنه (الله) ربما يجعلك مصداقًا لهذه الآية [1] : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [2] .

وذات مرة سمع رجلاً يدعو ويقول : « اللهم احفظنى من الفتنة ، فقال : هل تريد أن يحرمك الله من الأهل والأولاد ؟ [3] لقد قال الله - تعالى - فى القرآن الكريم إن الآل والأولاد فتنة :

﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [4] / ٢٧٤

وسأله رجل ذات مرة هل فى سفر البحر قصر فى الصلاة أو لا ؟ وكان قصده هل يعد سفر البحر سفرًا شرعيًا أو لا ؟ قال عمر : ولم لا ؟ والله نفسه يقول : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » .

أقواله الفلسفية (المأثورة) :

ولعمر - رضى الله عنه - العديد من الأقوال الفلسفية فى كتب الأدب وقد روى كثير منها فى نهاية كتاب مجمع الأمثال للميدانى بصفة خاصة ، ونذكر هنا بعض الأقوال على سبيل المثال : « من كتم سره كان الخيار فى يده - اتقوا من تبغضه قلوبكم - أعقل الناس أعذرهم للناس - لا تؤخر عمل يومك إلى غدك - أبت الدراهم إلا أن يخرج أعناقها - ما أدبر شىء فأقبل - من لم يعرف الشر وقع فيه - ما سألنى رجل إلا تبين له فى عقله . ويخاطب الوعاظ بقوله :

« لا يهلك الناس عن نفسك - أقلل من الدنيا تعيش حرًا - ترك الخطيئة أسهل من معالجة التوبة / لى على كل خائن أمينان الماء والطين - لو أن الصبر والشكر بعيران ٢٧٥ ما باليت على أيهما ركبت - رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى » [5] .

---

(١) تاريخ الطبرى : واقعة عزل عمار بن ياسر (المؤلف) - تاريخ الطبرى : ٤ / ١٦٤ (المترجم) .
(٢) القصص : ٥ (المترجم) .
(٣) إزالة الخفاء : ٢٠٥ (المؤلف) .　　(٤) الأنفال : ٢٨ (المترجم) .
(٥) الميدانى : مجمع الأمثال : ٤ / ٥٠ - ٥١ (المترجم) .

صواب الرأى :

كان عمر صائب الرأى ، يقول عبد الله بن عمر ، عندما كان عمر يقول هذا فى مسألة ما « هذا رأيى بالنسبة لها » فدائمًا كان يحدث مثل ما كان يقول فأى دليل أكثر من هذا على صواب الرأى حتى أصبح كثير من آرائه أحكامًا دينية سارية حتى اليوم ، فعندما قدم اقتراحًا للإعلان عن الصلاة بطريقة معينة أبدى الناس آراء مختلفة فذكر أحدهم الناقوس ورأى آخر أن يكون بوقًا فقال عمر لماذا لا يعين رجل ينادى على الصلاة ، فأمر الرسول بلالاً ليؤذن فى ذلك الوقت فكان هذا أول يوم تقرر فيه طريقة الآذان ولم يكن هناك طريقة أخرى أكثر تأثيرًا منه بصدد أداء الفروض الدينية .

أسرى بدر وحجاب الزوجات الطاهرات :

ولما حدث الخلاف فى أمر أسرى بدر أبدى عمر رأيه فنزل الوحى مطابقًا له (مؤيدًا له) . وكانت زوجات الرسول الطاهرات لا يرتدين الحجاب فى البداية ، وفكر عمر فى هذا مرارًا وعرضه على الرسول / لكن الرسول كان ينتظر الوحى ، حتى نزلت الآية الخاصة بالحجاب والتى تسمى آية الحجاب . ٢٧٦

صلاة الجنازة على المنافقين :

عندما مات عبد الله بن أُبى رأس المنافقين أراد الرسول أن يصلى عليه الجنازة طبقًا لخلقه النبوى الشريف ، فقال له عمر بطريقة فظة « أتصلى على منافق ؟ » وعلى هذا نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ [1] وكل هذه الأحداث مذكورة فى صحيح البخارى ومسلم وغيرها .

وقد كان ترتيب القرآن الكريم وتدوينه نتيجة لرأى عمر الصائب ، فقد كان أبو بكر وزيد بن ثابت (كاتب الوحى) كلاهما يعارض هذا الاقتراح من قبل . وكانت آراء عمر صائبة عمومًا فى جميع المسائل الدينية والدنيوية الهامة التى اختلف فيها مع الصحابة عدا بعض السلبيات ، وكانت آراء عمر صائبة عمومًا ، وقد اتفق معظم

(١) التوبة : ٨٤ (المترجم) .

الصحابة فيما يتعلق بالبلاد المفتوحة [1] على أن تقسم هذه البلاد بين الجيش ، وكان عمر معارضًا لهذا الرأى ولو لم يوافق الناس على رأيه لكانت البلاد الإسلامية الآن فى أسوأ أحوالها ، وفى إيرادات الفتوحات كان أبو بكر وعلى كلاهما يرى أن توزع بالتساوى بين الناس إلا أن عمر قرر نسبًا مختلفة طبقًا لمراتبهم فى الحقوق والأعمال . وأجاز أبو بكر وعلى كلاهما بيع أمهات الأولاد وعارض عمر ذلك . . أما رأى عمر الذى أخذ به فى / جميع تلك الأحداث فلا يحتاج إلى برهان . ٢٧٧

رأى عمر بالنسبة لمؤهلات عمل الخلافة :

عندما ثار البحث فى أمر الخلافة ومن يستطيع أن يتحمل هذا العبء الثقيل بعد عمر سمى عمر ستة من الصحابة وأبدى رأيه الخاص فيما يتعلق بكل واحد منهم وكانوا جميعًا صالحين للخلافة .

بعد النظر ودقة التفكير :

كان عمر يمعن النظر ويعمل فكره فى كل يوم يقوم به ولم يكن يعتمد على الأمور الظاهرية ويقول : « لا يعجبنكم من الرجل طنطنته » وكان كثيرًا ما يقول : « لا تنظروا إلى صلاة امرئ ولا صيامه ولكن انظروا إلى عقله وصدقه » .

ذات مرة مدح رجل أحد الأشخاص أمامه فقال له : هل تعاملت معه ؟ قال : لا . فسأله ألم تسافر معه ؟ قال : لا . قال : تقول قولك فى الذى لا تعرفه [2] . والخطأ الفادح الذى حدث فى صدد الحديث هو أن كثيرًا من المحدثين عندما كانوا يرون شخصًا زاهدًا ورعًا فى الظاهر يعتبرونه ثقة فيبدون الرواية عنه ، كان عبد الكريم بن أبى المخارق رجلاً ضعيف الرواية وقد روى عنه الإمام مالك فسأله الناس مندهشين أتروى عن مثل هذا الرجل . قال : « غرنى بكثرة جلوسه فى المسجد » [3] / . ٢٧٨

---

(١) يذكر القاضى أبو يوسف فى كتابه الخراج : « أن عمر بن الخطاب استشار الناس فى السواد حين افتتح فرأى عامتهم أن يقسمه » ويذكر فى مكان آخر « أن أصحاب رسول الله - ﷺ - وجماعة المسلمين أرادوا عمر بن الخطاب أن يقسم الشام » . الخراج : ٢٦ (المترجم) .

(٢) إزالة الخفاء : ٢ / ١٩٧ (المؤلف) .

(٣) موطأ الإمام مالك : ١١٣ (المترجم) .

الحياة الدينية :

وقلما كان يجد عمر فرصة بسبب أعمال الخلافة الهامة فلهذا قرر لنفسه الليل للعبادة وكان يصلى النوافل عادة فى الليل ، وعندما يأتى الفجر كان يوقظ أهل بيته ويتلو هذا الآية : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴾ [1] . وكان يتلو السور الطوال فى صلاة الفجر ولكنه لم يكن يقرأ أكثر من مائة وعشرين آية . يقول عبد الله بن عامر : إننى صليت الفجر خلفه مرة فقرأ سورة يوسف والحج وروى عنه قراءة يونس والكهف وهود أيضًا .

الصلاة :

كان يفضل صلاة الجماعة ويقول : إنى أفضلها على التعبد طوال الليل وعندما كان يقوم بأى عمل هام ويخشى من تأخير الوقت كان يؤديه أولاً . وذات مرة أقيمت الصلاة وسوى بين الصفوف فخرج رجل من الصف وتقدم تجاهه فتقدم هو نحوه ودار الحديث بينهما لفترة من الوقت [2] . ويقول : صلى بعد أن تنتهى من الأكل ، وكان فى بعض الأوقات ينهمك بأمر الجهاد إلى هذا الحد حتى تلازمه هذه الفكرة فى الصلاة . وعلى حد قوله « أصلى وأنا أعد الجيوش » وفى رواية أخرى : كنت أعد حساب جزيرة البحرين فى الصلاة » [3] وكان يصلى ذات مرة فوردت هذه الآية ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ [4] فأشار بإصبعه نحو الكعبة .

وبعد أن نقل شاه ولى الله هذه الرواية ذكر أن الإشارة بهذا القدر جائزة فى الصلاة [5] . وكان فى بعض الأحيان فى أثناء إلقاء خطبة الجمعة يتحدث مع أحد ما / ٢٧٩ وفى موطأ الإمام مالك أن عثمان تأخر عن الجمعة ذات مرة وعندما وصل للمسجد كان عمر قد بدأ الخطبة ، وفى أثناء الخطبة نظر عمر إليه وقال : أى وقت هذا ؟ فقال : أنا

---

(١) طه : ١٣٢ (المترجم) .
(٢) إزالة الخفاء : ٩٠ نقلاً عن مصنف ابن أبى شيبة (المؤلف) .
(٣) إزالة الخفاء : ٩٣ (المؤلف) .
(٤) قريش : ٣ (المترجم) .
(٥) إزالة الخفاء : ٢ / ٩٥ (المؤلف) .

قادم من السوق فسمعت الآذان فاغتسلت وحضرت على الفور . قال عمر : لماذا لم تكتف بالوضوء ؟ (قال) إن الرسول قد أمر بالاغتسال .

الصوم :

روى أبو بكر بن أبى شيبة أنه قد بدأ بالصوم المتواصل قبل موته بعامين ويروى عنه أيضًا أنه عندما سمع عن أحد أنه صائم الدهر رفع الدرة لضربه [1] . وكان يحج كل عام ويرأس القافلة بنفسه . وأنه كان يخاف خوفًا شديدًا من حساب يوم القيامة ويفكر فيه كل وقت ، وجاء فى صحيح البخارى أنه ذات مرة قال لأبى موسى الأشعرى هل أنت راض على هذا يا أبا موسى ؟ آمنا بالإسلام وآثرنا الهجرة وسرنا خلف رسول الله حيث سار ثم نلقى جزاء عن هذه الأمور كلها وتبرأ ساحتنا بدون ثواب أو عقاب ؟ قال أبو موسى أنا لا أرى هذا فقد تقربنا إلى الله بقربان كثيرة وأملنا فى أعظم من هذا . قال عمر : والذى نفس عمر بيده إننى أريد هذا القدر فحسب وألا أحاسب » وكان ينشد هذا البيت فى أثناء الموت : / ٢٨٠

ظلوم لنفسى غير أنى مسلم   أصلى الصلاة كلها وأصوم

عدم التعصب :

وعلى الرغم من أن عمر كان صورة مجسمة للدين إلا أنه لم يكن زاهدًا متقشفًا ولم يكن متشددًا متعصبًا مثل المتدينين فى الوقت الحاضر ، فعلماؤنا يعتبرون استعمال أوعية النصارى وأدواتهم مخالفًا للدين لكن البخارى والشافعى رويا عن عمر أنه قد « توضأ من ماء جيء به من عند نصرانية » [2] ورواية البغوى أوضح من هذه الرواية « توضأ عمر من ماء فى جر نصرانية » [3] ونقل البغوى هذه المقولة لعمر « كلوا الجبن الذى يصنعه النصارى » [4] بينما طعام النصارى يقال عنه أنه مكروه وممنوع فى الوقت

---

(١) إزالة الخفاء : ١٠٢ (المؤلف) .

(٢) إزالة الخفاء : ٢/٨٨ (المؤلف) .

(٢) المرجع السابق : ١ / ١٣٨ (المؤلف) .

(٤) المرجع السابق : ١ / ١٣٨ (المؤلف) .

الحاضر . وكان عمر قد ضمن هذا الشرط فى المعاهدات وهو أنه عندما يمر أى مسلم فعلى النصرانى أن يضيفه ثلاثة أيام ، أما الآن فيتم تلقين العداوة والبغضاء بالنسبة للأقوام الأخرى ، أما عمر فلم ينس الرعايا اليهود والنصارى حتى النزع الأخير من حياته لذا فالوصية التى أوصاها للرحمة والإحسان بهم موجودة فى صحيح البخارى وكتاب الخراج وغيرها . ويعتبر شاه ولى الله هذا الأمر من محاسن عمر وفضائله لأنه يؤكد على حسن معاملة أهل الذمة ، ومن كلمات شاه ولى الله الخاصة « ومن بينها أنها أكد على الإحسان بأهل الذمة » [١] / . ٢٨١

روى المحب الطبرى وغيره أن عمر قد منع قادته من استعمال النصارى ، ومما يؤسف له أن شاه ولى الله أيضًا قد قبل هذه الروايات ، إلا أن المرء الذى ينظر إلى كتاب « الرياض النضرة » للمحب الطبرى يدرك من أول وهلة قيمة هذه الروايات ولا يعلم هؤلاء الأكابر أن دواوين الخراج كلها فى العراق والشام ومصر كانت باللغة السريانية والقبطية ولهذا السبب كان جميع عمال ديوان الخراج من المجوس أو النصارى ، ومن ناحية الوظيفة والمهنة فإن عمر استدعى أحد نصارى الرومان إلى المدينة ليرتب له فى الفرائض وينظمه ، وقد ذكر البلاذرى فى كتاب الأشراف هذه الواقعة وهذه هى كلماته : « ابعث إلينا برومى يقيم لنا حساب الفرائض » .

واليوم لا يمكن لغير المسلم أن يذهب إلى مكة والمدينة ويعتقد أن هذه مسألة شرعية بينما كان غير المسلم يذهب إلى مكة بسهولة فى أيام عمر وكانوا يقيمون فيها لو أرادوا أن يقيموا فيها كما ذكر القاضى أبو يوسف فى أحداث عديدة « من كتاب الخراج » [٢] وبالنسبة للغربيين الذين يتهمون الإسلام فى الوقت الحاضر بالتعصب وضيق الأفق عليهم أن يفهموا أن العصر الحاضر لا يقدم لنا صورة الإسلام الحقيقية وأن صورة الإسلام يمكن رؤيتها فى مرآة سيرة الخلفاء الراشدين .

المجالس العلمية :

كثيرًا ما كان يجرى الحديث فى مجلس عمر عن كثير من القضايا العلمية ، وذات

---

(١) المرجع السابق : ٢ / ٧٣ (المؤلف) .

(٢) كتاب الخراج : صفحة ٧٨ و ٧٩ (المؤلف) - القاضى أبو يوسف : كتاب الخراج : ١٣٠ - ١٣٦ (المترجم) .

٢٨٢ يوم اشترك أصحاب بدر فى مجلسه / (أى الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر مع رسول الله - ﷺ -) فخاطب عمر جماعة من الصحابة قائلاً : ما المقصود بقول : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [١] فقال بعضهم يأمر الله بأن نشكر الله عندما يتم النصر ، وصمت البعض تمامًا ، فنظر عمر إلى عبد الله بن عباس فقال : فيها إشارة إلى وفاة الرسول يعنى « يا محمد إذا جاء النصر والفتح فهذه علامة على انتقالك من هذه الدنيا لذا سبح بحمد ربك واستغفره إن الله كان توابًا . فقال عمر : « كنت أعتقد نفس الذى قلته » [٢] .

وذات مرة كان فى جمع من الصحابة شارك فيه عبد الله بن عباس أيضًا ، فسأل عمر عن معنى هذه الآية : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ [٣] قال الناس الله أعلم . فغضب عمر من هذا الرد وقال : من لا يعلم يجب أن يصرح قائلاً « إننى لا أعلم » وكان عبد الله بن عباس يعرف المعنى الصحيح للآية ويتردد بسبب صغر سنه ، فنظر إليه عمر وقال : أيها الشاب المحنك لا تحقر نفسك وقل مابدا لك . فقال عبد الله بن عباس : لقد ضرب الله مثلاً بالرجل العامل . فلم يقتنع عمر بهذا لأن الرد كان ناقصًا ولم يستطع عبد الله بن عباس أن يضيف أكثر من هذا . فقال عمر : « هذا تشبيه بالرجل الذى أنعم الله عليه بالمال والنعم ليعبد الله ولكنه عصى فبدد الله حسناته » .

٢٨٣ وذات مرة شرب صحابى [٤] من الصحابة المهاجرين الخمر ومثل أمام عمر / ليعاقب على هذا الذنب فأراد عمر أن ينكل به فقال : يثبت من القرآن أننى ممن لا يستحقون العقاب على هذا الذنب واستدل بهذه الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ [٦] ثم قال إننى لازمت الرسول فى غزوة بدر

---

(١) النصر : ١ (المترجم) .

(٢) صحيح البخارى : تفسير إذا جاء (المؤلف) - صحيح البخارى : ٦ / ٢٢٠ (المترجم) .

(٣) البقرة : ٢٦٦ (المترجم) .

(٤) صحيح البخارى : (طبعة ميرته) ٦٥١ (المؤلف) .

(٥) هو ابن مظعون (المترجم) .

(٦) المائدة : ٩٣ (المترجم) .

والحديبية والخندق وغيرها من الغزوات ولهذا أدخل ضمن هؤلاء الناس الذين يعملون الصالحات . فنظر عمر إلى الصحابة فقال عبد الله بن عباس إن هذا العفو يتعلق بالعهد السالف أى الناس الذين شربوا الخمر قبل نزول تحريم الخمر فلو أنهم « آمنوا وعملوا صالحًا » فليس عليهم جناح ثم قرأ هذه الآية التى ورد فيها حكم صريح بمنع الخمر : (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (٢) .

أصحاب المجلس :

كان الناس الذين يجلس معهم عمومًا من أهل العلم والفضل لا يميز فيهم بين الشيوخ والشباب وفى صحيح البخارى : (٣) « كان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبابًا » / .

٢٨٤

إن الجزء الكبير من الفقه الذى نقح فى تلك الفترة ويسمى « بالفقه العمرى » ظهر عن طريق مجالسه العلمية وكان كبار أعضاء هذا المجلس هم : أبى بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن عوف وحر بن قيس وكان عمر يقدر هؤلاء الأعضاء لفضائلهم العلمية . وكان من عادته عندما يجلس فى المجلس أن يأذن للناس للمثول بين يديه بمراعاة الفروق التى تميزهم فيأتى قدامى الصحابة أولاً ثم الأقربون ثم الآخرون حسب الترتيب . وكان هذا الترتيب يتغير أحيانًا ، فقد كان هذا الأمر مقصورًا على أولئك الذين كانوا يمتازون بفضل العلم مثل : عبد الله بن عباس الذى أدخله ضمن قدامى الصحابة ، ومع ذلك أمره ألا يتساوى مع الصحابة الآخرين فى السؤال والجواب أى يتحدث بما يشاء بعدهم (٤) .

---

(١) إزالة الخفاء : نقلاً عن رواية الحاكم صفحة ٢١٣ (المؤلف) .

(٢) المائدة : ٩٠ (المترجم) .

(٣) صحيح البخارى : ٢ / ٦٦٩ وقد روى البغوى عن الزهرى قوله : كان يجلس عمر مغتصًا فى القراءة » - إزالة الخفاء : ١١٩ (المؤلف) .

(٤) فتح البارى شرح البخارى : تفسير « إذا جاء نصر الله » (المؤلف) - فتح البارى : ٦ / ٢٢٠ (المترجم) .

أما الحاضرون الذين كانوا أصغر سنًا وكانوا يترددون ويتهيبون فى إبداء الآراء المتعلقة بالمسائل فكان عمر يشجعهم ويقول إن العلم لا يرتبط بصغر السن وكبره [1] . وكان عبد الله بن عباس شابًا فى ذلك الوقت فاشتكى بعض كبار الصحابة من مشاركته فبين لهم سبب هذا الأمر وطرح مسألة علمية أمامهم فلم يستطع أى شخص أن يجيب عليها إجابة صحيحة سوى عبد الله بن عباس وكان عمر يقدر أيضًا عبد الله بن مسعود حتى فى سنة ٢١هـ عندما عينه مفتيًا ومسئولاً عن الخزانة وأرسله للكوفة . كتب إلى أهل الكوفة « أرسله بعد أن عينته وزيرًا ومعلمًا لكم / وإننى أفضله لكم على نفسى ولهذا فضلته من عندى لكم » وكان يقول مرارًا عندما يحل عبد الله بن مسعود مسألة : « كنيف ملئ علمًا » . ٢٨٥

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك شخص يدانى عمر من حيث العلم والفضل سوى الإمام علىّ إلا أنه كان يعامل أهل الكمال كما يجب أن يتعامل الصغار مع الكبار . وذكر الذهبى فى تذكرة الحفاظ : أن عمر كان يحترم أبى بن كعب احترامًا عظيمًا ويهابه وعندما مات قال : « مات اليوم قائد المسلمين ، وكان زيد بن ثابت يخلفه فى غيابه كثيرًا » وعندما يعود كان يعطيه شيئًا ما على هيئة عقار [2] وكذلك كان يبجل كلاً من : أبى عبيدة وسلمان الفارسى وعمير بن سعيد وأبى موسى الأشعرى وسالم وأبى الدرداء وعمران بن حصين وغيرهم . وكان هناك كثير من الصحابة الذين قرر لهم راتبًا لأنهم كانوا يتميزون بالعلم والدين فأبو ذر الغفارى لم يشهد غزوة بدر لكنه قرر له راتبًا مساويًا لأصحاب بدر لأنه لا يقل عنهم فى العلم والدين .

تقدير أهل الكمال :

ولم يكن تقديره محدودًا بأى جماعة ، فكان يراعى كل من ينبغ فى أى مجال رعاية خاصة ، فقرر لعمير بن وهب الجمحى مائتى دينار سنويًا لثباته فى المعارك الشديدة [3] . وجعل لخارجة بن حذاقة وعثمان بن أبى العاص / راتبًا لأنه خارجة كان بطلاً مغواراً وعثمان كريمًا . ٢٨٦

---

(١) إزالة الخفاء نقلاً عن البغوى : ١١٩ (المؤلف) .

(٢) سيرة العمرين لابن الجوزى (المؤلف) .

(٣) فتوح البلدان : ٤٥٦ (المؤلف) - البلاذرى : فتوح البلدان : ٤٤٢ (المترجم) .

ذات مرة أرسل إلى المغيرة بن شعبة ليرسل إليه الأشعار التى كتبها الشعراء فى الكوفة فى عهد الإسلام ، فاستدعى المغيرة أغلب العجلى أولاً وأمره أن ينشد الشعر فأنشد هذا البيت :

لقد طلبت هنيئًا موجودًا　　　أرجزًا تريد أم قصيدًا

ثم استدعى لبيد وتلا عليه هذا الأمر فكتب سورة البقرة وأحضرها وقال إن الله منحنى هذا عوضًا عن الشعر ، فكتب المغيرة إلى عمر بكل ما حدث فجاءه الرد من هناك أن ينقص فى راتب « أغلب » خمسمائة ويضاف هذا المبلغ إلى لبيد ، فجاء أغلب إلى عمر وطلب مكافأة له فأبقى عمر راتبه كما هو إلى جانب زيادة مرتب لبيد !!

إن نوابغ ذلك العصر من الشعراء والخطباء والنسابين والمصارعين والأبطال كلهم أتوا إلى باب الخلافة وكانوا يشكرون عمر على تقديره لهم وكان « مُتمم بن نُويرة » أعظم شاعر فى ذلك الوقت وكان خالد قد قتل أخوه خطأ فى عهد أبى بكر فأصابته صدمة عنيفة بسبب هذا الحادث فكان يبكى دائمًا وينشد المراثى وعندما يظهر كان يجتمع حوله الرجال والنساء لينشدوه المراثى فيسمعوها / فكان متمم بن نويرة يُنشد المرثية ويبكى ويبكى الجميع ، وعندما حضر أمام عمر أمره أن ينشد مرثية فأنشده عدة أبيات وكان هذا البيت الأخير : ٢٨٧

وكنا كندمانى جذيمة حقبة　　　من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكًا　　　لطول اجتماع لم نبت ليلة معًا

فقال عمر لمتمم لو أننى أجيد الرثاء مثلك لرثيت أخى زيدًا ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أن أخى مات مثل أخيك (يعنى شهيدًا) ما رثيته قط ! فكان عمر يقول دائمًا : ما عزانى أحد قط بمثل ما عزانى به متمم .

كانت الشاعرة الخنساء إذ ذاك أيضًا من فحول شعراء الرثاء وديوانها موجود حتى اليوم وليس فيه إلا المراثى ، وقد أجمع مؤرخو الأدب على أنه لم يظهر مثيل للخنساء فى

(١) كنز العمال : ٢ / ٣١٧ (المؤلف) .

فن الرثاء حتى اليوم وقد رآها عمر تبكى وتصرخ فى الكعبة عندما استشهد أبناؤها الأربعة فى القادسية فذهب إليها ليعزيها ويهدأ من روعها وصرف أربعة رواتب باسمها .

كما ظهر إذ ذاك رجلان تفوقا على سائر العرب فى المصارعة والشجاعة ، هما طلحة بن خالد وعمرو بن معد يكرب وكان الواحد منهما يعادل ألف فارس فكرمهما عمر بالحضور عنده / وعندما أرسلهما إلى معركة القادسية كتب إلى سعد إنى ممدكم ٢٨٨ بألفى فارس وكان عمرو بن معد يكرب خطيبًا وشاعرًا إلى جانب كونه مصارعًا ، وكان عمر يتحدث معه فيما يتعلق بفنون الحرب مثلما حدث فى إحدى الجلسات عندما كان يسأله عن قبائل العرب وأسلحة الحرب وكان عمرو بن معد يكرب يجيب على كل منها بعبارات بليغة ومختصرة تناقلتها العرب عمومًا وذكرها المسعودى بالتفصيل فى « مروج الذهب »[1] . فعندما سئل عن الرمح قال : « أخوك وربما خانك » ، ولما سئل عن السهام قال : « بُرد المنايا تخطئ وتصيب » ، وقال عن الترس : « عليه تدور الدوائر » . وهكذا فقد جاء بعبارات قصيرة وبليغة لكل نوع من أنواع الأسلحة وليس هذا مكان تفصيلها .

وبهذا الأسلوب جمع عمر حول الخلافة جميع نوابغ العرب وكان عمر يستفيد من مهاراتهم على أكمل وجه .

مراعاة قرابة رسول الله :

كان عمر يقرب إليه من كان يرتبط برسول الله - ﷺ - فعندما أراد تعيين الرواتب للصحابة وغيرهم رأى عبد الرحمن بن عوف وغيره أن يوضع عمر فى المقدمة فرفض عمر وقال لابد أن يراعى فى ترتيب الدرجات أولاً من يتعلق بالرسول قربًا وبعدًا ولهذا بدأ أولاً بقبيلة بنى هاشم وبدأ فيها بأسماء / العباس والإمام على ثم بنى هاشم وبعدهم ٢٨٩ بنى أمية أقارب الرسول فى النسب ثم بنى عبد شمس وبنى نوفل وعبد العزى حتى جاءت قبيلة عمر بنو عدى فى المرتبة الخامسة وبهذا الترتيب كُتب أسماء الجميع وقد راعى هذا أيضًا فى مقدار الرواتب ، فكانت أكبر الرواتب لمن شهدوا بدرًا ، ومع أن الحسن والحسين لم يكونا من هذا الطائفة إلا أن رواتبهم صرفت بنفس المقدار ، وأجرى

(١) المسعودى : مروج الذهب : ١ / ٣٣٣ (المترجم) .

لزوجات الرسول الطاهرات رواتب قدرها اثنا عشر ألفًا فكانت أعلى نسبة وجعل راتب أسامة بن زيد أكبر من راتب ابنه فاعتذر عنه عبد الله فقال له إن رسول الله - ﷺ - كان يفضل أسامة عليك وكان يحب أباه أكثر من أبيك .

لقد ظل بينه وبين علىّ - كرم الله وجهه - قدر من الشقاق فى بداية خلافة أبى بكر (كما ذكرت من قبل) وكان من جراء ذلك أن ظل علىّ ستة أشهر دون أن يبايع أبا بكر على الخلافة ، وقد ورد فى صحيح البخارى فى باب غزوة خيبر أنه بعد ستة أشهر أى بعد وفاة فاطمة الزهراء أراد علىّ استدعاء أبى بكر بغرض البيعة والمصالحة فأرسل إليه الدعوة ليأتى بمفرده لأن علىّ كان لا يحبذ وجود عمر [٣] .

لكن عندما انقشع ألم الخلافة تدريجيًا عاد إليه صفاؤه ، ولم يكن عمر يقوم بالأعمال الكبرى والهامة دون مشورة علىّ / وكان علىّ يشير عليه بإخلاص ومودة ، وأراد تنصيبه قائدًا فى معركة نهاوند لكنه أبى فأوكل إليه شئون الخلافة عندما ذهب إلى بيت المقدس ، ووصلت هذه العلاقة إلى أعظم درجات القرابة والاتحاد عندما زوّجه علّى من أم كلثوم ابنة فاطمة الزهراء وسيأتى تفصيلها فيما بعد .

٢٩٠

الأخلاق والعادات والتواضع والبساطة :

لقد أفرد المؤرخون عناوين مستقلة فى وصف أخلاقه وشمائله وبساطته وتواضعه والحقيقة أن سمة البساطة تبدو بهية على تاج عظمته وشأنه فهو فى جانب واحد من جوانب حياته يرسل الجيوش إلى الشام والروم ويتعامل مع سفراء قيصر وكسرى ويحاسب خالد أو معاوية ، ويرسل الأوامر إلى سعد بن أبى وقاص وأبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، وفى الوجه الآخر من حياته يرتدى قميصًا به اثنا عشرة رقعة وعلى رأسه عمامة ممزقة وفى قدميه نعال عرضية بلا كعب وهو فى هذا الحالة يحمل

---

(١) هذه التفاصيل كاملة فى كتاب الخراج صفحة ٢٤ ، ٢٥ (المؤلف) .

- القاضى أبو يوسف : الخراج : ٤٣ (المترجم) .

(٢) الكلمات الأصلية للبخارى هى « كراهية لمحضر عمر » (المؤلف) .

(٣) صحيح البخارى : ٥ / ١٧٧ - ١٧٨ وصحيح مسلم : ٥ / ١٥٣ - ١٥٤ وكنز العمال : ٥ / ٣٥١ (المترجم) .

على كتفه قربة ليملأ جرار الأرامل بالماء ، أو يتمدد على الثرى فى أحد جوانب المسجد وكان يعمل حتى يبلغ منه النصب مبلغًا ويغالبه النعاس .

وكان كثيرًا ما يسافر من مكة إلى المدينة فلا يأخذ معه خيمة أو سرادقًا قط حيثما ينزل يلقى بالرداء على أى شجرة ويستلقى فى ظله ، ويروى ابن سعد أن النفقات اليومية لبيته كانت درهمين لعشرة أفراد تقريبًا ، وذات مرة ذهب الأحنف بن قيس وسادة العرب / للقائه فرآه قد شمر عن ساعده وأخذ يهرول هنا وهناك ، وعندما رأى ٢٩١ الأحنف قال له هلم أيضًا وساعدنى فقد هرب جمل من بيت المال ، أتعلم أن فى الجمل الواحد حقًا للعديد من الفقراء ، فقال أحدهم ، يا أمير المؤمنين لماذا تكبد نفسك العناء ؟ فلتأمر عبدًا ليبحث عنه . فقال : « أى عبدٍ أعبد منى ؟ » .

ويروى فى موطأ الإمام محمد أنه عندما سافر إلى الشام واقترب من المدينة نزل من على الفرس لقضاء حاجته وكان معه غلامه أسلم فلما انتهى من قضاء حاجته ركب على جمل أسلم (نسيانًا منه أو لحكمة ما) وكان أهل الشام قد حضروا لاستقباله هناك ، فكان الذى يأتى يتجه أولاً إلى ناحية أسلم فيشير أسلم إلى عمر فيتعجب الناس ويهزون رءوسهم فيما بينهم (بدهشة) فقال عمر : إنهم يتفحصون العظمة والأبهة ولكن أنّى هى هنا ؟!

وذات مرة قال فى خطبه أيها الأصحاب لقد كنت فى وقت من الأوقات مفلسًا إلى حد أننى كنت أحمل الماء إلى الناس وأتقاضى على هذا أجرًا من التمر الجاف فكنت آكل وأعيش وبعد أن قال هذا نزل من على المنبر فاندهش الناس وقالوا : هل هذا أمر يقال على المنبر فقال لقد انتاب نفسى شىء من الغرور فكان هذا دواؤه .

وفى سنة ٢٣هـ عندما سافر للحج كان شمس قوته فى ذلك الحين قد وصلت إلى أوجها مر عليه سعيد بن المسيب وكان من التابعين المعروفين يرافقه فى هذا السفر / ٢٩٢ يقول : عندما وصل عمر إلى أبطح ألقى بردائه على الحصى وجعل لنفسه وسادة من ذلك الرداء وتمدد على بساط الثرى ورفع يديه وتوجه إلى السماء وقال : يا رب كبرت سنى ووهنت قواى فاقبضنى من هذه الدنيا [١] .

(١) موطأ الإمام محمد ص ٣٠٤ (كتاب الحج) .

الفكاهة :

مع أن أمور الخلافة جعلته حاد الطبع لكن لم تكن هذه حالته الطبيعية فكان أحيانًا يتسلى بالفكاهة إذا وجد فرصة ، وذات مرة استنشد عبد الله بن عباس الشعر طوال الليل ، وعندما تنفس الصباح قال : « اقرأ القرآن الآن » . ويذكر ابن الجوزى فى سيرة العمرين أنه كان يتجول ذات مرة فى الليل فجاء إليه صوت غناء من أحد الجوانب فتوجه ناحيته ووقف يسمع فترة من الوقت وذات مرة كان يحج ومعه عثمان وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن الزبير فكان عبد الله بن الزبير يمزح مع أقرانه ويتراشقون بحبات الحنظل فلم يعترض عليه عمر إلا أنه قال : خذوا حذركم حتى لا تنفر البعير » . وأمر الناس رباح بالحداء وكانوا يعتقدون أن عمر ربما يمنعه لكن عندما لم يبد عمر أى اعتراض بدأ رباح فى الحداء وكان عمر يسمع كذلك ولما أصبح الصباح قال : كفى ! حان الآن وقت ذكر الله [١] .

وكان راكبًا مرة يغنى وهو فى طريقه إلى الحج . فقال الناس لعمر : ألم تنه عنه ؟ قال : « إن الغناء زاد طريق راكبى الجمال» [٢] . يقول خوات بن جبير كنت ذات مرة
٢٩٣ فى سفر مع عمر وكان أبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف فى / صحبتنا أيضًا ، فأمرنى الناس أن أغنى أشعار ضرار . قال عمر : من الأفضل أن يغنى أشعاره ولهذا بدأت فى الغناء وبقيت أغنى طول الليل [٣] .

غلظة الطبع :

كان عمر بطبعه حاد المزاج ، فكان سرعان ما يغضب ، أما فى الجاهلية فقد كان مثالاً للغضب ولم يذهب أثره بعد الإسلام لحقبة من الزمن .

ففى غزوة بدر قال الرسول إنى أعلم أن الكفار يجيبون بنى هاشم وإلا ما جاءوا مطلقًا من تلقاء أنفسهم ولهذا إذا رأيتم العباس أو النجترى وغيرهما فى مكان ما فلا تقتلوهم . فنهض أبو حذيفة وقال : نحن لا نصفح عن آبائنا وأبنائنا وإخواننا فلماذا

---

(١) إزالة الخفاء : ٢٠٦ (المؤلف) .
(٢) إزالة الخفاء : ١٩٨ (المؤلف) .
(٣) المرجع السابق : ٢٠٨ .

يتميز بنو هاشم ؟ والله لو وقع العباس فى يدى لأجعلنه طعمة للسيف ، فكدرت هذه الوقاحة خاطر الرسول وخاطب عمر قائلاً : يا أبا حفص (وكانت هذه كنية عمر) أترى أن وجه عم رسول الله جديرًا بالسيف ؟ فاستشاط عمر غضبًا وقال : فلتأذن لى أن أطيح برأسه ، وكان حذيفة من كبار الصحابة وقد خرجت منه عن غير قصد ولهذا فإن رسول الله لم يؤاخذه عليها .

كان حاطب بن أبى بلتعة صحابيًا جليل القدر شهد بدرًا وتراسل مرة مع الكفار سرًا لحاجة فى نفسه ، وافتضح هذا السر فتميز عمر غيظًا وذهب إلى الرسول - ﷺ - وقال له : لقد كفر فأذن لى أقتله فقال الرسول ألا تعلم يا بن الخطاب أن الله نظر إلى أهل بدر وقال : [1] « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وذات مرة قال رجل يدعى ذا الخويصرة لرسول الله - ﷺ - بوقاحة : « اعدل يا محمد » فتميز عمر من الغيظ وأراد أن يقتله ، لكن الرسول منعه - وربما تقدرون من هذه الأحداث كيف كان سيفه يخرج من غمده فى كل مناسبة ، لقد كان هذا سلوكه مع المسلمين أنفسهم فكيف كان مع الكفار ؟ لكن فيض الإسلام وسماحته وذهاب الصحة والعمر ومهام الخلافة قد ألانت جانبه وجعلته حليمًا تدريجيًا حتى كان يتعامل بتلك الرحمة والرقة مع الكفار فى أيام الخلافة التى يتعامل بها المسلم مع المسلم الآن .

حبه لآله وأولاده :

إن المعلومات عن حياته العائلية ضئيلة جدًا لكن يثبت من القرآن والدلائل أنه لم يكن كلفًا كثيرًا بأزواجه وأولاده خاصة أنه لم يكن مولعًا قط بالزوجات ، وسبب ذلك فى الغالب أنه لم يكن يحترم النساء كما كان يجب ، فقد ورد قوله عن نفسه فى صحيح البخارى فى باب اللباس [2] : « نحن قوم لم نكن نعتبر النساء فى الجاهلية شيئًا مذكورًا وعندما نزل القرآن وجاء ذكر النساء فيه علمنا أنهن شىء مذكور لكنا لا ندعهن يتدخلن فى الأمور » . وفى الرواية ذاتها أنها عنف زوجته ذات مرة فردت عليه بالمثل فقال : أوقد انتهيت إلى هذا الحد فقالت : إن ابنتك أيضًا تتحدث هكذا وجهًا لوجه مع رسول الله - ﷺ - .

---

(١) انظر صحيح البخارى : ٥ / ٩٩ (المترجم) .

(٢) انظر : صحيح البخارى : ٧ / ١٩٦ - ١٩٧ (المترجم) .

كانت جميلة إحدى زوجات عمر وولدت له عاصمًا وكان عاصم لا يزال صغيرًا
٢٩٥ عندما طلقها لسبب من الأسباب فى أيام أبى بكر / وترك عمر قباء كما كان يقيم من قبل وجاء إلى المدينة ، وذات مرة ذهب إلى قباء مصادفة وكان عاصم يلعب مع الأطفال فصاح عليه عمر وأركبه على فرسه وأراد أن يأخذه معه ، وعلمت أم عاصم فحالت دونه بإباء وعزة وقالت : سوف أحتفظ بابنى عندى وطال النزاع فاستغاثت بأبى بكر فحكم ضد عمر فتركه مضطرًا وهذه الواقعة مذكورة فى موطأ مالك وغيره . ويبدو من هذه الأحداث أن حبه ورحمته وسلوكه مع النساء لم يكن بنفس درجة الأكابر الآخرين ولم يكن يحب أولاده وأسرته حبًا غير عادىٍّ ولا شك أنه كان يحب أخاه زيدًا حبًا حقيقيًا ولهذا اضطرب وحزن وبكى كثيرًا عندما استشهد فى حرب اليمامة وكان يقول : « إنى لأشتم رائحة زيد عندما تهب الرياح من اليمامة ، وعندما مثل بين يديه متمم بن نويرة شاعر الرثاء العربى المعروف قال له : « ارث زيدًا فلو أننى أستطيع أن أقول مثلك لقلت » .

المسكن :

كما ذكرنا فى الجزء الأول فقد هاجر عمر من مكة وجاء إلى « عوالى » وأقام بها وكانت على بعد ميلين من المدينة المنورة إلا أنه ترك الإقامة هناك تمامًا بعد الخلافة وأقام فى المدينة وكان البيت الذى يقيم فيه يتصل بالمسجد النبوى ويقع بين باب السلام وباب
٢٩٦ الرحمة ولهذا أوصى عند وفاته بأن يؤدى دينه بعد أن يباع البيت فاشتراه معاوية / وسدد الدين بثمنه ولهذا ظل هذا البيت فترة معروفًا باسم (دار القضاء) .

وسائل الرزق : التجارة

كانت التجارة هى الوسيلة الأساسية للرزق ولهذا جاء فى صحيح البخارى أنه اعتذر لغفلته « فى حديث الاستئذان »[٢] بقوله : كنت أحضر قليلاً إلى الرسول - ﷺ - بسب انشغالى بالبيع والشراء لكنه كان يظفر أحيانًا بالأموال بطريقة أخرى وقد ذكر

---

(١) خلاصة الوفا فى أخبار دار المصطفى (طبعة مصر) ص : ١٢٩ و ١٧٩ وحاشية موطأ الإمام محمد ص : ٢٧٢ (المؤلف) - موطأ الإمام محمد : ٢٠١ (المترجم) .
(٢) صحيح البخارى : ٤ / ٦٣ - ٦٤ (المترجم) .

القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج أن الرسول منح أبا بكر وعمر عقارين بعد أن وصل المدينة ولما فتح خيبر قسمها الرسول على جميع الصحابة الذين اشتركوا فى المعركة .

العقار :

وكانت الأرض التى جاءت من نصيب عمر اسمها « ثمغ » وكانت أرضًا خصبة ويذكر البلاذرى أن الرسول كتب أسماء جميع المنتفعين بخيبر فى كتاب . وأنه قد حصل على قطعة أرض من يهود بنى حارثة أيضًا كان اسمها « ثمغ » لكنه أوقف كلتا الأرضين فى سبيل الله [1] . وقد وردت واقعة أرض خيبر فى صحيح البخارى فى باب الشروط فى الوقف وكانت الشروط التى فى الوقف هى [2] : ألا تباع هذه الأرض ولا تعطى هبة ولا تورث وما يخرج منها يكون حقًّا للفقراء وذوى القربى والغلمان والمسافر والضيف .

الراتب :

بعد عدة سنوات من الخلافة طلب (عمر) راتبًا للنفقات الهامة ، وطبقًا لرأى الإمام علىّ فرض له راتب بالقدر الذى يكفى / للطعام واللباس العادى البسيط ، وفى سنة ١٥هـ عندما قررت الرواتب لجميع الناس فرض له خمسة آلاف درهم سنويًا مع كبار الصحابة . ٢٩٧

الزراعة :

من المعروف أن عمر اشتغل بالزراعة بمجرد أن وصل المدينة ، فكان يقسم الأرض ويعدها للزراعة ويجهز البذور بنفسه أحيانًا فى توفيرها ، وهذه الواقعة مذكورة بوضوح فى صحيح البخارى باب المزارعة .

الطعام :

كان طعامه كثير البساطة وعادة يكون على مائدته الخبز وزيت الزيتون ، والخبز

(١) خلاصة الوفا « ثمغ » (المؤلف) - خلاصة الوفا فى أخبار دار المصطفى : ٢ : ٢٧٣ (المترجم) .
(٢) صحيح البخارى : ٤ / ١٤ (المترجم) .

غالبًا من القمح إلا أن الدقيق كان غير مغربل وفى عام الرمادة حرم على نفسه أن تكون هذه الأشياء موجودة على المائدة وهى : اللحم وزيت الزيتون واللبن والخضراوات والخل ، وكان السفراء والضيوف الذين كانوا يأتون إليه يبحثون عن الطعام الجيد لأنه لم يكن لديه إلا طعام عادى بسيط .

اللباس :

أما ملبسه فكان بسيطًا عاديًا أيضًا وكان يرتدى فى الغالب قميصًا فقط ، وكان البرنس نوعًا من القلانس التى كان يرتديها رهبان النصارى وقد راجت سوقها فى المدينة المنورة أيضًا فكان عمر يستعملها أحيانًا وكان حذاؤه على شاكلة أحذية العرب وبه رباط .

البساطة وعدم التكلف :

وكان يعيش ببساطة وبلا تكلف ويوجد فى ملابسه كثير من الرقاع ، وتأخر فى المنزل مرة والناس ينتظرونه بالخارج فعلم أنه ليس هناك ملابس معدة للارتداء فغسل تلك الملابس وتركها لتجف ثم ارتداها وخرج .

٢٩٨ ولا ينبغى أن نفهم من جميع تلك الأمور أنه كان يفضل الرهبانية والتقشف / ونلتمس هذا من رأيه فى الرهبانية أنه ذات مرة جاء رجل كان قد عينه عاملاً على اليمن للقائه مرتديًا الملابس الفاخرة وقد طيب رأسه بالزيت ، فغضب عمر غضبًا شديدًا وخلع عنه هذه الملابس وألبسه ملابس خشنة فجاء فى المرة الثانية أشعث أغبر مرتديًا الملابس القديمة الممزقة فقال : « ليس هذا هو الهدف فلا ينبغى أن يظل الرجل أشعث الشعر ولا ينبغى أن يصفف شعره كما فعلت » . ونستخلص من هذا أنه كان لا يحبذ الزينة والشكليات غير اللائقة ولا يستحسن حياة الرهبان .

الحلية :

كان قمحى اللون ، فارع الطول وعندما كان يتوسط جمع من آلاف الناس يُرى وكأنه واقف ، غير ممتلئ الخدين وله لحية كثة وشوارب طويلة وقد زال الشعر من مقدمة رأسه(١) .

(١) ابن قتيبة : ١٨١ والمسعودى : التنبيه والإشراف : ٢٨٩ (المترجم) .

٢٩٩ وقد ذكر المؤرخون كل الأشياء الجديدة التى اخترعها عمر فى جميع الإدارات فى مكان واحد وعبروا عنها بكلمة « أولياته » [1] ولهذا ننهى سيرته بتفصيل أولياته المنسوبة إليه لأن البداية مرتبطة بالنهاية :

(١) أسس بيت المال (أى أقام الخزانة)
(٢) أنشأ المحاكم وعين القضاة .
(٣) أول من وضع التاريخ المعمول به حتى اليوم .
(٤) اختار لقب أمير المؤمنين .
(٥) دون الدواوين العسكرية .
(٦) فرض العطاء للمتطوعين .
(٧) أنشأ إدارة للمالية .
(٨) طبق نظام المساحة .
(٩) أجرى إحصاء للسكان .
(١٠) احتفر الأنهار .
(١١) اختط المدن كالكوفة والبصرة والجيزة والفسطاط والموصل .
(١٢) قسم البلاد المفتوحة إلى ولايات .
(١٣) قرر العشور (وقد سبق تفصيلها فى إدارة التحصيل) .
(١٤) فرض الضرائب على محصول البحر : مثل العنبر وغيره وعين المحصلين .
(١٥) سمح لتجار دار الحرب بالمجىء إلى الدولة والتجارة فيها .
(١٦) أقام السجون .
(١٧) استعمل الدرة .
(١٨) انتهج طريقة التجول فى الليل لمعرفة أحوال الرعية .
(١٩) أقام إدارة للشرطة .
(٢٠) أقام معسكرات الجيش فى كل مكان .

---

(١) أكثر الأوليات موجودة فى مكان واحد فى كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى وتاريخ الطبرى والباقى فى أماكن متفرقة (المؤلف) - الطبرى : ٤ / ٢٠٨ - ٢٠٩ والخراج : ١٢١ حتى ١٤٣ (المترجم) .

(٢١) فرق بين السلالات الأصلية والمجنسة فى الخيل والتى لم تكن معروفة بين العرب آنذاك .
(٢٢) عين الجواسيس .
٣٠٠ (٢٣) ابتنى الاستراحات لراحة المسافرين من المدينة المنورة حتى مكة /
(٢٤) فرض العطاء لتربية الأطفال اللقطاء ورعايتهم .
(٢٥) أنشأ دورًا للضيافة فى مختلف المدن .
(٢٦) أقر قانونًا بعدم استعباد العربى (ولو كان كافرًا) .
(٢٧) أجرى الأرزاق لفقراء اليهود والنصارى .
(٢٨) أقام المدارس والكتاتيب .
(٢٩) فرض الرواتب للمدرسين والمعلمين .
(٣٠) حمل أبا بكر على ترتيب القرآن وبإصراره تم هذا العمل تحت رعايته .
(٣١) أصل أصول القياس (فى استنباط المسائل الفقهية) .
(٣٢) اخترع « مسألة العول » فى الفرائض .
(٣٣) أضاف فى آذان الفجر « الصلاة خير من النوم » وهى مذكورة بالتفصيل فى موطأ مالك .
(٣٤) أقام صلاة التراويح فى جماعة .
(٣٥) جعل الطلقات الثلاث التى تتم معًا طلاقًا بائنًا .
(٣٦) قرر ثمانين جلدة لحد شرب الخمر .
(٣٧) قرر الزكاة على خيل التجارة .
(٣٨) فرض الزكاة على نصارى بنى تغلب بدلاً من الجزية .
(٣٩) أوجد طريقة الوقف .
٣٠١ (٤٠) جمع الناس على التكبيرات الأربع فى صلاة الجنازة / .
(٤١) سن طريقة الوعظ فى المساجد وبإذن منه وعظ تميم الدارى فكان أول واعظ فى الإسلام .
(٤٢) فرض العطاء للأئمة والمؤذنين .
(٤٣) نظم الإضاءة فى المساجد فى الليل .
(٤٤) أقام عقاب التنبيه على الهجاء (فى الشعر) .

(٤٥) منع ذكر اسم النساء فى شعر الغزل بالرغم من أن هذه الطريقة كانت سائدة عند العرب منذ قديم الزمان .

وله أوليات كثيرة غير ذلك ونتغاضى عنها هنا خوفًا من الإطالة .

الأزواج والأولاد

الزوجات :

تزوج عمر مرات عديدة فى الجاهلية والإسلام [١] فتزوج فى البداية من زينب ابنة عثمان بن مظعون ، وكان عثمان بن مظعون من الصحابة السابقين وكان ترتيبه الرابع عشر ممن اعتنق الإسلام وقد توفى فى العام الثانى للهجرة [٢] وحزن الرسول لوفاته حزنًا شديدًا حتى أنه كان يقبل جثته ويبكى ، كما كان قدامة الأخ الثانى لعثمان من بين كبار الصحابة وقد توفيت زينب فى مكة بعد أن أسلمت وولدت له عبد الله وحفصة [٣] .

وكانت الزوجة الثانية لعمر « قريبة بنت أبى أمية المخزومية » وهى أخت أم سلمة زوجة رسول الله الطاهرة وطلقها سنة ٦هـ بعد صلح الحديبية لأنها لم تعتنق الإسلام ولا يجوز الزواج من المرأة المشركة .

وكانت مليكة بنت جرول الخزاعى الزوجة الثالثة ويقال لها أم كلثوم أيضًا وطلقها سنة ٦هـ لأنها لم تعتنق الإسلام / وقد ولدت له عبيد الله . ٣٠٢

وقد كانت كل من زينب وقريبة من قبيلة قريش ومليكة من قبيلة خزاعة وعندما جاء إلى المدينة وتم التآخى مع الأنصار تزوج سنة ٧هـ من جميلة ابنة عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح وكان من كبار الأنصار وشهد غزوة بدر وكان اسم جميلة فى البداية عاصية وعندما أسلمت غير الرسول اسمها وسماها جميلة لكن عمر طلقها أيضًا لسبب من الأسباب .

وفكر عمر فى آخر الأمر أن تكون له صلة نسب بالأسرة النبوية ليتكسب مزيدًا من

---

(١) الطبرى : ٤ / ١٩٨ - ٢٠٠ (المترجم) .

(٢) المسعودى : مروج الذهب : ١ / ٣٣٣٠ (المترجم) .

(٣) يضيف الطبرى عبد الرحمن الأكبر إليهما . تاريخ الطبرى : ٤ / ١٩٨ (المترجم) .

البركة والشرف فطلب أم كلثوم من الإمام عليّ فرفض فى البداية بسبب صغر سن أم كلثوم لكن عندما أبدى عمر رغبته / الشديدة وقال إن قصدى من ذلك أن أنال الشرف فوافق عليّ وفى سنة ١٧هـ أصدقها أربعين ألفًا [١] .

٣٠٣

وكانت لعمر زوجات أخرى هى : أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومى وفكيهة اليمنية وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت عاتكة ابنة عم عمر وكانت متزوجة قبله من عبد الله بن أبى بكر وكان عبد الله كلفًا بها لأنها كانت فائقة الجمال واستشهد عبد الله فى غزوة الطائف فرثته عاتكة بمرثية مؤثرة منها هذا البيت :

فآليت لا تنفك عينى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا

وتزوجها عمر سنة ١٢هـ وشارك الإمام على فى وليمتها .

الأولاد الذكور (عبد الله بن عمر) :

كان لعمر أولاد كثيرون منهم حفصة وكان لها مكانة رفيعة لأنها كانت من زوجات

---

(١) ذكر جميع المؤرخين الثقات واقعة زواج أم كلثوم بالتفصيل . فقد ذكر كل من الطبرى فى التاريخ الكبير وابن حبان فى كتاب الثقات ، وابن قتيبة فى المعارف ، وابن الأثير فى الكامل بوضوح أن أم كلثوم بنت فاطمة الزهراء كانت زوجة لعمر ، وكانت هناك أم كلثوم أخرى زوجة له ، وقد فرق المؤرخون بينهما تفريقًا واضحًا وقد اطلعت بنفسى على آراء الطبرى وابن قتيبة وبعد الاطلاع عليهما أنقل فى هذا المكان العبارات الخاصة التى يمكن أن يستند عليها فى الأحداث التاريخية ، ففى كتاب الثقات لابن حبان فى أحداث سنة ١٧هـ ذكر خلافة عمر : « ثم تزوج عمر أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى من فاطمة ودخل بها فى شهر ذى القعدة » . وفى معارف ابن قتيبة عند ذكر أولاد عمر : « وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة بنت رسول الله - ﷺ » . (ابن قتيبة : المعارف : ١٨٥ (المترجم) . وقد ذكر ابن الأثير فى « أسد الغابة فى أحوال الصحابة » حادثة تزويج أم كلثوم بالتفصيل عند ذكر سيرة أم كلثوم . (أسد الغابة) ٧ / ٣٨٧ - ٣٨٨ (المترجم) .

وذكر الطبرى هذه الواقعة أيضًا ونتغاضى عن ذكرها خوفًا من الإطالة . (الطبرى : ٤ / ١٩٩) (المترجم) علاوة على هذا فقد ورد ذكر أم كلثوم فى أحد المواضع ضمنيًا فى صحيح البخارى وكانت مناسبتها عندما كان عمر يقسم الأردية على النساء ذات مرة وكان حذرًا مترددًا بالنسبة لها ولمن يعطها فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله - ﷺ - التى عندك يريدون أم كلثوم » . (صحيح البخارى باب الجهاد) وقد ورد فيه بوضوح أن أم كلثوم التى كانت زوجة عمر من الأسرة النبوية . (صحيح البخارى : ٤ / ٤٠ - ٤١ (المترجم) .

الرسول وقد تزوجها فى البداية خنيس بن حذافة وهو من الصحابة المهاجرين واستشهد خنيس فى غزوة أحد فتزوجها الرسول سنة ٣هـ وقد روت عنه كثيرًا من الأحاديث وروى الأحاديث عنها كثير من الصحابة وتوفيت سنة ٤٥هـ وعمرها ثلاثة وستون عامًا .

أما أسماء أولاده الذكور فهم : عبد الله وعبيد الله وعاصم وأبو شحمة عبد الرحمن وزيد ومجبر وكان الثلاثة الأول أكثرهم شهرة فيعتبر عبد الله من كبار علماء الفقه والحديث وروایاته ومسائله مذكورة بكثرة فى البخارى ومسلم وقد أسلم مع عمر فى مكة وظل مصاحبًا للرسول فى أكثر الغزوات [1] . وقد ذكر الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » سيرته بالتفصيل . / ونستطيع أن نقدر من ٣٠٤ تلك الروايات مدى علمه وتدينه وزهده علاوة على علمه وفضله فإنه لم يكن يخشى فى قول الحق لومة لائم .

كان الحجاج بن يوسف مرة يخطب فى الكعبة فوقف يخطب وقال : « إنه عدو الله لأنه قتل أحباب الله » فعين له الحجاج رجلاً لينتقم منه فجرحه بآله مسمومة وتوفى من جراء ذلك الجرح . وقد ذكر الذهبى أنه عندما تحول أمر علىّ ومعاوية للتحكيم كان الناس يأتون عبد الله ويقولون إن جميع المسلمين راضون بخلافتك فاستعد لنبايع على يديك فرفض وقال : أنا لا أريد شراء الخلافة بدماء المسلمين .

سالم بن عبد الله :

وكان سالم بن عبد الله يُعد من فقهاء المدينة المنورة السبعة الذين يعتمد عليهم فى الحديث والفقه وكان لا يجوز لقاض أن يحكم فى أمر بدون فتواهم ، وهذه أسماء الفقهاء الستة الباقين بالإضافة إلى سالم : خارجة بن زيد وعروة بن الزبير وسليمان بن يسار وعبيد الله بن عبد الله وسعيد بن المسيب وقاسم بن محمد .

وجدير بالذكر أن هناك سلسلتين للرواة أكثر ثقة عند جميع المحدثين ويطلق عليهما « سلسلة الذهب » فالأولى هى الحديث الذى يكون فى سلسلة روايته الإمام مالك ونافع وعبد الله بن عمر . والسلسلة الثانية هى الحديث الذى يكون فى سلسلة روايته الإمام

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف : ٢ / ٦٤٩ (المترجم) .

مالك ونافع وعبد الله بن عمر وهؤلاء كلهم من عائلة عمر عدا مالك والزهيرى ، فعبد الله كان ابنًا لعمر أما نافع وسالم فكلاهما كان من عبيده/ . ٣٠٥

عبيد الله : [١]

أما الابن الثانى لعمر فهو عبيدالله فقد كان مشهورًا بالشجاعة والمصارعة .

عاصم : [٢]

وكان ابنه الثالث عاصم عالمًا طاهر النفس وعندما توفى سنة ٧هـ رثاه عبد الله بن عمر وهذا بيت منه :

فليت المنايا كن خلفن عاصمًا فعشنا جميعًا أو ذهبن بنا معًا

وكان عاصم فارع الطول ضخم الجسم ماهرًا فى قرض الشعر الجيد وعلى حد قول مؤرخى الأدب « إن كل شاعر يضطر أن يستعمل بعضًا من الكلمات فى شعره وهو لا يقصد شيئًا منها ويستثنى من هذا عاصم » . وكان عمر بن عبد العزيز حفيده ، ويذكر ابن قتيبة فى كتاب « المعارف » أيضًا مسيرة أحفاد عمر لكننا نغض الطرف عنها للاختصار / . ٣٠٦

* * *

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف : ٢ / ٦٥٢ (المترجم) .

(٢) المرجع السابق : ٢ / ٦٥٤ (المترجم) .

الخاتمة

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

لقد كتبت سيرة عمر والأحداث المتعلقة بها بالتفصيل وراعيت أقصى درجات الدقة والأمانة فى التأليف التاريخى ، وبين أيديكم سير كبار العظماء والمشاهير الآخرين الذين عاشوا فى هذا العالم من قبل وأمامكم الآن كلا العلمين ولديكم الفرصة للرد على هذا السؤال وهو هل ظهر فى الدنيا كلها رجل بلغ مكانة عمر ؟

إن العارفين بدقائق قانون الطبيعة يعلمون أن الفضائل الإنسانية لها أنواع مختلفة وكل فضيلة لها طريقة منفصلة عن الأخرى ، فمن الممكن بل كثيرًا ما يحدث أن توجد فضيلة ما فى رجل ولا يكون له مثيل فى الدنيا بأسرها بسبب تلك الصفة ، لكن نصيبه يقل كثيرًا فى الفضائل الأخرى ، لقد كان الإسكندر أكبر فاتح لكنه لم يكن فيلسوفًا ، وكان أرسطو فيلسوفًا ولكنه لم يكن فاتحًا فمن الصعب أن تجتمع الفضائل العظيمة الكبرى فى رجل واحد ناهيك عن الفضائل الصغرى ، لقد مر علينا كثير من العظماء الذين كانوا أبطالاً ولكن لم يكونوا على خلق حسن ، وكثير منهم كان على خلق عظيم لكن لم يكونوا أهل حيلة وتدبير والبعض كانوا يتميزون بالصفتين جميعًا ولكن لم يكن لديهم نصيب من العلم والفضل .

٣٠٧ والآن القوا نظرة على سيرة عمر فى مختلف جوانبها فسيبدو جليًا لكم أنه / كان الإسكندر وأرسطو أيضًا وكان المسيح وسليمان حينًا ، كما أنه تيمور وأنوشيروان أيضًا وأنه الإمام أبو حنيفة وإبراهيم بن أدهم معًا .

خذوا أولاً صفة الحكم وفتح البلاد ، فجميع حكام العالم الذين ظهروا فى هذه الدنيا كان يختفى وراء كل واحد منهم شخص ما حكيم مشهور أو قائد للجيش فإذا زال ذلك الحكيم أو القائد مصادفة توقفت الفتوحات مرة واحدة أو أصيب هيكل نظام الحكم بالخلل .

لقد كان الإسكندر يسير فى كل موقع معتمدًا على نصائح أرسطو ، كما كان « أبو الفضل » وتودر مل « يعملان لأكبر خلف الستار وكانت عظمة العباسيين وازدهارهم بفضل البرامكة ، أما عمر فقد كان يعتمد فقط على قوة ساعده ، وعندما رأى الناس معارك خالد العجيبة اعتقدوا أن مفتاح النصر والفتح فى يديه ولما عزله عمر

لم يساور أحد شك بأن جزءًا فارق آلته ؟ وكان قد نشأ هذا النوع من الاعتقاد لدى الناس بالنسبة لسعد بن أبى وقاص فاتح إيران فعزله أيضًا ولم يحفل به أحد صحيح أن عمر نفسه لم يكن يقوم بكل الأعمال ولن يستطيع أن يقوم بها إلا أن الناس الذين كان يستعملهم لم يكن فيهم أحد لم يرتبط به ، وطريقته فى إدارة آلة الحكم هى أنه حينما شاء استبدل الجزء الذى أراده ووضعه فى مكان آخر ، أو أبعده تمامًا إذا اقتضت المصلحة
٣٠٨ وعند الحاجة صنع أجزاء أخرى جديدة / .

ولم يظهر فى العالم حاكم لم يتجاوز حدود العدل والإنصاف بسبب متطلبات الدولة وحاجياتها فأنو شيروان الذى يسلم به العالم رسولاً للعدل لم يبرأ طرفه من هذا العيب أيضًا ، وعلى عكس ذلك فلو بحثتم فى جميع وقائع حياة عمر فلا يمكن أن تجدوا مثالاً لهذا النوع من العيوب .

إن سلاطين العالم الآخرين المعروفين الذين ظهروا فى العالم ظهروا فى بلاد كانت قوانين الحكم وأصوله راسخة منذ زمن بعيد ولهذا فإن هؤلاء السلاطين لم يضطروا إلى إقامة أسس جديدة فكانوا يكتفون إما بالتنظيمات القديمة أو يضيفون عليها إضافات طفيفة وعلى عكس هذا فقد ولد عمر ولم يكن يعرف اسم تلك الأشياء ، بل إن عمر نفسه لم يكن يحلم بالحكم حتى بلغ أربعين عامًا ، لقد أمضى فجر شبابه فى رعى الإبل ومع ذلك فإن تأسيس دولة مترامية الأطراف بها جميع أشكال تنظيمات الدولة مثل : تقسيم المراكز والأقاليم وتنظيم التحصيل وإدارة التحصيل وإدارة العدل والجيش والحسبة والأعمال العامة والتعليم وتطوير إدارة الجيش إلى هذا الحد وتحديد قواعدها وقوانينها من غير عمر يمكنه أن يؤسس مثل هذه الدولة ؟

هل يمكنكم أن تقدموا لنا حاكمًا مثله فى تاريخ العالم ؟ قضى حياته بقميص به عشرات من الرقع وكان يحمل على كتفيه السقاية ويأتى بالماء إلى الفقيرات ويفترش
٣٠٩ التراب ويدور فى الأسواق وإذا خرج مشى / وحيدًا بمفرده وكان يدهن جسم الإبل بيديه ولم يعرف البلاط والنقيب والحاجب والخدم والحشم قط ومع هذا كله يصل فى هيبته إلى درجة أن العرب والعجم كانوا يرتعدون من اسمه وتتزلزل الأرض حينما اتجه . لقد كان تيمور والإسكندر يخرجان فى صحبة ثلاثين ألف جندى لكى تحصل لهم الهيبة ، بينما لم يكن مع الفاروق فى رحلة الشام سوى ناقة لركوبه ومع ذلك عم الضجيج أطراف الأرض الأربعة وكأن مركز العالم قد تحرك .

ولتلقوا الآن نظرة على المكانة العلمية وقارنوا بين اجتهادات عمر واجتهادات أولئك الناس من الصحابة الذين كانوا يعيشون فى هذه المهنة ليلاً ونهارًا وكانوا منقطعين لهذا العمل مثل : عبد الله بن عباس وزيد بن ثابت وأبى هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود فسيبدو جليًا الفرق بينهم كالفرق بين المقلد والمجتهد .

ولقد تطورت العلوم الإسلامية تطورًا هائلاً فى العصور التالية وظهر كبار الأئمة والمجتهدين مثل الإمام أبى حنيفة والشافعى والبخارى والغزالى والرازى فانظروا بعين العدل هل هؤلاء الناس أضافوا شيئًا جديدًا فى الأمور التى تحدث فيها عمر ؟ فالمعارك لا تزال محتدمة منذ فجر الإسلام وحتى الآن فى قضية القضاء والقدر وتعظيم شعائر الله ومكانة النبوة وأحكام الشريعة وكونها عقلية أم نقلية ودرجة الثقة فى الأحاديث وقابلية الحجة بخبر الآحاد وأحكام الخمس والغنيمة ولم يدخر الأئمة أى جهد فيما يتعلق بها ، لكن انظروا بعين العدل كيف حل عمر تلك المسائل / ٣١٠ وهل استطاعوا أن يتقدموه خطوة فى التحقيق ؟ إما أنهم قلدوه واحتذوا حذوه أو انحرفوا فارتكبوا خطأ علانية .

وانظروا من ناحية الأخلاق فمن تجدونه صنوا له غير الأنبياء ؟ لقد بلغت فيه أوصاف الزهد والقناعة والانكسار والتواضع والبساطة والاستقامة والعدل والصبر والرضا والشكر والتوكل درجة الكمال ، فهل كان من الممكن أن يوجد فى لقمان وإبراهيم بن أدهم وأبى بكر الشبلى ومعروف الكرخى صفات أكثر من هذه ؟ وقد وصف شاه ولى الله فضله (بأنه جامعة للفضائل والكمالات) وصفًا بليغًا نختم به كتابنا . يقول : « تصور أن صدر الفاروق الأعظم بمثابة دار لها العديد من الأبواب وقد تربع على كل باب منها واحد من أرباب الكمال والعظمة ، فعلى أحدها يجلس الإسكندر ذو القرنين بكل ما تميز به من مقدرات الفتح والغزو وإعداد الجيوش وقهر الخصوم والأعداء وعلى الثانى يجلس أنوشيروان بكل ما عهد فيه من الرفق واللين ومحبة الرعية وشدة العدل . وإن / كان ذكر أنو شيروان فى مجال إحصاء فضائل حضرة ٣١١ الفاروق إقلالاً لشأنه) وعلى باب آخر تربع الإمام أبو حنيفة أو الإمام مالك بكل تلك القدرة الفائقة فى علم الفتاوى والأحكام ، وعلى باب آخر يجلس مرشد مثل سيدى عبد القادر الجيلانى أو السيد بهاء الدين وعلى الباب الآخر محدث له شأنه مثل أبى هريرة وابن عمر وعلى باب آخر يقف حكيم مثل مولانا جلال الدين الرومى أو الشيخ فريد

الدين العطار بينما وقف الناس يحيطون بالدار من كل صوب وإذا بكل صاحب حاجة
٣١٢ يتقدم سائلاً حاجته إلى صاحب الفضل والكمال فيعود غانمًا موفقًا » / .

شبلى النعماني
كشمير فى ٥ يوليو ١٨٩٨م

الملاحق

ملحق (١) الآيات القرآنية التى وردت فى « الفاروق »

(١) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . (٣١/١)
[الحديد : ١ ، الحشر : ١ ، الصف : ١] .

(٢) ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . (٣٨/١) [الأنفال : ٥ - ٧] .

(٣) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . (٤١/١) [الأنفال : ٦٧] .

(٤) ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ . (٥٠/١) [الفتح : ١٨] .

(٥) ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ . (٥٢/١) [الفتح : ١] .

(٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .
(٥٣/١) [الممتحنة : ١٠] .

(٧) ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) هذه العلامة تعنى أن شبلى وقف بالآية عندها ولم يكملها .

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . (١/١١٦) [آل عمران : ١٤٠] .

(٨) ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ . (١/١١٨) [الدخان : ٢٥ - ٢٨] .
و ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ و(١/١٥٤) [الدخان : ٢٥]

(٩) ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . (١/١٢٨) [البقرة : ٢٤٩] .

(١٠) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ . (١/١٤١) [النساء : ١٧١ : ١٧٢] .

(١١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . (١/١٤٨) [التوبة : ١١١] .
(١٢) ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (١/١٦٣) [البقرة : ١٤٧] .

(١٣) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (ذكر شبلى الجزء الأخير فقط) (١/ ١٦٣) [الصافات : ١٠٢] .

(١٤) ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ . (٤٢/٢) [الحشر : ٨ ، ٩] .

(١٥) ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .
(٢ / ١٢٠) [البقرة : ٢٥٦] .

(١٦) ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .
(١٥٧/٢) [التوبة : ٦٠] (١٩٧/٢) .

(١٧) ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
(١٧١/٢) [النور : ٣٣] .

(١٨) ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ .
(٢١٠/٢) [النساء : ١٠١] .

(١٩) ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ (٢٢٢/٢) [الطلاق : ٦] .

(٢٠) ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢٣٦/٢) [الحشر : ٧] .

(٢١) ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
(٢٤٣/٢) [الأعراف : ٢٠٤] .

(٢٢) ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ . (٢٤٥/٢) [الأنفال : ٤١] و(٢٥١/٢) .

(٢٣) ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ .
(٢٤٦/٢) [التوبة : ٦٠] .

(٢٤) ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ . (٢٥١/٢) [الأنفال : ١] .

(٢٥) ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ .
(٤٢/٢) و (٢٥٢/٢) [الحشر : ٧ ، ٨ ، ١٠] .

(٢٦) ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .
(٢٥٣/٢) [الحشر : ٦] و (٢٥٧/٢) و(٢٥٥/٢) و (٢٥٦/٢) .

(٢٧) ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ . (٢٧٤/٢) [القصص : ٥] .

(٢٨) ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ .
(٢٧٤/٢) [الأنفال : ٢٨] .

(٢٩) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ (٢٧٧/٢) [التوبة : ٨٤] .

(٣٠) ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١٧٥/٢) [محمد : ٢٢] .

(٣١) ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢٧٩/٢) [طه : ١٣٢] .

(٣٢) ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ (٢٧٩/٢) [قريش : ٣] .

(٣٣) ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (٢٨٣/٢) [النصر : ١] .

(٣٤) ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾
(٢٨٣/٢) [البقرة : ٢٦٦] .

(٣٥) ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .
(٢٨٤/٢) [المائدة : ٩٣] .

(٣٦) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
(٢٨٤/٢) [المائدة : ٩٠] .

* * *

ملحـــق : الأحاديث النبوية التى وردت فى الفاروق

(١) حدثنا محمود بن غيلان قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا ابن جُريج قال أخبرنى نافع أن ابن عمر كان يقول : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس يُنادى لها فتكلموا يومًا فى ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم بل بوقًا مثل بوق اليهود فقال عمر أو لا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة فقال رسول الله - ﷺ - يا بلال قم فناد بالصلاة .

(صحيح البخارى : ١٥٧/١) الفاروق : ٣٦/١)

(٢) حدثنا هداب بن خالد الأزدى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد وثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقى فى الجنة فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله - ﷺ - لصحابيه ما أنصفنا أصحابنا .

(صحيح مسلم : ١٧٨/٥) الفاروق : ٤٣/١)

(٣) حدثنى شجاع بن الوليد سمع النضر بن محمد حدثنا صخر عن نافع قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار يأتى به ليقاتل عليه رسول الله - ﷺ - يبايع عند الشجرة وعمر لا يدرى بذلك فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر وعمر يستلئم للقتال فأخبره أن رسول الله - ﷺ - يبايع تحت الشجرة قال فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله - ﷺ .

(صحيح البخارى : ١٦٣/٥) الفاروق : ٥٠/١)

(٤) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الله بن نميرح وحدثنا ابن نمير (وتقاربا فى اللفظ) حدثنا عبد العزيز بن سياه حدثنا حبيب بن أبى ثابت عن أبى وائل قال قام سهل بن حنيف يوم صفين فقال أيها الناس اتهموا أنفسكم لقد كنا مع رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا وذلك فى الصلح الذى كان بين الرسول - ﷺ - وبين المشركين فجاء عمر بن الخطاب فأتى رسول الله - ﷺ - فقال يا رسول الله ألسنا

على حق وهم على باطل قال بلى قال أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار قال بلى قال ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم فقال يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا قال فانطلق عمر فلم يصبر متغيظًا فأتى أبا بكر فقال يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل قال بلى قال أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار قال بلى قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم فقال يا ابن الخطاب إنه رسول الله - ﷺ - ولن يضيعه الله أبدًا ، قال فنزل القرآن على رسول الله بالفتح فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه فقال يا رسول الله أوفتح هو قال نعم فطابت نفسه ورجع .

(صحيح مسلم : ١٧٥/٥) الفاروق : ٥٢/١)

(٥) حدثنا يحيى بن يحيى التميمى أخبرنا سليم بن أخضر عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر قال أصاب عمر أرضًا بخيبر فأتى النبى - ﷺ - يستأمره فيها فقال يا رسول الله إنى أصبت أرضًا بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندى منه فما تأمرنى به قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها قال فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب قال فتصدق عمر فى الفقراء وفى القربى وفى الرقاب وفى سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه قال فحدثت بهذا الحديث محمدًا فلما بلغت هذا المكان غير متمول فيه قال محمد غير متأثل مالاً قال ابن عون وأنبأنى من قرأ هذا الكتاب أن فيه غير متأثل مالاً .

(صحيح مسلم : ٧٣/٥ - ٧٤) الفاروق : ٥٤/١)

(٦) حدثنى أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن سرح أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب قال حدثنى كثير بن عباس بن عبد المطلب قال : قال عباس شهدت مع رسول الله - ﷺ - يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله - ﷺ - فلم نفارقه ورسول الله - ﷺ - على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله - ﷺ - يركض بغلته قبل الكفار قال عباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله - ﷺ - اكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - أى عباس ناد أصحاب السمرة فقال عباس (وكان رجلاً صيتًا) فقلت بأعلى صوتى أين

أصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار والدعوة فى الأنصار يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج فقالوا يا بنى الحارث بن الخزرج يا بنى الحارث بن الخزرج فنظر رسول الله - ﷺ - وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله - ﷺ - حين حمى الوطيس قال ثم أخذ رسول الله - ﷺ - حصيات فرمى بها وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حدهم قليلاً وأمرهم مدبرًا .

(صحيح مسلم : ١٦٦/٥ - ١٦٧) الفاروق : ٥٧/١)

(٧) حدثنا هارون بن عبد الله البزاز البغدادى أن الفضل بن دكين بن هاشم بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نتصدق ووافق ذلك عندى مالاً فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا قال فجئت بنصف مالى فقال رسول الله - ﷺ ما أبقيت لأهلك قلت مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك فقال أبقيت لهم الله ورسوله قلت لا أسبقه إلى شىء أبدًا . هذا حديث حسن صحيح .

(جامع الترمذى : ٢٠٨/٢) الفاروق : ٥٨/١)

(٨) حدثنى زهير بن حرب حدثنا عمر بن يونس الحنفى حدثنا عكرمة بن عمار عن سماك أبى زميل حدثنى عبد الله بن عباس حدثنى عمر بن الخطاب قال لما اعتزل نبى الله نساءه قال دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون طلق رسول الله - ﷺ - نساءه وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب فقال عمر فقلت لأعلمن ذلك اليوم فدخلت على عائشة فقلت أى بنت أبى بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله - ﷺ - فقالت مالى ومالك يا ابن الخطاب عليك بعيبتك قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها يا حفصة أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله - ﷺ - علمت أن رسول الله - ﷺ - لا يحبك ولولا أنا لطلقك رسول الله - ﷺ - فبكت أشد البكاء فقلت لها أين رسول الله - ﷺ - قالت هو فى خزانته فى المشربة فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله - ﷺ - قاعدًا على أسكفة المشربة مدل برجليه على نقير من خشب وهو جزع يرقى عليه رسول الله - ﷺ - وينحدر فناديت يا رباح استأذن لى عندك على

رسول الله - ﷺ - فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلىّ فلم يقل شيئًا ثم رفعت صوتى فقلت يا رباح استأذن لى عندك رسول الله - ﷺ - فإنى أظن أن رسول الله - ﷺ - ظن أنى جئت من أجل حفصة والله لئن أمرنى رسول الله - ﷺ - بضرب عنقها لأضربن عنقها ورفعت صوتى فأومأ إلىّ أن أرقه فدخلت على رسول الله - ﷺ وهو مضطجع على حصير فجلست فأدنى عليه ازاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثّر فى جنبه فنظرت ببصرى فى خزانة رسول الله - ﷺ - فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظا فى ناحية الغرفة وإذا أفيق معلق قال فابتدرت عيناى قال مايبكيك يا ابن الخطاب قلت يانبى الله ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثّر فى جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى قيصر وكسرى فى الثمار والأنهار وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك فقال يا ابن الخطاب ألا ترضَى أن تكون لك الآخرة ولهم الدنيا قلت بلى قال ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى فى وجهه الغضب فقلت يارسول الله مايشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنين معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى الذى أقوله ونزلت هذه الآية آية التخيير .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصه تظاهران على سائر نساء النبى ﷺ فقلت يارسول الله أطلقتهن قال لا قلت يارسول الله إنى دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون طلق رسول الله ﷺ نساءهُ أفأنزل فأخبرهم إنك لم تطلقهن قال نعم إن شئت فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى كشر فضحك وكان من أحسن الناس ثغرًا ثم نزل نبى الله ﷺ ونزلت فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشى على الأرض مايمسه بيده فقلت يارسولَ الله إنما كنت فى الغرفة تسعة وعشرين قال إن الشهر يكون تسعًا وعشرين فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله ﷺ نساءَهُ ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله عز وجل آية التخيير .

(صحيح مسلم : ٤/١٨٨ - ١٩٠ - الفاروق : ٥٨/١)

(٩) حدثنا يحى بن سليمان قال : حدثنى ابن وهب قال أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما اشتد بالنبى ﷺ وجعه قال ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده قال عمر إن النبى ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط قال قوموا عنى فلا ينبغى عندى التنازع فخرج ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - ﷺ وبين كتابه .
(صحيح البخارى : ٣٩/١) الفاروق : ٦١/١)

(١٠) حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس يوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله - ﷺ - وجعه فقال ائتونى أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع فقالوا : ما شأنه أهجر استفهموه فذهبوا يردون عليه فقال دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه وأوصاهم بثلاث قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة أو قال فأنسيتها .

(١١) حدثنا على بن عبد الله حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما حضر رسول الله - ﷺ - وفى البيت رجال فقال النبى هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده فقال بعضهم إن رسول الله قد بلغه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله قوموا . قال عبيد الله فكان يقول ابن عباس إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - ﷺ - وبين أن يكتب ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم . (صحيح البخارى : ١١/٦ - ١٢) الفاروق : ٦٢/١)

(١٢) حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس يوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله - ﷺ - وجعه فقال ائتونى أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع فقالوا : ما شأنه أهجر استفهموه فذهبوا يردون عليه فقال دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه وأوصاهم بثلاث قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة أو قال فأنسيتها .

(١٣) حدثنا على بن عبد الله حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما حضر رسول الله - ﷺ - وفى البيت رجال فقال النبى هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده فقال بعضهم إن رسول الله قد بلغه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله قوموا . قال عبيد الله فكان يقول ابن عباس إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - ﷺ - وبين أن يكتب ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم .

(صحيح البخارى : ٦/١١ - ١٢) الفاروق : ١/٦٢)

(١٤) حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد وأبو بكر بن أبى شيبة وعمرو الناقد « واللفظ لسعيد » قالوا حدثنا سفيان عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى بل دمعه الحصى فقلت يا ابن عباس وما يوم الخميس قال اشتد برسول الله (ﷺ) وجعه فقال ائتونى أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعدى فتنازعوا وما ينبغى عند نبى تنازع وقالوا ما شأنه أهجر استفهموه قال دعونى فالذى أنا فيه خيرًا وصيكم بثلاث أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم قال وسكت عن الثالثة أو قالها فأنسيتها .

(١٥) حدثنا اسحق عن إبراهيم أخبرنا وكيع عن مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال يوم الخميس وما يوم الخميس ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خديه كأنهما نظام اللؤلؤ قال : قال رسول الله - ﷺ - ائتونى بالكتف والدواة « أو اللوح والدواة » أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا فقالوا إن رسول الله - ﷺ - يهجر .

(١٦) وحدثنى محمد بن رافع وعبد بن حميد قال عبد أخبرنا وقال ابن رافع حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال لما حضر رسول الله - ﷺ - وفى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبى ﷺ - هلم أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده فقال عمر إن رسول الله - ﷺ - قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله - ﷺ - كتابًا لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر

فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - قوموا قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - ﷺ - وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم .
(صحيح مسلم (شرح النووى) : ٨٩/١١ ، ٩٣ - ٩٥ الفاروق : ٦٢/١)

(١٧) قال المازرى إن قيل كيف جاز للصحابة الاختلاف فى هذا الكتاب مع قوله - ﷺ - ائتونى أكتب وكيف عصوه فى أمره فالجواب أنه لا خلاف أن الأوامر تقارنها قرائن تنقلها من الندب إلى الوجوب عند من قال أصلها للندب ومن الوجوب إلى الندب عندما قال أصلها للوجوب وتنقل القرائن أيضًا صيغة أفعل إلى الإباحة وإلى التخيير وإلى غير ذلك من ضروب المعانى فلعله ظهر منه - ﷺ - من القرائن ما دل على أنه لم يوجب عليهم بل جعله إلى اختيارهم ، فاختلف اختيارهم بحسب اجتهادهم وهو دليل على رجوعهم إلى الاجتهاد فى الشرعيات فأدى عمر رضى الله عنه اجتهاده إلى الامتناع من هذا ولعله اعتقد أن ذلك صدر منه - ﷺ - من غير قصد جازم وهو المراد بقولهم هجر ويقول عمر غلب عليه الوجع وما قارنه من القرائن الدالة على ذلك على نحو ما يعهدونه من أصوله - ﷺ - فى تبليغ الشريعة وأنه يجرى مجرى غيره من طرق التبليغ المعتادة منه - ﷺ - فظهر ذلك لعمر دون غيره فخالفوه ولعل عمر خاف أن المنافقين قد يتطرقون إلى القدح فيما اشتهر من قواعد الإسلام وبلغه - ﷺ - الناس بكتاب يكتب فى خلوه وآحاد ويضيفون إليه شيئًا لشبهوا به على الذين فى قلوبهم مرض ولهذا قال عندكم القرآن حسبنا كتاب الله وقال القاضى عياض وقوله أهجر رسول الله - ﷺ - هكذا هو فى صحيح مسلم وغيره أهجر على الاستفهام هو أصح من رواية من روى هجر ويهجر لأن هذا كله لا يصح منه - ﷺ - لأن معنى هجر هذى وإنما جاء هذا من قائله استفهامًا للإنكار على من قال لا تكتبوا أى تتركوا أمر رسول الله - ﷺ - وتجعلوه كأمر من هجر فى كلامه لأنه - ﷺ - لا يهجر وإن صحت الروايات الأخرى كانت خطأ من قائلها بغير تحقيق بل لما أصابه من الحيرة والدهشة لعظيم ما شاهده من النبى - ﷺ - من هذه الحالة الدالة على وفاته وعظيم المصاب به وخوف الفتن والضلال بعده وأجرى الهجر مجرى شدة الوجع وقول عمر رضى الله عنه حسبنا كتاب الله رد على من نازعه لا على أمر النبى - ﷺ - والله أعلم .
(صحيح مسلم : (شرح النووى) ٩٢/١١) الفاروق : ٦٢/١)

تعليق على الحديث بلفظة « هجر »

أصح ما جاء فى هذا الحديث هو حديث ابن عباس :

١ - الحديث صحيح سندًا ومتنًا لا شك فى ذلك .

٢ - الحديث بروايتين عن ابن عباس كلاهما صحيحة والأولى بلفظ (أهجر) والثانية ليس فيها هذا اللفظ .

٣ - الحديث ورد أيضًا فى باب الجهاد بلفظ (هجر) دون استفهام بالهمزة .

٤ - فهم البعض خطأ أن معنى (هجر) = هذى وهذا معناها فى المعجم ، يقال هجر الرجل = هذى أو فحش .

٥ - تحدث القاضى عياض رحمه الله عن هذا الحديث ولخص مقولته الإمام القرطبى فى الآتى : -

أ - الراجح إثبات الهمزة للاستفهام فى الكلمة مع الفتح على أنها فعل ماضى ، على أن هناك قراءة أخرى لهذه الكلمة بسكون الجيم مع الاستفهام فتصبح « أَهَجْرًا » يعنى أنها مفعول مضمر أن قال هجرًا والهُجْر بالضم ثم السكون والمراد به الهذيان أو ما يقوله المريض ساعة الاحتضار .

ب - أن وقوع ذلك الفعل من النبى - ﷺ - وهو الذى « لا ينطق عن الهوى » أمر مستحيل لقوله - ﷺ - أيضًا إنى لا أقول فى الغضب والرضا إلا حقًا .

وعلى ذلك يكون الفعل قولاً ممن توقف عن الامتثال لأمر النبى - ﷺ - فى إحضار الورقة والدواة متعجبًا من عدم امتثاله وكأنه يقول (أهجرًا) !!؟ على سبيل التعجب . يعنى هل يهجر النبى ؟! والاستفهام هنا للاستنكار ، أو على نية المحذوف : « أنظن أنه يهجر هجرًا » .

٦ - يحتمل أن يكون الذى قال ذلك صدر عن دهشة وحيرة كما أصاب كثير منهم عند موته - ﷺ - .

٧ - يحتمل أن يكون الذى صدر عنه ذلك أراد أنه اشتد عليه وجعه فأطلق اللازم (الهجر) وأراد الملزوم (المرض) لأن الهذيان الذى يقع للمريض إنما ينشأ عن شدة الوجع .

٨ - يحتمل أن يكون الفعل (أهجر) بالاستفهام والفتح محمول على حذف المفعول به وهو (الحياة) والمراد بذلك أهجر الحياة . (المترجم)

(١٨) حدثنا يحى بن بكير حدثنا الليثى عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرنى أبو سلمة أن عائشة أخبرته أن أبا بكر رضى الله عنه أقبل على فرس فى مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله - ﷺ - وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبى أنت وأمى والله لا يجمع الله عليك موتتين . أما الموتة التى كُتبت عليك فقدمتها . قال الزهرى وحدثنى أبو سلمة عن عبد الله بن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال اجلس يا عمر فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر أما بعد من كان منكم يعبد محمدًا - ﷺ - « فإن محمدًا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت . قال الله : وما محمد إلا رسول قد خَلَت من قبله الرسل » . . إلى قوله « الشاكرين » . وقال عبد الله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها فأخبرنى سعيد بن المسيب أن عمر قال والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبى - ﷺ - قد مات .
(صحيح البخارى : ١٧/٦ = الفاروق : ٦٥/١)

(١٩) حدثنا اسحق بن عيسى الطباع حدثنا مالك بن أنس حدثنى ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن . عمر بن الخطاب قال : بلغنى أن قائلاً منكم يقول لو قد مات عمر بايعت فلانًا ، فلا يغترن امرؤ أن يقول أن بيعة أبى بكر كانت فلتة ، ألا وأنها كانت كذلك ، ألا وأن الله عز وجل وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر ، ألا وأن كان من خبرنا حين توفى رسول الله - ﷺ - وتخلفت عنا الأنصار بأجمعها فى سقيفة بنى ساعدة واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر ، فقلت له يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فانطلقا نؤمُهم حتى لقينا رجلان صالحان ، فذكر لنا الذى صنع القوم ، فقالا أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلت نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فقالا لا عليكم أن لا تقربوهم ، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين فقلت والله لنأتينهم ، فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة فإذا هم مجتمعون ، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت

من هذا فقالوا : سعد بن عُبادة ، فقلت ماله ؟ قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله ، وقال أما بعد فنحن أنصار الله عز وجل ، وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة منكم يريدون أن يخزلونا من أصلنا ويخصونا من الأمر ، فلما سكت أردت أن أتكلم ، وكنت قد زورت مقالة أعجبتنى أردت أن أقولها بين يدى أبى بكر وقد كنت أدارى منه بعض الحد ، وهو كان أحلم منى وأوقر ، فقال أبو بكر : على رسلك ، فكرهت أن أغضبه وكان أعلم منى وأوقر والله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا وقالها فى بديهته وأفضل حتى سكت ، فقال أما بعد ، فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ، ولما تعرف العرب هذا الأمر إن لهذا الحى من قريش ، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا . وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، أيهما شئتم ، وأخذ بيدى وبيد أبى عبيد ة بن الجراح ، فلم أكره مما قال غيرها وكان الله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك إلى إثم أحب إلىّ من أن أتآمر على قوم فيهم أبو بكر ، إلا أن تغير نفسى عند الموت ، فقال قائل من الأنصار منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرين ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم : قتلتم سعدًا ، فقلت : قتل الله سعدًا وقال عمر أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرًا أقوى من مبايعة أبى بكر .

(مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٢٣/١ - ٣٢٧ (حديث السقيفة) الفاروق : ٦٥/١)

(٢٠) حدثنى اسحق أخبرنا بشر بن شعيب بن أبى حمزة قال حدثنى أبى عن الزهرى قال أخبرنى عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تيب عليهم أن عبد الله بن عباس أخبره أن على بن أبى طالب رضى الله عنه خرج من عند رسول الله - ﷺ - فقال أصبح بحمد الله بارئًا فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له أنت والله بعد ثلاث عبد العصا وإنى والله لأرى رسول الله سوف يتوفى من وجعه هذا ، إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر ، إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا فقال علىّ إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وإنى والله لا أسألها رسول الله - ﷺ .

(صحيح البخارى : ١٤/٦ - ١٥) الفاروق : ٦٧/١)

(٢١) حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عند عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس قال كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف فبينما أنا فى منزله بمنى وهو عند عمر ابن الخطاب فى آخر حجة حجها إذ رجع إلىّ عبد الرحمن فقال لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال يا أمير المؤمنين هل لك فى فلان يقول لو قد مات عمر لقد بايعت فلانًا فو الله ما كانت بيعة أبى بكر إلا فلتة فتمت فغضب عمر ثم قال إنى إن شاء الله لَقَائم العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم قال عبد الرحمن فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغائهم فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم فى الناس وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنًا فيعى أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها فقال عمر أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة ، قال ابن عباس فقدمنا المدينة فى عقب ذى الحجة فلما كان يوم الجمعة عجلنا الرواح حين زاغت الشمس حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسًا إلى ركن المنبر فجلست حوله تمس ركبتى ركبته فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب فلما رأيته مقبلاً قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف فأنكر علىّ وقال ما عسيت أن يقول ما لم يقل قبله فجلس عمر على المنبر فلما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فإنى قائل لكم مقالة قد قدر لى أن أقولها ، لا أدرى لعلها بين يدى أجلى فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته ومن خشى أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب علىّ إن الله بعث محمد – ﷺ – بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها رجم رسول الله – ﷺ – ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل والله ما نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف ، ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم أو إن كفروا بكم أن ترغبوا عن آبائكم ألا ثم أن رسول الله – ﷺ – قال لا تطرونى كما أطرى عيسى بن مريم وقولوا عبد الله

ورسوله ثم أنه بلغني أن قائلاً منكم يقول والله لو مات عمر بايعت فلانًا فلا يغترن أمرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبى بكر فلتة وتمت ألا وإنها كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبى بكر من بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى بايعه تغره أن يقتلا وإنه قد كان من خبرنا حيت توفى الله نبيه - ﷺ - إلا أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم فى سقيفة بنى ساعدة ، وخالف عنا علىّ والزبير ومن معهما واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فقلت لأبى بكر يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار فانطلقنا نريدهم ، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان فذكر ما تمالى عليه القوم فقالا أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلنا نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا لا عليكم أن تقربوهم اقضوا أمركم فقلت والله لنأتينهم فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت من هذا ؟ فقالوا هذا سعد بن عبادة فقلت ماله ؟ قالوا يوعك فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم معشر المهاجرين رهط وقد دفت دافة من قومكم ، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحصنونا من الأمر فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت زورت مقالة أعجبتنى أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر وكنت أدارى منه بعض الحد فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك فكرهت أن أغضبه فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر والله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قال فى بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت ، فقال ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسبًا ودارًا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم فأخذ بيدى وبيد أبى عبيد ه بن الجراح وهو جالس بيننا فلم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك من اسم أحب إلى من أن أتآمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول إلى نفسى عند الموت شيئًا لا أجده الآن ، فقال قائل من الأنصار أنا جذيلها المحكك وغديقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش ، فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف ، فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم قتلتم سعد بن عبادة فقلت قتل الله سعد بن عبادة ، قال عمر وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبى بكر خشينا إن فارقنا

القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا فإما بايعناهم على ما لا نرضى وإما نخالفهم فيكون فساد ، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتبع هو ولا الذى بايعه تغره أن يقتلا .

(صحيح البخارى : ٢٠٨/٨ – ٢١٠) الفاروق : ١٤/٢)

(٢٢) حدثنا يحى بن حماد حدثنا شعبة عن محمد بن عبيد الله الثقفى :

عن عمرو بن الحارث ابن أخى المغيرة بن شعبة عن ناس من أهل حمص من أصحاب معاذ عن معاذ أن النبى – ﷺ – لما بعثه إلى اليمن قال أرأيت أن عرض لك قضاء كيف تقضى قال : أقضى بكتاب الله قال فإن لم يكن فى كتاب الله قال فبسنة رسول الله – ﷺ – قال فإن لم يكن فى سنة رسول الله – ﷺ – قال أجتهد رأيى ولا آلو قال فضرب صدره ثم قال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله – ﷺ . (مسند الدارمى : ٦٠/١ = الفاروق : ٦٤/٢)

(٢٣) حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب حدثنا خالد بن الحارث حدثنا سفيان حدثنا واصل الأحدب عن أبى وائل قال جئت إلى شيبة وحدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن واصل عن أبى وائل قال جلست مع شيبة على الكرسى فى الكعبة فقال لقد جلس هذا المجلس عمر رضى الله عنه فقال لقد هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته قلت إن صاحبيك لم يفعلا قال هما المرآن اقتدى بهما .

(صحيح البخارى : ١٨٣/٢) الفاروق : ١٩٢/٢)

(٢٤) حدثنا يحى بن يحى التميمى قال قرأت على مالك عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرع لقيه أهل الأجناد أبو عبيد ة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام قال ابن عباس فقال عمر ادع لى المهاجرين الأولين فدعوتهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله – ﷺ – ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء فقال ارتفعوا عنى ثم قال ادع لى الأنصار فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين

واختلفوا كاختلافهم فقال ارتفعوا عنى ثم قال ادع لى من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجره الفتح فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان فقالوا نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر فاصبحوا عليه فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارًا من قدر الله فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيد ة وكان عمر يكره خلافه نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديًا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة دعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا فى بعض حاجته فقال إن عندى من هذا علمًا سمعت رسول الله - ﷺ - يقول إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه قال فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف .

(صحيح مسلم : ٢٩/٧ - ٣٠ والبخارى : ١٨٦/٧) الفاروق : ٢٠٧/٢)

(٢٥) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب وزهير بن حرب واسحق بن إبراهيم قال اسحق أخبرنا وقال الآخرون حدثنا عبد الله بن إدريس عن ابن جريج عن ابن أبى عمار عن عبد الله بن بابيه عن يعلى بن أميه قال قلت لعمر بن الخطاب ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقد آمن الناس فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته .

(صحيح مسلم : ١٤٣/٢ = الفاروق : ٢١٠/٢)

(٢٦) حدثنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا محمد بن جعفر قال أخبرنى زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للركن أما والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت النبى - ﷺ - استلمك ما استلمتك فاستلمه ثم قال : فما لنا وللرمل إنما كنا رأينا به المشركين وقد أهلكهم الله ثم قال شىء صنعه النبى - ﷺ - فلا نحب أن نتركه .

(صحيح البخارى : ١٨٥/٢) الفاروق : ٢١١/٢)

(٢٧) حدثنا أبو كامل فضيل بن حسين الجحدرى حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الجريرى عن أبى الطفيل قال قلت لابن عباس أرأيت هذا الرمل بالبيت ثلاثة

أطواف ومشى أربعة أطواف أسنة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنه قال فقال صدقوا وكذبوا قال قلت ما قولك صدقوا وكذبوا قال إن رسول الله - ﷺ - قدم مكة فقال المشركون إن محمدًا وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال وكانوا يحسدونه قال فأمرهم رسول الله - ﷺ - أن يرملوا ثلاثًا ويمشوا أربعًا قال : قلت له أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكبًا أسنة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة قال صدقوا وكذبوا قلت وما قولك صدقوا وكذبوا قال إن رسول الله - ﷺ - كثر عليه الناس يقولون هذا محمد هذا محمد حتى خرج العوائق من البيوت قال وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه فلما كثر عليه ركب والمشى والسعى أفضل .

(صحيح مسلم : ٦٤/٤) الفاروق : ٢١١/٢)

(٢٨) حدثنا حسين بن حريث أبو عمار حدثنا الفضل بن موسى أخبرنا طلحة بن يحى بن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى قال جاء أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فقال السلام عليكم هذا عبد الله بن قيس فلم يأذن له فقال السلام عليكم هذا أبو موسى السلام عليكم هذا الأشعرى ، ثم انصرف فقال ردوا علىّ ردوا علىّ فجاء فقال يا أبا موسى ما ردك كما فى شغل قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع قال لتأتينى على هذا بينة وإلا فعلت وفعلت فذهب أبو موسى قال عمر إن وجد بينه تجدوه عند المنبر عشية وإن لم يجد ببينة فلم تجدوه فلما أن جاء بالعشى وجدوه قال يا أبو موسى ما تقول أقد وجدت قال نعم أبى بن كعب قال عدل قال يا أبا الطفيل ما يقول هذا قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ذلك يا ابن الخطاب فلا تكونن عذابًا على أصحاب رسول الله - ﷺ - قال سبحان الله إنما سمعت شيئًا فأحببت أن أثبت .

(صحيح مسلم : ١٧٩/٦ - ١٨٠ = الفاروق : ٢٢٢/٢)

أيضًا : (صحيح البخارى : كتاب الاستئذان ٦٢/٨ - ٦٨)

(٢٩) حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر إنه من حيث علمتم فدعا ذات يوم فأدخله معهم فما ربت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم . قال ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا

وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا ، فقال لى أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا ، قال فما تقول ؟ قال هو أجل رسول الله - ﷺ - أعلمه له ، قال إذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا ، فقال ما أعلم منها إلا ما تقول . (صحيح البخارى : ٢٢٠/٦ - ٢٢١) الفاروق : ٢٢٩/٢)

(٣٠) حدثنا يحى بن سعيد أنا سألته حدثنا هشام حدثنا قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة : أن عمر خطب يوم جمعة فذكر نبى الله - ﷺ - وذكر أبا بكر ، وقال : إنى قد رأيت كأن ديكًا قد نقرنى نقرتين ، ولا أراه إلا لحضور أجلى ، وإن أقوامًا يأمروننى أن أستخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته والذى بعث به نبيه - ﷺ - فإن عجل بى أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، وإنى علمت أن أقوامًا سيطعنون فى هذا الأمر ، أنا ضربتهم بيدى هذه على الإسلام ، فإن فعلوا فأولئك أعداء الله الكفرة الضلال ، وإنى لا أدع بعدى شيئًا أهم إلىّ من الكلالة ، وما أغلظ لى رسول الله - ﷺ - فى شىء منذ صاحبته ما أغلظ فى الكلالة ، وما راجعته فى شىء ما راجعته فى الكلالة ، حتى طعن بإصبعه فى صدرى ، وقال : يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء ؟ فإن أعش أقضى فيها قضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن ، ثم قال : اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ، فإنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم - ﷺ - ويقسموا فيهم فيئهم ويعدلوا عليهم ويرفعوا إلىّ ما أشكل عليهم من أمرهم ، أيها الناس ، إنكم تأكلون من شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، لقد رأيت رسول الله - ﷺ - إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخذ بيده فأخرج إلى البقيع ومن أكلهما فليمتهما طبخًا .

(مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٨٦/١ - ١٨٧ = الفاروق : ٢٣٢/٢)

(٣١) وحدثنى عن مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أن عبد الله بن عمر ابن الحضرمى جاء بغلام له إلى عمر بن الخطاب فقال له اقطع يد غلامى هذا فإنه سرق فقال له عمر وماذا سرق ؟ فقال : سرق مرآة لامرأتى ثمنها ستون درهمًا ، فقال عمر أرسله فليس عليه قطع ، خادمكم سرق متاعكم .
(موطأ الإمام مالك : ٧٢٧ = الفاروق : ٢٤٤/٢)

(٣٢) حدثنا إسماعيل بن أبان أخبرنا ابن المبارك عن يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة أن النبى - ﷺ - قال : لا نورث ما تركناه صدقة .

حدثنا يحى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرنى مالك بن أوس ابن الحدثان وكان محمد بن جبير بن مطعم ذكر لى من حديثه ذلك فانطلقت حتى دخلت عليه فسألته فقال انطلقت حتى أدخل على عمر فأتاه حاجبه يرفأ فقال هل لك فى عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد قال نعم فأذن لهم ثم قال هل لك فى على والعباس قال نعم قال عباس يا أمير المؤمنين أقضى بينى وبين هذا قال أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله - ﷺ - قال لا نورث ما تركناه صدقة ، يريد رسول الله - ﷺ - نفسه فقال الرهط قد قال ذلك فأقبل على علىّ وعباس فقال هل تعلمان أن رسول الله - ﷺ - قال ذلك قال عمر فإنى أحدثكم عن هذا الأمر أن الله قد كان خص رسوله - ﷺ - فى هذا الفيئ بشىء لم يعطه أحدًا غيره فقال عز وجل : ﴿ ما أفاء الله على رسول . . إلى قوله قدير ﴾ فكانت خالصة لرسول الله - ﷺ - والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقى منها هذا المال فكان النبى - ﷺ - ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته ثم يأخذ ما بقى فيجعله مجعل مال الله فعمل بذلك رسول الله - ﷺ - حياته أنشدكم بالله هل تعلمون ذلك قالوا نعم ثم قال لعلىّ وعباس أنشدكما بالله هل تعلمان ذلك قالا نعم فتوفى الله نبيه فقال أبو بكر أنا ولى رسول الله - ﷺ - فقبضها فعمل بما عمل به رسول الله - ﷺ - ثم توفى الله أبا بكر فقلت أنا ولى ولى رسول الله - ﷺ - فقبضتها سنتين أعمل فيها ما عمل رسول الله - ﷺ - وأبو بكر ثم جئتمانى وكلمتكما واحدة وأمركما جميع جئتنى تسألنى نصيبك من ابن أخيك وأتانى هذا يسألنى نصيب امرأته من أبيها ، فقلت إن شئتما دفعتها إليكما بذلك فتلتمسان منى قضاء غير ذلك فو الله الذى بإذنه تقوم السموات والأرض لا أقضى فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما فإدفعاها إلىّ فأنا أكفيكماها .

(صحيح البخارى : ١٨٥/٨ - ١٨٦ = الفاروق : ٢٥٧/٢) ٩٧/٤ - ٩٨

(٣٣) أخبرنا محمد بن العلاء أخبرنا ابن نمير عن مجالد عن عامر عن جابر عن عمر بن الخطاب أتى رسول الله - ﷺ - بنسخة من التوراة فقال يا رسول الله هذه نسخة من التوراة فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير فقال أبو بكر ثكلتك

الثواكل ما ترى بوجه رسول الله – ﷺ – فنظر عمر إلى وجه رسول الله – ﷺ – فقال أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبينا فقال رسول الله – ﷺ – والذى نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم عن سواء السبيل ولو كان حيًا وأدرك نبوتى لاتبعنى .
(مسند الدرامى : ١/١١٥ – ١١٦ = الفاروق : ٢/٢٧٣)

(٣٤) حدثنا عبد الله بن أبى شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عمر رضى الله عنه سألهم عن قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ قالوا : فتح المدائن والقصور ، قال ما تقوله يا ابن عباس ؟ قال أجل أو مثل ضرب لمحمد – ﷺ – نعيت له نفسه قوله فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا ، تواب على العباد والتواب من الناس التائب عن الذنب .
(صحيح البخارى : ٦/٢٢٠) الفاروق : ٢/٢٨٣)

(٣٥) حدثنا يحى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن فاطمة عليها السلام بنت النبى (ﷺ) أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من رسول الله – ﷺ – مما أفاد الله عليه بالمدينة وفدك وما بقى من خمس خيبر فقال أبو بكر إن رسول الله – ﷺ – قال لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد – ﷺ – من هذا المال وإنى والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله – ﷺ – عن حالها التى كان عليها فى عهد رسول الله – ﷺ – ولأعملن فيها بما عمل رسول الله – ﷺ – فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئًا فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد النبى ستة أشهر فلما توفيت دفنها زوجها علىّ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها وكان لعلى من الناس وجه حياة فاطمة فلما توفيت استنكر علىّ وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته ولم يكن يبايع تلك الأشهر فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك كراهية لمحضر عمر فقال عمر لا والله لا تدخل عليهم وحدك ، فقال أبو بكر وما عسيتهم أن يفعلوا بى والله لآتينهم فدخل عليهم » .

(صحيح البخارى : ٥/١٧٧ – ١٧٨ . صحيح مسلم : ٥/١٥٣ – ١٥٤ = الفاروق : ٢/٢٩٠) و ٤/٩٧ – ٩٨ صحيح مسلم بشرح النووى : ١٢/٧٦ . كنز العمال : ٥/٣٥١

(٣٦) حدثنى اسحق بن إبراهيم أخبرنا عبد الله بن إدريس قال سمعت حصين بن عبد الرحمن بن سعد عن عبيد ة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على رضى الله عنه قال بعثنى رسول الله - ﷺ - وأبا مرثد والزبير وكلنا فارس ، قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا الكتاب فقالت ما معنا كتاب فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابًا فقلنا ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لتخرجن الكتاب أو لنجردنك فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر يا رسول الله (ﷺ) قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضربن عنقه فقال النبى - ﷺ - ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب والله ما بى أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله ، أردت أن يكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى وليس أحد من أصحابك إلا له هناك عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال النبى - ﷺ - صدق ولا تقولوا له إلاّ خيرًا فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه فقال أليس من أهل بدر فقال لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم .

(صحيح البخارى : ٩٩/٥) الفاروق : ٢٩٤/٢)

(٣٧) حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن يحى بن سعيد عن عبيد بن حنين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لبثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبى - ﷺ - فجعلت أهابه فنزل يومًا منزلاً فدخل الآراك فلما خرج سألته فقال عائشة وحفصة ، ثم كنا فى الجاهلية لا نعد النساء شيئًا فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقًّا من غير أن ندخلهن فى شىء من أمورنا وكان بينى وبين امرأتى كلام فأغلظت لى فقلت لها وإنك لهناك ، قالت تقول هذا لى وابنتك تؤذى النبى - ﷺ - فأتيت حفصة فقلت لها إنى أحذرك أن تعصى الله ورسوله وتقدمت إليها فى أذاه ، فأتيت أم سلمة فقلت لها فقالت أعجب منك يا عمر قد دخلت فى أمورنا فلم يبق إلا أن تدخل بين رسول الله - ﷺ - وأزواجه فرددت . وكان رجل من الأنصار إذا غاب عن رسول الله - ﷺ وشهدته أتيته بما يكون وإذا غبت عن رسول الله - ﷺ - قد استقام له فلم يبق إلا ملك غسان بالشام كنا نخاف أن يأتينا ، فما

شعرت إلا بالأنصارى وهو يقول : إنه قد حدث أمر قلت له وما هو أجاء الغسانى ؟ قال أعظم فى ذلك طلق رسول الله - ﷺ - نساءه فجئت فإذا بالبكاء من حجرها كلها وإذا النبى - ﷺ - قد صعد فى مشربة له وعلى باب المشربة وصيف فأتيته فقلت استأذن لى فدخلت فإذا النبى - ﷺ - على حصير قد أثر فى جنبه وتحت رأسه مرفقه من أدم حشوها ليف وإذا أهب معلقة وقرظ فذكرت الذى قلت لحفصة وأم سلمة والذى ردت علىّ أم سلمة فضحك رسول الله - ﷺ - فلبث تسعًا وعشرين ليلة ثم نزل .

(صحيح البخارى : ١٩٦/٧ - ١٩٧ = الفاروق : ٢٩٥/٢)

(٣٨) حدثنا اسحق عن إبراهيم أخبرنا جرير عن المغيرة عن الشعبى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال غزوت مع رسول الله - ﷺ - قال فتلاحق بى النبى - ﷺ - وأنا على ناضح لنا قد أعيا فلا يكاد يسير ، فقال لى ما لبعيرك قال قلت عيى قال فتخلف رسول الله - ﷺ - فزجره ودعا له فما زال بين يدى الإبل قدامها يسير فقال لى كيف ترى بعيرك قال قلت بخير قد أصابته بركتك قال أفتبيعيه قال فاستحيت ولم يكن لنا ناضح غيره ، قال فقلت نعم قال فبعنيه فبعته إياه على أن لى فقار ظهره حتى أبلغ المدينة قال فقلت يا رسول الله إنى عروس فاستأذنته فأذن لى فتقدمت الناس إلى المدينة حتى أتيت المدينة فلقينى خالى فسألنى عن البعير فأخبرته بما صنعت فيه فلامنى ، قال وقد كان رسول الله - ﷺ - قال لى حين استأذنته هل تزوجت بكرًا أم ثيبًا فقال هلا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك قلت يا رسول الله توفى والدى أو استشهد ولى أخوات صغار فكرهت أن أتزوج مثلهن فلا تؤدبهن ولا تقوم عليهن ، فتزوجت ثيبًا لتقوم عليهن وتؤدبهن قال فلما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة غدوت عليه بالبعير فأعطانى ثمنه ورده علىّ ، قال المغيرة هذا فى قضائنا حسن لا نرى به بأسًا .

(صحيح البخارى : ٦٣/٤ - ٦٤ = الفاروق : ٢٩٧/٢)

(٣٩) حدثنا مسدد حدثنا يزيد بن زريع حدثنا ابن عون عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال أصاب عمر بخيبر أرضًا ، فأتى النبى - ﷺ - فقال أصبت أرضًا لم أصب مالاً قط أنفس منه فكيف تأمرنى به ، قال إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث فى الفقراء والقربى والرقاب

وفى سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه .
(صحيح البخارى : ١٤/٤ وصحيح مسلم (شرح النووي) : ٨٦/١١ =
الفاروق : ٢٩٧/٢)

(٤٠) حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله أخبرنا يونس عن ابن شهاب قال ثعلبة بن أبى مالك إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسم مروطًا بين نساء من نساء المدينة فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده يا أمير المؤمنين اعط هذا ابنة رسول الله - ﷺ - التى عندك يريدون أم كلثوم بنت على فقال عمر أم سليط أحق ، وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله - ﷺ - قال عمر فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد ، قال أبو عبد الله تزفر تخيط .
(صحيح البخارى : ٤٠/٤ - ٤١ = الفاروق : ٣٠٣/٢)

* * *

الفهارس

فهرس الموضوعات

فهرس موضوعات « الفاروق » الجزء الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الموضوعات « الفاروق » الجزء الثانى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت: بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- *التنوع البشرى الخلاق*	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ترباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف اليمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى آنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوچية	ديڤيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نحبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزُرْج علوى	ت:علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتز أبزاهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمزى وآخرون	ت:ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخزى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفسلفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصار
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك، ز. روفشوف	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيث سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٥٥٧٠

الترقيم الدولى (I.S.B.N. 977 - 305 - 261 - 2)

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٣٣٨٢٤٠ - ٣٣٨٢٤١ - ٠١١/٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com